من أسرار القرآن والكون والإنسان

mngool.com

أسرار الكون في القرآن

الدكتور داود سلمان السعدي
اختصاصي الأمراض الباطنية

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٦٤٨٠ - ١١٣
بيروت - لبنان

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ . . . ﴾

[البقرة: ٢٣]

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

[الإسراء: ٨٨]

الإهـــداء

إلى

إنعام

وأيسر وسحر وبان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تصدير

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على خاتم الأنبياء والمُرسَلين محمَّد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

أحمدُ الله العظيم الذي أَمَدَّني بعونه، ووفَّقني إلى إنجاز هذا العمل الشاق، قياماً ببعض الدَّيْن المُلقَى عليّ تجاه كتابه الكريم، وتبياناً لأسرار آياته الكونية المعجزة في كتابه الكريم الذي لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تُكشَفُ الظّلمات إلاّ به، وسدّاً لِما قد رأيتُه من حاجةٍ مُلحَّةٍ إلى نظرةٍ عميقةٍ متبصّرة في آياته الكونية، وبما يواكب ما ترسَّخَ من حقائق العلم الحديث التي هدانا إليها بفضله ومنَّتهِ.

إن النظر والتّفكّر في ملكوت السماواتِ والأرض وما خَلَقَ الله فريضةٌ على كل إنسان، لأنه، وبِنَصّ القرآن، يؤدي إلى الإيمان بالله تعالى. أي إنّ ترك هذا النظر يؤدي إلى الكفر به تعالى، وعليه فإن الكافر يكون مُقصِّراً ومُستحقّاً للعقاب لأن الله قد بيَّن له الدليل القاطع فأعرض عنه وأبى أن ينظر فيه.

ولئن دعانا المولى سبحانه إلى النظر والتفكّر في آياته الكونية، ومع التقدم العلمي الكبير في عصرنا الحاضر، فإنّه لا يصحّ لنا القعود عن محاولة فهم الآيات القرآنية الكونية واستكناه أسرارها المعجزة، بل ولا بدّ لنا من ذلك كما قد رأينا. ولا بدّ من بذل غاية الوسع في دراسةٍ عميقة لها من خلال استيعاب حقائقها باستخدام الاستدلال القرآني الكوني الذي يتمثّل فيه المنهج العلمي الذي يقوم على الاستقراء والاستنتاج العقلي، وبالاستناد إلى حديث رسوله الكريم وما ترسَّخَ من حقائق العلم

الحديث، فكان لا بدّ أن تجيءَ هذه الدراسة أعمق وأوسع ما تكون لِجلاء ما غمَضَ من معاني الآيات الكريمة، وللكشف عن أسرارها المعجزة، ضمن نظرةٍ شاملةٍ متكاملة إلى الكون والحياة، من خلال كتاب الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه وتأتلفُ أشدَّ ائتلافٍ مع ما هو في حكم المُتَيَـقَّن من معارف العصر الحديث، آياتٍ على بديع صنع الخالق البارىء، وعظيم قدرته، وواسع كرمه وفضله، وهو ما يؤدّي إلى أن يعمّق من إيمان كل فردٍ منا، حتى نعبده حقَّ عبادته، متوزّعين على الدوام بين الخوف منه والطمع في رحمته.

* * *

ويسألُ سائل:

- ما هي السماواتُ السبع؟ وهل إنّها سبعٌ حقّاً، أم إن رقم السبعة يشير إلى الكثرة وحسب ـ وهو ما قد ذهب إليه بعض الباحثين؟

سوف نوضّح، في هذا الكتاب، حقيقة وجود السماوات السبع، وماهيّتها، وسنبرهن على أنها سبعٌ فعلاً.

- وأين هي السماوات السبع في هذا الكون الكبير الذي قد عرفناه؟
- وما هي السماءُ الدنيا؟
- وما السماوات العُلى؟
- وما هي المعاني الأخرى لِـ«السماء» و«السماوات»؟
- وما هو ذلك الذي بين السماوات والأرض، ممّا قد أشار إليه تعالى في قوله:
- ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؟

والسبعُ الطِّباق، والطرائقُ السبع، والسبعُ الشِّداد، ما شأنُها؟ وما هي حقيقةُ أمرها؟

- وما هي الأَرَضون السبع التي جاء ذكرها في حديث رسول الله (ص)، وأين هي ممّا نعرفه اليوم من الكون الكبير؟
- وما هي العلاقةُ المعجزة بين «السَّبح» و«التسبيح»، مِن قانونٍ كونيٍّ عامّ؟

- وما هي معجزات رقم «السبعة» في خَلق الله؟ وما هي دلالاتُها؟
- واسم الله تعالى، أين هو في اللغات القديمة غير العربية، والمصادر اليهودية والمسيحية؟

***

ذلك كلُّهُ، وغيرُه كثير، مِن أسئلةٍ لا يفتأُ يسألُها القارىءُ لكتاب الله، باحثاً عن أجوبةٍ لها، قد أقحمني لُجّةَ البحث المُعَنّي في محاولةِ الوصول إلى أجوبةٍ على هذه الأسئلة. وكان عوني ومصدري الأول في ذلك هو كتابُ الله تعالى نفسُه، والحديث الشريف، لأن القرآن يفسّرُ بعضُه بعضاً، ولا بدّ أن يكون تفسير معنى كلِّ آيةٍ متوافقاً التوافق كلّه مع معاني الآيات الأخرى، وحديث رسوله الكريم. واعتمدتُ بعد ذلك على أقوال أئمة الإسلام وعلمائهم في اللغة والتفسير، ومن دون إغفالٍ للإشارة إلى ما جاء في كتب اليهودية والمسيحية وغيرهما، حتى يتحقّق الغرض من المقارنة عند الضرورة. وكان لا بدّ، وفي الوقت نفسه، من غوصةٍ ضاربةٍ عميقةٍ في مَظانّ علم الفلك الوثيقة، من دون أن تغفل تاريخه أو أن يفوتها شيءٌ من حقائقه الراسخة المهمة، وتستخلصُ من مواضيعه ما نحن بصدده في تفسير معاني الآيات القرآنية الكونية لاستبطان حقائق الكون والحياة، فكان أن شرعتُ بوضع كتابي الآخر «هذا الكون العجيب من الذرّة إلى المجرة» الذي أرجو أن أوفق إلى إنجازه قريباً، حتى يكون مُرافقاً لكتابي الذي بين يديك، وكتاب «القيامة بين العلم والقرآن» الذي يبرهن على التوافق المدهش والمُعجِز ما بين العلم والقرآن في قيام القيامة.

ولا أنسى، قبل أن أطَرِحَ القلم، كما لا ينسى كلُّ مسلمٍ في اجتهاده أن يفهم ويفسّر معاني آيات كتاب الله أن يقول إن الله تعالى أعلمُ بمُراده.

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، واغفر لنا وارحمنا، وتَقبّل عملنا هذا، واْجعله خالصاً لوجهك الكريم، وانفع اللهم به الإسلام والمسلمين.

الشارقة

٧ شوال ١٤١٦هـ — الدكتور

٢٦ شباط ١٩٩٦م — داود سلمان السعدي

سنُريهم آياتنا

من آياتِ الله تعالى ما كان معروفاً قديماً، ولايزال باقياً مستمراً، كالآيات التي نراها حولنا في ملكوت الله، وهي الآيات التي أمرنا تعالى أن ننظر إليها ونتدبّر فيها، وهي آياتٌ معروفة ومكشوفة لجميع الناس وفي كل الأزمان. ومنها ما هو آياتٌ مستقبلية لم تكن معروفةً في زمن التنزيل، وقد قال تعالى عنها: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال: ﴿ . . سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

هي آياتٌ معجزة تُطالِعُنا في صفحة الكون والحياة، ويتكشّفُ لنا المزيد والمزيد منها بمرور الزمان، وهي تنطِقُ بقُدرة القادر الذي خلق كل شيءٍ ثم هدى، فلا يمكن معها للإنسان العاقل إلا أن يُسْلِمَ وجهه له تعالى بالعبودية والعبادة. إنها موعدةٌ من عند الله تعالى للناس بأن يبيِّن لهم آياته في المستقبل، وإذا كان قد دعانا، المرّة بعد المرة، إلى النظر في آياته في الأرض، وفي ملكوت السماوات (السبعة)، وهي ما سوف نبرهن على أنها الكواكب السيارة السبعة، وفي الشمس، والقمر، والنجوم، وكلها مما يقع في متناول رأي العين، فإن هناك آياتٍ أخرى وعَدَ الله عبادَه أن يبيِّنها لهم، آياتٍ من صنفٍ آخر، لأنها لم يكن يمكن رؤيتها أو معرفتها حينئذٍ.

وهذه الآيات المستقبلية هي على نوعين، ويختص أولاها بأسرار الآفاق، أو العلوم الكونية الطبيعية من فلكٍ ونحوه، ويختص ثانيها بأسرار الإنسان، أو ما يندرج تحت المباحث الطبية.

وهي قاطعة ومتحدّية للناس أجمعين، وفي كل العصور، في أنّ آيات الله في الكون وفي الإنسان دلائلُ لا تُدْحَض على أنّ كتابَ الله هو الحقُّ من عنده. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾، والآيات مؤنثة. وقال: (أنّه الحق)، وهو مذكّر. فثبت أن المقصود بالحق ليس هو الآيات المستقبلية بل هو القرآن الكريم نفسه. فيصير المعنى: إن هذه الآيات الجليلة الموعودة في قادم الزمان هي أدلّةٌ بيّنة وحاسمة على أن القرآن حق، وأنه تنزيلٌ من ربّ العالمين.

ولم يكن رسول الله (ص) قارئاً ولا كاتباً قبل ذلك، إذاً لارتاب المُبطلون ولكن كان أميّاً. فأراد تعالى بذلك دليلاً يشهد بصدق ما جاء به (ص) تنزيلاً من رب العالمين ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ معطوفاً على قوله: (في الآفاق). إذ نَسَـبَ الأنفُسَ إلى المخاطَبين أنفسهم، وهم نحن. وفي ذلك إشارةٌ وتذكرة بأنّ الإنسان، ذلك الخصيم المبين، هو نفسُه موضعُ الحجة والبرهان، لأنّه مخلوق! وهو نفسه آيةٌ، بل ما لا يُعدّ من الآيات، على قدرة الله تعالى، ذلك لأنه مَقرّ لهذه الآيات التي تسكن فيه من غير علمٍ منه أو قدرةٍ على تعطيلٍ لها أو تغيير، قوانينَ وسُنَناً إلهيةً محكمة ودقيقة تسري في كلِّ مخلوقاته، ومن غير ما اضطرابٍ أو توقّف، ولا يحكمُها غيرُه أو ينازعه فيها مِن أحد. ومَن كان هو نفسُه مخلوقاً! أو آيةً وموضعَ حجّة!، كالإنسان، فليعرف قَدْرَ نَفَسِه حتى يعلمَ قدر خالقه، وأنْ تكونَ الحجةُ أو الآية فيك هو أبلغ مِنْ أنْ تكونَ في غيرك!

وبينما يتّجهُ الشطر الأول من الآية بأنظارنا نحو الخارج البعيد، نحو الآفاق الرحبة اللامرئية.

فإنّ شطرها الثاني يتّجه بنا نحو الداخل القريب، نحو الإنسان في أعماقه المجهولة.

فالآية الكريمة تأخذ منحيين متضادين في الاتجاه، إلا أنهما يلتقيان في هدفٍ واحد، والمطلوب من الإنسان أن يكون لهما شاهداً متفكراً، ومتدبراً متبصراً، لأنه هو المقصود بهما.

ففي النظر إلى الآفاق اتجاهٌ للإنسان نحو خارج ذاته، وانفتاح على الكون المحيط به. وفي نظر الإنسان إلى نفسه اتجاهٌ نحو داخله المجهول، وتدقيق في ذاته، وهي نفسُك لا غير!

وهي، أي الآفاق، واسعةٌ رحيبة وبما لا يُعرفُ له حدّ، أما هو فصغيرٌ إلى حدٍّ أنّه لا يتمثّلُ بما هو أصغرُ منه.

هي من الجماد الذي لا يَعْقِل، أي أنّها «لاعضوية»، بينما هو حيّ، فهو من مادةٍ «عضوية».

هي متعددة وتوجد في كل الاتجاهات، وهو واحد منفرد.

هي قد تكون بعيدة لا تُدرَك في رأي العين، وهو في أساسه الذي يتكون منه دقيقٌ لا يُرى لصغره.

كان الإنسان ينظر، في زمن التنزيل، حوله فيرى الصحراء، ويرى فيها الإبل والنخيل، ثم هو كان يرفع ناظريه نحو السماء فيرى شمساً عظيمة، طاغية في ضوئها، لافحة في هجيرها، لكنه كان لا يرى من السماء في الليل ما خلا القمر، إلا نقاطاً من الضوء صغيرةً لا تنير ظلماء ليلها، وهي النجوم، وقد أمره سبحانه بأن يقلّب نظره فيها ليعرف روعة الخَلق، وعظمة الخالق، وهو ما لا يحتاج الإنسان معه إلى أكثر من عينيه المجردتين وإعمال فكره، لكنه وعده أيضاً بأن يريه، في المستقبل، آياته في الآفاق، وفي نفسه، لأن أسرار الخلق الجليلة، وقدرة القادر العظيمة كامنة فيها غير ظاهرة، وعده بما لا يقع تحت ناظريه ممّا قد بَعُدَ فاختفى، أوقَرُبَ فدَقَّ واستتر.

ولقد يظنُّ الناس أن تقوم هذه الآيات الموعودة بمثل مائدةٍ تتنزّل من السماء، أو عصاً تصير حيّةً تسعى أو ما شابه ذلك. ولكن تلك المعجزات قد مضى وقتها

بتطوّر مدارك الإنسان، ثم إنه كذّب بها فزعم أنها ليست إلاّ سِحراً ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ . . ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وهي كانت معجزاتٍ حِسِّيَّة، ثم هي كانت أقرب لمخاطبة الجاهلين منها إلى مخاطبة العقول المفكرة والقلوب الرهيفة.

إن معجزة القرآن هي معجزة فكرية، عقلية، روحية، معنوية.

ثم إنّها معجزةٌ عامّة تتجلّى لكل الناس، يستوون فيها من دون استثناء، لأنها تخاطب عقولهم.

وهي معجزةٌ مستمرة وخالدة أبد الدهر، قد تكفل الله بحفظها، وهي بيّنة ظاهرة وميسّرة في كل زمان ومكان.

ولئن كان كتابُ الله، وفي كل العصور، معجزةً بيانية، وبالخصوص في زمن التنزيل الذي كان العرب فيه في القمّة من البيان، وهو قد تحدّى الناس أجمعين، فإنَّ معجزاتِ آياته العلمية خالدةٌ أيضاً، وهي معجزاتٌ تتكشَّفُ وتتزايد على مرِّ العصور.

ولقد قال سبحانه في وصف آياته القرآنية: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ . . ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ . . ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، كما قال في وصف آياته الكونية: ﴿ . . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. والنظر ليس هو نفسه البصر، فكم من ناظرٍ بعينيه إلى الصنع المنظم والتدبير المحكم وهو غير بصير. لقد أمرنا تعالى بالتبصر والتفكر، والعاقل اللبيب هو الذي يُقلِّبُ بصره في آيات الله فيتفكّر فيها ويعقلها، والنتيجة الطبيعية لذلك هي الإيمان بالله تعالى والإذعان له وحده بالعبودية. ولقد وصف المؤمنين المتفكرين في خلق الكون بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. إنّ هذه الآية وغيرها صريحة في رؤية الناس، قديماً وحديثاً، للسماوات السبعة.

ولو كانت المعجزات الموعودة في الآية الكريمة ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا . . ﴾ ممّا يتكشّف للعينين المجردتين لكانت مما يوجد على سطح الأرض، أو في قاع البحار، أو الفضاء القريب منّا، وهي كلها دلائل بيّنة على الخالق سبحانه لا يعسُر اكتشافها ولا تستحيل معرفتها، بل لقد أمرَنا سبحانه بالنظر إليها والتفكر فيها واكتشاف الحكمة منها: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ـ٢٠].

وأما آياته تعالى في الآفاق، وفي الأنفس، فمن الواضح أنها لا تتبين بالنظرة العابرة للعين المجردة.

فالأولى، ورغم عظمتها بما لا يُتصوَّر، قد بَعُدَت حتى استترت عن العيون.

والثانية، رغم قربها القريب، قد دقّت فاختفت كذلك.

ولم تكن لِتُكْتَشَف خفايا الآفاق، أول ما اكتُشِفَت، برؤيتها ومعرفة تفاصيلها، إلا بالمِرْقَب «التلسكوب»، وهو صنع عام ١٦٠٩[(١)].

أمّا خفايا الأنفس، في أنسجتها وخلاياها، فإن الكثير من أسرارها لم يكن ليُعرَف إلا بالمجهر «المايكروسكوب»، وهو صنع عام ١٥٩٠[(٢)].

ومثلما أن هذه الآية الكريمة هي آياتٌ متجليات لعجائب خلق الرحمن، مما قد تكشَّفَ بعدئذٍ، فإنها أيضاً إيذانٌ منه تعالى في قرآنه الكريم، باكتشاف الأداة، بل الأدوات، التي تتجلى بها تلك الآيات الباهرات.

والنظر في الآفاق، بالمراقب، يرينا نجوم مجرّتنا والمجرّات الأخرى القريبة

---

(١) ثم أتبعه صنع المرقب العاكس عام ١٦٦٦، ثم المرقب اللاسلكي (الراديوي) لاستقبال الموجات اللاسلكية الإشعاعية الراديوية بدلاً من الضوء، وهو مفيد جداً في مراقبة أعماق الفضاء السحيقة.

(٢) يقوم المجهر العادي هذا، والذي طور بعدئذ، بتكبير الأشياء إلى حد ١٠٠٠ مرة، وربما ٢٠٠٠ مرة في أحوالٍ نادرة. أما المجهر الالكتروني، وهو صنع عام ١٩٣٨، فهو يقوم بتكبير الأشياء ملايين المرات.

منا، والنجوم هي وحدة بناء الكون الكبيرة، واللبنة التي يتكون منها.

أمّا النظر في جسم الإنسان بالمجهر، فإنه يُرينا خلاياه متجمعةً في أنسجةٍ وأعضاء، وهي وحدة بناء الجسم الحي.

فههنا، في الآية الكريمة، إشارةٌ تشمل النجوم مثلما هي تشمل خلايا جسم الإنسان، بمكوناتها ووظائفها المنسّقة البديعة، وما قد ذكرناه هو على سبيل المثال، لا الحصر، لأن آيات الله تعالى ونعمه لا حصر لها ولا عدّ ﴿. . وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وهي مستمرةٌ أبداً ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا . .﴾ [النمل: ٩٣].

وكلتا اللبنتين، في الآفاق وفي الأنفس، تتألفان من الذرات ذاتها، أي اللبنات الأساسية نفسها التي يتكون منها كل شيء. ومن ٩٢ عنصراً طبيعياً تكونت آلاف المركّبات في الكون.

وفوق كل ما قد كشفه العلم فإن الزمن يجيء بالمزيد والمزيد من الكشوفات التي لا تنتهي، مصداقاً للآية الكريمة. وهذه الآية تُخفي وراء إعجازها ما لا حصر له وما لا ينتهي من المعجزات التي تنطق بصنع الصانع، وقدرة القادر، وهي تدلُّ على قصور البشر جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٨ و٨٩].

ولقد قدَّمَ الحقُّ سبحانه ذكرَ الآفاق على ذكر الأنفس، لأنّ خلق الأولى أكبر وأخطر ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

إنّ الإنسان، بل الناسُ جميعاً، ليسوا إلا أصغر، وبما لا يُقاس، من الأجرام السابحة في الفضاء. ولم يكن الإنسان قديماً ليرى في صفحة السماء أقلَّ مما نراه اليوم بأعيننا المجردة. ولكن ههنا، وفي صفحة السماء المرصّعة بالنجوم التي لا

تبدو أكبر من نقاط صغيرة متلألئة من الضوء، تكمن عوالم عظيمة لا يمكن تصورها. ولقد ابتدأ الأمر باكتشاف أخواتٍ للنجوم غير تلك التي نراها، في مجرّتنا، وقد عرفوا منها الآن نحواً من ٣٠٠ ـ ٥٠٠ ألف مليون نجم[1]، ثم تُوِّج الأمر باكتشاف أخواتٍ لمجرّتنا، وقد عدّوا منها نحواً من ١٠٠ ألف مليون مجرّة، وهي عمليّةٌ لم تنته بعد، حتماً. ومقابل هذا الصِغَر الظاهري للنجوم التي لا تبدو، وبأكبر المراقب، وحتى زمن قريب، أكبر من نقاط من الضوء جاء قَسَمُه تعالى العظيم بها، فقال: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥ و ٧٦]. فهو سبحانه، لم يُقسِم غير هذا القسم العظيم لا بالأرض، ولا بالقمر، ولا بأي شيء آخر، في القرآن، ممّا دلّ على أن النجوم هي أكبر وأعظم من ذلك.

فههنا، وفي صفحة السماء، في الآفاق الرحيبة، تكمن عوالم عظيمة كنّا بها جاهلين، ولكنها كانت موجودةً عندئذ، في زمن التنزيل، مثل وجودها اليوم. ولقد كان إدراكُنا لها كمثل إدراك الطفل الرضيع الذي لا يدرك ممّا حوله بأكثر ممّا يمسّ حياته أشدّ ملامسة.

وبالله عليك، إذا كنتَ قد بنيت مدينةً عظيمة، ماذا تساوي عندك، بعد كل ذلك، الذرّةُ الواحدة من التراب؟ لا شيء أبداً. والأرضُ، ومن عليها، وكل ما فيها، هي أقلُّ من ذلك، وبدرجةٍ لا توصف، لدى خالقها سبحانه. ولقد جاء عن النبي (ص) أن الدنيا وما فيها لا تعدل عند الله جناح بعوضة.

إنّ الوعد الإلَهي: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ هو كَكُلِّ وعدٍ إلهي، لا بد أنه متحققٌ فعلاً، وقد كان. إننا لا نرى في كُشوفِ الآيات الكونية الحديثة، وهي، ومن دون ريبٍ، قد تجلّت أشدَّ تجلٍّ وأعظمهُ في قرننا هذا، إلاّ تصديقاً لِما بين يدينا من هذه الآية وغيرها من الآيات القرآنية، وتحقيقاً منه تعالى لوعده، وإتماماً لمنّته وفضله، وإقامةً للحُجَّةِ على عباده. فأما وقد

(١) الكون، د. كارل ساغان، دار المعرفة، ١٩٩٣، ص ٢٥٤.

تبيَّن الحقّ للناس، فإنّه لهم بشيرٌ ونذير. هو بشيرٌ لمن ألقى السمع وهو شهيد، وهو نذيرٌ لمن كذَّبَ بعد أن رأى الآيات، بل هو نذيرٌ للناس أجمعين، من الغافلين والمُعْرضين، باقتراب حسابهم، إذ إنّه لا شيء يضيعُ في هذه الحياة ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

والإنسان الجاحد، الجاهل، يحسب أنّه يعلم وما هو بعالم، ذلك لأنّ ظنّه وهواه هو الفيصل في الحكم على الأمور، لا عقله. وأنظُرْ كيف أنَّ الكِبْرَ مدعاةٌ للكفر، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

أوجب الإسلامُ النظرَ وإعمال العقل، واعتبر عدم البحث والنظر جريمةً يستحق الإنسان عليها العذاب. قال تعالى بلسان أهل النار: ﴿. . لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: ١٠].

إنّ هذا النصَّ قطعيُّ الدلالة على أنّ إهمال العقل هو من أكبر الكبائر، كيف وقد قَرَن تعالى الخوفَ منه بالعلم، وأنّ من لا يعلم لا يخشى الله؟ ﴿. . إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ . . ﴾ [فاطر: ٢٨].

وإنّ استبطانَ حقائقِ الأشياء، واستكناه أسرارِها والحِكَمِ المقصودة منها، ليجرُّنا إلى الإيمان جرّاً، لا بما نراه ونحسّه وحسب، بل وبما هو أبعد منه أيضاً، بالعقل المفكّر، واللّب الحسّاس، وبما لا يُحَدّ ولا يُعَدّ، وما بَصُرْنا وما لم نبصر من الأسرار، والقوى، والطاقات التي سخّرها خالِقُ كلِّ شيء، والتي تنطق، كلها، بقدرة القادر الذي أودع كل شيء في الكون خصائصه وأسراره.

والإنسان، كلُّ ما في الإنسان، مخلوقٌ، موهوبٌ، مكتسب. هو لم يهب لنفسه الحياة، كما أنه لا يملك لنفسه قِبَلَ الموت من شيء، وهو قد أودع خالقُه فيه

من القوى، والتفاعلات، والنواميس، ما لا يملك له دفعاً ولا منعاً. أفهو موقفٌ لنَفَسه؟ أم هو مُسْكِتٌ لقلبه؟ أم هو مانعٌ نَفْسَهُ حاجاته الطبيعية؟ وهكذا فإن الإنسان مَدِين. هو مدينٌ بكل شيء: في حياته، وكيانه، وبكل قطرةٍ فيه، وكل نسمةِ هواءٍ يستنشقُها، وفي كلِّ ثانيةٍ من عمره القصير. إنّك أيها الإنسان في ولادتك، وحياتك، ومماتك، لا تملك لنفسك شيئاً، وذلك آيةٌ على أنّ كلّ ما فيك موهوبٌ من عند الله تعالى، إذ إنّ كلَّ شيء هو منه، وإليه يعود. والإنسانُ ضعيف، ولأبعد حدود الضعف. فهو تقتله الشَّرْقَة، وتؤلمه البقّة، وتُنسيه وخزةٌ من إبرةٍ صغيرة كلَّ الدنيا! وعزمُ الإنسانِ إنّما هو إلى أفول، وقوّتُه إلى ضعف، ورأيُه إلى خَطَل، وصحتُه إلى سُقْم، وشبابُه إلى هَرَم، وحياتُه إلى موت، وهو إلى التراب، وقد خُلِقَ منه أوّلَ مرةٍ، يعود.

والإنسانُ ضعيف، ولأبعد حدود الضعف. فهو تقتله الشَّرْقَة، وتؤلمه البَقَّة، وتُنسيه وخزةٌ من إبرةٍ صغيرة الدنيا كلّها! وعَزْمُ الإنسان إنّما هو إلى أفول، وقوّتُه إلى ضعف، ورأيُه إلى خَطَل، وصحتُه إلى سُقْم، وشبابُه إلى هَرَم، وحياتُه إلى موت، وهو إلى التراب، وقد خُلِقَ منه أوّل مرةٍ، يعود.

ويقابلُ تلك الأنفسَ المخلوقة، الناقصة، العاجزة، الضعيفة، الزائلة، إلَهٌ خالقٌ، كاملٌ، قادرٌ، قويٌّ، دائم، له كل الصفات الحسنى. إنّ هذا التباين بين الصفات الإلَهية وصفات المخلوقين هو دليلٌ ما بعده دليل على حقيقتهما.

وكلما تقرَّب العبدُ إلى خالقه بطاعته، ومجانبة معاصيه، وبصنوف المكابدة والابتلاء، وبمجاهدة الهوى والشيطان، كلما زاد اقتباسه من الهَدْي الإلَهي، فأحبَّ الله وأحبَّهُ الله تعالى، وأنعم عليه بالمزيدِ من نِعَمِهِ وألطافه، ما ظهر منها وما خفي. فالله تعالى هو مُفِيضُ كلِّ خيرٍ، وحقٍّ، وجمال يعرفُه المخلوقون، لأنّنا نكتسبها منه وحده، نوراً نقبس منه ونسير على هَدْيه ونَسْبحَ في آلائه.

* * *

إن هذا الكتاب يهدف إلى تبيان بعض آيات الله تعالى في الآفاق على بديع صنعه، وعظيم قدرته، حتى نعبده حقّ عبادته، متوزّعين على الدوام بين الخوف منه والطمع في رحمته.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ.
وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ.
إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠]

صدق الله العظيم

السماوات - ما هي؟

معانٍ للسماء، والسماوات، في القرآن، عديدة

جاء القرآنُ الكريم بآياتِ الله هدىً للناس، وطلب منّا أن ننظرَ إليها ونتفكر فيها، ولقد استفاض كتاب الله تعالى في ذكر آياته الكونية، حتى لَيُقَدَّرُ أنَّها تُكوِّنُ حوالى السُّدُس منه. ولئن وعدَنا الحقُّ سبحانه أن يُرِيَنا المزيد من آياته في الكون والإنسان، فلقد ذكر الأرض، والشمس، والقمر، والسماوات السبع.

وذكر النجوم ممّا قد ظنّ العلماءُ قديماً بأنه لا يبعد لأكثر من كيلومتراتٍ معدودة عنّا في سقفٍ يحيط بالأرض، فأقسم بها بقَسَمٍ وصفه بأنه «عظيم»، وهي صفةٌ لم ترد في أيِّ قَسَمٍ لله تعالى، تدليلاً منه سبحانه على عظمتها، وعلى حساباتها المعقّدة، ومداراتها، وأبعادها السحيقة.

وذكر «الشِّعرى»، فاتضح في العصر الحديث أنها أقرب النجوم إلينا، وأقواها ضياءً، بعدالشمس[1]، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩].

ولقد ذكر «السماء الدنيا» وتزيينها بالكواكب، أي النجوم[2]، فقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، ﴿.. وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ..﴾ [فُصّلت: ١٢]، وهي قد عرفنا، في عصرنا الحاضر، أنها المجرَّة، مجرّةُ «درب التّبّانة».

---

(١) ممّا يُرى في نصف الكرة الأرضية الشمالي، وهي الشِّعرى اليمانية (Sirius).

(٢) انظر ص ١٣١.

وذكَرَ «السموات العُلى»[1]، فقال: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ [طه: ٤].

إنّها، كلّها، آياتٌ تدل على ما لم تُعْرَف حقيقتُه إلا في عصرنا الحاضر.

لقد أقسم تعالى بكل ذلك مما نُبْصِر، وأكثر منه ممّا لا نُبصر فقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقّة: ٣٨ و٣٩].

وأشارَ إلى توسّعٍ للكونِ مستمرٍّ، فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

كما أشار إلى النزر اليسير مما قد علّمنا إيّاه، فقال: ﴿ . . وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهي آيةٌ معجزة، ومن وجوه إعجازها أنّه كلما اكتشف الإنسانُ جديداً اتّضحت له سعة الكون، أكثر وأكثر، وبما لا حدود معروفةً له، وفداحة ما يجهل، والتعقيد البالغ الذي يلفُّ الأشياء، طُرًّا في الوجود.

لا بدّ للإنسان من النظر والتفكّر في ملكوت الله

لقد أمَرَنا الحقُّ سبحانه بأن ننظر ونتفكر، وأن نُعيدَ النظر ونكرره، في ملكوته، حتى نعلم روعة الخَلق، وعظمة الخالق، فلا عيب، ولا نقص، ولا اعوجاج، ولا اضطراب ولا تفاوت فيه، فحيثما قلّبنا نظرنا في الكون لا نرى إلاّ جلالاً وجمالاً، وروعةً وبهاءً، واتّساقاً ونظاماً يشمل كل ما في الوجود، ويَلُفُّه باللُّطف، والرحمة. انْظُرْ إلى الوداعة الآسرة في كل المخلوقات، والجمال اللامتناهي فيها، لا تَمْلِكْ إلاّ أن تخشع لله تعالى مُقِرّاً له بالألوهية، وباللطف، والرحمة، والفضل، وبالقدرة، والسلطان. قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [المُلْك: ٣ و٤].

---

(١) انظر ص ١٣٧.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا . . ﴾ [ق: ٦].

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

قالوا: فلينظر العقلاء نظرةً استدلالية علمية إلى كل شيءٍ في هذا الكون ليعلموا أنّ الله موجود وأنه على كل شيءٍ قدير، ولقد استوحى الشاعر من هذه الآيات قوله: «وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ. تدلُّ على أنّهُ واحدُ». ويتمثل في هذا الاستدلال القرآني الكوني المنهج العلمي الذي يستخدمُ الاستقراء والقياس معاً، يستقرىءُ الناظرُ أولاً جزئياتِ الكون وما فيها من سُنَنٍ تحكُمها وتضبطُ حركاتها وسكناتها وتفاعلها، وينطلق من ذلك ليقول: في الكون نظامٌ وتدبير ولكلِّ نظامٍ وتدبيرٍ مُدَبِّرٌ ومنظِّم، فللكون خالقٌ عليم ومدبّرٌ حكيم.

وإنّ المؤمن لينظر ويتبصّر، ويتفكّر ويتدبّر: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، لكن الكافرين لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون، فهم كالأنعام في بهيمتها، بل وأضلُّ منها: ﴿ . . لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ﴿ . . وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]. ويَصفُ سبحانه المؤمنين بالعلم، وأمّا الكافرون فهم لا يعلمون، وشتّان ما بين الاثنين: فالأول مَثَلهُ مثل البصير، والآخر مثله مثل الأعمى، والفرق بينهما هو كالفرق بين النور والظلمات: ﴿ . . قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . . ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿ . . قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ [فاطر: ١٩ و٢٠]، وقال في وصف الكافرين: ﴿ . . فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا

﴿أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ . .﴾ [الأحقاف:٢٦]، بل لقد وصفهم تعالى بأنهم أموات! ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

«إن النظر في خَلْقِ السماوات والأرض يؤدي إلى الإيمان بالله، وتركُ هذا النظر يؤدي إلى الكفر به تعالى، وعليه يكون الكافر مُقَصِّراً ومستحقاً للعقاب لأن الله بيَّن له الدليل القاطع فأعرض عنه وأبى أن ينظر إليه ﴿. . وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] أي الذين يُعرِضُون عن الأسباب الموجبة للإيمان، وهي الآيات البينات التي أقامها سبحانه في الكون، والكتب المنزلة والأنبياء المرسلة».

ولقد أعطى الحقُّ سبحانه للعلم المنزلة الرفيعة، إذ هو قَرَنَ الإيمان بالعلم، فلا إيمان من دون تفكّرٍ وتدبّر في آيات الله، ولا فلاح من دون إيمان، كما لا إيمان من دون توحيد. إن هذه المكانة العالية للعلم، في كتاب الله تعالى، لتسْتَحِثُّنا جميعاً على أن ننهلَ من هذا المنهل العذب . . من آيات الله القرآنية، ومن آياته الكونية. وإنّ لنا، بل إنَّ علينا أن نعرف هذه وتلك حَقّ المعرفة، وبذلك تزدادُ معرفتُنا بخَلْقِ الله تعالى فيزدادُ إيماننا به.

وصَدَقَ رسولُ الله (ص) في قوله أنْ لا عبادةَ كَتَفَكُّرٍ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء.

صفات الآيات الكونية في كتاب الله

عدد السماوات، في القرآن، حقيقيٌّ وليس مَجازِيًّا

إذا كان المولى سبحانه قد دعانا، مراراً وتكراراً، إلى النظر والتفكّر في آياته في السماء والأرض، فلا بدّ من أن يكون موضوع هذه الآيات:

١ ـ **شيئاً حقيقياً**، لا مَجازيًّا. فوصفُه سبحانه للسماوات بأنها سبع يدلّ على

أنّها كذلك فعلاً، لا كما ظنّ البعض بأنها كناية عن الكثرة[1]، إذْ إنه سبحان وتعالى جَلَّ عن أن يذكر لنا غير الحق، فلقد قال:

﴿ . . وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ . . ﴾ [الجاثية: ٦].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ . . ﴾ [الحِجر: ٨٥].

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ . . ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣].

٢ ـ **وأن تكون هذه الآيات واضحةً لنا**. إذ لا يعقل أن يدعونا تعالى، المرة بعد المرة، إلى النظر في أشياء لا يمكننا إدراكُها ومعرفتها.

٣ ـ **وأن تكون الحقائق العلمية**، كما يتثبت بالتحقيق العلمي المتيقن والراسخ، متفقةً ومُتَّسِقَةً مع ما قد ذكره سبحانه.

فأما وإن الأمرَ كذلك، ومادام الحقُّ سبحانه وتعالى قد أمرنا بالنظر والتفكر في خلق السموات والأرض[2]،

١ ـ فلا بُدَّ من أن تكون هذه الأشياء بوصفها وتعدادها حقائق راسخة، لا على سبيل المجاز.

٢ ـ ولا بدّ من أن تكون هذه الأشياء واضحةً بينة لنا ـ إذ لا يعقل أن يدعونا سبحانه للنظر في السماوات السبع من غير أن يكون في إمكاننا، بما وهبه لنا من حواس، وعقل، وإمكانات، أن نعرف ما هي السماوات السبع، وفي الماضي، كما

---

(١) يعتقد الدكتور موريس بوكاي، في كتابه «القرآن والعلم المعاصر»، أن القرآن الكريم أكّد تعدد السماوات تعدداً يشار إليه بالرقم (٧) الذي يعبّر ـ وهذا كثير جداً في اللغات الساميّة ـ عن تعدّدية بدون أي تحديد آخر. دار ملهم (١٩٩٥) ـ سوريا ـ وهو قولٌ سوف نبرهن على بطلانه.

(٢) لقد اتّفق علماء الإسلام على أن طلب العلوم الكونية واجبٌ كِفائيٌّ على الناس، فإن لم يقم أحدٌ منهم بذلك فإنه يصير فرضَ عينٍ على كلٍّ منهم، ويصير الجميع آثمين بتركه.

في الحاضر الذي عرفنا فيه، وبوساطة المراقب الضخمة، وبأُمِّ أعيننا، مليارات المجرّات وما فيها ممّا لا يُعَدّ من النجوم وغيرها. وستكون هذه الحقيقة، حقيقة أن الله تعالى قد بَيَّنَ لنا بأن السموات السبع، كَكُلٍّ، مرئيةٌ لنا، وكما سوف يمرّ بنا في هذا الكتاب، سوف تكون هذه الحقيقة هي نفسُها مِعواناً لنا على معرفة كُنهها وحقيقتها.

٣ ـ ثم لا بدّ، أخيراً، من أن يكون ما ذكره الحقُّ سبحانه متفقاً ومتّسقاً مع الحقيقة العلمية المجردة التي كشف لنا الغطاء عنها، وهدانا إليها بفضله ورحمته.

لا يصحُّ لنا القُعود عن محاولة فهم الآيات القرآنية الكونية

فهل يجوز للمسلم، وهو يتلو آيات الله تعالى التي تدعوه للنظر والتفكّر في ملكوت السماوات، أن يظلّ من بعد ذلك جاهلاً للمعنى المقصود بكلمة «السماوات»، متحيّراً فيه، وهو الشيء نفسه الذي يدعونا تعالى إلى أن ننظر ونتفكّر فيه؟ وهل يجوز للعالِم، أيِّ عالِمٍ، بل للمسلم، أيِّ مسلم، أن يقلِّب ناظرَيْه في صفحة السماء، سواءً أكان ذلك بالعين المجردة أو بالمِرقاب، أو أن يرتّل في كل حينٍ آيات القرآن الكريم التي تدعوه للنظر والتفكّر في آيات الله في الآفاق، من غير أن يطمع في معرفة معناها المقصود منها؟

لقد جلّ سبحانه وتعالى عن ذلك، حاشاه، وتعالى عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

وإذا كان يصحُّ لنا، قديماً، بأن نرضى بالقول بجهلنا في تفسير بعض الآيات الكونية، فإنه لم يعد يصح لنا، في زمن الكشوف الحديثة، وبأية حالٍ من الأحوال، أن نرضى من الأمر بالاعتذار بالجهل وحده، أو أن نقنع من كتاب الله تعالى، في آياته الكونية، بالترتيل وحده، لا بالفهم أيضاً، بل ولا عذرَ لنا إن نحن تقاعسنا عن ذلك. إذ إنّ تقاعسنا هو، أولاً، إهمالٌ في تفسير كتاب الله نفسه. ثم هو، ثانياً، تجاهلٌ، إن شئنا التساهل في القول، لأمرِه لنا سبحانه بالنظر في مَلَكوتِ خَلْقِه، ثم هو من بعد ذلك، جهلٌ في أمور الحياة، وكسلٌ في الهمّة، لا بل هو مرادفٌ في نتيجته، وكما قد

رأينا، للضلال والكفر. وإذا ما عرف الإنسان، مثلاً، في علم الفلك، ذلك الذي نعرفه اليوم، أن هناك ما ينطبق عليه اسم «السماوات السبع»، بوصفها وتعدادها الوارد في القرآن، فإن ذلك مدعاة لتثبيت الإيمان في نفس المؤمن ولغرسه في نفس غير المؤمن.

وإذا كان الناس قد قَصُروا، سابقاً، عن فهم قسم من الآيات القرآنية الكونية لافتقارهم إلى المعرفة العلمية، فإن الله تعالى لم ينزِّل هذه الآيات حتى تكون مُعْمَياتٍ أو ألغازاً تبقى الأفهامُ فيها متحيرةً أبد الدهر. إذ إنَّ عصرَنا هو عصرُ الفتوحات العلمية الباهرة التي كشف فيها تعالى لنا الحُجُبَ عن آياته في الآفاق وفي أنفسنا، وأعيانا أحياناً أن نتلمّس، ومن بعد ذلك كلّه، صلة هذا بذاك، أي تفسير الآيات القرآنية الكونية بما تحت أيدينا من الكشوفات الحديثة.

وقد لا يهتم بعض الناس كثيراً بمعرفة معاني كلمات «السماء» و«السماوات» و«السماوات السبع» و«السماء الدنيا» و«السماوات العلى» الواردة في القرآن الكريم، معتقدين بأنها شيءٌ مجهول غيرُ مُدْرَك، مما يعلوهم ولا يقع تحت أيديهم، وممّا لا يملكون أن يفقهوا معناه، وأن الله تعالى أعلم بمراده، وأن مادام المقصودُ بهذه الآيات غيرَ واضحٍ لنا فلنترك أمر تفسيرها وفهمها، وأنْ قد لا يكون من الصواب الخوض في أمرِ معناها، أو هو قد يكون في ظنّ بعض الجاهلين أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان. ولكنني أقول: كلاّ. فما دام تعالى قد خاطبنا على أننا نرى السماوات السبع، وأنّه أمرنا بالنظر إليها والتفكّر فيها فمعنى ذلك أنّ هذه السماوات، ككُلّ، معروفةٌ لنا ومرئية، والآن، كما في زمن التنزيل. والمطلوب منا أن نعرفها حقّ المعرفة لا أن نتركها فكرةً غائمةً غامضةً هُلاميَّةً لا نكاد ندرك لها معنىً محدّداً، أو قُلْ لا يكادُ أنْ يذكرَها البعض حتى يستعيذ بالله تعالى من وساوس الشيطان الرجيم! ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وإنّ لدينا من الجانب الواحد كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، ومن الجانب الآخر فإن لدينا كمّاً ضخماً من المعلومات العلمية الحديثة التي تُضَخُّ باستمرار، والتي وصل بعضُها إلى مرحلة الحقيقة العلمية، كلُّ ذلك في

الوقت الذي ازدادت فيه معرفتنا بالكون زيادة عظيمة، وفي الوقت الذي وصل العلماءُ فيه بمراقبهم العظيمة إلى مجرّاتٍ تقع على «حافة الكون»، أو بالأصحّ ما قد أمكن لهم أن يصلوه، إنّما ضوؤها الذي نراه قد انبعث منها قبل المليارات من السنين الضوئية. إلاّ أنّ ممّا يسترعي الانتباه والاهتمام، بل ومما يُؤسَفُ له، أن الفجوة قد ظلت كبيرة في جلاء بعض ما قد غَمَضَ من معاني الآيات الكونية، وظلّ الكثيرون تاركين الخوض في هذا الموضوع كُلِّيةً، أو هم يدورون حوله ولا يكادون يقربونه. ومن الناحية الأخرى، فإن علماء أفاضل في الطبيعة من المسلمين يتحيّرون في آراء لا يملكون لها سنداً قوياً. ففي قضية السماوات السبع، مثلاً، يظن بعض الباحثين أنّ الإشارة إلى العدد (سبعة) لا تعدو أن تكون كنايةً عن الكثرة، أي أنها وصفٌ مجازيّ وليست عدداً حقيقياً مقصوداً لذاته، وهو رأيٌ يَدْحضُه ما جاء في كتاب الله تعالى نفسه. أو هم يَرَوْنَ بأنّها وصفٌ قد درجت عليه العربُ قبل الإسلام.

رأيٌ في ماهيّـة السماوات السبع، والردّ عليه

كتب الدكتور محمد جمال الدين الفندي، عن السماوات السبع، يقول: «الغالب (والله أعلم) أنها ـ أي السماوات السبع ـ تحديدٌ للنوع وليس للكم. وما السماوات السبع التي ترتفع فوق رؤوسنا سوى:

١ ـ الغلاف الجوي،
٢ ـ الشهب،
٣ ـ النيازك،
٤ ـ القمر،
٥ ـ الكواكب السيارة،
٦ ـ المذنبات،
٧ ـ الشمس»[١].

أي أنها، في مجموعها، أنواعٌ للأجرام التي تكوّن منظومتنا الشمسية.

---

(١) «السموات السبع». الدكتور محمد جمال الدين الفندي (١٩٧٣)، ص ١١٣ ـ ١١٤.

ورداً على هذا الرأي أقول:

١ ـ إن ذلك لا يتفق مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، إذ إن الآية الكريمة تدل على أن السماوات السبع توجد على شكل «طِباق» يعلو بعضُها بعضاً ويتلوه على نَسَقٍ واحد، وهو ما يتناقض مع ما ذكره الباحث الكريم.

٢ ـ وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ[1] مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨] صريحٌ في أن الشمس والقمر ـ والنجوم أيضاً ـ ليست بعضاً من السماوات السبع بل هي أجرامٌ أخرى غيرها.

٣ ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ..﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالشمسُ، والقمر، وكذلك النجوم، معطوفةٌ على السماواتِ والأرض، أي أنهُنَّ لَسْنَ بجزءٍ من السماوات.

٤ ـ إنّ الشهب والنيازك كلها صخور، فهي شيءٌ واحد. والفرقُ بينها هو أنّ الأولى تحترق عند وصولها جوّ الأرض، وعندها تظهر لنا متوهجةً، فتُسمّى بالنجوم أو الشُّهُب المُنْقَضَّة، وأما الثانية فهي ما قد وصل منها إلى سطح الأرض من دون احتراق على شكل صخور، وهكذا فإن الشهب والنيازك هي، في حقيقتها، واحدةٌ لا اثنتان.

٥ ـ وبينما جاء هذا الرأي على ذكر (الكواكب السيارة)، و(الشهب)، و(النيازك)،

---

(١) المُراد بالسجود هنا هو الخضوع والانقياد لأمره تعالى وما يُجريه على الخلائق من تقديرٍ وتدبير. قال الإمام الصادق: «السجود على نوعين: إرادي وطبيعي» والأول سجود العقلاء، والثاني سجود سائر الموجودات بمعنى أنها في قبضة الله، وتدل على قدرته وعظمته من باب دلالة المصنوع على الصانع.

و(المذنّبات)، وكلها بصيغة الجمع، فقد جاء ذكر القمر، قمراً واحداً، ذلك الذي نعرفه نحن، بينما أن هناك أقماراً عديدة تتبع الكواكب السيارة الأخرى في منظومتنا الشمسية.

ورأي آخر

قال الأستاذ حنفي أحمد: «السموات أو السموات السبع (أو السماء) هو مجموع الخَلْق فوق أرض الإنسان، وتتركب من سبع سمواتٍ غير أرضية، ومن أرضين متعددة، مثل أرض الإنسان، ومن خلق مجهول بينهما»[١].

وقال: «إن السماء أو السموات مقصودٌ بها سبع سمواتٍ غير أرضية النوع، وأرضون متعددة مثل أرض الإنسان. إن أجرام السموات السبع غير الأرضية هي النجوم، ومنها الشمس، وأن الأرضين هي الكواكب والقمر وما يوجد مثله من أقمار»[٢].

ويكون وصف نشوء السموات السبع هو وصف نشوء النجوم،

ويكون وصف نشوء الأرض وباقي الأرضين هو وصف نشوء الكواكب والقمر وأشباهه»[٣]،

وإذاً في وصفه:

السماء = السماوات = السماوات السبع

(٧) سماوات غير أرضية
(= نجومٌ، ومنها الشمس)

أرضون متعددة
(الكواكب السيارة + الأقمار)

وردّنا على رأي الأستاذ حنفي أحمد هو كردّنا على الدكتور الفندي: إنّ الشمس، والنجوم الأخرى، والقمر ليست من السماوات السبع، وبنصّ الآية (١٨) من سورة الحج، والآية (٥٤) من سورة الأعراف.

---

(١) و (٢) و(٣) «التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن» حنفي أحمد. ط ٣ (١٩٨٠) ص ١٣٥، ٢٠٠، ٢٢٣.

السماوات السبع

قمتُ بالبحث، في كتاب الله، عن الآيات التي ذكر فيها المولى سبحانه «السماوات السبع»، وبهذا اللفظ، وعددتها حصراً، فإذا هي قد جاء ذِكرُها سبع مرات، أي في سبع آياتٍ من سبع سِوَرٍ مختلفات، متطابقاً مع عدد السماوات السبع، وهذا التطابق هو من معجزات القرآن الكريم، وهذه هي الآيات[1]:

١ - ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فُصِّلت: ٩-١٢].

٢ - ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩].

٣ - ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [المُلك: ٣].

٤ - ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٥و١٦].

٥ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

(١) ذكرنا الآيات الكريمة في سياقها من الآيات الأخرى، عند الضرورة، حتى يزداد معناها وضوحاً.

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

٦ ـ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

٧ ـ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

وهناك آيتان أخريان جاء فيهما ذكر (الطرائق السَّبْع) و(السَّبع الشِّداد)، وهما، وكما قال المفسّرون، تؤديان المعنى السابق نفسه، أي السموات السبع، وهو ما سوف نتطرق إليه في حينه، ونجدهما فيما يأتي:

١ ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

٢ ـ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا . وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا . وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا . وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا . وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا . وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ٦ـ١٣].

فما هي السموات السبع؟

قلنا سابقاً، واستناداً إلى القرآن الكريم، بأن السماوات سبعٌ على وجه الحقيقة والتحديد. ونسأل:

هل إن كلمة (السماوات) متبوعةً ومقرونةً بكلمة (الأرض)، في غير الآيات التي عدّدناها، ومن غير ذكرٍ للعدد (٧)، هي نفسُها السماوات السبع، أم إنّ لها مدلولاً آخر؟

إن الآيات (٩ـ١٢) من سورة فُصِّلَت، والسابقة الذكر، تدلّ على أن الله تعالى قد خلق الأرض وقدّر أقواتها في أربعة أيام، وخلق السماوات السبع في يومين. فيكون مجموع مدة خلقهما ستة أيام. فلننظر إلى الآيات الآتية التي جاء فيها ذِكْر خَلق السماوات متبوعاً بذكر الأرض، ومن غير وصفها بالسبع:

١ - ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢ - ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [يونس: ٣].

٣ - ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [هود: ٧].

٤ - ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [الفرقان: ٥٩].

٥ - ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [السجدة: ٤].

٦ - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [ق: ٣٨].

٧ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [الحديد: ٤].

ونجد أن ذِكْرَ خَلْقِ السماوات والأرض، ومن غيرِ ذكرٍ للعدد (٧)، يتكرر (٧) مرّات[١]، وأنه قد تمّ في ستة أيام، وهي فترة خلق السماوات السبع والأرض نفسها. نستنتج من ذلك أن المقصود بالسماوات في كلامه تعالى على «السماوات والأرض» هو المقصود نفسه بالسماوات السبع والأرض أنفسهنَّ لا غيرهن.

أي أنّ كلَّ ذكرٍ للسماوات مقروناً ومتبوعاً بذكر الأرض، في كتاب الله، فالمقصود به السماوات السبع لا غير. ولقد جاء ذكر كلمة «السماوات»، في القرآن الكريم، مقروناً بالأرض فيما ينوف على (١٧٠) مرة.

---

(١) ويتكرر العدد (٧)، مرةً أخرى في كتاب الله، في ذكر السماوات والأرض. فالكلمات الثلاث (خلق + السماوات + الأرض)، وبهذا الترتيب، جاءت في (٧) آيات، وهي معجزة قرآنية أخرى تكمن في تكرار عدد الآيات الذاكرة للسماوات السبع نفسه. وهو من بعد ذلك، وأيضاً، يمكن أن يكون إشارة أخرى إلى أن المقصود بـ «السماوات»، هنا، ومن غير ذكرٍ للعدد، هو المقصود نفسه بالسماوات السبع.

هل إن السماوات السبع مرئية لنا أم لا؟

هناك احتمالان لا ثالث لهما:

أولاً ـ أن تكون السماوات السبع غيرَ مرئيّةٍ وغير معروفةٍ لنا، وهو ما قد يكون بسبب أنها بعيدةٌ عنا جداً، أو أنها مصنوعةٌ من مادةٍ غيرِ منظورةٍ لنا. لكن هذا غير صحيح، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]. كما أن الآيات التي تدلّ على رؤية السماوات كثيرة، ويكرّر تعالى في كتابه الكريم الطلب من الناس أن ينظروا إلى آياته في السماوات.

آياتٌ أخرى تدل على أنّ السماوات السبع مرئيةٌ وأنّ الإنسان مُطالبٌ بالنظر إليها والتفكّر فيها

- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].
- ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا. .﴾ [الرعد: ٢].
- ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].
- ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. .﴾ [يونس: ١٠١].

وغيرُ هذه الآيات كثير.

ثانياً ـ أو أنّ السماواتِ السبع مرئيّةٌ لنا ومعروفةٌ بحيث أنّ الله تعالى يأمرنا بالنظر إليها.

وإذا كانت كذلك فلا بدّ أن تكون بعضاً مما نعرفه في الكون القريب المحيط بنا، وأن يكون عددها سبعاً.

إن الاحتمالات في معنى «السماوات السبع»، على سبيل الافتراض العلمي البحت، والمقصودُ بذلك أخذُ جميع الاحتمالات التي يمكن أن توجد، ثم استبعاد (أو تضمين) كلٍّ منها بحسب ما يقوم من أدلةٍ قويةٍ تَنْقُضُها (أو تُرَجِّحُها)، وابتداءً من الأرض وانتهاءً بالأبعد فالأبعد، تنحصر في واحدةٍ مما يأتي:

١ ـ طبقات الغلاف الجوي المحيط بالأرض.
٢ ـ الكواكب السيارة حول الشمس.
٣ ـ الغلاف الجوي للكواكب السيارة. } والسُّدُم المكوِّنة لها.
٤ ـ النجوم.
٥ ـ المجرّات.
٦ ـ الفضاء، أو «الفراغ»، المحيط بنا في الكون.
٧ ـ أو أنها وصفٌ للنوع، أي سبعةُ أنواعٍ من الأجرام حولنا، وكما جاء في الصفحة .

ولم نقع على أية احتمالاتٍ أخرى افتراضية، في تفسير معنى السماوات السبع، مما قد يكون مرئيّاً بالنسبة إلينا، غير ما ذكرناه.

فأيٌّ ممّا قد ذكرنا، أعلاه، هو السماوات السبع حقيقةً؟

سوف نقوم باستخراج كل ما يمكننا استخراجه من صفات السماوات السبع من كتاب الله، ثم ننظر في مدى مطابقة هذه الصفات المستخرجة لكلٍّ ممّا ذكرنا بما هو متيقنٌ من معطيات العلم الحديث. وسنقوم بذكر هذه الآيات، مع بعض التوضيح لمعناها أحياناً، أو شرحِ ما غَمضَ من مفرداتها، ثم نخرج بالنتائج التي سوف نضيفها إلى بعضها حتى تعطينا معالم صورة السماوات السبع، كما وردت في كتاب الله، وهي أقربُ ما تكون صورةً حقيقيةً واضحةً ومتكاملة.

رتقٌ وفتق

صفاتٌ للسماوات والأرض

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

الرَّتق: الضم، الالتئام، الالتحام.

الفتق: ضد الرتق، وهو الفصل بين المتصِليْن.

ففتقناهما: أي ففصلنا بينهما.

عن ابن عباس: كانتا ملتصقتيْن فرفعَ الله السماءَ ووضع الأرض.

وعن الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل الله بينهما.

إذا لاحظنا تسلسل الحوادث في خلق السماوات والأرض لرأينا أنه رتقٌ يعقبه فتق، فهو كالآتي:

رتق ← فتق

ولكن الرتق لا يكون إلاّ بين منفصليْن، وهو جمعٌ لِما تفرّق من الشيئين من بعد وصل، أما كلمة الفتق فهي تشير إلى انفصال شيئين كانا قد وُصِلا من بعد تفرّق. إذاً فالرتقُ سَبَقهُ فتق، أي أنَّ الأمر كالآتي:

فتق ← رتق ← فتق، وهو مظنّةٌ لأن يعقبه رتق كذلك.

وٱنظُرْ إلى التناسق والتساوق العجيب بين كلمتي الفتق والرتق، وهي بلاغةٌ إلَهيةٌ هيهات أن تقترب منها بلاغة البشر. ثم انظر إلى التشابه العجيب بين الألفاظ

الخمسة التالية والتي استعملها الحق سبحانه في وصف عملية الخلق:

رتق، فتق، فطر، خلق، فلق.

إن الآية، في إطارها ومعناها العام، توحي بالتشابه الشديد بين السماوات والأرض، وبقربها من بعضها البعض، وبأنها أفرادٌ لمنظومةٍ، أو مجموعة، واحدة، خُلِقَت معاً.

كما أن حرف العطف، الواو، يدلّ في حدّ ذاته على التشابه بين المعطوف والمعطوف عليه، أي بين السماوات والأرض.

هذا هو قول القرآن في خلق الأرض والسماوات السبع.. إنه رتقٌ ففتق.

ومِمَّ؟ إنّه من «دخان» ـ كما جاء في الآيات ٩ ـ ١٢ من سورة فُصِّلَت.

الرتق والفتق، و«النظرية السديمية»

وما هي النظرية الأقوى، والأكثر قبولاً، من عامة العلماء، اليوم، في نشوء المنظومة الشمسية؟

إنها «النظرية السديمية» التي تقول بأن أصل الكواكب السيارة والشمس هو سديم، أي قرص عظيم من الغاز والغبار، أو «الدخان» الذي انكمش ثم انفصل لتكوين هذه الأجرام[١].

---

(١) النظرية السديمية: إن أصل الكواكب السيارة في منظومتنا الشمسية هو سديمٌ كان يتكوّن من مواد معدنية، كالحديد، والنحاس، والصخر، ومواد سائلة، كالماء، ومواد غازية، كالهايدروجين والامونيا، وكانت متصلةً مع بعضها في كتلةٍ واحدة، أي أنها في أصلها لم تكن شيئاً واحداً بل خليطاً من مواد متعددة التحمت ببعضها، وعندما انكمش السديم المكوِّن لها تفرقت المواد الصلبة فكوّنت الكواكب القريبة من الشمس، وذهبت الغازات بعيداً لتكوين الكواكب القصيّة. انظر «هذا الكون العجيب، من الذرة إلى المجرة» للمؤلف.

نتائج:

١ ـ كانت السماوات والأرض متصلتين ببعضهما، ثم فَصَل الله تعالى بينهما (رتقٌ ثم فتق).

٢ ـ وهي قريبةٌ من بعضها نسبياًمن بعد الفصل.

٣ ـ وهي «عضوات» في مجموعةٍ، أو منظومةٍ، واحدة.

٤ ـ كما أنها متشابهة، لأن الرتق والفتق، أو الجمع والفصل، لا يكونان إلاّ بين المتشابهين، فهي من أصلٍ واحد، وهي تتشابه كيمياوياً وفيزيائياً إلى حدٍّ ما، كتشابه الأخوة، ولكن من غير تماثل.

٥ ـ وبسبب التشابه بينهما، ولأن الأرض جُرْمٌ كروي، فلا بدّ أن السماوات السبع هي أيضاً أجرامٌ كروية.

٦ ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. جعل الحقُّ سبحانه الماء مصدراً لكل حياة، وهي إشارةٌ تذكّرنا بأن هذا الأمر لا يتأتى إلاّ إذا كانت الكرة الأرضية على مسافةٍ «حَرِجَة» من الشمس. أي أن بُعد الأرض عن الشمس مقصود ومحسوب[1] بدقةٍ متناهية من خالقها، فلو ابتعدت الأرض قليلاً لانجمد كل شيءٍ على وجه الأرض، ولو اقتربت قليلاً لجفّ كل ما عليها واحترق، ولما كان هنالك من أثرٍ للحياة عليها.

إن هذه الآية الجامعة والمعجزة، والتي جاءت ببلاغةٍ إلَهيةٍ رائعة ساحرة، تنطبق على خلق المنظومة الشمسية وتكوّن الكواكب السيارة كما هي معروفة اليوم، أي إنها قد جاءت بحقيقةٍ لم تُعرَف إلا في القرن العشرين.

٧ ـ وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مخاطبةٌ للكافرين على وجه

---

(١) قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، وهكذا هي كل الأجرام السماوية، بل كلُّ خَلْقِ الله تعالى.

الخصوص، وقد تكون فيه إشارةٌ إلى أن الكافرين سوف يكتشفون حقيقة هذا الخلق قبل غيرهم من الناس. إذ إن نظرية نشوء المجموعة الشمسية المعروفة بالنظرية السديمية لم تعرف إلا في القرن العشرين، وفي الغرب. وهي لم تظهر، أول ما ظهرت، في بلاد الإسلام، فكأنّ الله تعالى يخاطب الكافرين من الناس في الغرب، على وجه الخصوص، ممن قد اتضحت لهم، أولاً، هذه الحقيقة، وهي تأنيبٌ لهم على عدم إيمانهم رغم انكشاف آيات الله تعالى المعجزة لهم. ولئن كان المؤمنون، منذ زمن التنزيل، يؤمنون بهذه الآية من قبل ظهور النظرية الحديثة لخلق المنظومة الشمسية، فلقد شاء الحقُّ تبارك وتعالى أن يُفْجِأَ الناسَ بها من جديد، وفي هذا العصر، آية هي حقيقةٌ علميةٌ باهرة شهد بها وأجمع عليها علماء الفلك الحديث، ولا شك أن في ذلك إقامةً للحُجّة على الكافرين في هذا الزمان على عدم إيمانهم.

تشابهٌ مدهش بين ما جاء في كتاب الله و«النظرية السديمية»

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ(1) فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا(2) بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فُصِّلَتْ: ٩-١٢].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩].

إن مجموع مدّة الخلق هو (يومان لخلق الأرض + يومان لتقدير أقواتها + يومان لخلق السماوات، وتساوي ٦ أيام). قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [هود: ٧] والمقصود بالأيام هنا سِتَّةُ حِقَب، أو أطوار، لا أيامنا نحن(3).

وما المقصود بإتيان الأرض طائعةً لله تعالى في بداية خلقها، ومعها السماء؟

---

(١) الدخان (في المعجم الوجيز): ما يتصاعد عن النار من دقائق الوقود غير المحترقة، وهو «المنتوجات الغازية المختلفة الكثافة والتي تتصاعد من المواد التي هي في حالة حرارية مرتفعة جداً لدرجة التوهج» (دائرة المعارف الفرنسية لمؤلفها كيلييه، ص ٦٧٣).

(٢) سيأتي تفصيل معنى «السماء الدنيا» و«السماوات العلى»، ومعاني «السماء»، لاحقاً.

(٣) انظر كتاب «القيامة بين العلم والقرآن»، للمؤلف. ولقد ذكرت «التوراة» أنّ الخَلْق تمّ في ستة أيام، تبعها يومُ راحةٍ هو السبت، ويقول القرآن الكريم إن الخلق تمّ في ستة أيام، ولكن من دون ذكر الراحة، لأن الله تعالى مُنَـزَّهٌ عن التعب، فالتعب للبشر لا لله عزّ وجلّ. جاء في كتاب «إعجازات حديثة علمية ورقمية في القرآن» للدكتور رفيق أبو السعود، نشر دار المعرفة (١٩٩١)، أنّ أوّل من انتبه إلى تفسير كلمة (اليوم) هو العالم الشيخ أبو السعود في تفسيره المعروف باسمه (١٤٩٠ ـ ١٥٧٤م)، وأخذ منه المفسر السيد يوسف هذا المعنى عام ١٩٣٤ حيث اعتبر أيام الخلق عبارة عن «آجال» أو دورات زمنية طويلة.

إنه انقيادها وخضوعها لأمر الله فيما يشاء من مُلكه، ومن ذلك حركاتها، حول نفسها، وحول الشمس، وسرعاتها، وأبعادها، وكل صفاتها، وهو أيضاً انقيادها لقوة الجاذبية التي عبّر عنها تعالى بالمَسْك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وإذا كانت الأرض تدور حول محورها، وحول الشمس، مُنقادةً للقوانين والسُّنَن التي أودعها تعالى فيها، فإننا نستنتج الشيء نفسه بالنسبة إلى السماوات السبع.

وفي قوله سبحانه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ . . فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ يقعُ قولهُ (السماء) مقابل (سبع سموات)، أي أن الأولى صارت الثانية.

نتائج:

في النصّ القرآني: سماءٌ (من «دخان»، أي غازٍ وغبار) ← سبع سموات

وفي النظرية السديمية: سديم (غاز وبخار هو أصل المنظومة الشمسية) ← الكواكب السيارة.

وفي النص القرآني في الموضوع السابق: السماوات السبع والأرض كانت متصلة ببعضها (رتق) ثم ← فصل بينها تعالى (فتق).

ونخرج من ذلك إلى أن السماوات السبع هي الكواكب السيارة حول الشمس، غير الأرض.

فأنظُرْ كيف تطابقت أحدث نظرية مقبولة وأقواها حول نشوء المنظومة الشمسية مع آيات الله تعالى.

وفي قوله تعالى: سماءٌ من دخان ← سبع سماوات، يتّضح:

● أنّ السماء هنا هي السديم الذي هو أصل المنظومة الشمسية، ودليلنا القاطع على ذلك وصفه تعالى لها بأنها من دخان، أي من غازٍ وغبار.

● أن السماء المذكورة هنا ليست واحدة من السماوات السبع، لأن الأولى أصلٌ للثانية.

● أي أن هناك، في القرآن الكريم، أكثر من معنى، بل معاني عديدة، لكلمة «السماء».

خلق السماوات والأرض

فَطْر = فتْق = فَلْق

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا . . ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿ . . فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ . . ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . ﴾ [إبراهيم: ١٠].

للفَطْر معنيان:

أولهما هو الخَلْق.

وثانيهما هو الشَّق (= الفتق = الفلق)،

وكلا المعنيين ينطبقان هنا على خلق السماوات والأرض، في آنٍ، وهو ما قد شرحناه سابقاً.

وفَطْرُكَ للشيء، أي شَقُّكَ له إلى قِطَعٍ عديدة، يعني أن هذه القِطَع متشابهةٌ في مادّتها، لأنها من المادة ذاتها التي شققتها. وإذا كانت الأرض كرويةً صلبة فإن التفكير المنطقي يقودنا إلى أن السماوات، هنا، كرويةٌ صلبةٌ أيضاً.

وإذا كان تعالى قد خلق الأرض في يومين، وقدَّرَ فيها أقواتها في أربعة أيام

(مجموع الفترة هو أربعة أيام، لأن تقدير الأقوات ابتدأ من خلق الأرض، ولقد أجمع المفسّرون على ذلك)، فإنه قد خلق السماوات السبع كلهن في يومين اثنين فقط، ويمكن أن يكون تعليل ذلك:

١ ـ أن السماوات، رغم أنها سبع، إلاّ أنها قد خلقت في وقت واحد.

٢ ـ أشار الحقُّ سبحانه إلى تقدير الأقوات للأرض في فترةٍ مقدارها أربعة أيام، وهو ما لم يذكره في خَلق السماوات.

إذاً:

● بالنسبة إلى الأرض هناك تقديرٌ للأقوات.

● وأما بالنسبة إلى السماوات السبع، فهناك وحيٌ بالأمر في كل سماء، وحسب، ومن غير ذكرٍ لتقدير الأقوات.

نتائج:

١ ـ إن السماوات السبع تشابه الأرض في أن أصلها واحد، إذ إنها قد انفصلت عن بعضها في بداية خلقها، وفي كونها كرويةً، صلبة، وفي دورانها حول نفسها وحول الشمس، وفي انقيادها لقوى الجاذبية.

٢ ـ لقد أخذت الأرض في خلقها، من الزمن، فوق ما قد أخذته السماوات السبع أجمعين، وهذا يدل على مكانة الأرض الخاصة عند الله تعالى والمتناسبة مع استخلافه للناس فيها.

الشمس والقمر والنجوم ليست من السماوات

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ . . ﴾

[الأعراف: ٥٤]

استوى على العرش: انظر ص ١٨٣ .

١ ـ تذكر الآية الكريمة خَلْق الله تعالى لِـ:

- السماوات.
- الأرض.
- الشمس.
- القمر.
- النجوم.

فوجب أنّ السماوات المقصودة هنا ليست هي الشمس ولا القمر ولا النجوم، ولا مجموع هذه الأشياء، ولا جزءاً منها.

٢ ـ ترتيب ذكر الأجرام السماوية في الآية الكريمة:

هي ابتدأت بذكر المنظومة الشمسية ومكوناتها، ثم جاء ذكر بقية النجوم، أو الشموس الأخرى الأبعد.

وبالنسبة إلى المنظومة الشمسية فلقد ابتدأت بالسماوات، وهي هنا الكواكب السيارة، فالأرض، فالشمس. والمنظومة الشمسية تبتدىء بالكواكب السيارة، غير الأرض، وهي الكواكب «القَصِيَّة»، ثم الأرض، ثم الكواكب «الأرضية»، أي

الكواكب الأقرب للشمس من الأرض، ويجيء أخيراً ذكر الشمس التي تقع في المركز من المنظومة الشمسية. ثم جاء ذكر تابع الأرض الصغير: القمر.

والسماء، في اللغة، كل ما علا عنك، وكلُّ ما علاك فقد سَماك، والأرض: ما سَفُل. وللشخص الذي يقف على الأرض ويعتبرها مركزاً له فإنّ جميع الكواكب السيارة، القصيُّ منها والداني، تعتبر سماواتٍ بالنسبة إليه، فهي تعلوه. وإذا قلنا: عَلاكَ، أو هو فوقك، فإننا نقصد أنه بعيدٌ عن الأرض، وكلما كان الشيء أعلى عن الأرض كلما صار المعنى أنه أبعد وأبعد عن الأرض في الفضاء الكبير. وأما الناظر للمجموعة الشمسية من بعيد فإن أقرب شيءٍ له هو آخر الكواكب القصيّة، وهو نبتون[1]، ويبتدىء العدّ بالنسبة إليه ابتداءً من الكواكب القصيّة، فالأرض، فالكواكب القريبة، وينتهي العدّ أخيراً بالشمس.

(١) انظر ص ٦٦.

طيّ السماء، والسماوات، يوم القيامة ما هو؟

﴿.. وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ..﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ..﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

الطيّ: ضد النشر، وطوى الشيءَ: أي ضَمَّ أجزاءه بعضها إلى بعض، أو لفّ بعضه فوق بعض.

يوم نطوي السماء كطي السِّجلّ للكتب: أي يوم نطوي السماء طياً مثل طيّ السجل على ما فيه من الصحف المكتوبات.

- هناك، في الآية الأولى، طيٌّ للسماوات.
- وفي الآية الثانية طيٌّ للسماء.
- وكلتا الآيتين تتحدثان على يوم القيامة.
- أي أن السماء، في الآية الثانية، هي بمعنى السماوات التي جاءت في الآية الأولى. والسماوات هنا هي الكواكب السيارة في منظومتنا الشمسية، إذ تُضَمّ السماوات والأرض إلى بعضها البعض مثلما كان الحال أول خلقها، وتناثر الكواكب السيارة يوم القيامة[1] يعني أنها تصير قطعاً عديدة متناثرة ثم هي تجتمع إلى بعضها البعض بفعل الجاذبية الكُتَلِيّة.

---

(١) ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

ويكون معنى «السماء» هنا هو المنظومة الشمسية، وطيُّها هو جمعٌ للكواكب السيارة المتناثرة، فهو إذاً:

رتقٌ من بعد فتق.

أو طيٌّ من بعد فَطْر.

ولقد قلنا في الصفحة ٤٣ إن خلق السماوات والأرض كان فصلاً، أو فطراً، ما بين السماوات والأرض، في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ وهكذا، فإن السماوات والأرض، أي الكواكب السيارة في منظومتنا الشمسية، تعود يوم القيامة مثلما كانت عند خلقها. إنه فتقٌ يعقبه رتقٌ ثم فتق، وصدق الله العظيم: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾.

إنّ الله يُمسك السماوات والأرض

الإمساك: قوة الجاذبية

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

يُمْسِك: يمنع.

تزولا: قال الراغب: زال الشيءُ يزولُ زَوالاً بمعنى فارق طريقَه جانحاً عنه.

إنْ أمْسَكَهُما: إنْ نافية بمعنى ما، والمعنى ما منعهما.

يمنعُ السماوات والأرض أنْ تزولا: أي يمنع كلاًّ منهما من أن تجنح أو تخرج من مكانها.

نتائج:

١ - الإمساك كناية عن قوة الجاذبية[١]، وهي جاذبية الشمس للأرض وللكواكب السيارة الأخرى.

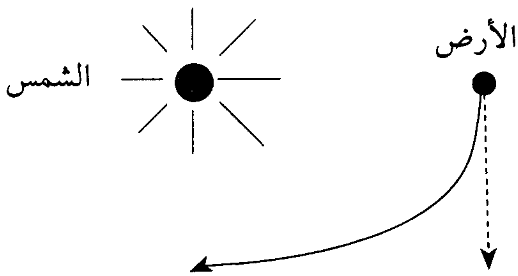
٢ - إنّ قوة الجاذبية هذه تحفظ الأرض في موقعها، دائرةً حول الشمس. وفقدان قوة جاذبية الشمس للأرض يؤدي إلى انفلات الأرض من مدارها بعيداً.

---

(١) تعتمد قوة الجاذبية على الكتلة، كتلتي الجرمين المتجاذبين، وعلى المسافة بينهما. هي قوة أودعها الخالق في الأشياء، وهي تعلن عن نفسها بقانون اكتشفه «نيوتن» ولكنه لم يضعه، إذ هو كان موجوداً من قبل، ومنذ أن خلق الله تعالى الكون. إنه اكتشاف لما نجهل من سنن وقوانين أودعها تعالى في مخلوقاته، ولا أكثر من ذلك. ولقد عرفنا أن الجاذبية سببها مغناطيسية قوية للأرض.

٣ ـ إن السماوات تشابه الأرض في إمساك الله تعالى بها، وفي سبب إزالتها، معاً، مما يستتبعُ أن السماوات محكومة بقوة الجاذبية نفسها التي تُمسِك بالأرض في مدارها، وأن فقدان مصدر هذه الجاذبية، وهو الشمس، يستتبعه انفلاتٌ للسماوات السبع وانفلات الأرض من مدارها سواءً بسواء، وهو ما يدل على أن السماوات هي أجرام كروية صلبة كالأرض تدور حول الشمس، وأنها هي نفسها الكواكب السيارة.

٤ ـ إن السماوات السبع والأرض (المنظومة الشمسية) تزول يوم القيامة معاً بزوال سبب الجاذبية الذي هو الشمس، وأما زوال غيرها من الأجرام فلم يذكره تعالى، ويبدو من هذه الآية أن قيامة المنظومة الشمسية تقوم معاً، ومن غير ذكرٍ لغيرها.



شكل (١)

إن الجاذبية الشمسية تمنع الأرض (وبقية الكواكب السيارة) من أن تجنح بعيداً عن مسارها الدائري حول الشمس، كما أن حركة الأرض السريعة تمنعها من الانجذاب نحو الشمس.

السماوات صلبةٌ كالأرض

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [لقمان: ١٦].

قالوا: إن الكيلوغرام من الخردل يبلغ (٩١٣) ألف حبّة، وعليه تكون الحبة جزءاً من ألفٍ من الغرام، فهي أصغر وزنٍ لحَب نبات، أي مليغرامٍ واحدٍ تقريباً.

نتيجة:

إن حبة الخردل لا تكون في فراغٍ ولا في هواء، بل هي مادة صلبة توجد فوق سطح الأرض. إذاً: السماوات المذكورة في الآية هى أجسامٌ صلبة مثل الصخر، ومثل الأرض.

من صفات السماوات «السبع»

السماوات السبع والأرض = الكواكب السيارة حول الشمس

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ . ﴾ [الرعد: ٢].

بغير عَمَدٍ: أي بغير دعائم، اسمُ جمعٍ مفرده عِماد.

قال الشيخ حسنين مخلوف: أي رفعَ السماواتِ مرئيةً لكم بدون دعائم تدعمُها.

نتائج:

١ ـ خَلقَ المولى سبحانه السماوات.

٢ ـ وجعلها مرتفعة.

٣ ـ السماوات تقع على مسافة من الأرض، وليست على تماسٍّ معها، وهو ما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ، لأنّ رفعكَ للشيءِ بالعِماد فوقك يعني بالضرورة أنّ هناك مسافةً بينك وبينه بمقدار طول العماد نفسه. إنّ هذه الحقيقة تنفي أن تكون السماوات السبع هي طبقات الغلاف الجوي المحيط بالأرض، أو أن يكون غلاف الأرض الجوي هو السماء الأولى منها[1]، وهي بديهية يجب أن نعرفها من خلال استيعابنا لحقيقة (الفتق)، و(الفطر)، و(الفلق).

٤ ـ إن السماوات المذكورة مرئيةٌ، في عمومها، للعين المجردة.

---

(١) كما يرى الدكتور جمال الدين الفندي في كتابه «السموات السبع»، ص ٢٤.

٥ ـ وهناك قوة تُمسِك بالسماوات وتمنعها من «السقوط».

٦ ـ ولكن هذه القوة غيرُ مرئيّةٍ بالنسبة إلينا.

٧ ـ إن أي جسمٍ قريب من الأرض وليس له دعائم يسقط إلى أسفل (أي ينجذب نحوها)، وكذلك فلولا (رفع السماوات بغير عمد مرئية) لسقطت، أي لانجذبت نحو الشمس. والآية تشير إلى قوّةٍ معاكسة للجاذبية التي أشار إليها تعالى في الآية (٤١) من سورة فاطر. وهذه القوة المعاكسة ناشئة عن دوران الكواكب السيارة حول الشمس، مما يمنعها من الانجذاب إليها[١].

٨ ـ ويعني ذلك، بالضرورة، أن السماوات هنا هي أجرامٌ ذات كتلة، وهي ليست فضاءً أو فراغاً.

٩ ـ إن مجرّد إقران الأرض بالسماوات يدلّ على تشابهها، فهو يدلّ، من ناحية، على أن السماوات هي كواكب سيارة كروية، كالأرض، وهو، من ناحية أخرى، يقصد الأرض بالمعنى الفلكي، أي الكرة الأرضية، لا القطعة من الأرض.

١٠ ـ إنّ السماوات، والأرض، والشمس، والقمر، هي أعضاء في مجموعة، أو منظومة، تشبه المنظومة الشمسية، وهو ما يشير إلى أنّ السموات، هنا، هي نفسها الكواكب السيارة.

١١ ـ إنها، كلها، وبما فيها السماوات، تجري، أي تسير مسرعةً في مداراتها، وآية ذلك استعماله تعالى للفظ (كلٌّ) في وصف جريانها.

١٢ ـ كما إنّ علينا أن نلتفت إلى الحكمة من مجيء قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ في موضعه هذا من الآية، إذ إنه مرتبطٌ بالجزء الأول منها. هو فيه إشارةٌ

---

(١) لا بدّ للكوكب السيار أن يجري بسرعة شديدة حتى يتغلب على جاذبية الشمس له. ولو أُطلِقَ صاروخٌ من الأرض فإنه سرعان ما يهوي إلى الأرض ـ ما لم تصل سرعته إلى حدٍّ معيّنٍ أدنى. فبالنسبة لصاروخٍ قريب من الأرضِ يجب أن لا تقل سرعته عن (٢٧٠٠٠) كم/ساعة حتى لا يسقط ثانية إلى الأرض. إنّ صاروخاً يُطلَق بمثل هذه السرعة سوف يبقى في الفضاء يدور حول الأرض باعتباره قمراً صناعياً، لكن الصاروخ الاعتيادي لا يمكنه أن يحصل على هذه السرعة، ولذلك تستعمل صواريخ من مراحل متعددة لإطلاق الأقمار الصناعية والسفن الفضائية الأخرى. حقاً إنّه (لا تنفذون إلا بسلطان).

إلى أنّ الشمس، وكما نعلم الآن، هي المصدر المباشر، الذي خلقه تعالى، لكل أنـواع الحيـاة علـى وجـه الأرض، ثـم إنّهـا السبـب فـي قـوة الجـاذبيـة التـي تمسـك بالسماوات، أو الكواكب السيارة، من الانفلات بعيداً، وهو ما يؤدي بنا إلى أن السماوات هي الكواكب السيارة، حول الشمس، لا غير.

١٣ ـ إنّ أجَلها، كلَّها، واحد، إذ هو يصيب، وبنص الآية، السماوات ـ ومعها الأرض ـ، والشمس، والقمر، وفي موعد قد حدّده تعالى.

* إن في قوله تعالى: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ لقِمّةً في الروعة، وآيةً في الإعجاز: إعجازٌ في البيان مثلما هو إعجازٌ في الخلق، فلقد جاءت الآيةُ كلها معجزةً جامعة مانعة في ثلاثة ألفاظ.

وانظر إلى جمال قوله تعالى: ﴿ يَجْرِي لِأَجَلٍ ﴾. فما تكاد أن تقرأ كلمة (يجري)، وهي تنبض بالحركة والحياة، وتلخّص حياة المنظومة الشمسية كلها، منذ نشوئها وحتى قيامتها، حتى يجيء بعدها، ومن دون فاصل، قوله تعالى ﴿ لِأَجَلٍ ﴾، الذي سرعان ما يُذَكِّرك بالموت الذي يجري إليه كل مخلوق جرياً، وبأنّ لكل شيء أجلاً، وبيوم القيامة! ثم لاحظ التناغم العجيب بين (جرى) و(أجل) والتشابه في حروفهما.

حقاً إن هاتين اللفظتين لتلخصان أمر كل مخلوقٍ في الكون!

بل وأكثر من هذا.

إن لفظة (يجري) وحدها، وبينما هي تنطق بالحركة التي هي عنوان كل حياة، إذا بها، في حقيقتها، عنوانٌ على النهاية المحتومة والموت الذي لا مفرّ منه لكل المخلوقين! إنّ الخالق سبحانه هو الحي الذي لا يموت، والإنسان، إذا ما سار في حياته فإنما هو يسير، في حقيقته، ذكر أو نسي، شاء أم أبى، نحو نهايته التي لا بدّ منها، فلقد ينسى الإنسان أنه ميت، وأنه يسير نحو أجله المحتوم، وأن علّة موته هي نفسها علة حياته. ذلك لأنه مخلوق، ولأن موت المخلوقات قانونٌ عام يحكم كل حياة، وهو قانون ينطق بألوهيّة الحيّ الذي لا يموت، ولقد قيل بحق: وبضدّها تتميز الأشياء.

الشمس سُخِّرَت للسماوات والأرض

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . .﴾ [العنكبوت: ٦١].

نتائج:

١ ـ إن تسخير الشمس هو للسماوات السبع، وهو يكمن في إشعاعها للضوء، وفي جاذبيتها، ومثلما أنّ الشمس مسخّرةٌ للأرض بإضاءتها إياها فإنها مُسخّرة للسماوات تضيئها كإضاءتها للأرض، وهي إشارةٌ إلى أن السماوات السبع أجرامٌ تشبه الأرض.

٢ ـ تَـمَّ خلقُ السماوات، والأرض، والشمس (المنظومة الشمسية) في وقتٍ واحد. ونحن لا نعرف في المنظومة الشمسية، من خَلْقِ الله تعالى الواضح البارز، غير الأرض والشمس، إلا الكواكب السيارة الأخرى، فوجب أن تكون هي السمٰوات المقصودة بهذه الآية.

لا تنفذون إلّا بسلطان

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ.
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.
يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣ ـ ٣٥].

إن استطعتم: إنْ تُفيد التشكيك في وقوع الأمر، لأنه ليس مَظنّة أن يحصل، أي لو استطعتم، ولن تستطيعوا.

تنفذوا: نَفَذَ الشيءَ أي خَرقَهُ وجاز عنه وخلص عنه.

أقطار: ١ ـ نواحٍ، جهات.

٢ ـ متتابعة كالإبل ج قُطُر وقُطُرات: قطعةٌ منها يلي بعضها بعضاً على نَسَقٍ واحد.

السلطان: القوة والقهر والتمكن، وتسلَّطَ عليه: تحكّم وتمكّن وسيطر. وقالوا: شُواظٌ من نارٍ: لهبٌ بلا دخان، والنحاس هنا: دخانٌ بلا لهب، وقيل صُفرٌ مُذاب.

* لا يمكن للجنّ والإنس أن يخرجوا من السماوات والأرض إلاّ بتمكّنٍ، وقوّةٍ، وقهر. وإذا كانت السماوات هنا، وكما قد رأينا في الموضوع السابق، هي الكواكب السيارة، فإن الله تعالى يتحدى خلقه من الجن والإنس في أن ينفذوا إلى خارج المنظومة الشمسية. ونشير، أولاً، إلى تكرر لفظ (النفاذ) من أقطار السماوات والأرض، في الآية الكريمة الأولى، ثلاث مرات. والنفاذ ليس هو السير وحده، أو

الخروج وحده، كما أنه ليس الاختراق وحده. هو كلُّ ذلك، وفوقه أيضاً الابتعاد والانفلات ضد قوّةٍ مانعة، كما هو واضح من نصّ الآية الكريمة، وهو إشارةٌ إلى الانفلات من قوة الجاذبية مثلما هو إشارةٌ إلى بُعد المسافات وقلّةِ حيلة الإنسان حيالها.

ونسأل مرةً أخرى:

هل السماوات المذكورة هنا تعني الكون المحيط بنا كلّه، مما قد عرفناه في العصر الحاضر، أي مجرّاته كلها؟

إنّ كلمة «السماوات» مقرونةً ومتبوعة بكلمة «الأرض»، وكما قد رأينا سابقاً، ليست هي غلاف الأرض الجوي، ولا جزءاً منه، كما أنها ليست الشمس، ولا النجوم، ولا الفضاء. يبقى هناك احتمالان اثنان، لا ثالث لهما، في معنى كلمة السماوات هنا:

١ ـ إمّا أنها المجرّات، وقد عَدَّ العلماء منها، وإلى حدِّ الآن، حوالى المائة مليار، وعندها يكون النفاذ من المجرّات إلى خارجها، أي خروجاً من كلِّ الكون الذي نعرفه، ولكن هذا غير معقول. ثم إن العلماء يُجمعون على استحالة الوصول إلى طرف مجرّتنا نفسها، لا بل أن نصل إلى أقرب نجمٍ إلينا، فكيف هو الأمر بالوصول إلى بقية المجرّات؟

إن الكون بحدوده التي نعرفها يتكوّن من «أكداس» من المجرّات، والنفاذ منها يعني خروجاً من الكون إلى خارجه، وهذا مُحال. إذاً فتفسير السماوات السبع بالمجرّات هو أمرٌ غير معقول، وغير صحيح. وحتى لو افترضنا، جدلاً، بأن السماوات السبع هي مجرّاتٌ سبع مما يحيط بمجرتنا، فليس هنالك من تمايزٍ لمجرّاتٍ سبعٍ قريبةٍ منا، ممّا نعرف، عن غيرها، في مجموعةٍ واحدةٍ متمايزةٍ عن غيرها من المجرات ومتكاملةٍ مع بعضها البعض، بحيث تكون هي المقصودة بتعبير (السماوات والأرض). ثم إنّ في هذا القول، وكما هو واضح، إقراناً للشيء، وهو

الأرض هنا، بغير نظيره، إذ ما وجه أن نفصل الأرض عن عائلتها في المنظومة الشمسية، بل وعن مجرّتنا، لنقرنها بعوائل غريبة عنها وبعيدة جداً هي المجرّات الأخرى؟

٢ ـ أو أنّ السمٰوات المقصودة هنا، وهو الاحتمالُ الوحيد الباقي، هي الكواكب السيارة حول الشمس لا غير، وهو تفسيرٌ منطقي ومعقول تماماً. إذ إنّ كل أوصاف السماوات السبع، في القرآن الكريم، هي هي نفسها أوصاف الكواكب السيارة، كما لا توجد أية حقيقةٍ علمية تناقض هذا الرأي.

وإنّ في هذه الآية لإَشارةً مُهِمَّةً أخرى إلى الكون ما بعد السماوات والأرض. وإلى الذين يعتقدون بأن القرآن الكريم لم يتكلم على ما هو أكثر أو ما هو أبعد من السماوات السبع، وأنها هي الكون كله، أقول:

إذا كان الحقُّ سبحانه قد تحدّى الجن والإنس في أن ينفذوا من السماوات والأرض فإن ذلك يعني أن السماوات السبع ليست هي خاتمة المطاف فيما قد خلق تعالى، بل إنّ هناك كوناً عظيماً يلي السمٰوات السبع. بل هو، ونظراً للتحدي الإلٰهي الوارد في الآية، أعظم وأكبر أبعاداً بكثير. والله تعالى قد أخبرنا بأنّ هذا الحيّز الضخم الذي لا يحلُم إنسانٌ بالوصول إلى أطرافه بعد، وأعني به المنظومة الشمسية، ليعتبر صغيراً، وصغيراً جداً، بل كقطرةٍ من بحر وأصغر من ذلك بالنسبة إلى ما ورائه من نجوم ومجرات[1]. ونجد هذا المعنى أيضاً في قَسَم الله العظيم بمواقع النجوم: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾، كما نجده في قول النبي (ص): «ما السماواتُ السبعُ وما فيهنَّ والأَرَضُون السبع وما فيهنَّ وما بينهنَّ إلا كحلقةٍ مُلقاةٍ في أرضٍ فَلاة».

(١) بينما يستغرق ضوء الشمس في وصوله إلينا ½ ٨ دقيقة فإن الضوء الصادر من أقرب نجمٍ آخر إلينا، في نصف الكرة الأرضية الشمالي، وهو «الشعرىٰ اليمانية» يحتاج إلى ٤،٥ سنة ضوئية، وأما قطر مجرة درب التبانة فيقدّر بمائة ألف سنة ضوئية، فتصوَّر.

بعد أن خَلَصْنا إلى أن السموات والأرض هي الكواكب السيارة، نعود فنسأل: هل إنّ النفاذ من أقطار السماوات والأرض، أي خارج المنظومة الشمسية، هو أمرٌ ممكن أم لا؟

إنّ التحدي الإلّهي في الآية الكريمة يدلّ على أنّ النفاذ صعبٌ جداً، ولكن هل هو مستحيل؟ إن النفاذ مشروط بالشرط الإلّهي، وهو وجود السلطان، أو الوسيلة والأداة المتمكنة القوية. ولقد كان النفاذ في الأربعة عشر قرناً التي أعقبت التنزيل، أمراً مستحيلاً، بل هو لم يخطر على قلب بشر. وأما الآن، وبوجود ما يبدو أنّه الأداة المناسبة (الصاروخ)، فالأمر مختلفٌ عن ذلك. لقد وصفنا الصاروخ بالأداة المناسبة، ولكن هل هو كذلك حقاً؟ إنّ ما نحتاج إليه للوصول إلى النجوم الأخرى، ما خلا الشمس، هو سفنٌ فضائية ذات سُرَعٍ قريبة من سرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية)، بينما تبلغ سرعة السفينة الفضائية (الرحَّالة) ٦٥,٠٠٠كم/ ساعة (أقلّ من ٢٠كم/ ثانية)، أي أنها سوف **تحتاج إلى أكثر من (٧٠,٠٠٠) عامٍ للوصول إلى أقرب نجم إلينا**[١] وهو الظُّلْمان (قِنطورس). يتبين من ذلك أن النفاذ خارج المنظومة الشمسية، والوصول إلى نجومٍ وكواكب سيارة خارجها هو أمرٌ غير محتمل، وعلى الإطلاق، في المستقبل المنظور، إلاّ أن الآية لا تنفي إمكانية وجود أداةٍ، أو (سلطان)، بما قد يسمح بذلك، ولكن حتى لو تمّ ذلك فإن النفاذ لن ينجح: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، ويقول العلماء بأن النيازك تجيء من خارج المنظومة الشمسية، وهي تتكوّن من صخور معدنية، وقد تكون وأمثالها مما لا نعلم من أجسامٍ صغيرة لا نراها بالمَراقب هي الحائل الذي يحول دون النفاذ[٢].

إننا لا نستبعد أن يكون قوله تعالى استبعاداً للأمر برُمَّتِهِ، وتعجيزاً للناس عن سلطانٍ ليسوا هم ببالغيه.

---

(١) ممّا يُرىٰ من نصف الكرة الأرضية الجنوبي.

(٢) وجاء اكتشاف «حزامِ كويبر» مؤخراً، وهو حزامٌ يحيط بالمنظومة الشمسية، ويتكون من أكثر من ٢٠٠ مليون مذنّب، دليلاً آخر معجزاً على صعوبة النفاذ البالغة من المنظومة الشمسية، أو أقطار السماوات والأرض..

حقاً إن هذه الآية الكريمة لمحيِّرةٌ جداً، وهي تنطق بالغيب، بحقيقة التمكن من صنع الصواريخ الدافعة للسفن الفضائية، التي تُرْسَل، غيرَ مأهولةٍ، من الأرض إلى الكواكب السيارة[1]، من غير أن يأمل، مع ذلك، وفي المستقبل المنظور، أَحَدٌ من العلماء في التفكير بنفاذ الإنسان نفسه، لا مَرْكباته فحسب، خارج المنظومة الشمسية.

وكأنّ الآية الكريمة، ومن وراء الغيب البعيد، ومن قبل ١٤ قرناً، تقول للناس إنه سوف يكون في إمكانهم، مستقبلاً، النفاذ من الأرض إلى بعض السماوات السبع (الكواكب السيارة) من غير أن يكون في الإمكان النفاذ إلى ما هو أبعد من ذلك من العوالم التي تقع خارج المنظومة الشمسية. فهذا هو الحدّ الذي يمكن أن يصل إليه (سلطانٌ) أو (صاروخ) مأهول صنعه بشر، أي أنّ الإنسان سوف يبقى، مادامت السماوات والأرض، محصوراً داخل حدود المنظومة الشمسية.

نتائج:

١ ـ إن السماوات السبع ليست هي الكون كلّه ممّا قد أشار تعالى إلى خَلقه، بل إن الكون ما بعد السماوات السبع واسعٌ جداً، وبما لا يُتصوَّر.

٢ ـ إن السماوات السبع مع الأرض هي الكواكب السيارة لا غير.

٣ ـ وهي تلي بعضها بعضاً على نسقٍ واحد.

٤ ـ إن لفظ (النفاذ) خارج السماوات والأرض يدل على الانفلات من قوى الجاذبية في المنظومة الشمسية.

٥ ـ تخبّرنا الآية بأن النفاذ، خارج المنظومة الشمسية، يحتاج إلى سلطان، أو وسيلة وقوة مكينة قاهرة. والحصول على تلك الأداة هو أمرٌ صعبٌ جداً إلاّ أنها لا تنفيه.

---

(١) يخطط الأمريكان للنزول بأول مركبة مأهولة على سطح كوكب سيار غير الأرض، وهو المريخ، عام ٢٠١٩.

٦ ـ وأما النجاح في النفاذ فهو محكوم بالفشل حتماً لأنه مستحيل. فيصيرُ مؤدّى الآية هو التحدي: أي يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، ولكن لن يمكنكم النفاذ أبداً.

٧ ـ وإنّ علينا أن نوضح هذا بأنّ نفاذ الإنسان، وبوساطة (السلطان) من مثل صاروخٍ أو نحوه، ليس هو كمثل نفاذ الصاروخ بذاته غير مأهول، والآية صريحة في تحدّي نفاذ الإنس والجن. كما أن الخروج من حدود المنظومة الشمسية، التي تنتهي بالكوكب (نبتون)[١]، ليس مرادفاً للوصول إلى أي نجمٍ آخر ولو كان أقرب نجم إلينا، إذ بينما يصل ضوء الشمس إلى حدود منظومتنا الخارجية في (٥) ساعات فإنه يصل إلى أقرب نجم إلينا في (٤,٥) سنة ضوئية.

٨ ـ وبينما كان التفكير بالنفاذ إلى أبعاد سحيقة في الفضاء، كالقمر أو ما هو أبعد منه بكثير، لا يخطر على قلب بشر أو هو كان يخطر في البال كالخيال في زمن التنزيل وبعده بزمن طويل، وحتى القرن الحاضر، فإن الله تعالى قد ذكر هذا الأمر في ذلك الزمان باعتباره ممكن الوقوع، وهو من معجزات كتاب الله تعالى.

---

(١) انظر ص ٦٦.

سبع سماوات طباق - ما هي؟

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [المُلك: ٣].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا .
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٥ و١٦].

أشياءُ طِباق: أي على شكل طبقاتٍ بعضُها فوق بعض.

والطِّباق: المُطابِق، يقال هذا طِباق ذاك، أي يطابقه ويوافقه، وهو مصدرُ طابَقَ مُطابَقَةً وطِباقاً، مِن طابَقَ النَّعْلَ: أي جعله طبقةً فوق أخرى.

والإطباق: التوافق، وطابَقَ بين الشيئين: جعلهما على مِثالٍ أو حذوٍ واحدٍ.

وتطابَقا: توافقا وتساويا، والطّابَق: الدَّوْر في البيت أو العمارة، والطبقة: المرتبة والدرجة.

التفاوت: الاختلاف والتباين أو التباعد.

وتفاوتَ الشيئان تفاوتاً، تباعَدَ ما بينهما، من الفَوْت، وأصلُه الفُرْجَة بين إصبعين، والجملةُ صِفَةٌ لسبعِ سماوات.

وأقول إن وصف السماوات السبع بالطِّباق يعطيها المعاني الآتية كلها:

١ ـ هي يقعُ بعضُها فوق بعض.

٢ ـ وهي على مثالٍ واحد، وعلى نَسَقٍ وحَذْوٍ واحد.

٣ ـ ومساراتها، أو مداراتها، على شكلِ طبقاتٍ يوازي بعضُها بعضاً.

٤ ـ ثم إنها، كلها، تقع على مستوىً واحدٍ تنطبقُ عليه، أو «تتطابق».

٥ ـ وهي لا تَفاوُتَ فيها، أي لا تباعد بينها ولا تقارب ولا تقاطع ولا اختلاف.

٦ ـ ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾:

● إنّ الشمس، ومثلما هي سراجٌ للأرض فهي، أيضاً، سراجٌ للسماوات السبع، وبنصّ الآية.

● وهذا السراج قد وصفه تعالى في آيةٍ أخرى بأنه وهّاج ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

● **فالشمس هي مصدرٌ للضوء المتوهج القويّ الذي يضيءُ السماوات السبع والأرض معاً.**

● وما كان خارج السماوات والأرض، كبير البعد عن الشمس، فإنّ الشمس ليست سراجاً وهّاجاً له.

● وإذا كانت الشمس سراجاً للسماوات السبع وللأرض فهذا يعني أن السماوات السبع ليست أجراماً ذاتية الإضاءة، فهي ليست نجوماً، بل هي أجرام معتمة، أو «كواكب سيارة»، كالأرض، تحتاج إلى ما يضيئها.

● وإذا كانت الشمس تضيء السماوات السبع، بضوء متوهج قوي، فمعنى ذلك أنها، أي السماوات السبع، ليست بعيدة جداً عن الشمس، كما أنها لا تنتمي إلى غيرها من الشموس (النجوم)، ولا هي تنتمي إلى مجرّةٍ غير تلك التي توجد فيها الشمس، بل الصحيح هو أن السماوات السبع قريبةٌ من الشمس التي تضيئها بضوءٍ وهّاج، وأنّها تنتمي إلى شمسنا نحن، في مجرتنا نحن، أي أن السماوات السبع هي جزءٌ من المنظومة الشمسية، وفي مجرة درب التبانة.

● كما أن خلق السماوات السبع، و (الأرض)، والقمر، والسراج، كان كوحدة متكاملة، معاً، ولأجلٍ مُسمّى واحد.

٧ ـ وأما القمر فقد جعله تعالى (نوراً) لا (سراجاً وهاجاً). إنه ليس مصدراً للضوء القوي كالشمس، بل هو يعكس النور الذي تشعّه الشمس عليه.

٨ ـ إن القمر هو نورٌ في السماوات مثلما أنّه نورٌ للأرض. قالوا: (وجعل القمر فيهن نوراً)، أي في جميع السماوات[١].

---

(١) وهو مثل قولك إن مدينة (موسكو) تقع في الاتحاد السوفييتي السابق، أو قولك إنها تقع في روسيا. فكلا القولين صحيح ما دامت الثانية جزءاً من الأولى.

٩ ـ ثم إنّ السماوات السبع (بالإضافة للأرض)، والشمس، والقمر، تنطبق كلها، على مستوى واحد لا غير.

١٠ ـ وإنّ في قوله سبحانه ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ لَسِرًّا عظيماً. فلئن جاء هذا الحديث في معرض كلامه تعالى على السماوات السبع الطباق، فإنّه أيضاً سُنَّةٌ، أو قانون إلّهي عام وشامل، إذ هو يشمل، وبنص الآية ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ كله. أي أنّ القوانين والسنن التي تحكم المخلوقات، من أجرام وغيرها هي عامّة شاملة، تشمل كل شيءٍ مخلوق في الكون، فلا اضطراب ولا زيْغ، ولا خلل ولا فوضى ولا قبح، بل إنّ كل شيء في الوجود يسبِّح لله تعالى وينطق بقدرة القادر، في نظامٍ، واتساقٍ، وجمالٍ شامل.

إنّ كلّ ما قد ذكرناه من صفات السمٰوات السبع الطباق ينطبق على وصف الكواكب السيارة. فهي يقع بعضها فوق بعض، في مداراتٍ يلي بعضها بعضاً، وهي على مثال واحد، فهي كلها أجرام كروية معتمة تشابه الأرض، وهي كلها خُلِقَت على نسقٍ واحد، إذ إنها تدور حول الشمس، التي تضيئها بالضوء الوهاج، وكلها يدور، كالأرض، حول الشمس، من يسار ليمين (عكس اتجاه عقارب الساعة). لا بل قد اكتشف العلماء تناسباً في المسافة ما بين الكوكب السيار وذلك الذي يليه، وهم قد وضعوه في قانون رياضي هو شاهدٌ على ذلك التناسب، والتوافق، والتناسق الذي يلفّ الطبيعة كلها، مما قد عرفنا وما لم نعرف. وهي تتوازى مداراتها حول الشمس، فلا هي تتقارب مداراتها من بعضها، أو تتباعد، أو تتقاطع، أو يصيبها الخلل والاضطراب، أو الانفلات أو الانجذاب نحو الشمس، بل كلٌّ في فلك يسبحون، في ميزانٍ دقيق، وترتيبٍ محكم، وحسابٍ مضبوط، وقَدَرٍ معلوم، وأجلٍ محكوم محتوم.

ثم إن الكواكب السيارة جميعاً، بالإضافة إلى الشمس، تقع كلها في مستوى واحد.

سبعُ طرائق ـ ما هي»؟

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

الطرائق: مفردها طريقة.

قال الشيخ مخلوف: «سبعُ طرائق أي سبعُ سماواتٍ بعضُها فوق بعض. والعرب تسمّي كلَّ شيءٍ فوق شيء طريقةً، بمعنى مطروقةً، من طَرَقَ النَّعْلَ: إذا وضع طاقاته بعضها فوق بعض[1]، وهو كقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ وقال الشيخ مغنية: «أي بعضُها فوق بعض تماماً كما يقول الناس (طوابق)، أمّا عدد السبعة فلعله منزّلٌ على ما اعتاد الناس أن يتخاطبوا به فيما بينهم. والمراد بالطرائق السماوات لأنّ بعضها فوق بعض، يُقال طارَقَ بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر».

وأُضيف بأن هناك معنًى آخر لكلمة الطرائق غفل عنه المفسرون، وهو أنها تدل على الطريق، والطريق إنما هي للسير، أي أنها مسارات. فالطرائق إذاً هي السماوات السبع وهي أيضاً مساراتها ومداراتها.

نتائج:

١ ـ تتصف السماوات السبع بأنها طرائقُ سبع، أي أنها توجد في طرق ومسارات سبع، وهو ما يعني، بالبديهة، أنها تسير، بل تجري مسرعةً، في سبع طُرُقٍ معلومات.

٢ ـ وأن هذه المسارات يقعُ بعضها فوق بعض.

٣ ـ وهي يوازي بعضها بعضاً في مساراتها، إذ لا يوجد بين مساراتها تباعدٌ أو تقارب، أي لا تفاوت بينها، بل إنّ المسافة بين كل مسارٍ، أو مدار، والذي يليه، ثابتة.

---

(١) وأقول: إن ذلك يعني أيضاً أن الطرائق يوازي بعضها بعضاً.

الكواكب السيّارة في منظومتنا الشمسية

وهي، بدءاً من أقربها للشمس:

١ ـ عطارد.

٢ ـ الزُّهَرَة.

٣ ـ الأرض.

٤ ـ المرّيخ.

٥ ـ المشتري.

٦ ـ زحل.

٧ ـ أورانوس.

٨ ـ نبتون.

«بلوتو» لم يَعُدْ، في أقوى النظريات المعروفة اليوم، كوكباً سياراً

اختلاف «بلوتو» عن الكواكب السيارة في المنظومة الشمسية

وأين هو «بلوتو»، الذي تجده في بعض الكتب المدرسية، والذي يجيء اسمه في آخر القائمة، أين هو من قائمتنا نحن؟

أوّلاً: إن أقوى النظريات المعروفة، في الوقت الحاضر، تشير إلى أن «بلوتو» ليس كوكباً سياراً، بل هو قمرٌ هارب من نبتون[١].

---

(١) انظر كتابنا: «هذا الكون العجيب: من الذرة إلى المجرة»، وفيه ذكرٌ لأسماءِ العديد من المصادر التي تقول بهذا الرأي، واستشهادات منها.

ثانياً: قلنا إن العديد العديد من الآيات تشير إلى أنّ السماوات السبع هي الكواكب السيارة نفسها، غير الأرض، وإنّ كلَّ وصفٍ للسماوات السبع، في القرآن الكريم، هو ينطبق على أوصاف الكواكب السيارة، لكن الكثير من هذه الأوصاف لا ينطبق على «بلوتو»، وإليك التفاصيل:

١ ـ إن الكواكب السيارة كلها، ما خلا «بلوتو»، تدور حول الشمس في مدارات «متراكزة» (centric)، أي أنّ أبعاد الكواكب السيارة عن بعضها البعض وعن الشمس تبقى ثابتة دائماً، وهو ما يعني أن مدارات هذه الكواكب يوازي بعضُها بعضاً.

وأما «بلوتو» فإنّ مداره يقترب من الشمس لأقرب من «نبتون» حيناً، ثم هو يبتعد عنها ولأبعد من «نبتون» حيناً آخر. انظر الشكل (٣)، حيث يتقاطع مدار «بلوتو» مع مدار «نبتون»، وهو ما لا يحدث بالنسبة إلى الكواكب السيارة الأخرى. إن هذا المسار المتغيّر البُعد عن الشمس يسمى بالمدار «اللامتراكز» (Eccentric).

إن مدار «بلوتو» لا يوازي بقية المدارات، فهو لا ينطبق عليه وصف (الطِّباق)، ولا (الطرائق) الذي ينطبق على السماوات السبع.

٢ ـ كما لا يصحّ أن نقول أنْ (لا تفاوت) بين مدار «بلوتو» وبقية المدارات، وللسبب نفسه.

٣ ـ تقع مدارات الكواكب السيارة كلها، ومن ضمنها الأرض، والشمس، في مستوىً واحد، وأما مدار «بلوتو» فهو يقع وحده في مستوىً آخر، ولا ينطبق هذان المستويان على بعضهما، بل إنّ هناك درجة مَيْلٍ بينهما تبلغ (١٧) درجة.

إن «بلوتو» لا ينطبق مستوى مداره على مستوى بقية الكواكب السيارة، أو السماوات السبع. إنها لا تتطابق، فهي لا ينطبق عليها وصف (الطِّباق) القرآني ممّا يميّز الكواكب السيارة كلها.

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، أي في

في السماوات السبع، وقال ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾. إنّ الشمس تضيءُ الكواكب السيارة، كلّها، بضوءٍ قويّ متوهج يصِحُّ معه وصفها بالسراج الوهّاج.

لكن «بلوتو» بعيدٌ جداً عن الشمس[1]، حتّى إن الشمس لا تبدو للشخص الواقف عليه إلاّ نجماً كبقية النجوم، في حجمها، إذ هي لا تبدو أكبر من نقطة صغيرة في السماء. إنه لا يستلم من ضوء الشمس إلا القدر الضئيل الضئيل، وبما لا يشكِّل «سراجاً» وهاجاً، بل هي أقربُ حينئذٍ إلى وصف مصابيح الزينة التي تزيّن سماء الليل، أي نجومها، انظر الشكل (٢).

هل إن صفات السماوات السبع الواردة في القرآن، تنطبق على «بلوتو»؟

يتبيّن من الشرح السابق أن السماوات السبع (أي الكواكب السيارة السبعة)، والأرض تتصف بالصفات التالية:

١ ـ هي طِباق.

٢ ـ وذات طرائق.

٣ ـ ولا تفاوت فيها.

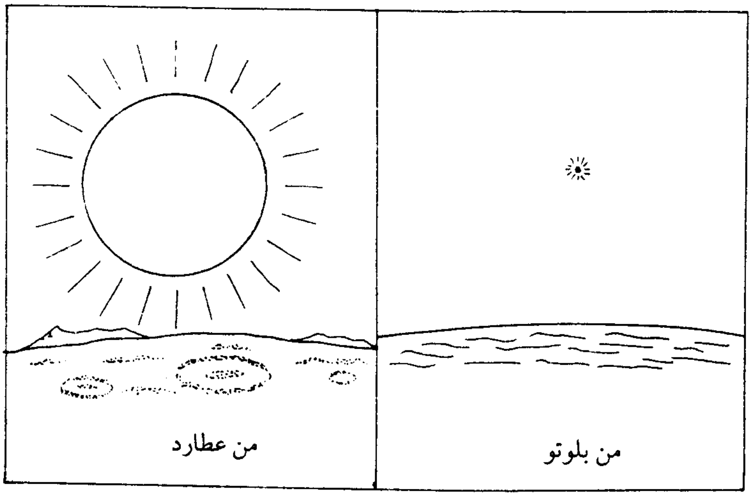
٤ ـ الشمس سراجٌ وهّاج لها.

إن كل هذه الصفات غير موجودة في «بلوتو».

إن «بلوتو» لا يحمل ما قد جاء في كتاب الله تعالى من صفات السماوات السبع، وكذلك فإنّه لا يُعتبر فلكياً، وعلى نطاقٍ واسعٍ، من الكواكب السيارة في المنظومة الشمسية.

---

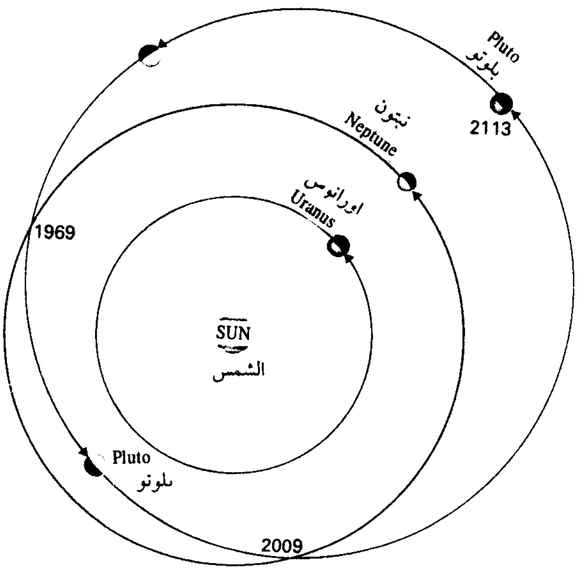
(١) بينما يصلنا ضوء الشمس في ٨ دقائق، فهو يصل «بلوتو» في ٥،٥ ساعة.



الشكل (٢)

تبدو الشمس لذلك الذي ينظر إليها من «بلوتو» نجماً صغيراً كبقية نجوم سماء الليل. قارن حجمها كما تبدو لمشاهدٍ على سطح «عُطارد».

عن كتاب «المنظومة الشمسية» لعلي موسى ومخلص الريس، دار دمشق (١٩٨٣).



(الشكل ٣)

تدور الكواكب السيارة حول الشمس في مدارات «متراكزة»، أي ثابتة البعد عن الشمس. لكن مدار «بلوتو» شديد «اللاتراكز»، فهو يقترب حيناً من «نبتون» والشمس، ويبتعد عنهما حيناً آخر. وفي عام ١٩٦٩ صارَ «بلوتو» أقرب إلى الشمس من «نبتون»، وهو سوف يظل كذلك حتى عام ٢٠٠٩، حيث أنه يبتعد، مرةً أخرى، كثيراً، ويصل أوج ابتعاده عام ٢١١٣.

وأخيراً: «حزام كويبر» يؤكد الاختلاف

ولقد قام الدليل، بفضل التلسكوب «هابل»، وبحسابات العلماء، على وجود ما أُسمي بـ«حزام كويبر»، **وهو سربٌ من الأجسام المذنّبية على هيئة قرص يقدّر عددها بأكثر من ٢٠٠ مليون مذنب**، وهي مصدر المذنّبات التي تزور المنظومة الشمسية. إن «**حزام كويبر» هذا يقع خلف مدار «نبتون» ويمتد إلى ما بعد «بلوتو»**.

«إن هذه الملاحظات والاكتشافات من قبل عددٍ من الهيئات العلمية، بصورة مستقلّة لم يجد أي شخصٍ فيها، إلى الآن، أي ثغراتٍ فنية»[١].

ولا شك أن هذا الحزام الهائل الذي يحيط بالمنظومة الشمسية يشكّل عائقاً أمام الخروج من هذه المنظومة، فإن عَطَفْنا ذلك على قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] لاتضح لنا أن «نبتون» هو آخر كوكب سيار ما بيننا وبين «حزام كويبر» الذي يقع خارج المنظومة الشمسية، وأن «بلوتو»، استناداً إلى ذلك يقع خارج المنظومة الشمسية، أو خارج أقطار السماوات والأرض.

---

(١) جريدة الخليج «ملحق الجمعة»، ٣ نوفمبر ١٩٩٥، العدد ٦٠١٤.

السَّبعُ الشِّدادُ ـ ما هي؟

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا .
وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا .
وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا .
وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا .
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا .
وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا .
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا .
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٣].

البناء: هو ضمّ الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى تكون بُنيةً واحدة.

الشِّداد: جمعُ شديد، ومن معانيها:

١ ـ القوي المتين.

٢ ـ المُحْكَم، الوثيق.

٣ ـ الصلب.

٤ ـ الرفيع العالي.

٥ ـ الذي لا يغلبه النوم.

٦ ـ وشَدَّ الرَّجُلُ: عَدا وركضَ. واشتدَّ في السير: أسرعَ. وتشدَّدَ في الأمر: بالَغَ فيه ولم يُخَفِّفْ.

٧ ـ قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: الشدّة هي انفصالٌ يَصْعُبُ جمعه، أو تَقَبُّضٌ يصعب انفصاله[1].

وقال الشيخ مخلوف: سبعاً شِداداً أي سبع سماواتٍ قويّاتٍ محكمات.

وقال الشيخ مغنية: المراد بالسبع الشداد الكواكب المعروفة عند الناس، وإلاّ فعدد الكواكب بعلم خالقها وحده.

أقول: إذا عطفنا المعنىٰ الأخير للسبع الشِّداد علىٰ خلق السماوات والأرض وفتقهنَّ من بعد رتق، لاتّضحَ من دون شك أن السبع الشداد هي نفسها السماوات السبع. إن الآيات تتكلم على:

١ ـ الأرض، وصفاتها، وما فيها، وعلى الليل والنهار، وهما مما نَشَأَ عن دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس.

٢ ـ السماوات السبع (الكواكب السيارة).

٣ ـ الشمس.

أي أنها تتكلم على خلق المنظومة الشمسية، وعلى علاقة الأرض وبقية الكواكب السيارة بالشمس، ونستنتج من ذلك:

١ ـ أنّ خلقها كان معاً.

٢ ـ وأن أجلها هو أيضاً ينتهي في وقتٍ واحد، إذ إنه يشمل:

(أ) الأرض.

(ب) الكواكب السيارة ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

(ج) الشمس ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

ونعجبُ هنا من وصف السماوات السبع بالسَّبع الشِّداد، إذْ قد وَجَدْتُ سبعةً من الوجوه تنصرفُ كلها إلى أوصاف الكواكب السيارة، فهي:

---

(١) من حديث متلفز.

١ ـ قويّةٌ متينة.

٢ ـ محكمة الصنع.

٣ ـ صلبة.

٤ ـ مرتفعة، أي بعيدة عن الأرض.

٥ ـ تجري بسرعةٍ بالغة.

٦ ـ وهي مستمرةٌ في ذلك، لا تعرف التوقّف، ليل نهار.

٧ ـ هي نشأت عن فتقٍ مِنْ بعد رتق، أو انفصالٍ من بعد وصل.

نتائج:

١ ـ السماوات السبع لها كل صفات الكواكب السيارة مما قد رأيناه في معاني (السبع الشداد).

٢ ـ إن الشمس، أو (السراج الوهاج)، إنما هي سراجٌ للسبع الشداد، أي الكواكب السيارة.

٣ ـ تتحدث الآيات، وبجلاء، على المنظومة الشمسية، وتدل على أنها قد خُلقت معاً.

وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون

معانٍ للسَّبْح عديدة

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .
وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ .
لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾
[يس ٣٨ ـ ٤٠].

قال الشيخ مغنية في تفسير الآيتين الأوليين:

«المراد بالجَرْي هنا حركة الشمس في فَلَكها الخاص، وبالمستقر النظامُ المحكم لا المستقرّ المكاني كما قال المفسرون القدامى، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أي حركة الشمس بنظام في فلكها الذي لا تتجاوزه هي من تقديره تعالى وتدبيره. ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ ومعنى هذا أنّ القمـر غيرُ ثابتٍ في مكانـه، بل يتدرّج تبعاً للأرض حولها ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ دِقّةً وانحناءً في رؤية العين، والعُرْجون: غصن النخلة».

الفَلَك: قالوا هو كل شيءٍ مستدير الصورة، وجمعه أفلاك. وفَلَك الشمس هو المسار المستدير الذي تجري به، وقال بعضهم: الأفلاك السماوية أجسامٌ تسبحُ فيها الكواكب في اتجاهاتٍ دائرية كما يسبح السمكُ في الماء.

قال الزمخشري: «وكل مستديرٍ من أرضٍ أو غيرها فلكٌ».

وقال الرازي: «لا يجوز أن نقول: ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ إلاّ ويدخل في الكلام النجوم مع الشمس والقمر ليثبت معنى الجمع ومعنى الكلّ، فصارت النجوم كأنها موجودة لِعَوْدِ هذا الضمير عليها».

وقالوا: (السَّبْح) هو السير بسرعة في سهولة وانبساط كسبح الإنسان في الماء، وكما يسبح الفرس في الهواء عندما يمدّ قائمتيه إلى الأمام. (كلٌّ) قالوا معناه كلٌّ من الشمس والقمر، لأنه لا يعقل سبح الليل والنهار لأنهما زمانان. وأقول: لعلها استعارة تشير إلى أن سبب حدوث الليل والنهار هو سبح الأرض.

وقال المراغي: «والسابحاتِ سَبْحاً: أي السائرات في أفلاكِها سَيْراً هادئاً لا اضطراب فيه ولا اختلال، وقد جعل مرورها في جِوائها كالسَّبْح في الماء كما جاء في قوله (وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون)».

وفي المعاجم: سَبَحَ سَبْحاً: أَبْعَدَ في السير: جرىٰ.
وسَبَّحَ: مبالغةٌ في سَبَح.
وفَرَسٌ سَبُوح: سريعٌ غير مضطرب في جَرْيه.

وقال مخلوف: «(وكلٌّ في فلكٍ يسبحون) يدورون. **حكىٰ ابنُ حَزْم وابنُ الجَوْزي وغيرُهما الإجماعَ على أنّ السماواتِ كرويةٌ مستديرة**[1]، استدلالاً بهذه الآية، وخالفَ في ذلك جماعةٌ من أهل الجدل»، وقال: «التسبيح مشتقٌّ من السَّبْح، وهو المَرُّ السريع في الماء أو في الهواء؛ فالمُسَبِّحُ مُسْرِعٌ في تنزيه الله وتبرئته من السوء».

فالفَلَك هو المَدار يسبحُ فيه الجُرم السماوي.

والجَرْي: العَدْو، واللام في (لِمُسْتَقَرٍّ) بمعنىٰ (إلى)، وجرىٰ إلى الشيء: قَصَدَهُ.

وأقول في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، إن الشمس، في رأي العين، ترتفعُ رويداً في الفضاء فكأنها تزحف زحفاً لا يظهر لمن أراد أن يصوّب نظره نحوها، لكن الآية تصف حركتها بالجَرْي، وهو العَدْو السريع، فانظر إلى وصفه تعالى للشمس بالجَرْي مِنْ حركةٍ لا تكادُ تدركها العين.

---

(١) استدار: دار. ومستديرة هنا: تدور.

ومِثْلُ ذلك هو السَّبْح، فهو المَرُّ السريع غير المضطرب.

فانظر كيف جاءت كلمة (تجري) في صدر الآية الأولى وجاءت كلمة (يسبحون) في آخر الآية الثالثة، فهو توكيد لمعنى الحركة، مضافاً إليه أنه جَرْيٌ هادىءٌ غيرُ مضطربٍ لا يُحَسُّ به. ثم إن الله تعالى قد وصف كلَّ ما يدور في فَلَكٍ بالسباحة، وهكذا فإنّ كل شيءٍ في الكون، في حقيقته، يدور، وبسُرَعٍ عظيمةٍ، لا يعرفها ولم يعرفها ذلك الساكن على الأرض!، وفي نعومة وسلاسةٍ بالغتين، وإلى الحد الذي لا يشعر فيه ساكنُ الأرض بحركاتها العديدة والمعقدة على الإطلاق!

ولقد ظنّ القدماء بأنّ الأرض هي مركز الكون، وأنها ثابتة، وأن الشمس تدور من حولها. ولو قد قال تعالى بأن الشمس (تدور)، بدلاً من قوله (تجري) لكان ذلك صحيحاً، إذ إن الشمس تدور فعلاً، ولكن ليس حول الأرض، بل هي تدور حول نفسها وحول مركز المجرّة، إلاّ أنّ الآية لم تجيء على ذكر (الدوران)، حتى لا تنصرف أذهان الناس إلى اعتقادٍ خاطىء بدورانها حول الأرض، وهو ما كان يتفق مع عقيدة الناس آنذاك ويقوّيها.

وانظُرْ رحمك الله، يوماً، من نافذة دارك نحو الأفق، نحو الشمس وهي ترتفع رويداً أو تغرب رويداً، وانظر إلى الأرض، كل الأرض، واستحضر في ذهنك حقيقة أن الأرض تدور من غربٍ لشرقٍ، حول الشمس، بسرعة تبلغ (١٠٦ ٢٠٠) كم/ساعة (حوالى ٣٠ ك/ ثانية) أو ما يعادل ٩٥٨ مليون كم في الدورة أو السنة الواحدة، ثم هي تدور حول نفسها مرةً كل (٢٤) ساعة بحيث أن الشخص الواقف في خط الاستواء هو يتحرك في حقيقة الأمر بسرعة ١٦٠٠ كم في الساعة، وهو ما يسبب الليل والنهار. والأرض، ومعها الشمس، تجريان في درب التبّانة بسرعة (٢٠) كم/ثانية نحو نجمة «النسر الواقع» (Vega)، وعندما تَتْبَعُ الأرضُ أُمَّها الشمس في سير الأخيرة، فإنها ترسمُ مساراً حلزونياً (spiral) في الفضاء. والشمس، من بعد ذلك، والنجوم القريبة منها، تدورُ حول مركز مجرّة درب التبّانة بسرعة (٣٠٠) كم/ ثانية، ولقد اكتشف العلماء «الحركة المطلقة» للأرض في مسيرها عبر الكون، إذ إن الأرض تندفع نحو «كوكبة الأسد» بسرعةٍ تقدّر بـ ٤٠٠ كم/ ثا.

وتبلغ سرعة مجرّتنا في اندفاعها في الفضاء قيمةً مذهلة تصل إلى ٦٠٠ كم/ ثا (حوالى مليون وثلث مليون ميل في الساعة).

والسرعة النسبية بين مجرّتنا ومجرة المرأة المسلسلة هي ٨٠ كم/ ثا فقط.

ولا بد أن «مجموعتنا المحلية»، أي مجموعة المجرات التي تنتمي إليها مجرّتنا، تندفع في الفضاء بسرعةٍ تقدّر بحوالى مليون ميل في الساعة (حوالى ٤٥٠ كم/ ثا). كما لا بدّ من أن «عنقودنا المحلّي الأعظم»، وهو مجموعة أكبر من الأولى، مندفعٌ في الفضاء بسرعةٍ كبيرة.

وقد يكون أفضل تفسير لإيجاد توافقٍ بين النتائج النظرية التي استنتجها العلماء والنتائج الفعلية المقاسة أنه لا بد من أن «العنقود المحلّي الأعظم» يدور حول نفسه، وربما تكون «مجموعتنا المحليّة» كلها تدور بمدارٍ بسيط حول المركز الأساسي للكتلة الكلّية لـ«العنقود المحلي»(١).

استحضِرْ كلَّ هذه الحقائق الرائعة، ومُدَّ ببصرك من نافذة دارتك، ثم انظر مَلِيّاً، مرةٍ أخرى إلى النظام والانسجام، والهدوء والسلام الذي يغمر كل شيء من حولك، واعجب لقدرة القادر، وخلقه البديع، وصنعه المحكم، إذ كيف لا يتسبّبُ كلُّ ذلك الجري السريع السريع، والحركات العديدة، المعقدة، المتداخلة، لا يتسبّبُ في أيِّ اضطرابٍ، أو هزهزةٍ، أو دُوارٍ ممّا قد ينتج عن أبسطِ حركةٍ نعرفُها لأجسامنا!

ورفعُك كأسَ الماءِ إلى فِيكَ أو إمساكُكَ بالقلم تكتبُ فيه مِن قريبٍ تصحبه ارتعاشةٌ وارتعاشة، فكيف بجَرَيان كرتنا الأرضية، وشمسنا ومجرَّتنا، وكل الأجرام الأخرى في الكون في حركاتها الشِّداد؟

---

(١) «المجرّات والكوازارات»، ويليم ج. كاوفمان.
«هذا الكون العجيب، من الذرة إلى المجرّة»، د. داود سلمان السعدي.

* ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾

إن الشمس تجري، وهذا صحيح.

وهي تدور، حول مركز المجرّة، وهذا صحيح أيضاً.

لكنَّ الجريان هو غير الدوران.

فأَنْ تجريَ نحو الشيء هو أن تتَّجهَ نحوه في خطٍّ سيرك من دون مَيْل، وهو غيرُ دورانك حوله في دائرةٍ كاملة.

● وقولُه سبحانه: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ قد علمنا أنّه يشملُ كلَّ شيءٍ في الكون، وكذلك الشمس، أي أنها تدور دورةً كاملة. ولا شك أن هذا، بالنسبة إلى الشمس، هو دورانُها حول مركز المجرّة.

● لكنَّ قولَهُ سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ يذكّرنا بالحقيقة التي عرفناها، في العصر الحديث، في أن الشمس، ضمن حركاتها بين باقي النجوم في مجرة درب التبّانة، تجري نحو نجمة «النسر الواقع»، ومن غير دوران.

إنها حركةٌ خاصةٌ بالشمس، وقد ترافقت مع وصفه تعالى لها بالجريان نحو المستقر، وصفاً خاصاً بها.

* ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾

والمنازل: مفردها مَنْزِل، ومنزلة، وكلاهما هو موضع النزول أو الدار، ونَزَلَ نُزُولاً من علوٍّ إلى أسفل: انحدر.

ومثلما أن القمر، مثل بقية الأجرام يدور، يدور حول الأرض، فإنه يدور، وفي الوقت نفسه حول محوره، وضد عقارب الساعة، وهو يستغرق في كلتا الحالتين الوقت نفسه بالضبط.

فلو أنك دُرْتَ حول شخص ما بصورة مستمرة بحيث يظل وجهك مواجهاً لهذا الشخص. فكذلك هو القمر في دورانه حول الأرض: هو يبقى وجهٌ واحد منه فقط

مواجهاً للأرض في أثناء دورانه حولها، ولذلك فإننا لا نرى من القمر إلاّ النصف نفسه في كل حين.

وعندما يكون القمر بين الأرض والشمس فإنّ جانبه المواجه للأرض يكون معتماً، فلا نراه، لأن الشمس تكون حينئذٍ مشرقة على جهة القمر غير المواجهة للأرض، وعندما يعبر $\frac{1}{4}$ مداره يمكننا أن نرى نصف قرصه ونسميه بالتربيع الأول، وعندما يعبر $\frac{1}{2}$ مداره فيمكن حينئذٍ رؤيةُ القرص كله بدراً، لأن الشمس تكون مشرقةً على الجهة المقابلة للأرض[١].

كان الناس ينظرون إلى القمر فيعجبون منه كيف هو يختفي، في «مَحاقه»، ثم كيف هو يمر بسبعٍ من المراحل يكبر فيها رويداً رويداً، من خلال مروره بطور «الهلال»، ثم «التربيع الأول»، ثم «الأحدب الأول»، ثم صيرورته «بدراً»، ثم كيف يأخذ بالتناقص من خلال صيرورته «أحدبَ ثانياً»، ثم «تربيعاً ثانياً»، ثم «هلالاً»، ثم كيف هو يختفي من جديد.

ولكن حقيقة الأمر في أطوار القمر تلك ليس لها علاقة بحجمه، فهو لا يصغر، ولا يكبر، ولا يختفي كما قد ظنّ الأقدمون. إنّ مواقع القمر، أو (منازله)، بالنسبة إلى الأرض والشمس، هي المسؤولة عن أطوار القمر، أو أدواره، تلك.

وكتاب الله تعالى يخبرنا بحقيقة الأمر: إنّه تَغَيُّرٌ في منازِل القمر، أو مواقعِهِ أمام الشمس والأرض، وليس هو نُموًّا للقمر ولا نقصاناً.

ومثلما قد ذَكَرَ تعالى جَرَيان الشمس نحو مستقرِّها صفةً خاصة بها، فلقد ذكر لنا أيضاً صفةً خاصة بالقمر، هي منازله المتغيرة. وهي صفة خاصة له فوق صفة السبح العامة التي يملكها كل جُرْمٍ في الفضاء.

حتى عادَ كالعُرْجُون القديم

١ ـ عاد: صار.

---

(١) «هذا الكون العجيب: من الذرة إلى المجرة»، للمؤلف.

٢ ـ انتقل من حالٍ إلى حال.

العُرْجُون: أصلُ العِذْق الذي يَعْوَجّ ويبقى على النخل يابساً بعد أن تُقْطَع منه الشماريخ.

ومعنىٰ الآية أنّ الله تعالى قد قدّر للقمرِ منازلَ وأدواراً يمرُّ فيها، ثم هو في نهاية دورته يصير هلالاً رقيقاً أشبه ما يكون بعُرْجونِ النخلة، أي أصلِ عزقها اليابس.

ولماذا هو تشبيهُ الهلال هنا باليابس من عِرْق النخل؟

إنّه يصير، بسبب جفافه، أرقّ وأرقّ، حتى إنّه لَيكادُ لا يُرىٰ من فرطِ دِقّته.

وهو إلى ذلك، في انحنائه، بالغُ الانتظام.

وكذلك هو الهلال، في آخر منازله مِن قبل أن يصير مَحاقاً، فكأنّه لم يكن، بعد أن كان بدراً.

وإننا لنرى في تشبيهه سبحانه للقمر الآفِلِ بالعُرْجون القديم لمسةً جماليةً رائعة، كمثل تشبيهه سبحانه للفُلْك التي تجري في البحر بالأعلام.

إنه الحساب الدقيق، والصنعة المحكمة، صُنْع الله الذي أتقن كل شيء.

وعودةً إلى السَّبْح، سَبْحِ كلِّ جرم خلقه تعالى، نقول إن السَّبْح يعني أن الجُرم:

١ ـ يتحرك.

٢ ـ في مسارٍ دائري، أو «مدار».

٣ ـ وبسرعةٍ عظيمة.

٤ ـ ومن غير اضطراب.

فسبحان الله أحسنِ الخالقين.

﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾

أيهما يسبق الآخر؟ الليلُ أم النهار؟

وقبل أن نجيب على ذلك نسأل: وما السبب في حدوث الليل والنهار؟

إنه دوران الأرض، أو الكوكب السيار، أمام الشمس.

وعند ذاك فإن اللّيل والنهار لا يسبق أحدهما الآخر.

بل هما يحدثان في الوقت نفسه.

وذلك لا يكون إلا إذا كانت الأرض، والسماوات السبع، أي الكواكب السيارة الأخرىٰ، كروية.

إنّ الآية الكريمة تخفي وراء إعجازها إعجازاً آخر، إذ إنها، وبعد مزيدٍ من التعمّق فيها، تكشف لنا عن كروية الأرض.

السَّبْح في الفَلَك (المَدار) قانونٌ كونيّ عام

وفي نهاية المطاف نكتشف:

١ ـ أنّ الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قد أشار إلى حركةٍ خاصة بالشمس.

٢ ـ وفي الآية التالية للآية الأولى يقول: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾، وفيه إشارةٌ إلى خصوصيةٍ لحركات القمر، في مواقعه المختلفة ما بين الأرض والشمس، أو (منازله).

٣ ـ أما في الآية الثالثة فإننا نجد أن في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قانوناً كونياً يشمل الوجود كله، مثلما هو يشمل الشمس والقمر، وإضافة إلى حركةِ كلٍ منهما الخصوصيتين.

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ .
وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ
وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٣ و٣٤].

دأَبَ في العمل: ١ ـ جَدَّ وتعب.
٢ ـ استمر عليه.

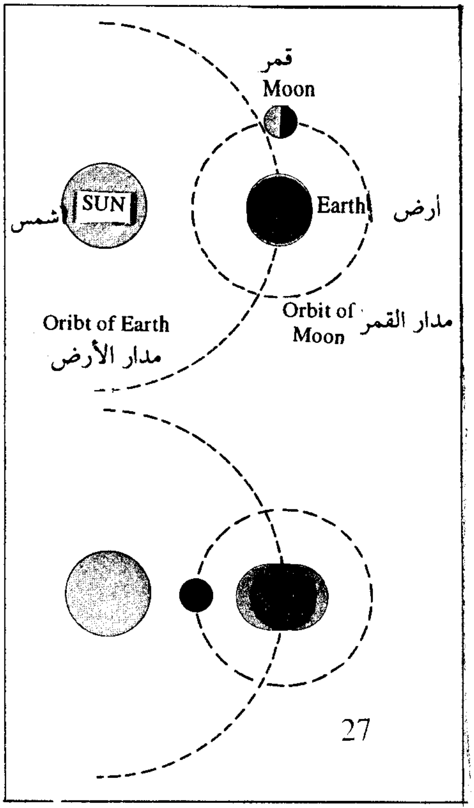
والدَأَب: العادة.

١ ـ إن حركة الشمس والقمر المستمرة ليل نهار، ومن دون انقطاع، هي حقيقةٌ جاء بها القرآن الكريم قبل (١٤) قرناً، وهي على عكس ما يظهر منهما في رأي العين مما قد ظنّه الأقدمون.

٢ ـ ولقد سخّر تعالى الشمس والقمر لخدمة الإنسان، بل خدمة كل الأحياء على سطح الأرض. بل ماذا أقول؟ لولا الشمس لما كانت هناك حياةٌ على سطح الأرض ولما كان هناك عمليات «تركيب ضوئي»، فلا نبات، ولا حيوان. إنّها مصدرٌ للطاقة، لا ينضب، ما دامت الشمس، وهي لا تسبب أي تلوث. ثم هي مصدرٌ لكل الطاقات على وجه الأرض، من طاقاتٍ للرِّياح، والمياه، وغيرها.

والقمر هو حسابٌ للزمن، بالأيام من الشهر، مثلما أنّ الشمس حسابٌ له بالوقتِ من اليوم، أو الساعات، وفائدةُ نوره في الليل معروفةٌ مثل جماله ورونقه.

وإذا كانت فائدة (المدّ) في الملاحة، والريّ، معروفةً منذ قديم الزمان، فإن أثر القمر في إحداث المدِّ والجزْر لم يعرف إلاّ على يد «نيوتن» في القرن الـ(١٨). إذ بينما أنّ القمر يدور حول الأرض مرةً كل (٢٤) ساعة و(٥٠) دقيقة، فإن جاذبيته تجذب مياه البحار والمحيطات ممّا يقع تحته مباشرةً، مسبّبةً المدّ، ويرافقُ ذلك مدٌّ آخر للمياه في الجهة المقابلة البعيدة من الأرض، ويكون المدّ في أقصاه عندما يكون القمر والأرض والشمس في خط مستقيم، وذلك في بداية الشهر القمري وفي منتصفه.



شكل (٤)

إن جاذبية القمر، في أثناء دورانه حول الأرض، تجذب مياه المحيطات التي تقع تحته مباشرة، وهو ما يسبّبُ «المدّ»، أو ارتفاع مستوى منسوب مياه البحار والمحيطات. وللشمس تأثيرٌ أصغر في تسبيبه، وهكذا فإن أعظم المَدّ يحدث عندما تكون الشمس والقمر والأرض على خطٍ واحد.

٣ ـ وأما تسخير الليل والنهار فقد قال تعالى فيه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ . . ﴾ [يونس: ٦٧]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً . . ﴾

[الإسراء: ١٢]

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٤]

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧]

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: ١٠ و١١]

«لماذا يُعيدُ القرآنُ الكريم ويكرر الآيات الكونية وهي واضحة بلا تفسير؟ الجواب: فعل القرآن ذلك إيقاظاً للبصائر والأبصار لكي تستدل بمظاهر الموجودات على وجود الله تعالى، وأنّ هذه الكائنات بنظامها وإتقانها، لا تكون ويستحيل أن تكون مصادفةً واتفاقاً، بل استدل بعض العارفين على نبوة محمد (ص) وصدقه، بهذا الإمعان والاستغراق في الاستدلال بالكون وأسراره، حيث يستحيل على ذهن محمد (ص) بحكم بيئته أن يدرك كل ما ذكره القرآن في هذا الباب، إضافةً إلى التركيز عليه والاهتمام به، بالتكرار والإعادة مراتٍ ومرّات»[١].

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

أعطى سبحانه الإنسان كل ما يحتاج إليه في حياته، مما لا يُحصى، بل وحتى أسباب الرفاهية. وإذا كنا عاجزين عن تعداد أَنْعُمِ اللهِ علينا فكيف يمكن أن نؤدي شكرها؟ حقاً إنّ أفضلَ أنواع الشكر لله أن نطيعه ولا نعصيه.

---

(١) التفسير المبين ـ محمد جواد مغنية.

الظلمات والنور في السماوات والأرض

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

في نَصّ الآية تبكيتٌ وتوبيخ للكافرين، وقد عطف تعالى ذلك على:

١ ـ خلق السماوات والأرض.

٢ ـ جَعْل الظلمات والنور.

إنّ ذِكر الظلمات والنور مقروناً بذكر السماوات والأرض هو حديثٌ عن المنظومة الشمسيّة، أي أن الحديث هو على ما ينشأ من ظُلُماتٍ أو نور داخل المنظومة الشمسية.

نتائج:

١ ـ في الآية دليلٌ على أن خلق الله تعالى للسماوات (الكواكب السيارة)، والأرض، وكذلك الشمس، قد تمّ كوحدة واحدة في حقبة زمنية واحدة.

٢ ـ وفيها نلمح دوران الكواكب السيارة حول الشمس، مما يسبب حدوث الليل والنهار، أو الظلمات والنور.

٣ ـ ما هو سبب ذكر (الظلمات) بصورة الجمع، وذكر (النور) بصفة المفرد، في الآية؟ لو جاءت الآية على ذكر (الظلمات والأنوار) لدلّت على وجود مصادر عديدة للضوء في المنظومة الشمسيّة، أي وجود شموس عديدة، وهو ما يغاير الواقع. وبينما أن الشمس هي مصدرٌ للضوء إلاّ أنها ليست مصدراً للظلمة، فهي

تعطي ضوءاً لا ظلاماً، لكنّ سبب الظلمات يكمن في الكواكب السيارة نفسها بدورانها حول نفسها. لقد جاء ذكرُ الظلمات مقدّماً على ذكر النور لأن الأصل في الكواكب هو الظلمات، لولا ضوء الشمس، فالظلمات في الكواكب السيارة صفةٌ ذاتية لصيقة بها، وأما نور الشمس فهو ليس صفةً ذاتية للكواكب السيارة بل هو صفةٌ خارجة عنها.

ضوء الشمس (وكل النجوم)، ونور القمر، والفرق بينهما

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا . . ﴾ [يونس: ٥]

ما الفرق بين ضوء الشمس ونور القمر؟

الشمس هي كتلةٌ من الغاز الملتهب التي تصل حرارتها في مركزها إلى درجة لا تصدق، إذ هي تبلغ (١٥) مليون درجة مئوية، وأمّا سطحُها فيعتبر بارداً بالنسبة إلى مركزها، إذ تبلغ درجة حرارته حوالى (٦) آلاف درجة مئوية، لكن هذه الأخيرة تكفي لصهر كل ما نعرفه من مواد.

وأما القمر فهو جرمٌ معتم بارد كالأرض.

وتقول موسوعة «كوليير» إن شدّة توهّج القمر تبلغ واحداً من (٦٥٠٠٠٠) من شدة توهج الشمس، ثم إنّ البدر الكامل لا يعكسُ إلينا سوى ٧٪ من ضوء الشمس المرئي الساقط عليه.

وقلنا «ضوء الشمس المرئي»، ولم نقل «ضوء الشمس»، ذلك لأن ضوء الشمس يتألف من موجاتِ أشعةٍ مرئية هي الأشعة البيضاء + إشعاعات أخرى غير مرئية[١]، وكما يلي:

---

(١) انظر كتابنا «هذا الكون العجيب: من الذرة إلى المجرة».

ضوء الشمس (وكل النجوم)

موجات أشعة مرئية (= الأشعة البيضاء)	موجات أشعة غير مرئية

(تتألف، وكما يتضح عند تحللها إلى «قوس قزح»، أو الطيف، من «٧» ألوان، وهي:

١ ـ الأحمر	١ ـ كونية
٢ ـ البرتقالي	٢ ـ غاما
٣ ـ الأصفر	٣ ـ سينية
٤ ـ الأخضر	٤ ـ فوق بنفسجية
٥ ـ الأزرق	٥ ـ تحت حمراء
٦ ـ النيلي	٦ ـ صغرى
٧ ـ البنفسجي[(١)]	٧ ـ راديوية[(٢)]

إن ضوء الشمس، فوق أشعتها البيضاء، يشمل، مثلاً، الأشعة تحت الحمراء، وهي اسمٌ آخر مرادفٌ للحرارة، والأشعة فوق البنفسجية التي تساعد جلد الإنسان على صنع الفيتامين «د»، وغيرها.

وأما القمر، فإنه لا يعكس من أشعة الشمس الساقطة عليه إلا أقلّها، ثم إنه لا يعكس منها إلاّ تلك الأشعة البيضاء «المرئية» التي نعرفها بـ«النور»[(٣)].

وهذا هو الفرق بين الضوء والنور[(٤)].

---

(١) و(٢) لاحظ تكرر رقم الـ (٧) في تعداد أنواع الأشعة المرئية وغير المرئية، وانظر ص ٢١٥ و٢١٩.

(٣) collier's Encyclopedia, Vol. 16, (1983), P. 522.

(٤) لاحظ الدكتور موريس بوكاي، في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» أن الشمس والقمر المُسمّيْين في «التوراة» بـ (النَّيِّـرَيْن) قد عبّر عنهما القرآن بطريقةٍ مختلفة، فالنور للقمر، والشمس شُبِّهَت بالسراج وهي ضياء. والدكتور بوكاي أستاذٌ للجراحة العامة في جامعة باريس، وقد اعتنق الدين الإسلامي في منتصف السبعينات.

السماوات (السبع) والأرض والشمس والقمر خُلِقَت في وقتٍ واحد

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ . . ﴾ [التوبة: ٣٦].

قال رسول الله (ص): (إن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعةٌ حُرُم).

إنّ وصف الشهور بالحُرُم يصرفُ معناها إلى الشهور القمرية الأربعة، لا الشمسية، وهي: رجب، ذو القِعْدة، ذو الحِجَّة، مُحَرَّم. ومنشأ الشهور القمرية هو حركة القمر بالنسبة إلى الأرض والشمس، والآية الكريمة تشير إلى ابتداء عدّة الأشهر القمرية، بخلق القمر مع خلق السماوات والأرض.

إذاً فإن الشمس، والقمر، والسماوات (السبع)، والأرض، خُلِقَت في حِقبةٍ واحدة، ولا بد أن يكون خلقها قد تمّ في المكان نفسه من الكون، إذ لا يعقل أن تكون متفرقة عن بعضها بما يجعلها متداخلة مع غيرها من الأجرام الأخرى أو أن تكون أجرامٌ أخرى متداخلةً فيها، ويشهد ذلك بأن السماوات (السبع) موجودة في المجموعة، أو المنظومة الشمسية، لا خارجها، وأنها هي الكواكب السيارة السبعة المعروفة لا غير.

وانظُرْ إلى حديث النبي (ص) مِنْ حديثٍ رائع يدلُّك على أنّ حسابَ الزمن، حسابَنا نحن، وبالشهور القمرية، قد ابتدأ يوم خَلَق الله تعالى السماوات والأرض، الذي لا بدّ أن يكون هو نفسُه تاريخ خلق الشمس والقمر، لأنّهما هما مصدر النور، ومصدر الحساب.

تشابهٌ في صفات السماوات (السبع) والأرض

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى..﴾ [الزُّمَر: ٥].

نتائج:

١ ـ من المعلوم أن واو العطف بين المعطوف والمعطوف عليه غالباً ما تدل على تشابههما، وهي بين كلمتي «السماوات» و«الأرض» تشير إلى تشابههما.

٢ ـ يوجد ليلٌ ونهار على السماوات مثلما هما يوجدان على الأرض، لأن ذِكْرَ الحقِّ سبحانه لِلّيل وتكويره على النهار، والعكس، تالٍ لذكر السماوات والأرض، فوجب أن تكون صفة تكوير الليل على النهار، وبالعكس، تابعةً لهما جميعاً.

٣ ـ إن تكوير الليل على النهار، والنهار على الليل، قد دلَّ على كروية الأرض، في آيةٍ تجمعُ بين المعجزة البيانية الساحرة والمعجزة الكونية الباهرة، لِما لم يُعرَف إلاّ في العصر الحديث.

٤ ـ ومثلما أنّ الأرض كروية، ولأنّ السماوات تشابه الأرض في صفاتها، فإنّ السماوات (هنا) كرويةٌ أيضاً.

٥ ـ إنّ السماوات، والأرض، والشمس، والقمر، تشكّل وحدةً، أو مجموعةً، متكاملة فهي إذاً المنظومة الشمسية، وعندها تكون السماوات، هنا، هي الكواكب السيارة.

٦ ـ إنّ الشمس والقمر مسخّران للسماوات والأرض، وليس العكس. وليس تسخيرُ الشمس إلاّ في ضوئها، فوجب أن يكون الضوء للسماوات مثل الضوء للأرض، وهو ما يستتبعه أن السماوات هي كواكبُ سيّارةٌ كالأرض.

٧ ـ إنّ أجَلَ السماوات، والأرض، والشمس، والقمر واحد، أي أنّ القيامة تصيب المنظومة الشمسية في الوقت نفسه.

٨ ـ لا يوجد في هذه الآيات ذكرٌ لنهاية النجوم، مُرافِقٌ لنهاية المنظومة الشمسية.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

السماوات هنا، وكما قد عرفنا، هي السماواتُ السبع، أي الكواكب السيّارة. ولقد جاء ذكر السماوات والأرض متبوعاً بذِكر اللّيل والنهار، وهو ما ينشأ عن دورانها حول نفسها أمام الشمس.

نتائج:

١ ـ تشيرُ الآية إشارةً قوية إلى دوران الكواكب السيارة حول نفسها.

٢ ـ كما أنّها تُشير إلى أنّ هناك ليلاً ونهاراً في كل الكواكب السيارة، وليس الأرض وحدها.

«ما بين السماوات والأرض» - ما هو؟

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾

[السجدة: ٤]

جاء ذِكْرُ السماوات والأرض، في كتاب الله تعالى، متبوعاً، ومن دون فاصل بقوله: (وما بينهما)، في (١٨) آية كريمة.

قلنا سابقاً إنّ السماوات السبع والأرض هي الكواكب السيارة الثمانية، وإنّها، وتوابعَها، إضافةً للشمس، تُكوّن المنظومة الشمسية.

ولكنّ القرآنَ الكريم يذكُر لنا شيئاً، أو أشياء أخرىٰ، تقعُ ما بين السماوات والأرض. ولم أَقَع، فيما قد وقع ناظري عليه، على قولٍ لِمُفَسِّرٍ أو عالمٍ في تفسير ذلك الذي ما بين السماوات والأرض، فماذا عسىٰ أن يكون هذا الشيء، أو الأشياء؟

ملحوظات حول الآية الكريمة:

١ ـ إنّ الأداة (ما) تستعمل لغير العاقل، مما يدلّ على أنّ المقصود بها أشياءُ كونية، أو «جمادات»، لا مخلوقاتٌ حيّة.

٢ ـ إنّ إقرانها بالسماوات والأرض يدل على أنها أجسام، أو أجرام، تقع ضمن المجموعة الشمسية.

٣ ـ وذِكرُها بعد السماوات والأرض يدل على أنها أصغرُ منها، وأقلّ خطراً.

٤ ـ إنّ ذكرها بالإبهام وعدم التخصيص يدلّ على أنّها عديدة، ولو كانت شيئاً واحداً عظيماً لذكر تعالى اسمها.

٥ ـ إنّ مكانها يمتد بين السماوات السبع والأرض، في مجموعها.

٦ ـ ولكن يغلب أن تكون في مكان وسطٍ بينهما، أي بين الكواكب السيارة الثمانية.

٧ ـ ولما كانت الكواكب السيارة، بل كل شيء في الكون، يدور، فلا بد أنها أجرام تدور هي أيضاً.

* فإذا عثرنا، في المنظومة الشمسية، على أجرامٍ تتصِفُ بهذه الصفات، فلا بدّ أن تكون هي المقصودة بالآية الكريمة.

* أمّا إذا كانت في موضعٍ وسطٍ بين الكواكب السيارة تماماً، أي أن مدارها، أو مداراتها، تقع في الوسط بين مدارات الكواكب السيارة، فإنّ واقع الحال ينطبقُ عندئذٍ غاية الانطباق على قوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، أي ما بين السماوات والأرض، قولاً بليغاً مُحْكَماً.

«حزام الكويكبات» يقع في الوسط من الكواكب السيارة بالضبط»

* ونرجع إلى صورة الكواكب السيارة حول الشمس، فنكتشف، وبكل جلاء، أن المقصود هو ما قد أُسمي بـ «حزام الكويكبات» (Asteroides)، وهي الأجرام، أو الحجارة، التي تختلف في أحجامها اختلافاً كبيراً، وهي اكتشفت في القرن التاسع عشر، وتدور في معظمها في حزامٍ، أو مدار، خاصّ بها يقع بين مداري (المرّيخ) و(المشتري). ونكتشف:

١ ـ أنّ أربعة كواكب سيارة، وهي التي تدعىٰ بـ«الكواكب الأرضية»، أو الكواكب القريبة من الشمس (عُطارد، الزُّهَرَة، الأرض، المريخ) هي أقرب إلى الشمس من الكويكبات.

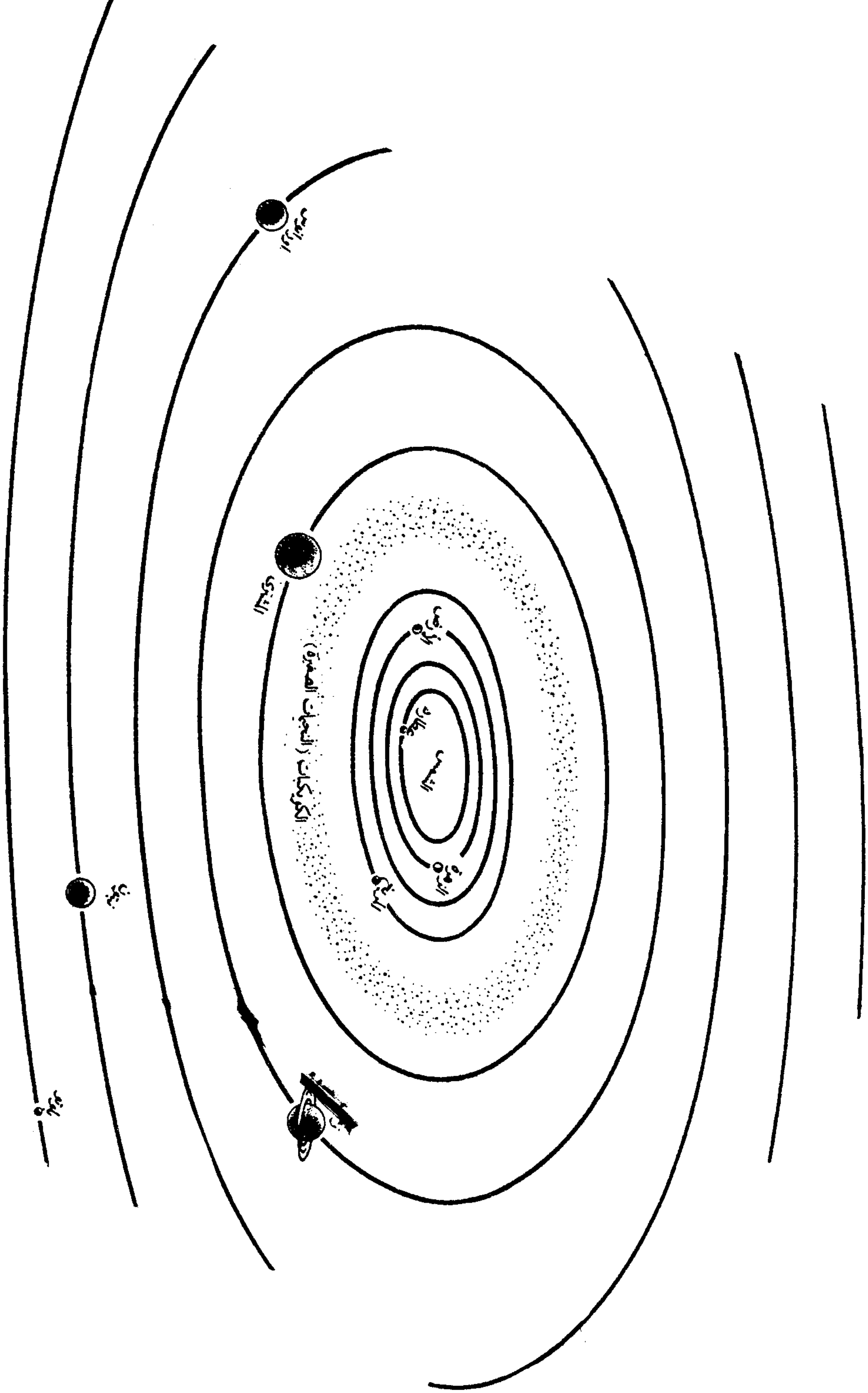
٢ ـ وأمّا الكواكب السيارة الأربعة الأخرىٰ التي تدعىٰ بـ «الكواكب القصِيّة»، وهي (المشتري، زحل، أورانوس، نبتون) فهي أبعد منها إلى الشمس.

٣ ـ وأن الكويكبات تفصل ما بين المجموعتين السابقتين: أربعةٌ من كل جهة. وإذا كانت تلك «كواكب سيارة» فلقد أسْمَوْا هذه بالكويكبات، ونِعْمَ الاسمُ هو من اسمٍ يدلّ على الصفة الواحدة، والأصل الواحد، وعلى افتراقها من ناحية الحجم لا غير.

نتيجة:

إن المقصود من قوله سبحانه ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ هو الكويكبات التي تدور، في معظمها، في مدارٍ هو في ترتيبه يقع في الوسط تماماً ما بين مدارات الكواكب السيارة الثمانية حول الشمس[1].

(١) يعتقد المفكر والطبيب الفرنسي المعروف (موريس بوكاي) في كتابه الموسوم «الكتاب المقدس والقرآن والعلم» (La Bible le Coran et la science)، وهو صدر بالفرنسية لأول مرة عام ١٩٧٦ وترجم إلى عديدٍ من اللغات وطبع أكثر من (١٥) مرة، يعتقد أن ما بين السماوات والأرض يمكن تفسيره بالاستعانة بأحدث الملاحظات البشرية الجديدة حول وجود مادة كونية «خارج المجرّات»، وقد رددنا عليه في مقالنا أعلاه ـ انظر مقالة «موريس بوكاي في أحدث دراسة له»، جريدة «الخليج» في ٢٦/١/١٩٩٦. وبوكاي قد توصّل إلى أن القرآن دستورٌ إلَهي حيّ قادر على قيادة البشريّـة إلى برّ الأمان.



شكل (٥)

ما بين السماوات والأرض هو «حزام الكويكبات» لا غير

ربُّ المشرقَيْن وربُّ المغربَيْن ـ ما هُنّ؟

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

المشرق: موضع الشروق.

والمغرب: موضع الغروب.

قال ابن كثير: مَشْرِقُ الشمس والقمر.

وقال مخلوف: مشرق الشمس في الشتاء والصيف، ومغربها فيهما.

* * *

* إنّ الشمس تشرق وتغرب علينا، وكذلك النجوم. «فالنجوم التي تغرب عنك تُشرق على قومٍ في الناحية الأخرىٰ من الأرض آخرين، وكذلك تفعل الشمس، تغرب عندك لتشرق عند قومٍ آخرين»(١).

* فإذا أضفنا شروق النجوم إلى شروق الشمس والقمر الذي أشار إليه ابن كثير، صار لدينا مشارق ومغارب عديدة، وهي حقيقة لا تنافي ما قد ذهب إليه ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، باعتبار ظهور الشمس والقمر في مشارقها ومغاربها على غيرهما بالنسبة إلينا.

* إن تفسير المشرقين والمغربين بمشرق الشمس ومغربها في الشتاء والصيف، يمكن أن يكون صحيحاً، لاختلاف مواضع الشروق والغروب فيهما. إلا أنّ الآية تحتملُ وجهاً آخر نراه أقرب إلى المقصود منها، وهو:

---

(١) التعبير للدكتور أحمد زكي، «مع الله في السماء»، ص ٢٦.

* يـوجـد علـى الأرض، فـي كـل (٢٤) سـاعـة، ليـلان ونهـاران. إذ إنّ الكـرة الأرضية، وفي أيّ وقت، تنقسم بالنسبة إلى ضوء الشمس الساقط عليها إلى نصفين اثنين، أحدهما في نهار، والآخر في ليل، وهو ما يحدث مرتين يومياً. ففي النصف الأول من الأرض يوجد نهارٌ يقابله ليل في نصفها الثاني، ثم هناك ليلٌ في النصف الأول يقابله نهارٌ في نصفها الثاني. أي أنّ هناك مشرقيْن ومغربيْن، وهو تفسيرٌ ذكره الشيخ محمد جواد مغنية في «التفسير المبين».

قال الرُّبان قاسم لاشين: إن هذه الآية، كمثلها من آيات الله تعالى، تُخفي وراء إعجازها هذا إعجازاً آخر، وهو أنها تشير أيضاً إلى كروية الأرض، إذ لا يمكن أن تحدث ظاهرة المشرقيْن والمغربيْن، أوْ النهاريْن والليليْن، إلاّ إذا كانت الأرضُ كرةً، لا مكعباً، ولا هَرَماً، ولا مخروطاً، ولا أسطوانة.

المشارق والمغارب ـ ما هي؟

(١) ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا . .﴾ [الأعراف: ١٣٧].

(٢) ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥].

(٣) ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

١ ـ هناك، في الآية الأولى، وجهان لمشارق الأرض ومغاربها:

أ ـ إنّ المشارق والمغارب تدلّ على مشارق الأرض ومغاربها في كل حين بينما ينسلخ الليل والنهار، كما قد أُسْمِيَ بخطوط طول الأرض، حيناً بعد حين. لقد تم تقسيم سطح الكرة الأرضية إلى (٣٦٠) خط طول (درجة)، منها (١٨٠) خطّاً شرق «غرينج»، ومثلها غربها، ويسمىٰ خط التقائهما بخطّ التغيير، أي تغيّر اليوم.

ب ـ يختلف موضع شروق الشمس على الأرض، في كلِّ يومٍ عن اليوم الذي يليه، أي أنّ لدينا مشرقاً جديداً للشمس ومغرباً، في كل يوم، وإلى انتهاء السنة.

٢ ـ وتُقرِنُ الآيةُ الثانية ذكر المشارق بذكر السماوات والأرض، أي الكواكب السيارة، وهي نلمحُ فيها إشارةً إلى مشارق الكواكب السيارة، إذ إن مشرق كل كوكبٍ منها ومغربه يختلف عن بقية الكواكب لاختلاف أطوال فترات دورانها حول نفسها أمام الشمس.

٣ ـ ويُقْسِمُ الحقُّ سبحانه، ربُّ المشارق والمغارب، بنفسه في الآية الثالثة،

من غير تحديدٍ ولا تعيين للمشارق والمغارب، وهو ما ينصرف معه المعنىٰ إلى كل المشارق والمغارب.

فللقمرِ، على الأرض، شروقٌ وغروب.

وللشمس، على القمر، بل على كل أقمار المنظومة الشمسية، شروقٌ وغروب كذلك، مثلما هي لها على الأرض وباقي الكواكب السيارة.

كما أنّ للنجومِ الأخرىٰ مشارقَ ومغارب علينا، وعلى ما قد يكون لها من كواكب سيارة وأقمار.

ويبقىٰ أن نشير، من بعد ذلك كله، إلى أنّ عِلّة كل شروقٍ وغروب، بالإضافة إلى مصدر الضوء نفسه، هي دوران الأجرام السماوية حول نفسها، ممّا يعرِّضُها إلى هذا وذاك. فكلما وُجِدَ دورانٌ للجرم حول نفسه كلما وُجد شروقٌ وغروب، وهو قانون إلّهي عام. وكما نجدُ في هذه الآيات إعجاز المشارق والمغارب، فإننا نجد من ورائها إعجازاً آخر، هو دوران كل شيءٍ خَلَقه تعالى في الكون حول نفسه.

مختصرٌ بصفات السماوات السبع في القرآن الكريم

١ ـ إنّ السماوات السبع، والأرض، أعضاءٌ في منظومةٍ واحدة متكاملة، تقع قريبةً من بعضها البعض من غير تداخلٍ لأجرامٍ أو منظومات غيرها فيها، فهي مجموعة، أو منظومة، منفصلة ومتميزة عمّا سواها من المجموعات، أو المنظومات.

٢ ـ وهي كانت رَتْقاً ففتقها الله تعالى، أي كانت متصلةً مع بعضها البعض ففصل بينها.

٣ ـ فهي، كلها، من أصلٍ واحد هو «الدخان»، أو «السديم».

٤ ـ و«الدخان»، أو «السديم» هو أصلٌ للشمس أيضاً.

٥ ـ وهي خُلِقَت في حقبةٍ واحدة.

٦ ـ ولأنها من أصلٍ واحد فإن مكوّناتها متقاربةٌ متدرّجة.

٧ ـ وهي أجرامٌ كروية كالأرض.

٨ ـ وهي صُلبة.

٩ ـ وهي ممسوكة بقوة جاذبية تُمسِكُ بالسماوات السبع مثلما هي تمسك بالأرض.

١٠ ـ والشمس هي الجاذبة لهن تمنعهن من أن ينفلتن من مداراتهن بعيداً.

١١ ـ وكلها يجري بسرعة عظيمة، ولكن في هدوءٍ تام، ومن دون اضطراب، أي إنهن (يَسْبَحْن).

١٢ ـ وهي تَسْبَح في مساراتٍ، أو مداراتٍ، حول الشمس، بعضها فوق بعض، ويوازي بعضُها بعضاً، فلا تقاطُعَ لمداراتها ولا تصادم.

١٣ ـ وسرعاتهن العظيمة تمنعهنّ من الانجذاب، عن مداراتهن، و «السقوط» نحو الشمس.

١٤ ـ وهي، على العموم، مرئيةٌ بالعين المجردة.

١٥ ـ وتقع كلها، بالإضافة إلى الشمس والقمر، في مستوىً واحد تنطبقُ عليه.

١٦ ـ الشمس مسخّرة لإضاءة السماوات السبع مثلما هي مسخرة لإضاءة الأرض.

١٧ ـ إن السماوات السبع ليست بعيدةً جداً عن الشمس، بل هي قريبةٌ منها إلىٰ الحد الذي يضيئها.

١٨ ـ وضوء الشمس الذي يصل السماوات السبع، والأرض، قويّ، ذلك لأنها «سراج» وهّاج لها، فهو ليس كضوء النجوم البعيد، مثلاً، أو ضوء المجرّات الأخرىٰ، غير مجرّة درب التبانة، الذي لا تدركه العين المجردة من غير مِرقاب.

١٩ ـ وفي كلٍّ منها ليلٌ ونهار مثلما هو في الأرض.

٢٠ ـ كما أنّ للشمسِ، على كلٍّ منها، مشارقَ ومغارب، كالأرض.

٢١ ـ ليست السماوات السبع، ومعها الأرض، كلَّ الكون، فإنّ في خارجها كوناً عظيماً جداً.

٢٢ ـ لا يمكن للإنسان النفاذ خارجها إلى هذا الكون العظيم.

٢٣ ـ كما أن قيامة السماوات والأرض، ومعها الشمس والقمر، تحدث في وقت واحد.

٢٤ ـ إذ تُطوى الكواكب السيارة كلّها، فتصير سديماً واحداً كما كانت أول مرة.

٢٥ ـ هناك أجرام صغيرة تقع ما بين السماوات والأرض، أو في الوسط منها.

* * *

* إنّ الحقائق القرآنية عالِيَـةُ لتقطع بأن السماوات السبع هي الكواكب السيارة السبعة حول الشمس، لا غير، وهي مع الأرض ثمانية.

* وما بين السماوات والأرض هو حزامٌ من «الكويكبات» التي يقع مدارها بين مدارات أربعة كواكب سيارة من الداخل وأربعة كواكب سيارة من الخارج.

* إن الجُرْم «بلوتو» ليس من السماوات السبع فهو:

١ ـ يعتبر، من الناحية الفلكية، وعلى نطاق واسع، قمراً هارباً من الكوكب الأخير «نبتون»، لا كوكباً سياراً.

٢ ـ ثم إنه، في كتاب الله، لا ينطبق عليه وصف السماوات السبع:

* لا بـ (الطرائق).

* ولا (الطِّباق).

* ولا (عدم التفاوت).

* كما أنّ الشمس ليست (سراجاً وهاجّاً) له، بل هي، ولبعده الشديد عنها، أشبهُ شيءٍ، في رأي العين، لذلك المشاهد الذي هو على «بلوتو»، ببقية النجوم البعيدة في شكلها، حجماً، وضوءاً.

قاعدة في ذكر السماوات والأرض، والسماوات السبع، والسماء، في القرآن

* كلُّ ذِكْرٍ، في القرآن الكريم، لِـ (السمٰوات السبع) المقصودُ به الكواكب السيارة السبعة في منظومتنا الشمسية، غير الأرض.

* كما تدلُّ كلمة (السمٰاوات) متبوعةً، ومن غير فاصلٍ، بذكر الأرض، على المعنىٰ نفسه، وهو من باب إقران الشيء بقرينه وشبيهه.

* وأمّا في صيغة المفرد، فإن لكلمة (السماء) معاني عديدة أخرىٰ، غير المعنى الذي ذكرناه، وهو ما سوف نتطرق إليه لاحقاً.

بروج السماء

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . ﴾ [النساء : ٧٨]

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [البروج : ١]

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحِجْر : ١٦ و١٧]

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان : ٦١].

* * *

البُرْجُ، لُغَةً : الحصن والقصر العالي، البناء العظيم.

بَرَجَ الشيءُ : ظهَرَ وارتفع.

تبرَّجت المرأةُ : أظهرت زينتها ومحاسنها.

* * *

رأي المفسرين في بروج السماء :

الشيخ حسنين مخلوف : (بروجاً) أي منازل وطرقاً تسير فيها الكواكب(١)، وهي الاثنا عشر برجاً المشهورة، وقيل البروج هي الكواكب نفسها.

---

(١) أشرنا سابقاً إلى أن الأقدمين لم يميّزوا بين النجوم وبين ما يعرف اليوم بالكواكب السيارة، إذ كان يطلق عليها كلها اسم (الكواكب).

الشيخ محمد جواد مغنية: هي منازل الشمس والقمر.

* * *

وأقول إن بروج السماء استناداً إلى تفسيرها اللغوي، هي:

١ ـ أجرام في الفضاء.

٢ ـ كبيرة.

٣ ـ وهي زينة للسماء.

نتبين من ذلك أن البروج هي أجرام مادية عظيمة تزيّن السماء، وأنها ليست منازل أو مسارات.

المعنىٰ الاصطلاحي في الاستعمال الحاضر لكلمة (البروج) أو (الأبراج):

إن الأرض والقمر، والكواكب السيارة الأخرىٰ، والشمس، تقعُ كلها، وبمداراتها، على مستوىً واحد تقريباً، وبشكل قرص عظيم. إن امتدادات هذا المستوىٰ العظيم الذي يضم المجموعة الشمسية تلاقي، في الفضاء المحيط بالمنظومة الشمسية، مجاميع من النجوم يبلغ عددها (١٢) مجموعة، وتسمىٰ مجاميع النجوم هذه بـ«الزودياك» (Zodiac)، وتعني باليونانية (حديقة الحيوانات)، وهي:

(مجموعات: الحَمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، العذراء «السنبلة»، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت «السمكتان»).

إن امتدادات، أو مساقط، القرص الضّامّ للمنظومة الشمسية في الفضاء ترسم لنا دائرةً عظيمة تسمىٰ بدائرة البروج (The ecleptic). إنّ النجوم، وكما نراها في الفضاء، متناثرةٌ حولنا، وفي كل اتجاه، وأما البروج المقصودة فهي مجاميع للنجوم التي تقع على دائرة البروج التي وصفناها، وحسب، أو حولها عن قريب.

* * *

رأينا في معنىٰ (البروج):

حتىٰ نعرف المقصود، في كتاب الله، بالبروج، علينا أن نعرف أولاً المقصود من (السماء) التي تحوي هذه البروج في الآيات المذكورة. إذ إنّ لكلمة (السماء)، في التنزيل، معاني عديدة، فما هو معنىٰ كلمة (السماء) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾؟

إنها ليست الغلاف الجوي للأرض، لأن الأخير لا يحتوي على أية أجرام عظيمة.

فهل إن السماء هنا هي مجرّتنا؟ أم هي الكون كله؟ أم إنها غير ذلك؟

فلننظر إلى جدول المقارنة التالي:

سورة الحِجْر: ١٦ و١٧	سورة المُلْك: ٥
﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾	﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

إن السماء، في كلتي المجموعتين، تتصف بما يأتي:

١ ـ هي مُزَيَّنَـة.

٢ ـ للناظرين، أي أنها مرئية لنا.

٣ ـ والزينة، وكما هو واضح في الآية الثانية، إنما هي بالمصابيح، أي النجوم. والزينة في السماء، في كتاب الله، لا تكون إلاّ بالنجوم.

٤ ـ وهي منها رجومٌ للشياطين.

نتيجة:

إن السماء ذات البروج هي السماء الدنيا نفسها، أي مجرّتنا (درب التبّانة)، وزينتُها هي ما نراه من نجومها القريبة منّا. وعندها لا تكون البروج إلا مجاميع النجوم، ومنها مجاميعها القريبة التي نراها، وهكذا يتضح أن المراد بـ (البروج)، في كتاب الله تعالى، هو أوسع وأشمل من الاصطلاح الحديث لها.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحِجْر: ١٦].

لماذا جاءت كلمة (للناظرين) في الآية الكريمة؟

قد يُظَنُّ أن معنىٰ الآية كان يبقىٰ واحداً لو لم تجيء كلمة (للناظرين) فيها، وهذا مُحال. لأن الله تعالى منزّهٌ، حاشاه، عن الباطل، والقرآن الكريم مجرّدٌ عن فضول القول. وإذاً فإن هناك قصداً منه تعالى في قوله: (للناظرين)، فما هو هذا القصد؟

قال جلّ شأنه: (وزيّناها)، وهو ما يعني الزينة. والمقصود بالزينة هو نحن أهلُ الأرض لا شك. وهي لا تكون زينةً من دون أن تكون مرئيةً لنا. فإذا كان الأمر كذلك، فما هو سبب إضافة كلمة (للناظرين)؟ إنّ وراء ذلك لَسِرّاً، وهاك تفسيره:

إنّ السماء هي مزيّنةٌ لنا. ولا شك في أن ذلك هو بالنجوم، لا بغيرها. ولكنْ خلق النجوم، وهي يصل عددها إلى (٤٠٠) مليار في مجرّتنا، وهي لا نرىٰ منها، بأعيننا المجردة، إلاّ آلافاً قليلة تعدّ على أصابع اليد الواحدة، وفي المجرّات الأخرىٰ، وهي لا نرىٰ نجومها بأعيننا المجردة أبداً، ليس المقصود به أساساً أن تكون زينةً للأرض، ولكن الله سبحانه قد جعلها، للناظرين إليها من الأرض، زينة. وهي في حقيقة أمرها أكبرُ من ذلك وأخطر ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾. فكأنّ الآية الكريمة تخبّرُنا أنّ السماء رغم أنها تبدو مزيّنةً لنا بالنجوم فلا نَظُنَّنَّ أن النجوم هي للزينة فقط، ولا هي رجومٌ للشياطين وحسب، ولا هي دليلٌ يهتدي به السّاري على الأرض فقط. إنّها كلّ ذلك، بل وأكبرُ منه وأخطرُ شأناً بكثيرٍ جداً، حتىٰ لو هي بدت أشبه بمصابيح زينةٍ صغيرة وبعيدة للناظر إليها من سكان الأرض من المغرورين أو المتعملقين، أو هي تقول: إنّها للناظِر إليها من غير معرفةٍ بها، زينةٌ، وأمّا للعارفين بها، فهي فوق ذلك، وأكبر منه بكثير.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ.
وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ و٧٦].

معاني السّماء في القرآن الكريم

جاء ذكر كلمة (السماء) في (١٢٠) آية كريمة. وللسماء، بصيغتها المفردة، معانٍ عديدة تُعرَفُ من سياق القول.

وقبل أن نتطرق إلى معانيها الاصطلاحية المختلفة نشير إلى معناها اللغوي.

أصلُ كلمة السماء هو الفعل (سما)، أي علا. وكل ما علاك فقد سماك، فالسماءُ، لغةً، هي كل ما ارتفع وعلا، وكل شيءٍ فوق الإنسان ذلك الذي هو على سطح الأرض هو سماءٌ بالنسبة إليه. أي أنّ كل شيءٍ يعلو على سطح الأرض فهو، في اللغة، سماء.

* * *

١ ـ ﴿ . . وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ . . ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿ . . وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ . . ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿ . . وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا . . ﴾ [الأنعام: ٦].

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ [الطارق: ١١].

الرَّجع: المطر.

٢ ـ ﴿ . . وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ . . ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ . . ﴾
[الروم: ٤٨].

٣ ـ ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ . . ﴾ [النحل: ٧٩].

* السماء، في المجموعة الأولى من الآيات، هي مقرّ السحاب، ومصدر المطر.

وهي، في ثانيتها، مقرّ الرياح.

وهي، في ثالثتها، حيث تطيرُ الطيور.

* إذاً فالسماء، في كل هذه الآيات، وفي مثيلاتها أيضاً، **هي غلاف الأرض الهوائي**.

ولقد جاء ذِكرُ الجوّ في آيةٍ وحيدةٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾، مقروناً بذكر الطير، فكأن الآية تخبّرُنا بأنْ لا بدّ لهذه من ذاك، أي لا بدّ للطير من الهواء، أو الجو.

* * *

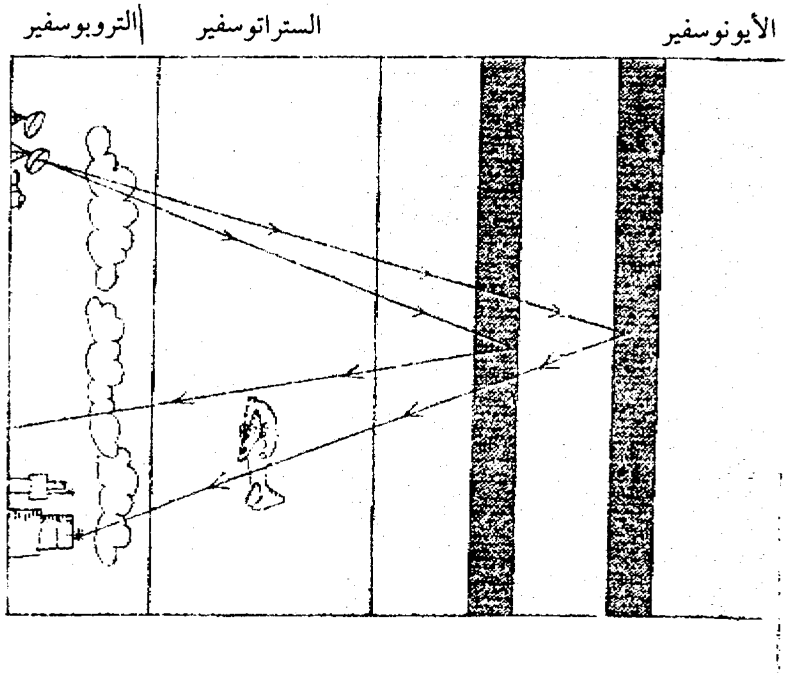
﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

إذا كانت السماءُ، هنا، هي غلاف الأرض الهوائي، فلماذا قال تعالى عن السحاب: (بين السماء والأرض)، ولم يقلْ: (في السماء)، مثلاً؟
الجواب:

١ ـ تدلّ الآية على أنّ السحاب يَشْغَلُ حيّزاً محدوداً ورقيقاً من الغلاف الهوائي، لا الغلاف الهوائي كله، وأنّ السحاب يقع بين السماء والأرض.

٢ ـ إن السحب تقع في أدنىٰ طبقةٍ من طبقات الغلاف الهوائي. فبينما يبلغ سمك الغلاف الهوائي، بطبقاته، حوالى (١٠٠٠) كيلومتر، فإن السحب تقع في

الطبقة السفلى منه والمسماة بـ«التروبوسفير» (Troposphere)، والتي يتراوح سمكُها بين (٨) إلى (١٦) كم[١]. أي أن كل أنواع السحاب تقع في الجزء ١/١٠٠ السفلي فقط من الغلاف الهوائي، بينما يقع ٩٩٪ من ارتفاع الغلاف الهوائي فوقها. وهكذا يتبين لنا سرّ التعبير القرآني في أن السحاب يقع بين السماء والأرض.



شكل (٦)
السحاب المسخر بين السماء والأرض

(١) تصنف السحب، بالنسبة إلى عُلُوِّها، إلى (١٠) أصناف، وتدعىٰ خمسٌ منها بالسحب المنخفضة، وهي توجد لأقل من (٢،٥) كم فوق سطح الأرض، وتدعىٰ اثنتان منها بالسحب المتوسطة، وهي توجد لأقل من (٦) كم، وثلاثٌ منها عالية توجد ما بين (٦) إلى (١٦) كم فوق سطح الأرض.

التصعيد في السماء

﴿ . . وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ . . ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

حَرَجاً: شديد الضيق. وُصِفَ به الضيق للمبالغة.

يَصَّعَّد: أي يَتَصَعَّد، بمعنىٰ يتكلّف الصعود فلا يستطيعه.

مناقشة:

كلما ارتفعنا عن سطح الأرض خفّ الهواء، وقلّت كثافته، وانخفض الضغط الجوي. إن ارتفاعاً بحوالى (٣٠٠٠) متر أو أكثر عن سطح البحر يصحبه انخفاضٌ في أوكسجين الدم بما يؤدي إلى عُسر النَفَس (البُهْر)، والزُّرقة. وعندما يصل ارتفاع الإنسان إلى (٦٠٠٠) متر فإنه يفقد وعيه في دقائق قليلة[١].

إنّ كتاب الله قد جاء بمعجزةٍ في ذكرِ ضيق النَفَس البالغ عند الارتفاع في الجو، وهو ما لم يكن معروفاً، قطُّ، يومئذ. جاءت هذه الآية قبل أكثر من (١٤٠٠) عامٍ، ولكن لم يكتشف الإنسان ما جاء فيها، علمياً وعملياً، إلاّ منذ (٩٣) عاماً، عندما حلّق الأَخَوان «رايت» بأول طائرة وشعرا بالضيق في صدريهما، ثم جاء العلم ليكشف عن انخفاض كمية الأوكسجين وضغطه عند الصعود إلى الأعالي.

---

(١) يُعْمَلُ الضغطُ في مقصورات الطيارات الحديثة التي تطير على ارتفاع (١٠) كم عن سطح الأرض بما يعادل ارتفاعاً عن سطح الأرض يبلغ نحواً من (٢،٥) كم فقط.

السماء، وجَوُّ السماء

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩].

جوُّ كل شيء، في اللغة: بطنُه وداخله. والجوّانيّ هو عكسُ البَرّانيّ، وجاء الأول من (الجو) أي الداخل، وجاء الثاني من (البرّ)، أي الخارج.

وقيل: الجوّ هو ما بين الأرض والسماء.

وأقول: لقد اتضح، في اللغة، أن جوَّ السماء هو أسفلُها اللصيق بالأرض.

ملحوظات:

١ ـ إن هذه الآية هي الآية الوحيدة التي جاء فيها لفظ الـ(جوّ).

٢ ـ ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّه لا يعيشُ في غلاف الأرض الجويّ، بعيداً عن سطحها، إلاّ الطيور بأنواعها.

٣ ـ إن الطيور لا تعيش إلا في القسم السفليّ من الغلاف الهوائي، بل في جزئه اللصيق جداً بالأرض، ومعظم الطيور لا تتجاوز الـ ½ ١ كم في ارتفاعها عن سطح الأرض.

ومثلما وَصَفَ سبحانه السحب بأنها مسخّرةٌ بين السماء والأرض، فكذلك هي الطيور إذ هي تعيش في القسم الأسفل جداً من الغلاف الهوائي للأرض، أو في بطنه وداخله، أي «ما بين الأرض والسماء».

فانظر كيف قد انطبق المعنىٰ اللغوي لكلمة (الجو) هنا على معناها في القرآن الكريم، وعلى حقيقة جو الأرض التي لم تعرف إلا في عصرنا الحاضر.

نتائج:

١ ـ معنىٰ **السماء هنا هو غلاف الأرض الهوائي** (Atmosphere).

٢ ـ وأما **جوُّ السماء فهو تلك الطبقة السفلية من غلاف الأرض الهوائي الكثيفة والغنية بالأوكسجين**، كالذي تحتاج إليه الطيور في تنفسها.

والسماءِ ذاتِ الرَّجْع ـ سبعُ مَعانٍ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ .

وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١ و ١٢].

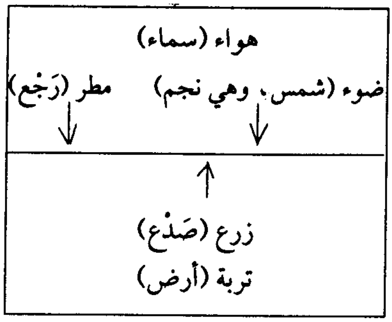
الرَّجَع: إعادة الشيء إلى ما كان عليه.

* * *

بادىء ذي بدء فإن ذكر السماء مقروناً بالأرض يشير إلى أن المقصود بالسماء، هنا، هو غلافُ الأرض الهوائي. ولقد اتفق علماء التفسير على أن (الرجع) هو المطر، لأن أصله هو الماء الذي يتبخر إلى أعلى ثم هو يرجع إلى الأرض مطراً، ثم إن الماء في هذه العملية يرجع ويتكرر في دورة مستمرة أسميت بدورة المياه في الطبيعة. ولمّا كان المولى سبحانه قد وصف السماء بأنها (ذات الرجع)، فتكون السماءُ هنا غلافَ الأرض الهوائي لا شك. وأما الصَّدْع فلقد اتفقوا على أنه الزرع، لأنه يصدعُ الأرض، أي يشقّها.

فهنا يُقْسِمُ تعالى بالسماء، أي غلاف الأرض الهوائي، والتي ينزل منها المطر، أي الرجع، كما يقسمُ بالأرض ذات الصدع، أي الزرع الذي يشقُّها.

ولو قَرَنْتَ الهواء (السماء)، بالتربة (الأرض)، يسقيها الماء، وبالضوء، وهو مصدره الشمس (والشمسُ نجم) لاجتمعت لديك الضرورات الثلاث لنشوء النبات وحياته، ومن ثم الحيوان.



شكل (٧)
ضرورات نشوء النبات

وٱنظُرْ إلى قَسَمه تعالى، في موضعين من سورة الطارق:

١ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ . ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ ـ ٣].

٢ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ . وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١ و١٢].

ولمّا كان الطارقُ نجماً ثاقباً بنصّ الآية، فإنه مما يمكن رؤيته، فهو في مجرّتنا إذاً، أي أن السماء التي تحوي النجم الثاقب والواردة في قوله: (والسماء والطارق) هي مجرّتنا نفسها أو الكون الذي يحتوي كل المجرات. فانظر كيف يبتدىء تعالىٰ القَسَم بها، ثم هو يعود للقسم بالسماء ذات الرجع (الغلاف الهوائي) وبالأرض، في آيتين متتاليتين.

وٱنظُرْ إلى القَسَم المُعْجِز للحقِّ تعالى، وإلى ترتيب الآيات البديع. فهو يتدرّجُ من الكبير إلى الصغير، ومن الأصل إلى الفرع، ومن العظيم إلى ما هو دونه.

وما إن تبدأ الآية الأولى، وفي أوّلِ كلمةٍ منها، بالقسم بالسماء حتىٰ يجيء القسمُ في ثاني كلمةٍ منها بالنجم الذي هو لبنة بناء الكون الكبيرة.

ثم تجيء بعدها أربعُ آياتٍ تصف وجود حافظٍ على كل نفس، وخَلْق الإنسان. ويعود تعالىٰ، في آيتين متتاليتين، إلى القَسَم بالسماء التي هي غلاف الأرض الهوائي وبالأرض، في إعجازٍ وبلاغة رائعين.

* * *

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴾

إننا لا نتوقف حيث توقف المفسرون، رحمهم الله، في تفسير الرجع بالمطر، فهو مما لا اختلاف فيه، لكننا نرى أن هناك معاني أخرىٰ عديدة لكلمة الرجع تضاف إلى المعنىٰ الأول، وهي كلها تتفرع من المعنىٰ اللغوي الواسع لكلمة (الرَّجْع)، بمعنىٰ الرجوع والعودة، ومما نعتبره وجوهاً عديدة معجزة في دلالاتها وتفسيراتها العلمية، ولقد تَقَصَّيْنا معاني، أو وجوه، (السماءِ ذات الرجع) كما قد عرفناها، في العصر الحاضر، فإذا هي قد بلغت سبعةً، وهاكها:

١ ـ وأولها هو **المطر** الذي أطبق عليه المفسرون. ولقد أجمع العلماء على أنْ لو لم توجد تجهيزاتٌ مستمرة من الماء **العذب** على الأرض لانعدمت الحياة فيها. والماءُ العذب مصدره، في أول سلسلة تكوينه، هو المطر. فحُقَّ لنا أن نردّد قول الله تعالىٰ بأن الغيث يحيـي الأرض من بعد موتها. إن دورة المياه في الطبيعة تبدأ بتبخير الشمس لمياه المحيطات، فيندفع بخار الماء إلى أعلى وتحمله التيارات الهوائية، أو الرياح، إلى أعماق القارّات. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [فاطر: ٩]، حيث يمكن أن يتكاثف إلى مطرٍ يرجع إلى الأرض اليابسة فيُحييها، ثم يعود الماء إلى المحيطات من خلال الأنهار والينابيع. وهذه هي دورة المياه التي أشار إليها سبحانه في قسمه: (والسماءِ ذات الرجع)، علماً بأن الماء هو المادة الوحيدة التي توجد، في الطبيعة، بكل الأشكال الثلاثة: الغازية، والسائلة، والصلبة.

٢ ـ إن الهواء المحيط بالأرض، أو الغلاف الهوائي، يرقّ ويخفّ كلما ابتعدنا عن سطحها، ولقد حسب العلماء أن الغلاف الهوائي تقلّ كثافته، بالابتعاد عن سطح الأرض تدريجياً، حتىٰ يتداخل مع ما يسمى بـ«المادة ما بين الكواكب السيارة» (Interplanetory medium)، وظل هذا الاعتقاد سائداً حتىٰ قامت أجهزة الاستشعار والاقمار الصناعية باستكشاف الغلاف الهوائي الخارجي للأرض بأبعادٍ تصل إلىٰ أضعاف طول قطر الأرض، فعرفوا أن الغلاف الشمسي يُمطرنا بوابلٍ ممّا يسمىٰ

بـ «الريح الشمسية» (Solar wind) التي تنهمر في الفضاء وتصل إلى ما هو أبعد بكثيرٍ من مدار الأرض حول الشمس، إذ هي تصل إلى الحدود الخارجية للمنظومة الشمسية. إن هذه الريح الشمسية تجري حول المجال المغناطيسي للأرض مُحدثةً فيه تجويفاً، أو كهفاً، مستطيلاً يتحدّدُ في داخله غلاف الأرض الجوي.

إن هذ الغلاف الهوائي الذي يقع بين سطح الأرض والفضاء يشكّل ما يسميه العلماء بـ «الدرع الواقية»[1] **العظيمة للأرض**، ولولا الحماية التي تسبغها هذه الدرع ما كان يمكن للحياة أن تستمر على الأرض، بل ما كان لها أن تنشأ عليها، فهي تحمي الأرض من الإشعاعات القاتلة، وهي حاجزٌ يمنع كمياتٍ كبيرة من ضوء الشمس وحرارتها من الوصول إلى الأرض مما يمكن أن يتسبب في إحراق كل ما عليها. ولولا هذا الغلاف لاحترقنا (شَيّاً) نهاراً، ولتجمدنا من البرد ليلاً، كما أن الرطوبة في الجو تمنع أشعة الضوء والحرارة من أن تحرق العشب الأخضر وتجعل نموّ النبات وحياة الحيوان أمراً مستحيلاً. وتبعث الشمس، مثل بقية النجوم، بإشعاعاتٍ من موجاتٍ بأطوالٍ مختلفة هي:

١ ـ الأشعة الكونية (Cosmic rays)

٢ ـ أشعة غاما (Gamma rays)

٣ ـ الأشعة السينية، أو (المجهولة) (X-rays)

٤ ـ الأشعة فوق البنفسجية (Ultraviolet rays)

٥ ـ الأشعة المرئية (Visible rays)

٦ الأشعة تحت الحمراء (= الأشعة الحرارية) (Infra red). إن كل الأجسام الحارة تشع الحرارة على شكل موجات تسمىٰ بالأشعة تحت الحمراء.

٧ ـ الأشعة الصغرىٰ (= الموجات الدقيقة) (Microwaves).

٨ ـ الأشعة الراديوية (= الموجات اللاسلكية) (Radiowaves)، وهي لا يمكن

(١) «Shielding». انظر: Collier's Encyclopedia, Vol. 3 (1983), p. 162.

رؤيتها أو الإحساس بها، ولكن يمكن تمييزها بأجهزة خاصة، وهي تشبه الموجات المستعملة في أجهزة الإذاعة والتلفزة.

إن كل أنواع الإشعاع التي عددناها تتكون من موجات كهرومغناطيسية، وكلها تسير في الفضاء بسرعة الضوء. والفرق بينها يكمن في اختلاف تردداتها، أي في معدل تكوّن موجات طاقتها. ونحن لا يمكننا أن نرىٰ منها إلا موجاتٍ تقع ضمن مدىً محدود، وهو ما نعرفه بالأشعة المرئية أو (الضوء). وإشعاعات الشمس ذات الطاقة العالية، كالأشعة فوق البنفسجية، والأشعة السينية، وحتىٰ الإشعاعات الأقوىٰ ـ الأشعة الكونية ـ تعمّ الفضاء في المنظومة الشمسية، ويمكن أن تقتل الكائنات الحيّة، وهي تدخل الغلاف المحيط بالأرض بكميات مميتة، ولكنها تُوَقَّف قبل أن تصل سطح الأرض بمسافة بعيدة، إذ إنها متىٰ ما وصلت إلى الغلاف الهوائي اصطدمت بجسيمات الهواء الدقيقة التي تمتصها، فلا تصل إلى الأرض أبداً. وأما القليل الذي يتسرب إلينا من الأشعة فوق البنفسجية فهو الذي يشعرنا بلسعة على جلودنا، ويمكننا أن نرىٰ أثره على بشرتنا باسمرارها، من دون أن يمكن لنا رؤيته بذاته، وهو يصلنا بالقَدْر الذي يكفي لإفادتنا بالعمل على بشرة الجلد حتى تصنع الفيتامين (د) من مادة «الإرغوسترول» الموجودة في الجلد، وأما التعرض الزائد لها فإنه يسبب حدوث سرطانات الجلد، وإعتام عدسة العين، وقصور المناعة.

إن مفعول هذه الدرع المكينة في ردّ هذه الإشعاعات القاتلة عن الأرض هو معنىً من معاني (الرجع) في قسمه تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾.

وانظر كيف أن ما قد ذكرناه قد أحاطت به الآية الكريمة إحاطةً بليغة معجزة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ولقد أسمىٰ المولى سبحانه الغلاف الهوائي، مرةً أخرىٰ، بالسقف المرفوع، وأقسَمَ به: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ [الطور: ٥].

٣ ـ يقدّر العلماء وزن غاز «الغلاف الجوي» بحوالى (٥) مليون بليون طن.

والضغطُ الجوي يعادل وزن الغاز هذا مقسوماً على وحدة المساحة، ويبلغ (١٠) طن/ قدم٢ في مستوىً سطح البحر، وهو ما يساوي ضغط عمودٍ من الماء ارتفاعه (١٠) أمتار على كل قدمٍ مربع من سطح الأرض. إن هذه الدرجة من كثافة الغلاف الجوي **تحول دون وصول الملايين من الشهب القاتلة إلينا** منقضّةً بسرعة (٥٠) كم في الثانية، وهو معنىً آخر للسماء ذات الرجع.

٤ ـ يوجد توازنٌ معقّد بين كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلينا، وبين التسخين الحاصل في غلاف الأرض الجوي وسطحها، وبين إعادة إشعاع الطاقة الحرارية إلى الفضاء مرةً ثانية. إن هذا التوازن يحفظ الأرض دافئة بالحدود المناسبة وبالقَدْر المحسوب منه تعالىٰ لديمومة الحياة عليها، فلا هي بالقارصة البرد ولا هي بالحارّة الحارقة. إن الغلاف الجوي المحيط بالأرض هو مصدر هذا التوازن الذي يحفظ لسطحها بيئته المناسبة للحياة، ولولا هذا السقف المحفوظ من الغلاف الجوي لاحترقت جميع الأشياء شيّاً نهاراً ولتجمدت من البرد ليلاً.

إن أكثر أجزاء الغلاف الهوائي أهميةً هي طبقته الدنيا الملاصقة للأرض، حيث هنا يعيش الإنسان والحيوان والنبات، في المنطقة التي هي محل اتصال للجو والأرض والماء. إن الظروف الجوية لطبقات الغلاف الجوي المختلفة، من حرارة ومكونات هواء وغيرها، هي في جملتها الساحقة لا تسمحُ بحياةٍ فيها إلاّ على وجه الأرض، فسبحان من يَسَّرَ لنا كل ذلك.

إن عمل البيوت الزجاجية المخصصة لزراعة النباتات ووقايتها من البرد «بيوت الدفيئة» يرتكز على أن زجاجها، وبينما هو يسمح لضوء الشمس بالنفاذ إلى داخلها حتى يسخن ما فيها من أرض، فإنه نسبياً غير شفاف للأشعة تحت الحمراء (وهي الأشعة الحرارية)، إذ هو يحتجزها داخل الدفيئة مانعاً إياها من الخروج.

وكذلك فإن بخار الماء وثاني أوكسيد الكاربون، الموجودين في الهواء، شفافان لضوء الشمس المرئي، فهما يسمحان له بالوصول إلى الأرض، إلاّ أنهما غير

شفافين بالنسبة إلى حرارة الأشعة تحت الحمراء، أي أنهما يمتصّانها، وهو ما يؤدي إلى احتجاز الطاقة الحرارية في الجزء السفلي من الغلاف الجوي وإحماء وجه الأرض[1].

إن «أثر الدفيئة»[2] هذا في رجع الحرارة وردّها إلى الأرض هو مصداقٌ آخر لآية السماء ذات الرجع.

٥ ـ إنّ شكلاً لمقطعٍ لغلاف الأرض الجوي سوف يبيّن لنا طبقاته المختلفة. إن الطبقة الممتدة من (٨٠) وحتى (٥٠٠) كم فوق سطح الأرض تدعى بـ «الأيونوسفير»، أي الغلاف الجوي المتأين. تؤدي إشعاعات الشمس إلى شحن ذرات هذه الطبقة بالكهرباء فتسمى حينئذٍ بالأيونات، وهذه الأخيرة تقوم بعمل ملايين من المرايا العاكسة في الغلاف الجوي، إذ إنها **تستقبل الموجات اللاسلكية التي تبث من أي مكان في الأرض ثم هي تعكسها وتردها إلى الأرض ثانيةً في مكانٍ** آخر غيره مما يُمَكِّنُ من التقاطها. إن رجوع هذه الأمواج اللاسلكية، أو انعكاسها، بوساطة الغلاف الجوي هو أيضاً تصديقٌ لقوله تعالى: (والسماء ذات الرجع).

٦ ـ يمتصُ الماءُ الموجود على سطح الأرضِ ضوءَ الشمس فيتبخّر ويصيرُ بخاراً، أو غازاً، وهذا الغاز يحمل كمياتٍ عظيمةً من الطاقة إلى طبقة الهواء السفلية، وهي الطاقة التي تتحرر من جديد على شكل حرارة عندما يتكاثف الماء على شكل غيومٍ أو ضباب. ويُقدّر بأن نصف الطاقة الشمسية الواصلة إلى سطح الأرض يُستهلك في تبخير الماء حتى تعود الحرارة من جديد إلى الطبقة السفلى من الغلاف الجوي. إنّ هذا سببٌ آخر لتسخين جو الأرض من تحت بسبب **تكاثف البخار إلى غيوم ورجوع الحرارة الناتجة عن ذلك إلى جوِّ الأرض**، مِصداقاً للآية نفسها.

---

(١) وللغيوم أثرٌ مثل ذلك، فهي تلعب دوراً مهماً في احتجاز الحرارة أسفل منها. وهو تأثيرٌ أوضحُ ما يكون في الليل. ففي الشتاء يكون الجو أدفأ بكثير عند المساء إذا كانت السماء ملبّدة بالغيوم ممّا لو كانت صاحية، وهي ظاهرة معروفة منذ زمنٍ بعيد. ولو تحركت طبقة الغيوم هذه أو تحرك هواءٌ صافٍ إلى تلك المنطقة فيتحتّم حدوث هبوط حادٍ في درجات الحرارة، حيث إن الأرض سوف تشع عندئذٍ حرارتها إلى الفضاء الخارجي من دون عائق.

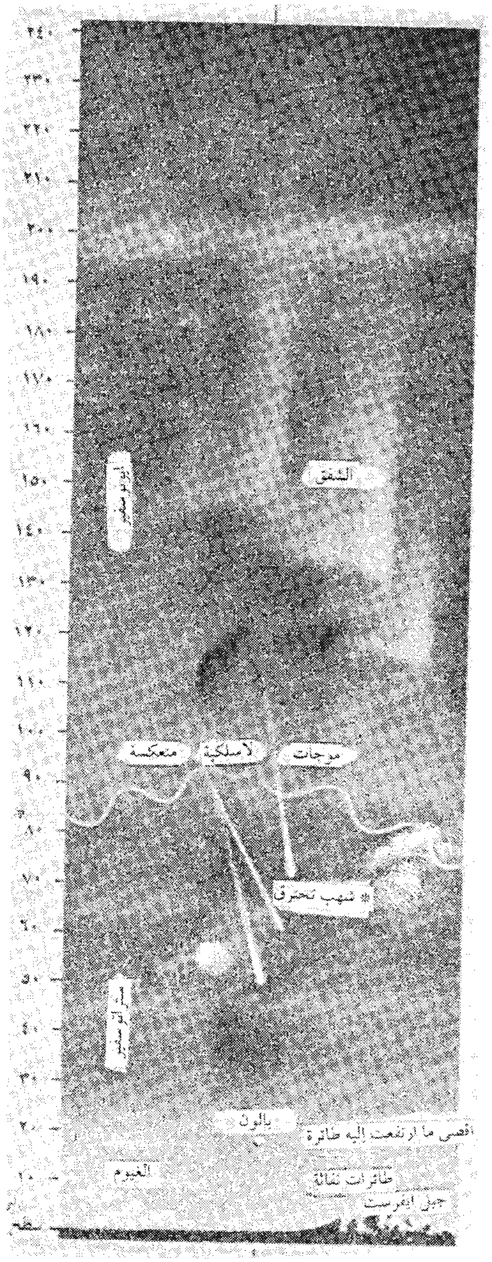
(٢) Greenhouse effect

٧ ـ **إنّ انتقال ترددات الأمواج الصوتية ورجوعها (صداها) لا يتم من دون وسطٍ** ناقل، وهو يختلف في ذلك عن الضوء. وانتقال الصوت ورجوعه، في الهواء، نعمةٌ كبيرة منه سبحانه علينا، سخّرها لنا من خلال السماء ذات الرجع. ينقلُ الهواءُ الصوتَ بتمرير الاهتزازات الصوتية من جزيئةٍ إلى الجزيئة التي تليها، وبسرعة تبلغ ٣٣٢ متراً في الثانية. ويدفع الصوتُ جزيئاتِ الهواء القريبة من مصدر الصوت ويقرّبها إلى بعضها البعض، وفي كل نقطةٍ على طول ممرّ الصوت فإن الجزيئات يحدث لها هذا الاضطراب المفاجىء، ثم هي تعود إلى أوضاعها الأصلية.

إن ترجيع السماء للترددات الاهتزازية الصوتية هو معنىً آخر من معاني السماء ذات الرجع.

* * *

وهكذا تَبَيّنّا سبعةً من المعاني، أو الوجوه، للسماء ذات الرجع. فسبحان الله ربِّ العالمين.



شكل (٨)
(والسماء ذات الرجع)
يرينا هذا الرسم ٢٥٠ ميلاً من غلاف الأرض الهوائي، أي ٤٠٠ كيلومتر، وهو يبلغ ارتفاعه حوالى ضعف هذا الارتفاع. لاحظ انعكاس الموجات اللاسلكية عبر «الأيونوسفير» ثانية إلى الأرض.

والأرض ذات الصّدْع - سبعُ معانٍ

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ [الطارق: ١٢].

الصَّدْع: الشَّقُّ في الشيء الصلب.

١ ـ قال علماء التفسير: إنّ الله تعالى يُقْسِمُ في هذه الآية **بالأرض ذات الزرع، تنشقُّ عنه انشقاقاً**.

وأقسمَ تعالىٰ قبل هذه الآية، مباشرةً، بالسماء ذات المطر بقوله: (والسماءِ ذاتِ الرجع). فانظرْ إلى قَسَمه سبحانه بالسماء التي تجود بالماء، وبالأرض التي تَهبُ الغذاء، مِنْ قَسَمَيْنِ عظيمين بآيتيْن من آيات لطفه وتدبيره.

والنبات، في نشوئه من اتحاد خليتين مجهريتين، وفي نموّه، لا بد له من ضوءٍ يمدّه بالطاقة اللازمة لنموه، ولا بدّ له من ماءٍ تعتمد عليه معظم العمليات الكيمياوية الحيوية اللازمة للحياة، ثم هو لا بد له من مصدر للمواد الغذائية، وهو التربة. والنباتات هي مصانعُ عظيمةٌ لا تنضب لأنواع الطعام التي تفتقر إليها الحيوانات، كما أنها مصادر للأوكسجين ومنافذ لاستخلاص ثاني أوكسيد الكاربون منه.

على أن هناك وجوهاً، أو معاني أخرىٰ، لكلمة «الصدع» نرى أنها تنطبق، أيضاً، على واقع حال الأرض، وهي لا يوجد في المنقول والمأثور من الأثر ما يناقضها:

٢ ـ هناك ٣٠٠٠ نوعٍ من أنواع المعادن في القشرة الأرضية، وهذه المعادن تتكون من مزيجٍ لاثنين أو أكثر من ٩٢ عنصراً توجد بصورةٍ طبيعية في قشرة الأرض.

والتعدين، وهو ضَرْبٌ من ضروب شقِّ الأرض، أو صدعها، أساسٌ لقيام الصناعات والحضارات.

٣ ـ والينابيع التي تتفجّر بالماء الموجود تحت سطح الأرض هي معنىً آخرُ للصدع.

٤ ـ والبراكين التي تثور من على وجه الأرض هي صدوعٌ في قشرتها.

٥ ـ والزلازل كذلك هي صدوعٌ في وجه الأرض.

٦ ـ كما أن الأرض تتصدّع يوم القيامة وتتشقَّق عن الناس الذين يخرجون من القبور ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [قٓ: ٤٤] وحقاً إنّ إحياء الموتىٰ هو كمثل إحياء الأرض بعد موتها، ففي كلاهما انشقاقٌ للأرض، ذاك عن الميت يُبعَثُ حيّاً، والآخر عن النبات.

٧ ـ كما أن الأنهار التي تجري بالمياه على وجه الأرض هي صدوع، أو شقوق، فيها.

جَعَل لكم الأرضَ فراشاً والسماء بناء

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً . . ﴾ [البقرة: ٢٢]

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً . . ﴾ [غافر: ٦٤]

ما المقصود بالسماء هنا؟

نتبين ذلك، مرّةً أخرىٰ، من القرائن الموجودة في الآية نفسها. فلقد دلّت كلمة (لكم) على أن السماء مُسَخَّرَةٌ للناس مثلما هي الأرض، فلا بد أن تكون قريبةً منا حتىٰ تكون مُسَخَّرَةً لنا، وليست هي النجوم ولا المجرات، مثلاً. إن السماء، هنا، هي غلاف الأرض الجوي، وإقرانُ ذِكر السماء بذِكر الأرض وبالوصف الوارد في الآية يؤيد ذلك.

فالأرض هي فراشٌ للإنسان، وقرارٌ له، من تحته.

وأما السماء، هنا، أي غلاف الأرض الجويّ، فهي بناءٌ له، وسقفٌ يحميه، مِن فوقه.

السقف المحفوظ
والسقف المرفوع

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]

﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ [الطور: ٥].

ذكرنا في تفسيرنا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ طرفاً يسيراً من أدوار السماء، أو غلاف الأرض الجوي، الخيوية، في المحافظة على حياتنا نحن الذين على الأرض. وانظرْ هنا إلى وصف الله سبحانه للسماء بالسقف المحفوظ مِنْ آيةٍ أحاطت إحاطةً بليغةً معجزة بحقيقة السماء، أو غلاف الأرض الجوي، ولقد أَقسم سبحانه بها مرةً أخرىٰ فوصفها بالسقف المرفوع. وٱنظرْ مرةً أخرىٰ إلى وصف العلماء، في عصرنا الحاضر، لها بـ«الدرع»، واعجبْ من الوصف القرآني الدقيق لِما لَمْ يُعْرَف إلاّ في العصر الحديث، كيف وإنّ الواصف هو خالقها وبارئها نفسُه، وهو العليم بكل أسرارها؟

ولئن كانت كلمة «الدرع» تُشير الى المعنىٰ نفسه المقصود بالسقف المحفوظ، والسقف المرفوع، فشتّان ما بين التعبير الإلَهي المعجز والتعبير البشري القاصر. فالدرع صغيرةٌ بالنسبة إلى الكرة الأرضية، وهي قد تكون حمايةً لجزءٍ من جسم الإنسان، حمايةً قاصرة، من أمام، لا حماية كاملة من فوق. إن السقف يحمي كل مَنْ تحتَهُ مِنْ كلِّ ما هو فوقه من المؤذيات، وهو هنا حمايةٌ لأهل الأرض من كل الأخطار والأوضار التي تحيق بهم في كل حين والتي تجيئهم من خارجها، وأمّا الدرعُ فلا.

بل ماذا أقول؟

إنها حمايةٌ للكرة الأرضية كلّها وبكل ما عليها من أشكال الحياة، وكلُّ ذا تكريمٌ للإنسان، لنا نحن. فسبحانك اللهم وبحمدك.

سَمْكُ السماء ـ ما هو ؟

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا .
رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا .
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا .
وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ .
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا .
وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٢].

* * *

السَّمْك في المعجم الوجيز: هو البعد الثالث بعد الطول والعرض، ويعبر عنه بالارتفاع.

وفي المنجد: السقف أو مِن أعلى البيت إلى أسفله. القامة من كل شيءٍ ثخين صاعد.

الشيخ مخلوف: رَفَعَ سَمْكَها أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض مديداً رفيعاً.

وهكذا نرىٰ أن «السَّمْك» هو بمعنى «السُّمك» المتعارف عليه نفسه، وأن المقصود بالسَّمك هو **طول ارتفاع الشيء**.

أغْطَشَ ليلها: أظلَمَهُ بمغيب شمسها. يقال: غَطَشَ الليلُ أي أظلَمَ.

* * *

يتحدث تعالىٰ علىٰ بناء السَّماء وخلقتها العجيبة قبل حديثه على الأرض.

ولكن، ما هي السماء هنا؟

الجواب يكمن في قوله سبحانه: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾.

والليل، والضحىٰ، هما على الأرض، لا شك، لا في عوالم أخرىٰ لا نراها ولا نعرفها، فالضمير (ها) في (ليلها) و(ضحاها) يعود إلى السماء.

فالسماء، هنا، إذاً، هي غلاف الأرض الجوي. ويؤكد رأينا قوله تعالىٰ في صفة السماء: (رفع سمكها فسوّاها)، أي أنها ليست شيئاً معلقاً فوقنا وبعيداً عنا، بل إن علوّها يمتدّ لمسافةٍ طويلة من سطح الأرض إلى فوق.

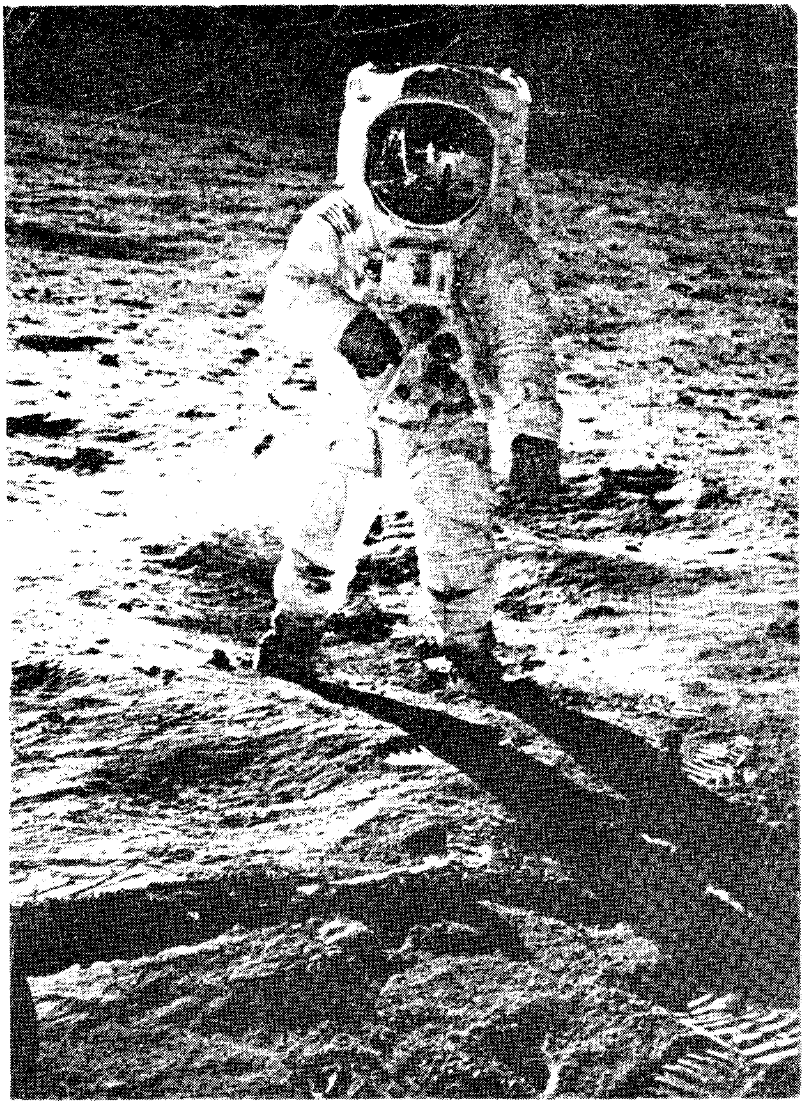
فأما وقد توصلنا إلى ذلك، فإنّ من العجيب أن يتحدث الحقُّ سبحانه وتعالىٰ هنا على إظلامه للسماء (= الغلاف الجوي)، وإخراجه لضحاها، فهو يتحدث على الليل والضحى باعتبارهما أمراً مخصوصاً بالسماء، لا بالأرض، كما قد يتوقع المرء. فما هو سرّ ذلك؟

إنّ الكواكب والأقمار التي لا يحيط بها غلافٌ هوائي يبدو الفضاء المحيط بها للناظر إليه من على سطح الجُرم نفسه أسود، على الدوام، ليلاً أو نهاراً.

فانعدام الغلاف الجوي لأي جُرْم لا يعني انعدام الحياة، من النوع الذي نعرفه، فيه وحسب، بل هو يعني أيضاً أنّ الفضاء المحيط به مظلمٌ أسود ليل نهار، فسبحان الله تعالى الذي بنىٰ السماء سقفاً محفوظاً، وجعلها ذات سُمْكٍ عظيم، إذ هي يبلغ سمكها حوالى ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ كيلومتر، لحماية الأرض ورعاية بني الإنسان. ثم هو أظلمَ غلاف الأرض الجوي، ليلاً، وأظهره نهاراً، ولو شاء لجعله أسودَ دامساً سرمدياً.

ولقد جاء ذكر السماء، في هذه الآيات، مقدّماً على ذكر الأرض، فهي تذكّرُنا بأهمية الأولىٰ للثانية.

فالحمد لله على رحمته بنا، وبالأرض ومن عليها، وعلى ما أسبغ علينا من نعمه، ظاهرةً وباطنة.



صورة (٩)
ليس للقمر غلافٌ جوي

صورة الملاّح الفضائي «إدوين أولدرن» وهو يتبع «نيل أرمسترونغ» على سطح القمر في تموز ١٩٦٩ . لاحظ أن جسم الملاّح وسطح القمر مرئيان بوضوح، ولاحظ ظلّ الملاّح على سطح القمر الناتج عن ضوء الشمس، فهما قد هبطا على الجزء المضيء منه، بينما أنّ الفضاء المحيط بالقمر (في أعلىٰ الصورة) أسود قاتم. وهكذا هي كل الأجرام المحرومة من الغلاف الجوي، إذ إن الفضاء المحيط بها يبدو أسود حتىٰ في أثناء «النهار».

وآياتٌ أخرى

السماء غلاف الأرض الجويّ

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقّة: ١٦]

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزّمل: ١٨]

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩]

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩]

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١]

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

إن المقصود بالسماء في الآيات الكريمة هو غلاف الأرض الجوي(١).

---

(١) تجد التفصيل في هذه الآيات في كتاب «القيامة بين العلم والقرآن» للمؤلف.

السماء بمعنى المنظومة الشمسية أو السديم المكوِّن لها

١ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ . . ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١ و١٢].

* برهنّا على أنّ السماوات السبع هي الكواكب السيارة حول الشمس، وهو ما تشير إليه هذه الآيات. وعليه فإن (السماء) هنا هي السديم المُكَوِّن للمنظومة الشمسية.

* وكما أسلفنا فإن الدليل القاطع على ذلك هو قوله تعالى في وصفه للسماء (وهي دخان)، أي غازٌ وغبار.

إذاً: السماء (دخان).

* * *

٢ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا . . ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ . . ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

* تشير الآية الأولى إلى فتق السماوات والأرض، أي فصلها عن بعضها البعض بعد أن كانت رتقاً متّصلاً.

* بينما تشير الآية الثانية إلى إعادته سبحانه للخلق مثل ابتدائه أول مرة. وإذا كان أول الخَلْق، كما نرىٰ في قوله تعالى: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾، فتقاً من بعد رتق، فإن إعادة الخلق، وبالطريقة نفسها (كما بدأنا أولَ خَلْقٍ نُعِيدُه) لا بد أن تكون رتقاً، أي جمعاً، لما قد تفرّق، أي جمعاً للسماوات والأرض (الكواكب السيارة). وعندئذٍ يتضح المعنىٰ المقصود من الآية (يوم نطوي السماء كطيِّ السجلِّ للكتُبِ. .) التي تدلّ على جمع نِثار السماوات والأرض إلى بعضها البعض مثل جمع السجل لما فيه من الصحف المكتوبات.

فالمقصود بالسماء في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ ﴾ هو المنظومة الشمسية بكواكبها السيارة وبشمسها وبأقمارها، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [القيامة: ٩].

* * *

جَنّةٌ عَرْضها كعَرْض السماء والأرض

جَنّةٌ عَرْضها السماوات والأرض

٣ - ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . . ﴾ [آل عمران: ١٣٣﴾.

* الجنّة في الآية الأولى عَرْضُها كعَرْض السماء والأرض.

بينما هي في الآية الثانية عرضها السماوات والأرض.

فما تفسير ما قد يحسبه البعض تناقضاً بين الأمرين؟

قال القرطبي: اختلف العلماءُ في تأويله، فقال ابن عباس: تُقْرَنُ السماواتُ

والأرض بعضُها إلى بعضٍ كما تُبْسَطُ الثيابُ ويوصَلُ بعضُها ببعضٍ، فذلك عرض الجنة.

ولا تناقض، في حقيقة الأمر، بين الآيتين.

فـ (السماء)، في قوله تعالى: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، مقصودٌ بها **المنظومة الشمسية**.

و(السماوات) في قوله سبحانه: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مقصودٌ بها الشيءُ نفسه، أي الكواكب السيارة + الأرض، تدور حول الشمس، أي المنظومة الشمسية أيضاً.

* * *

٤ ـ ﴿.. وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ..﴾ [الزمر: ٦٧]

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]

* هناك، في الآية الأولى، طَيٌّ للسماوات، يوم القيامة.

وفي الآية الثانية طيٌّ للسماء في الوقت نفسه.

قُلنا بأن السماوات، في الآية الأولىٰ، هي الكواكب السيارة حول الشمس، وإنّ إقرانها بالأرض يؤيد ذلك، وقد عبّرَ تعالىٰ عن جمع الكواكب السيارة كلها (السماوات والأرض)، يوم القيامة، بالطي، في الآية الأولى.

وتشير الآية الثانية إلى المعنىٰ نفسه، يوم القيامة، ولكن بلفظ (السماء) بدل (السماوات)، أي أنّ (السماء) هنا هي المنظومة الشمسية.

فانظر كيف قد تجيء كلمة (السماء) وكلمة (السماوات) بمعنىً واحد.

تزيين «السماء الدنيا»

السماء، أو السماء الدنيا، بمعنى مجرّتنا

١ ـ ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ . وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحِجر: ١٦ و١٧].

٢ ـ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصّافّات: ٦ و٧].

٣ ـ ﴿ . . وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا . . ﴾ [فُصِّلت: ١٢].

٤ ـ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [قَ: ٦].

٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ . . ﴾ [المُلْك: ٥].

٦ ـ ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجنّ: ٨].

٧ ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١].

(الدنيا) هي تأنيث (الأدنىٰ)، بمعنىٰ الأقرب.

فهي تعني السماء الأقرب إلينا.

وعكس (الدنيا): القصوىٰ، وهي مؤنث (الأقصىٰ)، أي الأبعد ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ . . ﴾ [الأنفال: ٤٢].

* * *

* جاء ذِكرُ الله تعالى لتزيين السماء في خمسِ آيات.

إن كل ما وُصِفَ بالزينة في القرآن الكريم، ومنه تزيين السماء، هو مرئيٌ لنا قطعاً بحكم العقل. ويؤيد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا﴾.

وفي آيات تزيين السماء الخمس جاءت آيتان مطلقتان بالزينة من غير تخصيص.

وجاءت آيتان مُقرِنَتين الزينة بالمصابيح.

وجاءت آيةٌ واحدة مقرنةً الزينة بالكواكب.

وتُقرِنُ هذه الآيات، غالباً، الزينة بالحفظ من الشياطين.

والزينة في السماء هي بالنجوم، لا شك.

ووصفها بالمصابيح يقطع بالأمر، وكذلك وجود البروج فيها[1].

فالمقصودُ، إذاً، بالكواكب في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ هو النجوم أيضاً.

فالسماء الدنيا مزينةٌ بالنجوم.

وإذاً فهي مجرتنا، مجرة «درب التبانة»، ليس غير[2].

---

(١) انظر شرح آيات البروج في ص ١٠٣.

(٢) يعتقد الرُّبان قاسم لاشين أن السماء الدنيا هي غلاف الأرض الجويّ، أو السقف المرفوع، ويَـرُدُّ على ذلك أن السماء الدنيا قد خَلَق تعالى فيها مجاميع النجوم، أو البروج، وكما ورد في الآية المذكورة في صدر مقالنا، كما أنها مزيّنة بالنجوم. انظر مقالة «الإعجاز القرآني في الفلك» للسيد لاشين، جريدة «الخليج» في ٢٦/ ١/ ١٩٩٦.

السماء ذات الحُبُك ـ ما هي؟

سبع معانٍ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات : ٧].

من معجزات كتاب الله أن تَرِدَ الكلمةُ الواحدة فيه وهي تجد لها المعاني العديدة في كتب اللغة، ثم إنك تكتشف، ويكتشف العلماء، حيناً بعد حين، أن العديد من معاني تلك الكلمة تنطبقُ كلّها على واقع الحال فيما قد وصفه تعالى في كتابه العزيز، وجوهاً عديدة للكلمة الواحدة. فلكلمة (السماء) معانٍ عديدةٌ تطرقنا إليها، وهي هنا، وكما سوف نرىٰ، الكون المحيط بنا.

وأمّا كلمة (الحُبُك)، فمفردُها حَبْكَة، وحُباك، وحَبِيكة.

وقد وردت لكلمة الحبيكة، في كتب اللغة، عدّةُ معانٍ، منها:

١ ـ الطريق، وجمعها طرائق. قالوا: هي طرائق النجوم.

٢ ـ الإحكام.

٣ ـ الخَلْق الحَسَن، عن ابن عباس.

٤ ـ حُسْن التدبير.

٥ ـ الشديدة، القوية، المُوَثَّقة.

٦ ـ الحبل.

٧ ـ التّجعّد والتّثنّي. قالوا: الحبيكة هي الطريقة في الرمل ونحوه، لِما يُرىٰ في الماء، أو الرمل، إذا مرّت به الريحُ اللينة من التكسّر والتّثنّي، أو هي الطريق بين خصل الشَعَر ونحوه، يُقال (رأسُه حُبُك) أي شَعَر رأسه متكسر من الجعودة، مثل

الماء الساكن، أو الرمل، إذا لعبت عليهما الرياح فيتجعدان ويصيران طرائق.

* * *

١ ـ فأمّا الطرائق فلقد فسّرتها المعاجم وعلماء التفسير بطرق النجوم. وفي الحقّ، وفي وصف أحد العلماء، فإن كل ما في الكون «يدور، ويجري، ويشدّ بعضه بعضاً»[١]. فهناك طرائق، أو مسارات، للأقمار، والكواكب السيارة، والنجوم، والمجرات، والسُدُم. ولكن وصفنا للحُبُك بالطُرُق، أو المسارات، يعطي، إن هو جاء من دون تخصيص وتوضيح لمعناها معنىٰ الطريق وحسب، أيَّ طريق، وهو غالباً ما يكون، في رأي العين، مستقيماً أو هو قد يكون غير منتظم، وأمّا الطرائق فهي لا تتقاطع، بل إنّ بعضها فوق بعضٍ، فهي متوازية، تماماً كما تقول الناس «طوابق». وكذلك فإن معنىٰ التجعد والتثني يضيف معنىٰ الاستدارة إلى معنىٰ الطريق، فيصير معنىٰ (الحُبُك) هنا: الطرق المستديرة، أي **المدارات**. وهكذا فإن كلمة (المدارات) تعطي من المعنىٰ فوق ما تعطيه كلمة (المسارات). وهو إعجازٌ للفظ (الحُبُك) القرآني في دلالته، إذ إن الاقدمين لم يعرفوا من النجوم إلاّ أنها تسير معاً، في صفحة السماء، من جهةٍ لأخرى، ولم يعرفوا طرقها المستديرة أو مداراتها، وهي عديدةٌ جداً، بل وأكثر من عدد تلك الأجرام بمجموعها، لا طريقاً واحداً، ذلك لأن للجرم الواحد حركاتٍ عديدات، لا حركةً واحدةً.

٢ ـ ثم من قال بأن حُبُكَ السماء هي طرائقُها، أو مدارات أجرامها، وحدها؟ إن النجوم التي هي لبنة بناء الكون الكبيرة، والتي تملأُ الكون، تبعث بإشعاعاتها الكهرومغناطيسية على شكل موجاتٍ أو تموجات، وهي معنىً من معاني الحُبُك كما قد رأينا.

٣ ـ بل إن معجزةً أخرىٰ تكمن في أن الكثير من المجرّات، مثل مجرتنا نحن،

---

(١) سوف نرىٰ أن كلمة «الحَبيكة»، و«الحُبُك» تؤدي هذه المعاني جميعاً.

تبدو في المرقب، بسبب شكلها الحلزوني، **وكأنها جعدةُ شَعرٍ ملتفّ**، وهو معنىٰ آخر من معاني الحبيكة.

٤ ـ وأما **الإحكام** في صنعه تعالى لهذه الأجرام التي تملأ الكون، **وحُسن الخَلْق والتدبير، والنظام، والقوة**، فَحَدِّثْ ما شاء لك الحديث عن بديع صنعه سبحانه.

٥ ـ هـذا إلـى أن مـن معـانـي (الشِّـدَّة)، وهـي مـن معـانـي الحبيكـة، : **الجريُ السريع**.

٦ ـ ثم إنّ في معنىٰ الحبل، أو الحبال، معنىً ينطبق على تلك «الخيوط» الجبارة غير المرئية، أو **القوىٰ التي تشدّ مكونات الكون إلى بعضها البعض**(١). ومن مِثْل ذلك وصفُه تعالىٰ لقوة جاذبية الشمس للكواكب السيارة بـ«الإمساك»، في قوله: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

وتوازنٌ دقيق بين الجذب والدفع

٧ ـ والقِوىٰ التي تُمْسِكُ أجرام السماء في أماكنها، أو «الحبال»، و«الحُبُك»، قد تكون على شكلٍ آخر. فإذا كانت للشمس قوةٌ جاذبة للكواكب السيارة فإن للأخيرة قوة «نابذة» أو «طاردة» تحفظها من الانجذاب نحو الشمس، وتنشأ القوة النابذة هذه عن سرعة مسيرة هذه الكواكب العظيمة(٢). ولقد وصف الحق سبحانه

---

(١) وهي القوىٰ الأربع التي يقوم عليها نظام الكون، وهي: قوة الجاذبية، والقوة الكهرومغناطيسية، والقوة النووية القوية، والقوة النووية الضعيفة.

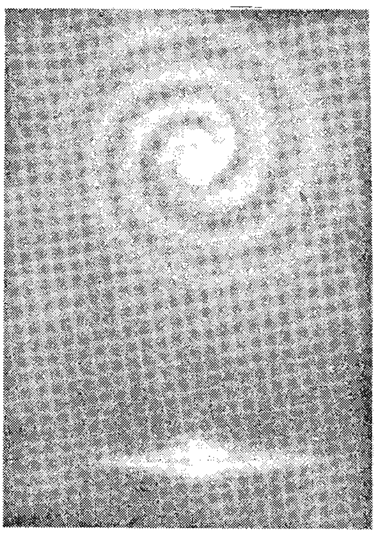
(٢) لو أطلِق صاروخٌ من الأرض فإنه سرعان ما يسقط عائداً إلى الأرض، بسبب جاذبية الأخيرة له، ما لم يصل سرعةً عالية معينة، وبالنسبة إلى صاروخ قريب من الأرض فإن هذه السرعة يجب أن تصل إلى ٢٧٠٠٠ كم في الساعة تقريباً، حيث يظل الصاروخ المطلق بهذه السرعة دائراً في الفضاء حول الأرض كقمر صناعي.
Rainbow Science Encyclopedia, whismith (1981), p. 126.

هذه القوة بـ(العمد) غير المنظورة، في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . ﴾ [الرعد: ٢].

فانظر إلى **التوازن الدقيق بين الجذب والدفع** في خلق الله، من حُبُكٍ في السماء عظيمةٍ أقسم بها تعالى تدليلاً على عظمتها، وهو ما لم يكن معروفاً قطّ.

وإذا كانت السماءُ في الآية (والسماءِ ذاتِ الحُبُكِ) هي الكون المحيط بنا كله، ممّا هو معروفٌ لنا، وإذا كانت أجرام الكون كلها متحركةً، بل إنّ كلَّ شيءٍ يتحركُ فيه، فإن الآية الكريمة تنطبق على كل ما في الكون. وهذه الآية معجزةٌ في دلالتها على حركة كل ما في الكون مما عرفنا وما لم نعرف، وعلى مساراتها الدائرية، وسُرَعِها العظيمة، وأنّ كلَّ ما في الكون مِن مجرّةٍ كأنّه حبيكةٌ عظيمة.

فتباركَ الله أحسنُ الخالقين.



شكل (١٠)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾

منظر لمجرة «درب التّبانة»، ويرينا السهمُ موقعَ الشمس فيها.
إنّ شكل المجرة بأذرعها الحلزونية العملاقة يحاكي جعدة الشعر، وهو معنىً من معاني الحُبُك.
هل يمكن أن يكون ذِكر الآية لـ«حُبُك» في السماء إشارةً إلى المجرّات فيها؟ إنّ الشَبَه في شكل الاثنين كبيرٌ جداً.

السماوات العُلى: ما بعد المجرّة

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]

العُلىٰ: جمعُ مؤنّثِ أعْلىٰ.

* * *

جاء ذكرُ كلمة (السماوات)، في كتاب الله، ١٩٠ مرة.

وهي ذِكرُها مقرونٌ، غالباً، بذكر الأرض.

وفي كل الآيات التي تذكر السماوات والأرض، من غير فاصلٍ بينهما، نرى أن الأولى مقدّمةٌ في ذكرها على الثانية.

وتُستثنىٰ من ذلك آيةٌ واحدة هي قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾.

وليست هذه هي الصفة الوحيدة التي تتفرد بها السماوات في هذه الآية عن كلمة السماوات في كل مثيلاتها من الآيات، بل إن هناك صفةً أخرىٰ تتفرّد بها.

وهي وصفه سبحانه لها بكلمة (العُلى).

هل إن كلمة (العُلى)، و(الأعلىٰ)، تقابل كلمة (الدنيا)، و(الأدنىٰ)، في معناها؟.

نعم. والدليل هو قوله تعالى:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ.
وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ.
لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصّافّات: ٦ ـ ٨].

فجاء في الآية وصف (الدنيا) مقابلاً لـِ(الأعلى).

ولقد قلنا بأن (الدنيا) تعني (الأقرب).

والملأ الأعلى لا بدّ أن يكونوا أبعد من السماء الدنيا، أي أبعد من مجرّة درب التّبّانة، فهي إذاً، والله أعلم، إشارةٌ منه تعالىٰ لباقي المجرّات غير مجرّتنا نحن.

وإذا كانت السماء الدنيا هي السماء الأقرب إلينا،

فإن هناك، إذاً، سماواتٍ أبعد من السماء الدنيا وأعلى.

وإذا كانت السماء الدنيا هي مجرة «درب التبانة»

فإن السماوات الأبعد هي، غالباً[1]، سماواتٌ مثلها أبعد منها وأعلى، أي أنها المجرات الأبعد منها.

وهي، أي السماوات العُلى، لم يَرِدْ لها في القرآن الكريم عددٌ أو تحديد، لأنها كثيرة بما لا يكاد يُحصىٰ، بل إن كل إحصاءٍ لها هو تخمين تقريبي ليس إلا، وهي قد عرفوا منها، حتى الآن، مائة ألفِ مليون مجرّة أو يزيد.

إن السماوات العلىٰ التي لم يَرِدْ ذكرها في القرآن الكريم غير مرةٍ واحدة، لم يرد لها وصفٌ، كالسماء الدنيا، بأنها مزينة للناظرين، ولا بأنّ منها مصابيح، أو كواكب، أو بروجاً، أو سراجاً منيراً، ذلك لأنها غير مرئية بأعيننا المجردة.

إن هذه الصفات المتفردة للسماوات العلىٰ تفصِلُها وتميزها عن غيرها من باقي معاني السماوات في الآيات الأخرىٰ.

---

(١) هناك غير المجرّات سُدُمٌ وأنظمة أخرىٰ ذات طبيعة غامضة.

بين السماوات السبع والسماوات العُلى

١ ـ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ . . ﴾ [الإسراء : ٤٤]

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ . . ﴾ [الفُرقان : ٥٩].

٢ ـ ﴿ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ [طه : ٤].

* تقدّمَ، في الآيتيْن الأولَـيَيْن، ذِكرُ السمٰوات (السبع)، بمعنىٰ الكواكب السيارة، على الأرض.

* بينما قد تقدّم، في الآية الثالثة، ذكر الأرض على السماوات (العلى) التي أشارت الدلائل التي ذكرناها إلى أنها ما بعد مجرة درب التبانة، من مجراتٍ وغيرها.

ما عساه أن يكون السبب في هذا التقديم والتأخير؟

* تشير السماوات في الآيتين الأوليَيْن إلى الكواكب السيارة حول الشمس، وهي يمكن رؤية معظمها بالعين المجردة، كواكبَ بعيدةً تبدو، في رأي العين، كالنجوم. بينما أنّ الأرض كَكُرةٍ أرضيةٍ كاملة لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة بهذه الصفة.

ثم إنّ الكواكب السبعة عديدة بينما أنّ الأرض واحدة.

ومن الكواكب السبعة ما هو أعظمُ بكثيرٍ من الأرض.

وهي كلها أمورٌ قد تكون السبب في تقديم ذكر السماوات على ذكر الأرض.

* وأما السماوات العلى، في الآية الثالثة، أو ما بعد مجرتنا من مجراتٍ لا تُحصىٰ، فهي غير مرئية، بالعين المجردة، إطلاقاً، لا كلها ولا حتىٰ جزءٍ يسيرٍ منها. إنها وصفٌ لِما قد غاب عنا، وهي بعيدةٌ بعيدةٌ، فكأنها لم توجد، بالنسبة إلى الناس، قبل أن نكتشفها في القرن العشرين بوساطة المَراقب الضخمة. إنّ حقيقةَ بُعدها المكاني، وتأخّر اكتشافها، قد يُفسِّرُ ذِكرَها بعد ذِكر الأرض، أولاً، ثم هي تفسّرُ ذِكرها في كتاب الله بصفة (السماوات العُلى) مرةً واحدة ليس غير.

السماء، بمعنى الكون

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]

أجمع علماء اللغة والتفسير على أن معنىٰ (بأييدٍ) هو (بقوّة).

تدل الآية على توسعٍ في السماء، مستمرٍ، منذ خلقها.

ولقد عرف العلماء، في القرن العشرين، أن الكون هو في توسعٍ مستمرٍ، منذ لحظة خلقه، لا يشكّ في ذلك أحد، إذ إنّ المجرات تتباعد عن بعضها البعض، وعنا، بسُرَعٍ عظيمة، وهي كلما ازدادت المسافة التي تفصلها عنا كلما زادت سرعتها في الابتعاد.

وبينما أن هذه الحقيقة الكونية التي اكتشفناها تتطابق ومعنىٰ الآية الكريمة وتصرف معناها إليها، فإن هناك، في هذه الآية غياباً لأي ذكرٍ أو وصفٍ ممّا قد يصرفُ معناها إلى غيرها من معاني السماء الأخرىٰ.

وإذاً فالسماء هنا هي الكونُ المحيطُ بنا، ذلك الذي قد عرفناه، كله. وأمّا ما لم نعلمه فعلمُه عند الله تعالى وحدَه، فهو خالقُه وهو العالِمُ به وحده. وذلك الاكتشاف المدهش، في توسع الكون، أو تباعد المجرّات، ما مغزاه؟

هل إن الكون سوف يستمر في توسعه أكثر وأكثر؟ أم إن ذلك سوف يتوقف في وقتٍ ما في المستقبل؟

ومتىٰ ابتدأت المجرات تباعدها؟

لقد وُجِدَت مجرّاتٌ تحيط بنا، في كل الاتجاهات، وعلى أبعادٍ سحيقة، فهل

إن لذلك من حدودٍ، أم إنها تمتد وتمتد إلى ما لا نهاية؟

تلك أسئلة حائرة لا يجد أحدٌ لها جواباً شافياً، وهي أسئلة تتزايد وتتكاثر.

ما هو تصور العلماء للكون؟

هل للكون من حدود؟ وماذا بعد ذلك؟

لقد اعتمد نيوتن، في تصوره للكون، على المفاهيم «الاقليدية» التقليدية، وهو اعتبر أن الكون هو فضاء عظيم يتكون من مجرات عديدة تسبح في وسطٍ أثيري يملأ الكون كله. فالفضاء عنده «لامتناهٍ وغير محدود»، والكون هو أشبه بجزيرة محدودة تقع في محيط من الفضاء لا نهاية له، أي أن الكون متناهٍ محدود.

بينما تصور آينشتاين أن الكون كروي محدب مغلق ليس له حدود لكنه متناهٍ ثابت الحجم، وصورة الكون هذه هي ككرة من الفضاء تسبح فيها المجرات التي تسير في اتجاه واحد مستقيم هو البعد الزمني، وأن الكون هو غشاء كروي لا شيء فوقه ولا شيء من تحته، ولا شيء من خارجه أو في باطنه، وهو شبّه انطلاقتنا في الكون كمثل من يسير في خط مستقيم على سطح الكرة الأرضية حيث إنه يعود في آخر الأمر إلى النقطة نفسها التي ابتدأ منها، وقال: إذا انطلقنا في داخل كرة الفضاء هذه في اتجاه معين لا نحيد عنه لوصلنا في نهاية المطاف إلى النقطة نفسها التي ابتدأنا منها، فللكون عند آينشتاين حجمٌ معينٌ، فهو سطح أو حجم محدّد من دون حدود، والفضاء فيه ليس خالياً ولكنه مليء بعدد محدود من النجوم والمجرات على نحو متجانس. ولم يلبث آينشتاين، وقد ظهر الرياضي البلجيكي «لومتر» بنظرية «توسع الكون» أن عدّل من نظريته ليجيء بأنموذجه المعدل الذي يشبه سطح بالون مطاطي ينتفخ باستمرار والمجرات على سطحه كأنها نقاطٌ تتباعد عن بعضها البعض.

ومع كل ما قد بذله العلماء من جهود فإنهم لم يتوصلوا إلى أكثر من تصورات لما هو عليه الكون ولا أكثر من ذلك، وهم يقدّرون أن تمرّ قرون أخرىٰ قبل أن يمكن لهم التعرف على طبيعة الكون.

إذا كان للكون، هذا الذي نعرفه، حدودٌ، فماذا بعد ذاك؟ وهل إنه لا يوجد بعد ذلك من شيء؟ وهل بعد الفضاء إلاّ الفضاء؟ أم ماذا؟

ألا ما أقلَّ ما نعرف، وما أكثر ما لا نعرف. إنه عجز المخلوقين وجهلهم، أمام قدرة القادر في ملكوته[1].

---

(١) «هذا الكون العجيب: من الذرّة إلى المجرّة» للمؤلف.
«قصة نشوء الكون»، د. مخلص الريس وعلي عيسى (١٩٩٠)، دار دمشق، ص ٩٨.

بناء السماء، والسماوات، في القرآن

١ ـ ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً . . ﴾ [البقرة: ٢٢]
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً . . ﴾ [غافر: ٦٤]
﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا . وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]

٢ ـ ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ: ١٢]

٣ ـ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦]

٤ ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

١ ـ قرنت المجموعة الأولى من الآيات السماءَ المبنية بذكر الأرض وجَعْلِها فراشاً في الآية الأولى، وقراراً في الثانية، ودَحْوها في الثالثة.

كما ذَكَرَت صفات السماء من ارتفاع عظيم، وصفات لليل وللنهار، مما قد بحثناه سابقاً.

ولمن ؟ إنها لنا، أرضاً وسماءً. ولا يكون ذلك إلاّ إذا كانت السماء، هنا، هي غلاف الأرض الجوي.

٢ ـ وأما المقصود ببناء السبع الشداد، فهي، كما أسلفنا، الكواكب السيارة.

٣ ـ وأما المقصود ببناء السماء المزينة، فهي مزينة بالنجوم، أي أنها مجرة درب التبانة.

٤ ـ وأما السماء في الآية الأخيرة فهي المجرّات التي توجد ما بعد مجرتنا.

نتيجة:

إن استعمال كلمة (البناء) للسماء لا يفيد، في ذاته، تخصيص معنىً معيّن من معاني السماء دون غيره.

معانٍ سبعة لكلمة «السماء» أو «السماوات» في القرآن الكريم

عرفنا من البحوث السابقة أنّ كلّ ما علا، أو بَعُدَ عن الأرض، هو سماء. وعرفنا معاني عديدة للسماء، والسماوات، مما يُعرف بحسب سياقها في الآيات الكريمة وصفاتها. ويرينا الجدول التالي معانيها، مع أمثلة من آيات كتاب الله تعالىٰ، و «المفاتيح» أو المؤشِّرات التي تشير إلى معانيها، إذ إن كل آية تحوي مفتاحاً أو مفاتيح تعين على فهم معناها:

ولقد وجدنا سبعةً من المعاني، وهاكها في هذا الجدول:

الكلمة	معناها	نماذج من الآيات المقصودة
السمـــــاء	١ ـ غلاف الأرض الجوي	﴿. . وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]
	٢ ـ (أ) المنظومة الشمسية	﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ . .﴾ [الأنبياء: ١٠٤]
	(ب) أو السديم المُكوِّن لها	﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا . .﴾ [فصلت: ١١]
	٣ ـ مجرّة «درب التّبانة»	﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحِجْر: ١٦]
	٤ ـ الكون ما بعد المجرّة (المجرّات الأخرى)	﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]
السماء الدنيا	٥ ـ مجرّة «درب التّبانة»	﴿. . وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ .﴾ [فُصِّلَت: ١٢]
السماوات العُلى	٦ ـ الكون ما بعد المجرّة (المجرّات الأخرىٰ)	﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]
السماوات السبع السماوات (والأرض) السماوات (وحدها)	٧ ـ الكواكب السيارة حول الشمس	﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا . .﴾ [المُلْك: ٣] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ . . [الفرقان: ٥٩]

مفتاح المعنىٰ
* ذِكرُ الهواء أو الرياح، السحاب، المطر، الطيران * وصفها بالسقف المحفوظ أو السقف المرفوع (في الحياة الدنيا) * وصفها بالانفطار، التشقق، الانفراج، الفتح، الكشط (في يوم القيامة)
* ذِكرُ الطيّ (كطيّ السّجلّ للكتب)
* وصفها بالدخان * خلقها مع الأرض
* البروج * الزينة
* الإيساع * عدم ذكر صفات (السماء) الأخرىٰ
* المصابيح * الكواكب * الزينة * الحِفْظ * رجوم الشياطين * الطارق
* ذِكرُ (الأرض) سابقٌ لذكر (السمٰوات)
* موصوفة بالسبع * أو يجيء بعدها ذكر (الأرض)، من دونِ فاصل. * الفتق * الرتق * الطيّ * الدخان * الطباق * الطرائق * الشِّداد * رفعها من غير عَمَدٍ نراها. * السراج المنير (الشمس) * خلقها مع الأرض في ستة أيام.

الأرضون السبع - ما هنّ؟

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . . ﴾ [الطلاق: ١٢].

اللغة

المعجم الوجيز: المِثْل: الشِّبه والنظير، ومثله ما جاء في «المنجد».

المِثال: صورة الشيء التي تبيّن صفاته.

ماثَلَ الشيءَ: شابهه.

أقوال العلماء

اختلف المفسّرون اختلافاً عظيماً في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾، وهاك بعضاً من أقوالهم:

القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»:

وقد اختُلِفَ فيه، أي في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾، فقيل ومن الأرض مثلهن أي في العدد؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والإخبار؛ فتَعَيَّنَ العدد. وقيل: (ومن الأرض مثلهن) أي في غلظهن وما بينهن. وقيل هي سبعٌ إلا أنه لم يُفتق بعضها من بعض، قاله الداوديّ.

مغنية في «التفسير المبين»:

تعددت الأقوال حول السماوات السبع والأَرَضين السبع، ومنها أن الكون الأكبر يضم سبعة أكوان، وفي كل كون العديد من الكواكب، من جملتها كوكب

أرضي تماماً كهذا الكوكب الذي فيه نحيا ونموت. وفي تفسير ابن كثير: سُئِلَ ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فقال: (لو حدثتكم عن تفسيرها لكفرتم). يريد أن عظمة الكون فوق تصورهم.

مخلوف في «صفوة البيان لمعاني القرآن»:

مِثْلَهُنّ: أي في العدد، فهي سَبْعٌ. والتعدد باعتبار أصول الطبقات الطينية والصخرية والمائية والمعدنية ونحو ذلك.

حنفي أحمد في «التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن»:

إن الأَرَضين هي الكواكب (السيارة) والقمر وما يوجد مثله من أقمار.

* * *

إن الضمير المتصل (هن) في كلمة (مثلهن) يعود إلى السماوات. والمعنىٰ اللغوي المعجمي واضحٌ في أنّ خَلق الله تعالى للأرض هو مثلُ خلقه للسماوات، أي شبههنّ ونظيرهن في صفاتهن.

لكن أقوال المفسرين اختلفت وتضاربت.

فهل إن المماثلة هي في العدد؟

أم هي في النوع؟

أم هي في كليهما؟

وما هو سِرّ ذهاب بعض العلماء إلى التماثل العددي؟

إننا نكتشف سبب ذلك فيما قد رواه القرطبي الذي أشار إلى رأيهم ذاك في وجود أَرَضينَ سبعٍ. ولقد فسّر ذهابهم إلى هذا الرأي بأنهم ظنّوا أنّ السماوات السبع تختلف عن الأرض، أو الأرضين، في الصفة والكيفية. أي لو قد ثبت للعلماء بأن السماوات والأرض تتشابه في صفاتها لكان ذلك هو مذهبهم، وهو ما يتلاءم تماماً مع معنىٰ الآية من ناحية اللغة، وكما كانوا قد ذهبوا إلى التماثل العددي. وبعبارةٍ

أخرىٰ فإننا نلمح في كلام القرطبي أن ظنهم اختلاف السماوات السبع النوعي عن الأرض قد دفعهم إلى الاعتقاد بتماثلها العددي.

ولقد جاء القرآن الكريم على ذِكر «السماء» ١٢٠ مرة.

وجاء على ذكر «السماوات» ١٩٠ مرة، منها ٧ مرّات في ذكر السماوات السبع، وهو شيءٌ مُعجِز كما أشرنا سابقاً.

وجاء على ذكر «الأرض»، وبهذا اللفظ، ٤٥١ مرة، عدا ما ذَكر منها بصيغٍ أخرىٰ.

ولكن لم يجيء القرآن الكريم على ذِكر «الأَرَضين السبع» أبداً، لا بل لم يجيء فيه ذِكرُ «الأَرَضين» على الإطلاق.

وهي حقيقةٌ لا بد أن تسترعي اهتمامنا كله، وهي سببٌ آخر يُضاف إلى المعنىٰ اللغوي المعجمي لكلمة المماثلة حيث إننا نرىٰ أنّ المقصود أن هناك أرضاً واحدة تشابه السماوات السبع ـ التي أثبتنا أنها الكواكب السيارة ـ نوعاً وصفةً، لا أَرَضينَ سبعاً بمعنىٰ سبعِ كُراتٍ أرضيات.

ودفعاً للالتباس، وقبل أن نستطرد في بحثنا هذا، نقول بأن المقصود بكلمة الأرض، في القرآن الكريم، هو الكرة الأرضية، ولقد جاءت فيه آياتٌ معجزات تدل على كرويتها ونَجِدُها في مكانٍ آخر من هذا الكتاب. وغيرُ ذلك هو معنىٰ كلمة الأرض في المتداول بين الناس، إذ إن الناس قديماً لم يكونوا يعلمون أن الأرض هي كرة، وكرة عظيمة، وإنما قصدوا في كلامهم على الأرض القطعةَ، أو الناحية، منها، لا غير، وهو ما سنتطرق إليه بعد قليل. وإذا ما جاء ذكر كلمة الأرض في كلامنا في العصر الحاضر انصرف الذهن، غالباً، إلى «الكرة الأرضية» من دون شك، إلا أن هذا لم يكن ليحدثَ قبلاً، والسبب في ذلك بسيطٌ وواضح، وهو أن حقيقة وجود الأرض ككرة عظيمة لم تكن قد عُرفت بعد، أما في كتاب الله فإن كلمة «الأرض» تدل على الكرة الأرضية نفسها، أي أنها تجيء هنا بمعناها العلمي الفلكي. فصار لِزاماً أن

نفرّق بين معنىٰ «الأرض» في القرآن الكريم، وبين معناها المتداول، والشائع، آنذاك، لدىٰ الناس، وأن لا نعتبرهما شيئاً واحداً.

الدليل، من كتاب الله، على معنىٰ كلمة «المِثْل»

١ ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ . .﴾ [البقرة: ٢٣].

وواضحٌ من الآية أن المقصود من قوله تعالى: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ هو المماثلة في النوع والصفة، لا العدد.

٢ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١ و٤٢].

إنّ المقصود بقوله سبحانه: (ما يركبون) هو حيوانات الركوب، كالجِمال، والحمير، إلخ، ووجه التماثل هنا بين هذه وبين الفلك المشحون هو أنهما مركوبان. فالتماثلُ هنا هو في النوع، لا العدد.

يتضح لنا من المثالين السابقين أن قول (من مثله) في القرآن الكريم يجيء بمعنىٰ التماثل في الصفة، لا في العَدَد.

مناقشة

ولقد جاء ذِكرُ «السماوات»، في القرآن الكريم، (١٩٠) مرّة، وذكر «السماوات السبع» ٧ مرات، وبينما يتحدث القرآن على مَلَكوت الله، وخَلْقِه، فإنه لم يجيء فيه ذِكرٌ للأرض بصيغة الجمع أبداً، وهاك آياتٍ تشهد لصحة ما نقول:

١ ـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . .﴾ [الأنعام: ١].

إن الله سبحانه هو خالقُ كل شيء. والآية، مثلها في ذلك مثل كل الآيات التي تتحدث على الخَلق، وعلى ملكوت الله تعالى، وهي لم تجيء إلا على ذكر أرض

واحدة بعد ذكرها للسماوات. نعم، إن الكون واسعٌ وعظيم جداً، والله تعالى هو وحده العالِم بعدد ما خلق من الأَرَضين في الكون، لكنّ حديثنا مُنْصَبٌّ على تفسير الآية الكريمة ﴿. . وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ. . ﴾ وحسب. نقول ذلك ونكرره حتى لا يظن ظانّ أننا ننكر وجود أَرَضين لا نعلمها، وإنما نحن نناقشُ هنا قضية وجود أرضين سبعٍ في منظومتنا الشمسية من عدمه.

٢ ـ ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا . . ﴾ [صَ: ١٠].

قلنا بأن المقصود هنا هو الأرض، ومعها الكواكب السيارة الأخرىٰ، والكويكبات الواقعة ما بينها. فإذا جاء تعالىٰ على ذكر الكويكبات، وهي أصغر جداً وأقلّ خطراً من أيّة أرضٍ محتملة، فأين هو ذكر الأرضين لو كانت موجودة معها؟

٣ ـ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ . . ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

لا ذكر للأرضين في هذه الآية، وهي قد ذكرت حتىٰ الجبال على الأرض.

٤ ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . ﴾ [سبأ: ١].

إن كل ما في السماوات والأرض هو لله تعالى، ولو قد كانت هناك أرضٌ مع السماوات السبع لجاء ذكرها.

٥ ـ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١].

تتحدث الآية، كغيرها من الآيات المشابهة، وكما أسلفنا، على الكواكب السيارة. ولو كان معها أرضون متعددة لجاء ذِكرُها، إذ لا يُعقل أنْ لو وُجدت هذه الأرضون معها أن لا تسبِّح لله تعالى، كما لا يُعقل أن تسبّح لله، معها، من غير أن يذكرها سبحانه هي أيضاً.

٦ ـ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . ﴾ [الأنعام: ١٤].

إذا كانت السماوات والأرض كلها رتقاً متصلاً ثم فتق الله تعالىٰ بينها، فأين منها ذِكرُ الأرضين لو هي كانت خُلِقَت معها؟

٧ ـ ﴿ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ . .﴾ [النور: ٣٥].

إنّ الله سبحانه هو نور كل شيء. فإذا كانت هناك أرضون عديدة مع السماوات السبع، ومع أرضنا، فلماذا لم يجيء تعالىٰ على ذكرها؟ الجواب: هو أنها غير موجودة، وإلاّ لَكانَ ذكرها.

يتبين لنا من هذه الآيات، وغيرُها كثير، عدم ذِكر المولىٰ سبحانه للأرضِين السبع في معرض حديثه على المنظومة الشمسية، ولو كانت فيها هذه الأرضون لتحدث عليها.

ثم أين هي الأرضون السبع على أرض الواقع الذي نعرفه، وأين هو موقعها في المنظومة الشمسية لو كانت قد وُجدت فيها حقّا؟ ولماذا لم يأمرنا سبحانه أن ننظر إليها ونتفكر في خَلقها كما قد طلب منا بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض؟

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ . .﴾ [الزمر: ٦٣].

هناك احتمالان لا ثالث لهما هنا: إمّا أنّ هناك، في المنظومة الشمسية، أرضينَ عديدة ولكن مقاليدها ليست لله تعالى، وهو قولٌ باطلٌ طبعاً، أو أنه لا توجد هناك أرضون سبع مع السماوات السبع، وإنما هي أرضٌ واحدة فقط، هي أرضنا، وهو الصحيح.

* هل يمكن أن تكون الأرضون السبع هي طبقات الكرة الأرضية السبع التي سنشير إليها لاحقاً، كما قد ذهب إليه بعض علماء التفسير؟

حقّاً إن علماء طبقات الأرض يقسمونها إلى سبع طبقات؛ بعضها فوق بعض، إلا أن القول بأن الأرضين السبع هي طبقات الكرة الأرضية السبع لا يبدو صحيحاً، لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾. فقوله (يتنزل الأمرُ بينهن) قد دلَّ، من غير لبس، على أن هذه الطبقات ليست لصيقةً ببعضها بل إن بينها، أي بين الأرض والسماء، والسماء التي تليها، فُسَحاً ومسافات. ولو كان هناك

أرضون لوجب أن تكون منفصلةً عن بعضها لا متلاصقةً في حيّز واحد.

كما أن طبقات الأرض السبع ليس فيها شيءٌ من أوصاف السماوات السبع، ممّا قد ذكرناه سابقاً، وهي حقيقةٌ تنفي عنها مشابهتها للسماوات السبع والتي ذكرها المفسّرون.

* هل إن هناك سبع أَرَضين في الواقع، أي سبع كُراتٍ أرضيات؟

إذا كان المقصود بكلامه تعالىٰ وجود سبع كُراتٍ أرضيات، فلا بدّ من أن تكون أرضُنا واحدة منها، وهذا يعني أن هناك ست أرضين أخريات غيرها، فأين يمكن أن تكون؟

١ ـ إما أنها قريبةٌ منا، بمعنىٰ أنها موجودةٌ في المنظومة الشمسية، وعندها تكون:

(أ) الأرضون السبع هي الكواكب السيارة التي نعرفها، ولكن الكواكب السيارة حول الشمس هي ثمانية لا سبعة، وعليه فإن هذا الرأي لا صحة له.

(ب) أو أن تكون الأرضون السبع أجراماً أخرىٰ في المنظومة الشمسية غير الكواكب السيارة، ولكن ليس هناك مثل هذه الأجرام فيها، أي أن هذا الرأي مغلوطٌ أيضاً.

٢ ـ أو أن تكون الأرضون المقصودة موجودة في مكانٍ آخر من الكون، خارج نطاق المنظومة الشمسية، لا نعرفه. ولأن الكون عظيمٌ جداً في اتساعه فإن الله تعالىٰ قد يكون قصد أرضين في نواحٍ أخرىٰ من الكون.

ولكن هل إن هذا الاحتمال صحيح؟

الجواب:

١ ـ إن قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ معطوفٌ على قوله ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وهو ما يجعلنا نعتقد بأنها تقع، كلها، في مكانٍ واحد، وأنها قد خُلقت في وقتٍ واحد. وهذا يعني بأنها موجودة، كلها، في المنظومة الشمسية.

٢ ـ أما القولُ الفصل في ذلك فهو قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، وهو ما يدل على أنهن قريباتٌ من بعضهن، وأنهن موجوداتٌ مع بعضهن على نحوٍ لا يسمحُ لغيرهن من الأجرام العظيمة أن تتداخل فيما بينها، أي أنهن يقعن في داخل نطاق المنظومة الشمسية.

إن الكواكب السيارة تشابه الكرة الأرضية، فهن كلهن أخواتٌ لأمٍ واحدة هي الشمس. نحن قد أثبتنا أساساً أن السماوات السبع هي الكواكب السيارة نفسها، فأما وأنّ الأمر كذلك فلِمَ لَمْ يُسَمِّ تعالى السماواتِ السبع هذه بالأرضين، ما دامت السماوات كالأرض؟ والجواب هو أنها قد سمِّيت بالسماوات لِسموّها، أو علوّها عن الأرض.

إن الآية ﴿. . خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، والتي فسّرها بعض العلماء على أنها تعني وجود سبع أرضين، وصار للعلماء فيها اختلافٌ كثير صَرَفَ الناس عن حقيقتها، إنّ هذه الآية الكريمة هي نفسُها تعطينا مفتاح ما استغلق من معنى في فهمنا للسماوات السبع. وآيةُ ذلك أنّ **السماواتِ السبع مماثِلةٌ للأرض**. ولو أراد أحدٌ أن يصف الكواكب السيارة والأرض في تشابهها في أصلها، وبداية خَلقها، ونهايتها النهاية نفسها وفي الوقت نفسه يوم القيامة، وشكلها، ومداراتها، وانتظامها في منظومةٍ واحدة متّسِقة، بل وأعضاء في عائلةٍ واحدة، أقول لو أراد أحدٌ أن يصف ذلك بكل تفاصيله، وبأبلغ عبارة، لَكان ذلك قوله جلّ شأنه في هذه الآية المعجزة من كتابه العزيز.

وبينما حيّرت هذه الآيةُ العلماءَ سنين طوالاً، إذ هم قد حاروا بين أن تكون هناك أرض واحدة أم أَرَضون وأغفلوا النصف الأول من الآية، فإن الأمر في حقيقته هو **أن تماثل السماوات والأرض في نوعها وصفاتها هو المفتاح الذي يدلنا على أن السماوات السبع إنما هي الكواكب السيارة لا غير**.

ولقد أثبتنا، سابقاً، أن السماوات السبع والأرض هي، بنص القرآن الكريم، أجرامٌ متماثلة خُلقت في وقتٍ واحدٍ، وتنتهي في وقت واحد. وهذا ما لا ينطبق إلا على الأرض وأخواتها من الكواكب السيارة.

الأَرَضون (السبع) في حديث رسول الله (ص)

١ ـ عن النبي (ص): «اللّهم رَبَّ السماواتِ السبع وما أظللن والأرَضين السبع وما أقْلَلْن» رواه النسائي.

وقوله (ص): (وما أظللن) قد دلّ على أن السماوات هي أجرام صلبة، وليست غلافاً جوياً أو فضاءً مثلاً.

٢ ـ روىٰ مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله (ص) يقول: «مَنْ أخذ شبراً من الأرض ظلماً طُوِّقَهُ إلى سبع أَرَضين».

قالوا: طُوِّقَهُ أي طَوَّقَهُ اللهُ من سبع أرضين، أي كلّفه الله نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر، ويكون كالطوق في عنقه.

وأقول: إن قوله (ص): (طُوِّقَهُ إلى سبع أرضين) يشهد بأن الأرضين السبع هذه ليست متناثرة عن بعضها في الفضاء إلى الدرجة التي يتخللها غيرها من الأجرام، بل هو يدل على أنها أرضون قريبة إلى بعضها البعض ويلي بعضها بعضاً، كما أنها قريبة إلى مكان أي شخص في أية بقعة من الأرض بحيث هو يكون في المركز منها، وهي تمتد من حوله مطوِّقةً إياه. إن هذا الفهم ينفي أن يكون المقصود بالأرضين السبع هنا كُراتٍ أرضياتٍ سبعاً تحيط بالشخص، فنحن قلنا أنْ لا وجود لهكذا كراتٍ أرضيات غير الكواكب السيارة في المنظومة الشمسية. وأمّا أنْ تكون الأرضون السبع متناثراتٍ ومتداخلات مع غيرهن من الأجرام في الفضاء البعيد الذي لا نعلمه فهو أمرٌ غير معقول.

ونحن نفهم في قوله (ص) أن الطوق لا يكون إلا حول الشخص مما يحيط به من جوانبه، وهو بالنسبة إلى الشخص، أي شخص، على سطح الكرة الأرضية، يطوقه من جوانبه بامتداد سطح الأرض وحسب، لا فوقها ولا تحتها أيضاً.

٣ ـ وروى مسلمٌ عن أبي حَمّاد قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: «ستُفتَح

عليكم أَرَضون، ويكفيكمُ الله، فلا يَعْجِزْ أحدُكُم أنْ يلهوَ بأسهُمِهِ».

٤ ـ وروىٰ البخاري عن أبي سعيدٍ الخُدْريّ أن نبي الله (ص) قال: «. . فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدَميٍّ فجعلوه بينهم ـ أي حَكَماً ـ فقال: قيسوا ما بين **الأرْضَيْن** فإلىٰ أيَّتِهِما كان أدنىٰ فهُوَ لَهُ، فقاموا فوجدوه أدنىٰ إلى الأرض التي أراد. .).

* اعتقد بعض العلماء **المتأخرين** أن المقصود بالأرضين السبع، في الحديث الأول، هو كُراتٌ أرضيات سبعٌ، وفاتهم أن **الأقدمين** لم يكونوا قد عرفوا بعد حقيقة أن أرضنا هي كرةٌ عظيمة.

ويدلّ الحديثان الثاني والثالث على أن المقصود بالأرضين فيها، كلها، هو نواحي الكرة الأرضية لا غير، لا كراتٍ أرضياتٍ عديدات.

كما يدلّ الحديث الرابع على أن استعمال كلمة (الأرض) بصيغة غير المفرد، كالمثنىٰ مثلاً، موجود وشائع، إلا أنه، فيما قد اصْطُلِحَ عليه في زمن التنزيل والحديث، قد دلّ على القطعة الصغيرة من الأرض، لا الكرة الأرضية التي نعرفها اليوم.

وإذا ما وجدنا المعنىٰ نفسه للأرضين، أي نواحي الأرض، فيما ورد من الآثار المعتبرة، فإن ذلك يقوّي رأينا ويُثْبِتُه. وهاك من كتاب «نهج البلاغة» الأمثلة التالية:

الأَرَضون في حديث الامام علي

١ ـ في كلامه على الأمم الغابرة: «ألم يكونوا أرباباً في أقطارِ **الأَرَضين**، وملوكاً على رقاب العالمين».

٢ ـ «ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذِّهبان، ومعادن العِقْيان، ومَغارس الجِنان، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش **الأرضين** لفعل».

٣ ـ وفي وصفه للناس بعد أن بُعث رسول الله (ص) إليهم: «فهم حُكّام العالَمين، وملوكٌ في أطراف **الأرضين**. يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويُمضون الأحكامَ فيمن كان يُمضيها فيهم!».

٤ ـ ومن خطبةٍ له: «فسبحان مَن لا يخفىٰ عليه سوادُ غَسَقٍ داجٍ، ولا ليلٍ ساجٍ، في بقاع **الأَرَضين** المتطأطئات (المنخفضات)، ولا في يَفاع السُّفُع (الجبال) المتجاورات».

***

فأما وقد اتضح لنا أن الأرضين السبع، قديماً، وفي غير كتاب الله تعالى، هي مناحي الأرض المختلفة، في كرتنا الأرضية، فما هي حقيقتها؟

٧ أَرَضين = ٧ قارّات = ٧ «أقاليم»

تبرز لنا، هنا، حقيقة كبيرة واضحة، وهي أن الأرض تتكون من سبع نواحٍ عظيمات من الأرض متميزاتٍ ومنفصلات عن بعضهن بما يكفي لاعتبارهن أرضين عديدات، وهو ما قد تعارف الناس على تسميته بعدئذ بالقارات[(١)]، ونحن نرىٰ أن القارات السبع هي المقصودة بالأرضين التي وردت في حديث رسول الله (ص) والإمام علي، وهي معجزة جاءت في زمنٍ لم تُعرف فيه قارّات الأرض ولا عددها.

ويؤيد رأينا قول الإمام علي: «والله لو أُعطيتُ **الأقاليم السبعة** بما تحت أفلاكها على أن أعصيَ الله في نملةٍ أسلبُها جُلْبَ شعيرةٍ ما فعلتُه»، إذ يبدو منه أن الأقاليم السبعةِ هي نفسها الأرضون السبع، أو القارات السبع كما نعرفها اليوم.

على أنه إذا كان سطح الكرة الأرضية ينقسم، أفقياً، إلى هذه الأقسام السبعة

---

(١) هي آسيا، إفريقية، أوربا، أمريكا الشمالية، أمريكا الجنوبية، استراليا، القارة المنجمدة الجنوبية (انتاركتيكا).

التي أُسميت بالأَرَضين أو القارات، فإنها تنقسم أيضاً، عمودياً، إلى سبع طبقات متتاليات كما قد قسّمها علماء طبقات الأرض (الجيولوجي)[1].

نتائج:

١ ـ ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن الأقدمين عندما كانوا يستعملون كلمة «الأرض» في كلامهم فإنهم كانوا يقصدون منها الناحية، أو القطعةَ من الأرض، وليس الكرة الأرضية التي لم يعرفوها. أما كلمة «الأرض» في القرآن الكريم فهي تدل على الكرة الأرضية التي لم يعرفها إلا المتأخرون. فالأرض، في الحالة الأولىٰ، هي التربة المنبسطة تحت القدمين، في مساحةٍ محدودةٍ منها، وأما في الثانية فهي اصطلاح فلكي بالمعنىٰ العلمي لكلمة «الأرض» كما نعرفها اليوم. وهي، رغم أنها تبدو لنا من المُسَلَّمات اليوم، مُعجزةٌ جاء بها كتاب الله قبل أكثر من ١٤ قرناً، وظلت مجهولةً غير معروفةٍ حتىٰ العصر الحديث.

٢ ـ إن الأرضين السبع، في الحديث النبوي، هي مناحي الأرض، لا كُراتٌ أرضياتٌ سبعٌ[2]، وهي فيما نرىٰ، وعلى وجه التخصيص، قارّاتها السبع.

---

(١) انظر ص ٢١٧.

(٢) قال الشيخ مغنية في «التفسير المبين» بأن مقولة «الأرضين السبع والسماوات السبع» كانت معروفةً متداولة عند العرب قبل الإسلام. وأقول بأن حقائق الكون والحياة هي واحدة في كل زمانٍ ومكان، ولولا ذلك لما سُمِّيَت بالحقائق. وتواتر هذه المقولة من قبل ظهور دعوة الإسلام على يد نبينا (ص)، ومن بعده، يؤكدها ويقوّيها، لايُلغيها ولا ينتقص منها، شأنها في ذلك شأن كل الحقائق ذات المصدر الإلٰهي.

الكواكب في القرآن

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

قلنا سابقاً إن النجم، والكوكب، هما في اللغة اسمان لشيءٍ واحد، إذ إن الناس قديماً لم يفرّقوا بين النجوم والكواكب السيارة بالمعنى الذي اصطلح عليه المتأخرون، وهم قد اعتبروا كل أجرام السماء، ما خلا الشمس والقمر، نجوماً، ثم هم من بعد ذلك أسموا النجومَ بالكواكب الثابتة، والكواكبَ السيارة بالنجوم المتحيرة.

فما هو المقصود بالكوكب والكواكب في كتاب الله تعالى؟

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

جَنَّ عليه الليل: ستره وتغشّاه بظلمته، ومنه: الجِنّ، لاختفائها عن النظر.

أَفَلَ: غاب

صفات الكوكب الذي رآه إبراهيم (ع):

١ ـ هو كوكبٌ واحد، لم يُذكَرْ معه غيره، فهو كان ظاهراً من غير ظهورٍ لغيره، أو أن ظهوره كان بارزاً وطاغياً جداً على ما عداه من النيّرات، وإلىٰ الدرجة التي لا يُشار معها في ظهوره إلى ظهور غيره.

٢ ـ ولقد ظهر هذا الكوكب عند جنون الليل، أي عند ابتدائه.

٣ ـ ثم إنّه، وفي الجلسة نفسها، غاب عن النظر، فهو لم يبقَ، إذاً، طويلاً.

٤ ـ وغيابه لم يصحبه ذكرٌ لغياب غيره من النجوم، وهي ممّا يتوقع أن يدوم مرآها لوقتٍ أطول من ذلك.

إنّ كل هذه الصفات تشير إلى أن كوكب «**الزُّهَرَة**» هو المقصود، وهي أسطعُ جرم في السماء، سطوعاً ظاهرياً، بعد الشمس والقمر، وتظهر عند الغروب كنجمٍ نيِّرٍ جداً، ولذلك هي أُسميت **بنجمة المساء**، ثم إنها تبقىٰ مرئيةً لبعض الوقت عند الشروق، فهي تسمىٰ أيضاً **بنجمة الصباح**.

وهكذا نرى أن صفات الكوكب الذي رآه أبو الأنبياء (ع) تنطبق على صفات كوكبٍ سيّـار هو «الزّهرة»، وقد أشار إلى هذا التفسير بعض العلماء أيضاً. وتؤيد رأينا هذا الآيـة التي تسبق الآيـة المذكورة مباشرةً، في قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعـام: ٧٥]، والسماوات هنا، وكما قد أسلفنا، هي الكواكب السيارة، والملكوت هو: المُلْك العظيم.

﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤].

هل المقصود بالكواكب هنا هو النجوم، أم الكواكب السيارة؟

الجواب:

١ ـ لا يوجد من الكواكب السيارة إلاّ سبعة[1]، وهي مع الأرض ثمانية لا غير.

---

(١) أنظر ص ٦٦.

٢ ـ لا يمكن أن نرىٰ بالعين المجردة إلاّ خمسةً من الكواكب السيارة، وهي عُطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل. وهي لا يمكن رؤيتها كلها معاً، إذ هي تظهر في أوقاتٍ مختلفة، مِن مِثل أن يظهر عطارد والزهرة قريبين من بعضهما.

ورغم أن الآية تتحدث على رؤيا يوسف (ع)، لا على شيء على وجه الحقيقة، فإنّ لنا أن نستنتج بأن الكواكب الأحَدَ عشر تلك إنما هي نجومٌ لا كواكبُ سيارة.



شكل (١١)

منظر للزهرة وعطارد في الفضاء الغربي

تبدو «الزهرة» إلى اليسار، وهي أكثر الأجرام تألقاً بعد الشمس والقمر في رأي العين. أما «عطارد» فهو إلى اليمين وهو، وكما نرى:

١ ـ أقل لمعاناً منها.

٢ ـ وأدنى منها في الأفق.

إن كليهما لا نراهما من الأرض إلا لفترة قصيرة بعد غياب الشمس أو قبل طلوعها، وهما لا نستطيع أن نراهما في الليل عاليين في الفضاء.

تزيين السماء الدنيا

بالكواكب، أو المصابيح

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

وهو مثل قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ. . ﴾ [المُلْك: ٥].

ونحن قد أثبتنا أنّ السماء الدنيا هي مجرّتُنا «درب التبّانة»، وأن المصابيح هي النجوم، وعليه فإن المقصود بالكواكب هنا هو النجوم، وليس الكواكب السيّارة.

ولطرد أيّ شكٍّ في قولنا هذا، نقول:

لقد رأينا أن الكواكب السيارة، غير الأرض، سبعة. وهي لا تظهر معاً في الوقت الواحد. نعم إنها تبدو ساطعة كالنجوم، أو المصابيح، ولكن هل يمكن أن نقول عن الكوكب السيار الظاهر لنا أحياناً، أو الكوكبين، بأنها تزيّن السماء؟

يعسرُ جداً أن نردّ على هذا السؤال بالإيجاب، لأن زينة السماء، فيما نراه، لا تكون بالكوكب الواحد أو الكوكبين، بل هي تكون بالنجوم العديدة التي تطرّز أنحاء السماء المختلفة.

انتثار الكواكب يوم القيامة ـ ما هو؟

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

حتى نعرف المقصود من انتثار الكواكب، يوم القيامة، ننظر فيما يحدث للنجوم يومئذٍ..

١ ـ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المُرْسَلات: ٨].

قال المفسرون: طُمِسَت: ذهب ضوؤُها.

وأقول بأن طَمْسَكَ للشيء هو إخفاؤك لأثره، لا ذهابك بالشيء نفسه. فالآية الكريمة تُشير إلى انطماس ضوء النجوم واختفائه، لا اختفاء النجم نفسه من الوجود إلى العدم، وهو فرقٌ بين المعنيين لا بدّ من الانتباه له.

٢ ـ ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢].

قالوا: انكدرت: أي تغيّرت وانطمس نورها، مِن كَدَرْتُ الماءَ فانكَدَرَ: جعلتهُ كَدِراً، أي مائلاً نحو السواد والغبرة. وقالوا: انقَضَّتْ وتناثرت.

ونحن نرى أن المعنى القرآني واضحٌ في أنّ ما يحدث للنجوم هو انكدارُ ضوئها، أي اختفاؤه، لا تناثرها ولا فناؤُها، وهو مثل معنى الآية الأولى، بل هو أوضح منه، وهما يقوّيان أحدهما الآخر.

نتائج:

١ ـ ما يحدث للنجوم، يوم القيامة، ينحصر في انكدار ضوئها، من غير ذهابها هي أو انتثارها.

٢ ـ وعليه فإن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ المقصود به هو الكواكب السيارة. ولما كانت السماوات السبع هي الكواكب السيارة نفسها، فإن قوله سبحانه: ﴿. . وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ. .﴾ [الزمر: ٦٧] وقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ. .﴾ [إبراهيم: ٤٨] يشهدان لصحة رأينا في أن القيامة تنحصر بالمنظومة الشمسية[١]، وهو ما يتفق وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾.

وتفسيرنا هذا هو غيرُ ما قد ذهبت إليه جمهرةٌ من المفسرين في قولهم بأن المقصود هو انتثار النجوم.

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر كتابنا «القيامة بين العلم والقرآن».

الأرض

دحوُها

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠].

ثلاثةُ معانٍ للدحو:

دحا الشيءَ دحواً: ١ ـ بسطه ووسّعه.

٢ ـ دفَعَهُ وساقه..

والأُدْحُوَّة والأدْحِيَّة: بَيْض النعام في الرمل. وتقول العامّة الدَّحية بمعنى البيضة..

نتائج:

إن دَحْو الأرض يشير إلى ثلاث حقائق مُعجزة حول صفات الأرض، وهي قد اجتمعت كلها في لفظٍ واحد، وهي:

١ ـ الأرض منبسطة مُسَطَّحَة للواقف عليها. وورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ٢٠].

٢ ـ وهي مُساقة متحركة في مداراتها.

٣ ـ كما أنها بيضاوية أو إهليلجيّة كما قد رآها روّاد الفضاء وصوّرتها الأقمار الصناعية.



شكل (١٢)

(والأرض بعد ذلك دحاها)

التقط ملاّحو «أبولو-٢»، الذين كانوا أول من وطِيء أرضاً غير أرضنا نحن، هذه الصورة للأرض عندما كانوا في منتصف الطريق إلى القمر.

إن الأرض تبدو «أُدْحِيَّة»، أو «بيضة» أكثر مما هي كرة، في رأي العين.

والسبب في ظهور الأرض، دائماً، كذلك هو تعاقب الليل والنهار عليها:

﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾[الزمر: ٥].

مَدّ الأرض - معنيان للمَدّ

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا . . ﴾ [ق: ٧].

فسّر العلماء مدّ الأرض قديماً بأنها واسعة، وإننا لنعلم بأننا أينما سِرنا فوق الأرض، وفي أي اتجاه، وجدناها ممتدةً أمامنا، وسواءٌ أكُنّا في القطب الشمالي أم الجنوبي أم غيره، والسماء فوقنا في كل مكان، أي أنها كروية. فنحن نعرف الآن، فوق ما قد عرف القدماء، بأن كلمة (مددناها) تعني أيضاً أنْ لا حَدَّ لها، فهي ليس حافّةٌ ولا حدّ، وهذا ما لا ينطبق إلاّ على الكرة، لا على الأسطوانة، ولا المكعّب، ولا غيرهما من الأشكال الهندسية.

نتائج:

١ ـ الأرض واسعة ممتدّة.

٢ ـ وهي كروية.

تكوير الليل على النهار، والنهار على الليل ـ معنيان للتكوير

﴿ . . يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ . . ﴾ [الزُّمر: ٥].

لا يمكن أن يحدث التكوير المذكور في الآية إلاّ إذا كانت الأرض كروية. وهذه الآية هي أوضح الآيات دلالةً لنا على كروية الأرض في الكتاب العزيز. ولقد كان إدراكُ وتصوّر هذه الحقيقة صعباً على الناس، قديماً. فهم لم يعلموا حينئذٍ بجاذبية الأرض، وأنْ تقولَ لِمَنْ لم يسمع بقوة جاذبية الأرض للأجسام بأنه يقف، في حقيقة الأمر، على سطح كرةٍ عظيمة، وفي النصف الأسفل منها، مثلاً، فهو مدعاةٌ لظنّه بأنه ساقطٌ لا محالة، أو أنّك، وهو الأرجحُ في ظنه، قد كَذَبْتَه.

فالآيةُ، إذاً، قد جاءت بحقيقة كروية الأرض من قبل أن يمكن للناس إدراك ذلك ومعرفته بزمنٍ طويل. والتكوير في الآية الكريمة له وجهان اثنان ينطبق كلاهما على الواقع:

١ ـ التكوير، دالاًّ على الكروية.

٢ ـ التكوير، دالاًّ على التلفيف والدوران، إذْ هو مشتقٌ من كلمة «كَوَّرَ»، أي لَفَّ ودارَ. يُقال: كَوَّرَ الرجلُ العمامةَ أي لَفَّها حول رأسه.

إن التكوير في الآية ينطق بأن الأرض هي كرةٌ تدور.

الجبال تمرّ مرّ السحاب

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ . . ﴾ [النمل: ٨٨].

تحسَبُها: تظنها خطأً.

هي آية أخرى على دوران الأرض، ذلك الدوران الرفيق للكرة الأرضية الهائلة، والذي بلغ في رفقه حدًّا تحسبها معه بأنها جامدة. ثم إن الأرض، وهي تدور بسرعة حول نفسها، لا تترك السحب ثابتةً حيث هي، بل إنها، وكلّ ما في غلاف الأرض الجوي، يتبعها كذلك سقفاً محفوظاً أنّى سارت.

ولغير العارف بدوران الأرض فإنّ تعبير (تمر مرّ السحاب) يشير إلى حركة الجبال كحركة السحاب التي نراها، والمسببة عن دفع الرياح لها.

وأما للعليم بكتاب الله، حق العلم، فإنه يعلم أيضاً أن السحاب يَتْبَعُ الأرض في حركاتها السريعة.

الجبال أوتادٌ للأرض

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ . . ﴾ [النحل: ١٥].

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٦ و ٧].

رواسي: جبالاً ثوابت.

أن تميد: لئلا تميل وتتحرك وتضطرب.

والجبال أوتاداً: كالأوتاد للأرض، أي أرسيناها بالجبال لئلا تميد وتضطرب.

لقد اكتشف العلماء، في القرن العشرين، أن الأرض تتصدّع وتتحرك ألواحُ قشرتها بشكلٍ دائم، ولكن ببطءٍ لا يُحَسُّ به، فالجبل الذي يخرج من باطن الأرض إلى سطحها هو بمثابة الوتد الذي يُثبّت قشرة الأرض عن جانبيه، ولقد ثبت علمياً أن الجبل يمتد أربع مرّات ونصفاً تقريباً داخل طبقات الأرض السفلى، حسبما أثبتته وسائل التصوير الهولوغرافي(١).

---

(١) «إعجازات حديثة علمية ورقمية في القرآن» ـ د. رفيق أبو السعود، دار المعرفة، (١٩٩١)، ص ٤٦.

اختلاف الليل والنهار ـ معانٍ عديدة
لولا اختلافهما لانعدمت الحياة من على سطح الأرض

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

من معاني اختلاف الليل والنهار:

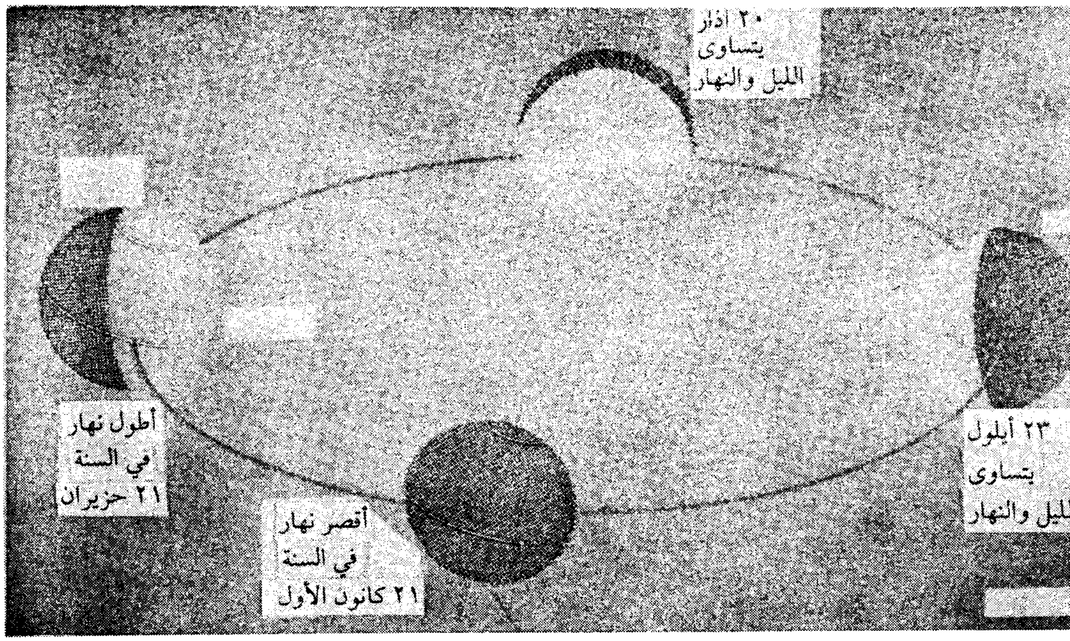
١ ـ تعاقبهما.

٢ ـ واختلاف خواصّهما. إذ لولا أن الأرض تدور حول نفسها بشكل مائل لحصل على أرضنا الآتي:

١ ـ لانعدمت الفصول
٢ ـ ولتساوى الليل والنهار.
} في كل بقعةٍ من الأرض، وفي كل أيام السنة.

٣ ـ لتفاوتت درجات الحرارة بين الليل والنهار تفاوتاً كبيراً تنعدم معه إمكانية الحياة على سطح الأرض.

٤ ـ لاختلّ كل النظام البديع في تصريف الرياح وتوزيع السحب والماء في مختلف بقاع الأرض.



شكل (١٣)

إن محور دوران الأرض حول نفسها ليس عمودياً تماماً على المستوى الذي تدور فيه حول الشمس، بل هي تميل عليه بزاوية قدرها ٥ , ٢٣ درجة. ويعني ذلك أنّ نصف الأرض الواحد يكون مائلاً نحو الشمس أحياناً ومبتعداً عنها أحياناً أخرى، مسبباً حدوث الفصول الأربعة:

الانقلاب الربيعي: ٢١ آذار
الانقلاب الصيفي: ٢١ حزيران
الانقلاب الخريفي: ٢٣ أيلول
الانقلاب الشتوي: ٢١ كانون أول

الأرضُ كِفات

ثلاثةُ معانٍ مُعجزة

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾ [المُرْسَلات: ٢٥].

كَفَتَ:

١ ـ جَمَعَ وضَمّ.

٢ ـ وفي «لسان العرب» لابن منظور: أسْرعَ في العَدْوِ والطيران.

* قالوا: كِفاتاً: أي جامعةً ضامّة للأحياء والأموات، وهو تفسيرٌ قديم.

* وإنّ في الآية، فوق ذلك، لمعانيَ أخرى معجزة، ومن معجزات هذه الآية دلالتها على:

١ ـ حركة الأرض.

٢ ـ وسرعتها البالغة.

فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

الكرسي والعرش

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

مقدمة

في الوقت الذي كان الناس يحسبون فيه أن الأرض ثابتة فلقد بيّن تعالى حقيقة الأمر كله بقوله: ﴿ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

ولكن الناس ظلوا على اعتقادهم القديم هذا، ورغم ما قد جاء في كتاب الله، سبعة قرونٍ أخرى، أي حتى القرن الرابع عشر الميلادي، حتى جاء زكريا بن محمد القزويني (ت ٦٨٢هـ = ١٢٨٣م)[١]، وكوبرنيكوس (١٥٥٤)، وغاليلو (١٦٠٩)، فقالوا بدوران الأرض.

وفي الوقت الذي اعتقد فيه العلماء، ومعهم الناس، أن الأرض هي مركز الكون، وأن الشمس والقمر والكواكب تدور حول الأرض الثابتة، داخل كرةٍ مرصوصة، أو حزامٍ ضيّقٍ من النجوم، وأن تلك «الكرة» هي الكون كله، وهو اعتقادٌ

---

(١) قال القزويني، في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»: «والأرض متحرّكة دائماً على الاستدارة. والذي نراه من دوران الفلك إنّما هو من دوران الأرض (على نفسها) لا دَوْر (لا من دوران) الكواكب» (١ : ٢٤٨). انظر «تاريخ العلوم عند العرب» لعمر فرّوخ، ط ٤، ص ١٧١ (١٩٨٤).

ظل سائداً حتى القرن الرابع عشر الميلادي أيضاً، وبينما ظل العلماء يعتقدون بعد ذلك، وحتى عام ١٩٢٣، بأن مجرتنا هي الكون كله.

فلقد جاء كتاب الله تعالى، ومنذ أكثر من ١٤ قرناً، بحقيقة أن الكون هو أوسع من ذلك بكثير، بل إن المنظومة الشمسية كلها، بل مجرتنا كلها، لا تكاد أن تكون شيئاً بجانب سعة الكون، وإليك الدليل:

١ ـ قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ . . ﴾ [المُلْك: ٥].

قلنا بأن السماء الدنيا هي مجرة درب التبانة، وإن المصابيح التي تزينها هي النجوم. فانظر كيف أن وصفه تعالى لهذه السماء بـ «الدنيا» قد دلّ دلالةً واضحة لا لبس فيها على أن هناك ما هو أبعد منها بكثير، سماواتٍ غيرها كثيرات، وهو ما قد وصفه سبحانه بـ«السماوات العُلى»، والتي سبق وأن أشرنا إلى دلالتها على المجرّات الأخرى، أي على الكون الذي نعرفه كله.

ووصفُه سبحانه للسماء الدنيا «مجرّة درب التّبّانة» بأنها مزيّنةٌ بالنجوم قد دلّ على أنّ:

(أ) هناك سماواتٍ غير السماء الدنيا أبعدَ منها بكثير، فهي لا نراها، وهي أكبرُ وأبعد من كل النجوم التي يمكننا رؤيتها. فانظر كيف قد جاء كتابُ الله بما لم يُعرَف إلاّ في القرن العشرين، من وجود مجرّاتٍ أخرى عديدة ومنتشرة في الكون، وهو أمرٌ لم يحدث إلاّ عام ١٩٢٣ على يد العالم الفلكي الأمريكي «هابل».

(ب) الزينة التي نراها في الفضاء المحيط بنا، أي زينة النجوم، محصورةٌ بالسماء الدنيا، أما السماوات العُلى الأبعد منها فهي غير مرئيةٍ بالعين المجردة، ولذا فهي لا ينطبق عليها، بالنسبة إلينا، وصف الزينة. وهذا الذي لا نبصره منها ممّا قد أقسم تعالى به في قوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقّة: ٣٨ و ٣٩].

٢ ـ وقال سبحانه: ﴿ . . وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ . . ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

جاء أناسٌ يسألون الإمام جعفر الصادق: «هل إنّ السماوات والأرض تَسَعُ (تحتوي) الكرسي؟ أم إن الكرسي هو الذي يسع السماوات والأرض؟»، فإذا كانت السماوات والأرض، في ظن الناس يومئذٍ، هي الكون كله، فكيف يكون «الكرسي» أكبر منها ويحتويها؟! فأجابهم بأن «الكرسي» هو الذي يَسَعُ السماوات والأرض، وهي إجابةٌ لا شك، قد أدهشتهم، فإذا كانت «السماوات والأرض» هي الكون كله، في ظنّهم، فكيف هي إذاً يحتويها ما هو أكبرُ منها؟!

معاني كلمات آية «الكرسي»

وَسِعَ: اتَّسَعَ له ولم يَضِقْ عنه، فهو وسيع. ووسعت رحمتُه كل شيء: شملته.

وأقول: إن ذلك يدل، بالبداهة، على أن الأول أكبر من الثاني وأعظم، أي أن الكرسي أوسع من السماوات والأرض، أو «المنظومة الشمسية».

لا يؤدُه: لا يشقُّ عليه.

«الكرسي» ـ آراء الأئمة والعلماء

١ ـ إنّ إضافة «الكرسي» إلى الله تعالى في قوله: «كرسيّه» هي كمثل إضافة «البيت» إليه سبحانه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، فالبيت المقصود هنا هو «البيت الحرام» في مكة، كما هو معروف، فهو ليس لسكنه بل لعبادته بالحج، كما أن «بيوت الله» ليست بيوتاً بالمعنى المتعارف عليه، فهي ليست مساكن له تعالى، بل هي المساجد التي لا يُقصد منها إلا تعبّد الناس لله تعالى وحده بالصلاة والدعاء.

ومثلما أن كلمة «البيت» ليست هنا بالمعنى المعروف لكلمة البيت، أي المسكن، فإن «الكرسيّ» هنا ليس هو الكرسي المعروف. فإذا عرفنا ذلك عرفنا أن الكرسي هنا ليس هو للجلوس مثلما أن البيت هنا ليس هو للسكنى.

وكذلك هو «العرش»، في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ . .﴾. قال القرطبي: «إضافة العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت، وليس البيت للسكنى، فكذلك العرش».

ولو قد قال أحدٌ بأن «الكرسي»، أو العرش، هنا هو للجلوس فذلك مُحال، لأن الله تعالى منزّهٌ عن كل ما خطر ببالك من شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ . .﴾ [الشورى: ١١].

قال الإمام علي في «نهج البلاغة»: «إن الله لا ينزل ولا يحتاج أن ينزل، وإنما يقول ذلك من ينسبه إلى نقصٍ وزيادة، وكل متحرّك يحتاج إلى من يحرّكه أو يتحرّك به، فاحذروا في صفاته من أن تقضوا له على حدٍّ تحدُّونه بنقصٍ أو زيادة أو تحريك أو تحرّك أو زوال أو استنزال أو نهوض أو قعود»، وقال: «إن الله لا يحدّه مكان».

وذكر الشيخ حسنين محمد مخلوف، في «صفوة البيان في تفسير القرآن»، «كمال تنزيهه تعالى عن الجسمية وعن مشابهة المحدثات»[(١)].

آراء علماء اللغة

٢ ـ وحتى نعرف دلالة، أو دلالات، كلمة «الكرسي» لا بدّ من أن نرجع إلى آراء علماء اللغة أولاً.

في «لسان العرب» لابن منظور: تكَرَّسَ الشيءُ وتكارسَ: تراكمَ وتلازب، أي تماسك. وتكَرَّس أسُّ البناء: صَلُبَ واشتد.

الكِرْسيّ: القلائد المضموم بعضها إلى بعض، والجمعُ كراسٍ.

وقلادةٌ ذات كِرْسَيْن: أي ذاتُ نظمين.

---

(١) المُشَبِّهَة هم الذين يُشبِّهون ربهم بمخلوقاته.
والمُجَسِّمَة هم الذين يقولون إنه جسم.

ونظمٌ مُكَرَّسٌ ومتكرِّس: بعضه فوق بعض، وكل ما جُعل بعضه فوق بعضٍ فقد كُرِّس وتكرّس هو.

ابن الأعرابي: كَرِسَ الرجلُ، إذا ازدحم علمُه على قلبه، والكرّاسة من الكتب سميت بذلك لتكرّسها.

والتكريس: ضمّ الشيء بعضه إلى بعض.

الكِرْسيّ: الجماعة من الناس، وقيل الجماعة من أي شيء كان.

وكِرْسُ الشيء: أصله. الكِرْس: الأصل.

والكُرْسي: معروف، وربما قالوا كِرْسي بكسر الكاف.

إذاً: تدلّ كلمة «الكرسي» على: المضموم إلى بعضه البعض، أو بعضه فوق بعض، من أيّ شيءٍ كان، المنظوم كاللؤلؤ والخرز في الخيوط، المتراكب المتماسك، الصلب الشديد، المزدحم بالعِلم، أو هو العلم نفسه، والقدرة، والسلطان، والمُلْك.

٣ ـ ما رُوي من أحاديث رسول الله (ص) في «الكرسي» و«العرش»:

● **نقل القرطبي عن مجاهد** قوله: «ما السماوات والأرض في الكرسي إلاّ بمنزلة حلقة مُلقاة في أرض فلاة».

● **ونقل الطبرسي، في «مجمع البيان في تفسير القرآن»**، ما روي عن عطاءٍ أنه قال: «ما السماوات السبع والأرض عند الكرسي إلاّ كحلقة خاتمٍ في فلاة، وما الكرسي عند العرش إلاّ كحلقةٍ في فلاة».

● **ونقل ابن الجوزي في «زاد المسير في علم التفسير»** قول ابن عباس في رواية عطاء عن النبي (ص): «ما السماوات السبع في الكرسي إلاّ كحلقةٍ مُلقاة في أرض فلاة».

● **ونقل القرطبي** عن رواية أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذرٍ، قال: «قلتُ يا رسول الله، أيُّ ما أُنزل عليك أعظم؟ قال: آيةُ الكرسي ـ ثم قال ـ يا أبا ذر ما

السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقةٍ ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة».

● **ونقل الدكتور أمير عبد العزيز في كتابه «تفسير سورة البقرة»** أنه قد ورد عن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي (ص) عن الكرسي فقال رسول الله (ص): «والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضين السبع عند الكرسي إلاّ كحلقةٍ مُلقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة».

● **كما نقل المصدر** نفسه عن ابن عباس قوله: «لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بُسِطْنَ بعضهن إلى بعض ما كُنّ في سعة الكرسي إلاّ بمنزلة الحلقة في المفازة».

٤ ـ نتائج من أحاديث رسول الله (ص) ـ مناقشة.

● ليست السماوات السبع والأرض (= المنظومة الشمسية)، عند مقارنتها بـ «الكرسي»، إلاّ كمثل حلقةٍ في فلاة، وهي الأرض الواسعة المقفرة. وهو أمرٌ يذكّرنا بما قد عرفه الإنسان في هذا القرن من أن النجوم هي شموس كشمسنا أو أكبر منها، وهي وصل ما قد عدّوه منها في مجرة «درب التبانة» إلى ٢٥٠ ـ ٥٠٠ ألف مليون نجم[١]. إن صغر جسم السماوات السبع، أو المنظومة الشمسية، بالنسبة إلى «الكرسي»، يذكّرنا بصغر حجمها المتناهي بالنسبة إلى المجرّة، مجرّتنا نحن.

حديث للإمام علي عن «الكرسيّ»

ولقد نقل القرطبي[٢]**، عن ابن عساكر في تاريخه، حديثاً للإمام علي قال**: قال رسول الله (ص): «الكرسي لؤلؤة.. وطول الكرسي لا يعلمه إلاّ الله تعالى». إذاً فالكرسي، حسب هذا الحديث، هو جسمٌ عظيم يشبه اللؤلؤة في شكله، ويصل طوله إلى ما لا يُعلَم، أو هو «جسمٌ نوراني».

---

(١) د. كارل ساغان، «الكون»، دار المعرفة، ص ٢٥٦ (١٩٩٣).

(٢) القرطبي، «الجامع لأحكام القران»، حـ ٢، ص ٢٧٦، في تفسير سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

وأقول: إنّ المجرّة، أية مجرّة، تبدو من بعيد، في المَراقب، كلؤلؤةٍ ضخمة تتلألأ فيها الأضواء، أضواء النجوم، وتزدحم فيها.

وما الذي يميّز اللؤلؤة، أية لؤلؤة، عمّا سواها من الأجسام؟ إنه الضوء الباهر واللمعان الذي يخطف الأبصار. وتقول عن الشيء بأنه يتلألأ وتعني بذلك أنّه يشعّ الضوء الباهر.

وما الفرق بين قولك: يشِعّ، وقولك: يتلألأ؟ إن الأول قد يدلّ على انبعاث الضوء بشدة إضاءة ثابتة لا تتغير، وأما التلألؤ فهو ازديادٌ وانخفاض متواليان سريعان في شدة سطوع الضوء، ذلك الذي نراه في رأي العين، وهو وصف يعتبر، عند الكلام على ما في الكون من أجرام، وبأبعاده الواسعة، وقفاً على النجوم، أو على مجاميعها العظيمة، أي على المجرّات.

ووصفُ النبيّ (ص) للـ «كرسيّ» بأنه «لؤلؤةٌ» لا ينطبق، في المستوى الكوني الواسع الذي نعرفه، إلاّ على النجم، أو المجرّة. ولكن اللؤلؤة تنبعث منها، في العادة، متكسِّرةً عنها، إشعاعاتٌ عديدة متلألئة، لا شُعاعٌ واحد.

وقوله: «طول الكرسي لا يعلمه إلاّ الله» يدلّ على أبعادٍ سحيقة أين منها قياساتنا الأرضية الضئيلة والمتواضعة، إذ ما هو وُسْعُ أرضنا أو منظومتنا الشمسية بالنسبة إلى مجرّة «درب التّبّانة» التي يبلغ طولها ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية، أو ما يعادل:

١٠٠,٠٠ × ٩٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ = ٩٥٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

كيلومتراً؟ لا تكاد أن تكون مِنْ شيءٍ أبداً!

ولا أرى في وصف رسول الله (ص) هذا الكرسي بأنه شيء يتلألأ مما لا يعلم طوله إلاّ الله تعالى، لا أرى ما يشبهه، فيما قد عرفه العلم الحديث، إلاّ المجرّة في صفاتها وأبعادها، وهي أعجوبةٌ من عجائب ما قد رواه الإمام علي عن رسول الله (ص).

وٱنْظُر، مرّةً أخرى، في حديث النبي (ص)، كيف قد مثّل المنظومة الشمسية بالحلقة، وكيف أن ذلك يشير إلى أشكال الكواكب السيارة الكروية، وإلى مساراتها

الدائرية، إذ هي ترسمُ دائرةً، أو حلقةً، في كل مرةٍ تدور فيها حول نفسها وحول الشمس. ورميُكَ للحلقة في الفلاة، وهي يمكنك أن تجعل فيها آلاف الملايين من الحلقات، هو كمثل آلاف الملايين من النجوم مما تزدحم به أيّة مجرّة.

● ثم إن الأحاديث الشريفة المروية عن النبي (ص) تشير، كذلك، إلى أن «الكرسي» بالنسبة إلى «العرش» هو، مرةً أخرى، كمِثْل الحلقة في الفلاة. وإذا كانت السماوات والأرض، مَقيسةً بالنسبة إلى «الكرسي»، كمِثل المنظومة الشمسية بالنسبة إلى المجرّة، فإن «الكرسيّ»، هو الآخر، بالقياس إلى «العرش» في عظمته، هو كمِثل المجرّة مَقِيسَةً بالكون كلّه، وبما يحتويه من آلاف الملايين من المجرات.

٥ ـ أحاديث أخرى مرويةٌ، وآراء، في «الكرسي» و«العرش».

١ ـ **الطبرسي**: إنّ الكرسيّ سريرٌ دون العرش، وقد روي عن أبي عبد الله، وقريبٌ منه ما رُوي عن عطاء.

٢ ـ **الفخر الرازي**: إن الكرسي جسمٌ عظيم وسع السمٰوات والأرض، أي أكبر منها، واعلم أنّ لفظ الكرسي ورد في هذه الآية ـ أي آية الكرسي ـ وجاء في الأخبار الصحيحة أنّه جسمٌ عظيم تحت العرش وفوق السماء السابعة.

٣ ـ **ابن الجوزي**: إنه كرسيٌّ فوق السماء السابعة دون العرش.

٤ ـ د. أمير عبد العزيز، في كتابه «تفسير سورة البقرة»: إن الكرسي خَلْقٌ هائل عظيم من خَلق الله، وإنه أكبر من السمٰوات والأرض ودون العرش الذي جعله الله آيَةَ قدرته وهيمنته وعظيم سلطانه.

٥ ـ **السيد قطب «في ظلال القرآن»**: الكرسي يُستعمل عادةً في معنى المُلْك. فإذا وسع كرسيُّه السماواتِ والأرض فقد وسعهما سلطانه.

نتيجة:

قلنا سابقاً إن السماوات السبع هي الكواكب السيارة، وهي مع الأرض ثمانية، أي أنها المنظومة الشمسية، فتصير السماء السابعة الحدّ الخارجي لها.

وتشير الأحاديث الشريفة إلى أن «الكرسي» يمتد فوق، أو خارج، السماء السابعة، أي إلى خارج المنظومة الشمسية في تفسيرنا، فهو أكبرُ منها بكثيرٍ جداً.

كما أنها تُشير إلى أن «العرش» هو أكبرُ من «الكرسيّ».

وهذه الأحاديث لا تختلف في مؤدّاها عن مؤدّى مجموعة الأحاديث التي سبقتها، بل إنها تتفق، كلها، مع بعضها، وهي يقوّي بعضُها بعضاً، كما يتّفق معها أيضاً الاستنتاج الذي توصّلنا إليه في تفسير «الكرسي» و«العرش».

وهكذا يتبيّن لنا كيف أن مُعطَيات العلم الحديث في اكتشافات القرن العشرين قد ألْقَتْ، من جانبٍ، ضوءاً جديداً على فهمنا لـ «الكرسي» و«العرش» ممّا قد جاء في كتاب الله تعالى، وأنّها تؤيّد، من جانبٍ آخر، ما قد جاء في أحاديث رسول الله (ص)، في توضيح معناهما، قبل ١٤ قرناً.

٦ ـ آراء أئمة وعلماء التفسير والحديث.

جاء عن **جمعٍ غفير** منهم بأن «الكرسي» هو العِلم، وأن المراد به عِلْمُ الله تعالى. وقد رواه **الطبرسي** عن أبي جعفر وأبي عبد الله وعن ابن عباس ومجاهد، وقال: يقال للعلماء كراسي كما يقال أوتادُ الأرض لأن بهم قَوامَ الدين والدنيا، ورجّحه **الطبري**، فقال: ومنه الكراسة التي تضم العِلْم، ومنه قيل للعلماء كراسي، لأنهم المعتمَد عليهم، كما يقال أوتاد الأرض.

قال الشاعر:

يَحُفُّ بهم بِيضُ الوجوهِ وعُصبةٌ   كَراسِيَّ بالأحداثِ حين تنوبُ

أي علماء بحوادث الأمور.

وقيل: كرسيّه: قدرته وسلطانه وملكه.

وقال **القَفّال والزمخشري**: إن المقصود تصويرٌ لعظمته وتمثيلٌ لكبريائه.

وقال **المراغي**: (وَسِعَ كرسيُّه السمٰواتِ والأرض) أي أنّ عِلمه تعالى محيطٌ بما

يعملون مما عبّر عنه بقوله: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) وبما لا يعلمون من شؤون سائر الكائنات.

وقال **محمد جواد مغنية**: كرسيُّه: مُلكه وعِلمه وقدرته.

مَعانٍ يكمّلُ بعضُها بعضاً

وأقول، والله أعلم، إن كلّ ما قد ذكرناه من معانٍ وتفاسير لا يُصادم بعضها بعضاً، بل إنها، وكما قد رأينا، يكمِّلُ بعضُها بعضاً، وهي تضاف إلى المعنى الأول الذي ذكرناه فيما قد جاء عن رسول الله (ص)، فهي معانٍ، أو وجوهٌ، عديدة تنطبق كلها على واقع الحال.

ولقد تواترت المكانة العظيمة لآية الكرسيّ فيما قد تناقله العلماء، كيف وأنها تُشير إلى قدرة الله تعالى، وعظيم سلطانه، وواسع مُلكه، وسعة علمه، وأن السماوات والأرض، أي المنظومة الشمسية التي ظنها العلماء، وحتى بعد ستة قرون من نزول القرآن الكريم، الكون كله، إنما هي ليست إلاّ كقطرةٍ من بحر، بل وأصغر من ذلك بالنسبة إلى مُلْك الله العظيم.

وانظرْ مرةً أخرى إلى قوله تعالى، في آية الكرسي: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ ثم قوله بعد ذلك: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، فإذا كانت السماوات والأرض، أو المنظومة الشمسية، مُلكاً لله تعالى وتحت قدرته، وسلطانه، وعِلمه، فكيف بما هو أعظمُ من ذلك في الكون، كالمجرّة، أو المجرّات كلها؟

العــرش

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ . . ﴾ [الأعراف: ٥٤].

اللغة ـ مناقشة

استوى:

لسان العرب لابن منظور: استوى: استولى وظهر. قال:

قد استوى: بِشْرٌ على العراقِ   مِن غيرِ سيفٍ ودمٍ مِهْراقِ

الوجيز: استوى على الشيء: استولى وملك.

المنجد: استوى على: استولى وظَهرَ. يُقال: «استوى على سرير المُلْك» كنايةً عن التملك.

وأقول: إن هذه المعاني، كلها، تدل على المُلْك وعلى السيطرة التّامة الكاملة وإنّ لنا في هذا الأمر نظرات:

١ ـ قال تعالى: ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾. ولقد يَحْسَبُ الإنسان، كما قد حَسِب الكثيرون، أنّ قوله سبحانه: ﴿ عَلَى ﴾ يدلّ على الاستعلاء والفوقية، إلاّ أنّه ظنٌّ خاطىء، وإليك السبب:

انظر إلى قول الشاعر: «قد استوى بِشرٌ على العراقِ» تَرَ أن «استوى» قد تبعها الحرف «على». ومعنى «استوى على»، هنا، الذي أجمع عليه علماء اللغة هو: «استولى، ومَلَكَ، وظَهرَ»، فالمقصود بالبيت أن بِشْراً هذا قد مَلَكَ العراق، وَوَلِيَهُ،

وسيطر عليه، لا أنه صار فوقه. لا بل إن المعاجم قد أوضحت بجلاء أن قولهم: «استوى على سرير المُلْك» هو كناية عن التّملّك لا غير. فقولك: استويتُ على الشيء يعني ملككَ له، وسيطرتك عليه، لا أنّك صرت فوقه، وعلى هذا قد أجمعوا.

وبالاختصار، فإن قولك: استويتُ على الشيء، هو كقولك ملكتُه وسيطرتُ عليه.

٢ ـ لو فتحنا أيّ معجم على معنى «استوى على» وجدنا أن معناها: استولى، وظهرَ، ومَلكَ. فما هو المعنى المعجمي لـ «استولى»؟

«**الوجيز**»: أصل استولى: وَلِيَ. وَوَلِيَ الشيءَ وعليه ولايةً: مَلَكَ أمره وقام به. وَوَلِيَ البلدَ: تسلّطَ عليه، وَوَلِيَ القومَ: مَلَكَ أمرهم وقام به، فهو والٍ. وتولّى الأمرَ: تقلّده وقام به.

واستولىٰ على الأمر: بلغ الغاية، واستولىٰ عليه: تمكّن منه وصار في يده. ومثله ما جاء في «المنجد».

وهكذا فإن قوله سبحانه: «استوى على العرش» يبين مُلْكَهُ تعالى، وسيطرته التامة والمطلقة، وقدرته، وولايته، وقيامه بأمر مُلكه، وتمكّنه منه، وعلمه. وإذا كان العرش هو مُلك الله تعالى فإن الكون هو الشيء عينه.

٣ ـ ظَهَرَ: برز بعد الخفاء.

ظهر بعِلمه: فَخَرَ به.

ظَهَرَ عليه: غَلَبَهُ.

العرش:

لسان العرب: العَرْش: المُلْك، وثُلَّ عرشُه: هُدِمَ ما هو عليه من قوامِ أمره. وقيل: وهىٰ أمره وذهب عزّه، والعرش: البيت والمنزل.

القرطبي: العرش: الملك والسلطان. يُقال ثُلَّ عرشُ فلانٍ إذا ذهب مُلكه وسلطانه وعزه. قال زهير:

تـداركتُمـا عَبْسـاً وقـد ثُـلَّ عـرشُهـا ... وذُبيـانُ إذْ ذَلَّـتْ بـأقـدامهـا النَّعْـلُ

ما رُوي من أحاديث وتفاسير في «العرش»
غير ما ذكر سابقاً في موضوع «الكرسي»

الإمام جعفر الصادق: «من زعم أن الله فوق العرش فقد صَيَّرَ الله محمولاً ولزمه أن الشيء الذي يحمله أقوى منه، ومن زعم أنّ الله في شيء، أو على شيءٍ أو يخلو منه شيءٌ أو يُشْغَلُ به شيءٌ فقد وصفه بصفة المخلوقين، والله خالقُ كلِّ شيءٍ لا يُقاس بالقياس ولا يُشَبَّهُ بالناس، ولا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان».

القرطبي: «(ثم استوى على العرش): هذه مسألة الاستواء.. والأكثر من المتقدمين والمتأخرين أنّه إذا وجب تنزيهُ الباري سبحانه عن الجهة والتحيّز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامّة العلماء المتقدمين وقادتهم من المتأخّرين تنزيهُهُ تبارك وتعالى عن الجهة، فليس بجهةِ فوقٍ عندهم، لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختصّ بجهةٍ أن يكون في مكانٍ أو حيّز، ويلزم على المكان والحيّز الحركةُ والسكون للمتحيّز، والتغيُّر والحدوث.. هذا قول المتكلمين. قلت: فعُلُوُّ الله تعالى وارتفاعه عبارةٌ عن علوِّ مجده وصفاته وملكوته، أي ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال واحدٌ، ولا معه من يكون العُلُوّ مشتركاً بينه وبينه، لكنه العليّ بالإطلاق سبحانه. وقد يؤوّلُ العرش في الآية بمعنى المُلْك، أي ما استوى المُلْك إلاّ له جلَّ وعزّ».

الرازي: «إن الذي اختاره الأئمة المحققون من السلف والخلف ترك الخوض في تعيين التأويل، بعد إقامة الدليل القاطع على أنّ حمل اللفظ على ظاهره مُحال.

الراغب: «عرش الله تعالى مما لا يعلمه البشر إلاّ بالاسم، وليس كما تذهب إليه أوهام العامّة، فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له ـ تعالى عن ذلك ـ لا محمولاً، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١]».

محمد جواد مغنية: «ليس الله تعالى جسماً كي يجلس على العرش المحسوس وإلاّ افتقر إلى حيّز، وهو غنيٌّ عن جميع ما خلق، وعليه يجب تأويل الظاهر بما يجيزه العقل وقوانين اللغة إن أمكن وإلاّ وجب التفويض إلى عِلْم الله، والتأويل هنا ممكن لغةً وعقلاً، وهو عند أكثر العلماء أن معنى استوى: استولى، ومعنى العرش: الملك والتدبير ﴿.. لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».

حسنين محمد مخلوف: «ذهب جمهور المتكلمين إلى وجوب صرفه عن ظاهره لاستحالته، وإلى تأويله على التفصيل، وأن المراد منه ـ كما قال الإمام القفّال ـ أنه استقام مُلْكُه، واطّرد أمره، ونفذ حكمه في مخلوقاته، وقد ذُكِرَ الاستواءُ على العرش في سبع آياتٍ من القرآن».

وأقول: لقد تواترت الأحاديث الشريفة، وكما قد رأينا، بأن «الكرسيّ» جسمٌ عظيم، متلألىء، فوق السماء السابعة، وأن «العرش» هو أكبر منه وأعظم بكثير، وأن «الكرسي» بالنسبة إلى «العرش» هو كالحلقة في الفلاة.

ولقد اتضح لنا في تفسير قوله سبحانه: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أنّ المقصود به مُلْكُهُ تعالى، أو الكون كلّه. والله تبارك وتعالى أعلمُ بمراده.

ولئن وصف تعالى القرآن بالعظيم فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحِجر: ٨٧] فقد وصف عرشه بالعظيم، فقال جَلّ جلاله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٦]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩].

وكان رسول الله (ص) يدعو ربّه عند الكَرْب :

«لا إلَه إلاّ الله العظيمُ الحليم .

لا إلَه إلاّ الله ربُّ العرش العظيم .

لا إلَه إلاّ الله ربُّ السماوات السبعِ ،

وربُّ العرش الكريم» .

ويحملُ عرشَ ربِّكَ فوقَهم يومئذٍ ثمانية

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ .
وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ .
وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ
وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقّة : ١٥ـ١٧] .

آراء العلماء في معنى الآية
من هم الثمانية؟ ولماذا؟

١ ـ **القرطبي** : (ثمانية) قال ابن عباس : ثمانية صفوف من الملائكة، ثم إضافة العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت وليس البيت للسكنى، فكذلك العرش. ومعنى «فوقهم» أي فوق رؤوسهم. قال السُّدِّي : العرش تحمله الملائكة الحَمَلَة فوقهم ولا يحملُ حَمَلةَ العرش إلاّ الله. وقيل «فوقهم» أي أن حَمَلَة العرش فوق الملائكة الذين في السماء على أرجائها. وقيل «فوقهم» أي فوق أهل القيامة.

٢ ـ **الكليني الرازي في «الأصول من الكافي»** : «سأل الجاثليق أمير المؤمنين علياً فقال أخبرني عن الله عزّ وجلّ يحملُ العرشَ أم العرشُ يحملُه؟ فقال : اللهُ عزّ وجلّ حاملُ العرشِ والسماواتِ والأرض وما فيهما وبينهما، وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١]» .

٣ ـ **حسنين محمد مخلوف** : «الملائكة واقفون على جوانب السماوات وحافّاتها حين تتشقق. (ثمانية) : من الملائكة أو من صفوفهم» .

٤ ـ **محمد جواد مغنية**: «المُراد بالمَلَك الملائكة، والأرجاء: النواحي، والمعنى بعد خراب السماء يوم القيامة تنتشر الملائكة في الفضاء هنا وهناك. والله جلّ جلاله لا يجلس على العرش كالسلاطين، وعليه فمن الجائز والممكن أن يُراد بالعرش المُلْك والاستيلاء، وبحمله كائناتٍ ومخلوقاتٍ لله سبحانه لا أحد يعرفُ عنها شيئاً، وبعدد الثمانيةِ أجناسٌ ثمانية، ومعنى الآية بمجموعها: بعد تدمير الأرض والسماوات المعهودة يبقى ثمانية أجناس من المخلوقات قائمة عامرة بتدبيره تعالى وعنايته. نقول هذا كفكرة ممكنة في ذاتها، أما إثباتها فيحتاج إلى دليلٍ قاطع».

وأقول:

إن الآيات الكريمة هي في يوم القيامة، لا شكّ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ تقديمٌ وتأخير، فهي تعني: ويحملُ ثمانيةٌ عرش رَبِّكَ فوقهم يومئذٍ.

فأما العرش فلقد دلّت البيّنة على أنه ملكُه تعالى، أو مملكته، وسلطانه، وقدرته، وعلمه.

● فمن هم أو ما هم هؤلاء الثمانية؟

جاء في التفسير بأنهم الملائكة، وقيل بأنهم الأنبياء. وإذا كان الملائكة هم المقصودين فإن ذلك يشير، فيما نراه، إلى أنهم يقومون بأمر الله تعالى في مملكته. ولقد جاء عن الإمام علي في «نهج البلاغة»: إن الملائكة تطوف بعرش الله.

● ولماذا هم، يومئذٍ، ثمانية؟

إذا كانت الآية تشير إلى تنفيذ الملائكة لأمر الله تعالى في مملكته، فإلى أيِّ شيءٍ يشير رقم الثمانية، وما هي الدلالة التي يمكن أن نستنتجها منه؟ إنّ رقم الثمانية مفتاحٌ يمكن أن يوصلنا إلى مزيدٍ من الفهم لهذه الآية الكريمة التي حيّرت الألباب.

إنّ وظيفة الملائكة هي أن تقوم دوماً بإنفاذ أوامر الحقّ سبحانه، وهي، في يوم القيامة، تقوم بذلك أيضاً. ولقد قلنا في كتابنا «القيامة بين العلم والقرآن» إنّ القيامة

تصيب المنظومة الشمسية، أي (الشمس + الأرض + السماوات السبع، أو الكواكب السيارة الأخرى). إن قيامة المنظومة الشمسية، بسبب احتضار الشمس، تعني انهيار الكواكب السيارة الثمانية وتناثرها. إن بقايا هذه الأجرام الثمانية التي انفلتت من مداراتها حول الشمس بسبب فقدان جاذبية الشمس المحتضرة لها، إن هذه الكواكب المتناثرة، وهي من مُلْكِ الله الواسع العظيم، قد يقوم على أمرها، أو يحملها، ثمانية من الملائكة التي تأتمر بأمر الله تعالى، أو غيرها من مخلوقات الله. والله تعالى أعلم بمراده.

فلا أقسِمُ بمواقعِ النجوم

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ .
وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ .
إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ .
فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ .
لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ .
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

فلا أُقْسِمُ: أي وأُقْسِم.

* * *

عندما تُقْسِمُ فإن هناك مُقْسَماً به ومُقْسَماً عليه، نحو قولك: «والله إنّني لَصادقٌ». إنّكَ تُقسِمُ هنا بالله تعالى، أي أنّ «الله» هو مُقْسَمٌ به، كما أنّ قولَكَ «إنني لصادقٌ» هو مُقسَمٌ عليه.

يستعمل القَسَمُ، أساساً، لتوكيد المُقْسَمِ عليه، ونفي الشك عنه.

* * *

وعندما يُقْسِمُ الحقُّ تبارك وتعالى، في القرآن الكريم، فإنّه يُقْسِمُ بالأمور العظيمة الجليلة من خَلْقه، مما هو بيِّنٌ جليٌّ لكل إنسان، ومما يدلّ على عظيم قدرته وبديع صنعه، ومما لا يمكن لأيٍّ كان أن يماريَ فيه. يُقْسِمُ الحق سبحانه بذلك توكيداً للمُقْسَمِ عليه، وتذكيراً، وموعظة.

ولقد أقسم تعالى قسمه العظيم بمواقع النجوم، وهو قسمٌ لم يَرِدْ له نظيرٌ في كتاب الله، مؤكداً على أنّ القرآن الكريم هو تنزيلٌ من رب العالمين، كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لقد أقسم تعالى هذا القسم، مبيّناً مواقع النجوم العظيمة قبل أن يعرف العلماء ذلك بـ ١٤ قرناً. والذي أخبرنا بذلك قد أخبرنا بأنّ القرآن إنّما هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين. ولا غَرْو، فالذي كان عالِماً بعظمة مواقع النجوم لا بد أنه هو خالق النجوم نفسه، وهو نفسه مُنَزِّلُ القرآن الذي أخبرنا بكل ذلك. والعاقل الذي يصدّق بهذا لا بدّ أن يصدّق بذاك، لأن المصدر واحد.

ويقول تعالى عن قَسَمه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1]، أي إنكم لا تعلمون كم هو عظيمٌ ذلك القسَمَ لأنكم، وكما كان عليه الحال في زمن التنزيل، لا تعرفون مواقع النجوم، وكم هي بعيدة، ولا عظمة أبعادها. والنجوم، لو كانوا يعلمون، هي شموسٌ بعيدة تشبه شمسنا أو أكبر منها، رغم أنها أصغر ما نراه في صفحة السماء، وأقلّ ما يبدو في رأي العين نوراً، وأهونه خطراً.

وهذا القَسَم هو القَسَم الوحيد الذي وصفه سبحانه بأنه عظيم، فالحديث هنا هو حديثٌ على الأبعاد، أبعاد النجوم عنّا، وعن بعضها البعض، في مجرّتنا، وفي كل المجرّات. ولأنها، كلها، تتحرك، فإن الحديث عن مواقعها يصير أيضاً حديثاً على مداراتها، وحركاتها الأخرى العديدة، وسرعاتها، وعلى علاقاتها بالنجوم الأخرى، وعلى القِوى العظيمة، والحسابات المعقّدة، التي وضعت كل نجمٍ في

---

(١) لا بدّ لنا من أن نقف طويلاً عند قوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾، فهو قد خاطب الناس في زمن التنزيل وبعده، بالقرآن الكريم، مثلما هو يخاطبنا به الآن. ولئن عرف الإنسان، في القرن العشرين، بعض أبعاد النجوم البعيدة عنا، وهي يبعد أقربها إلينا مسافة ٤,٥ سنة ضوئية، أي ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ مرّة كبعد الشمس عنا، ويصل أبعدها، في مجرّتنا وحدها، إلى عشرات الآلاف من السنين الضوئية، فإنه لم يكن يمكن للقدماء أن يعرفوا ذلك، وأنّى لهم أن يعرفوا، وهم لم يقيسوا أبعادها مثلما أمكن لنا أن نفعل. فالآية الكريمة، رغم إيمائها إلى عدم معرفة عظمة مواقع النجوم، فإنها لا تنفيه بتاتاً، وهو من عظمة كتاب الله الذي تنطبق آياته على جميع الأحوال والأزمان، لأنّ معرفة عظمة مواقعها أمرٌ يعتمد على معرفة أبعادها، وسرعاتها، إلخ، وهو أمرٌ كان متعذراً ثم صار ممكناً.

موقعه الخاص به وحفظته، في علاقاتٍ متوازنةٍ، دقيقةٍ، محكمة، فهي لا يعتريها الاضطراب، ولا تتغير سُنَنُها وقوانينها، وهي لا تسير خبط عشواء أو في مساراتٍ متقاطعة أو متعارضة، بل هي تسير، كلها، بتساوقٍ وتناغم، وانسجامٍ وانتظام تامّين دائمين، آياتٍ على قدرة القادر سبحانه.

ولقد ظنّ علماء الفلك الأوائل، ومعهم الناس، أن الأرض هي مركز الكون. ذلك لأن النجوم يمكن رؤيتها في كل الاتجاهات، وحيثما نظر الإنسان في السماء. وهكذا ظل اعتقادهم، ولزمنٍ طويل. ثم اكتشفوا، وبالتدريج، حقيقة أنّ الأرض والكواكب السيارة الأخرى تدور حول الشمس، وأن النجوم، في حقيقتها، شموسٌ كلها، وبأنّ منها ما هو أعظمُ من شمسنا بكثير، وأنها تعدّ بمئات آلاف الملايين في مجرّتنا وحدها، وعندها فقط لم تعد الأرض تعتبر مركزاً للكون. وبينما أن ما نراه من النجوم، بالعين المجردة، قد يصل إلى ٢٠٠٠ نجمٍ في أي مكانٍ من الأرض وفي أي وقت، وهي الأسطع أو الأقرب من بين كل النجوم، فإن هناك ملايينا من النجوم الأبهت ضوءاً، أو الأبعد، مما لا يمكن رؤيته إلاّ بالمِرْقَب. ولقد ظلت المَراقبُ تُرينا تلك النجوم كنقاطٍ من الضوء لا أكثر[١]، إلاّ أن أكثر المراقب قوّةً يمكن أن تُرِينا الآن بعض النجوم الهائلة القريبة على شكل أقراصٍ دائرية[٢]. وتشير آخر التقديرات إلى وجود ٣٠٠ ـ ٥٠٠ ألف مليون نجم في مجرّتنا وحدها. حقّاً إننا لَنعلم اليوم أننا لا نـرى مـن نجـوم السمـاء إلا النـزر اليسيـر اليسيـر، أي أننـا لا نـرى مـن نجـوم مجرّة «درب التبّانة» وفي أحسن الأحوال، إلاّ ١/٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ منها، وأما النجوم الباقية، أي ١٩٩,٩٩٩,٩٩٩/٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ منها، فإنها غيرُ مرئيةٍ بالعين المجردة، وهذا غير النجوم الموجودة في كلٍّ من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مجرّة عرفها العلماء لحدّ

(١) Collier's Encyclopedia, Vol. 21, P.482 (1983).

(٢) Just look at the Universe, N. Ardley (1985).

الآن، وهو وجهٌ معجز آخر من وجوه عظمة مواقع النجوم التي أخبرنا تعالى عنها قبل أكثر من ١٤ قرناً. فانظر إلى كم يمكنك أن ترى من النجوم، ثم انظر إلا ما لا يُتَصَوَّر من أعدادها الهائلة على وجه الحقيقة مما لا يُرى، حتى تدرك عظمة مواقعها، وعظمة القسم بها.

فالآية الكريمة تنطق بحقيقة عظمة مواقع النجوم في الوقت الذي كان الناس يحسبون فيه أنّها حِزامٌ ضيّق يحيط بالأرض التي هي مركزٌ للكون، وبما لا يتعدّى كيلومتراتٍ قليلة.

قال «آردلي» في كتابه «انظر إلى الكون»[1]: «حالما نبتدىء بالنظر إلى خارج منظومتنا الشمسية يصير من العسير جداً قياس المسافات بالوسائل الطبيعية المعتادة. فالكيلومترات صغيرةٌ جداً على هذا الغرض، ولذلك فقد صار علماء الفلك يستعملون «السنوات الضوئية»، وهي، وبكل بساطةٍ، المسافة التي يقطعها الضوء في السنة الواحدة، أي ٩,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر، وهي مقاييس هائلة وغير اعتيادية، وبكل المقاييس التي نعرفها على سطح الأرض».

فانظر إلى التوافق العجيب بين مؤدّى ما قاله «آردلي»، وما قد ذكره الحقُّ سبحانه في القرآن الكريم.

إن المسافات داخل مجرّتنا لهي عظيمةٌ جداً، وإلى درجةٍ يصعبُ تصورها، ويساعد على ذلك أن نفكّر بالزمن الذي يستغرقه الضوء القادم من أماكن مختلفةٍ في مجرّتنا للوصول إلينا.

فضوء القمر يحتاج إلى أكثر بقليل من ثانية واحدة للوصول إلينا.

وضوء الشمس يصلنا في ٨ دقائق.

بينما هو يحتاج إلى أكثر من ٤ ساعات للوصول إلى حافة المنظومة الشمسية.

---

(١) المصدر السابق.

وهو يحتاج إلى ٤,٥ سنة للوصول إلينا من أقرب نجمٍ إلينا غير الشمس.

بينما يحتاج الضوء إلى ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية حتى يعبر مجرّتنا من الحافّة إلى الحافّة.

ولكن ذلك ليس هو كل شيء.

إذ إنّه، وبعد التقدم الكبير الحاصل في علم الفلك، فلقد صار الجميع يعتقدون أنهم، وبمعرفتهم لمجرة «درب التّبّانة»، قد عرفوا «حافّة الكون»، وظل الحال كذلك حتى بداية القرن العشرين، عندما ابتدأ العلماء باكتشاف السُدُم والمجرّات الأخرى، وهم قد عَدّوا مَن المجرّات حوالى ١٠٠ ألف مليون مجرّة، في كلٍّ منها، في المعدل، العدد نفسه من النجوم. وهناك مجرّاتٌ، قد عرفناها، وهي تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية.

وإنّ من النجوم ما لا نراه حتى بالمَراقب الضخمة، بل هي قد كُشِف عنها بوساطة «المَراقب الراديوية» (Radio telescopes) التي تستقبل موجات الراديو التي تنبعث من هذه النجوم، والتي تسير بسرعة الضوء نفسه.

ولكن الأمر لا يتعلق بأبعاد النجوم عنّا فقط.
ولا بأبعادها عن بعضها فقط.
ولا ما بين المجرّة والمجرّة.
بل إنه يتعلق أيضاً بمسارات هذه النجوم.

وما الذي يحفظ النجوم، في حركاتها، ومداراتها، وسُرعاتها، المتعددة؟ إنه التوازن المعقد في كُتَلِها، ومسافاتها، وجذبها، ودفعها، توازناً معقداً لما لا يُعَدّ من العوامل التي لا بدّ أن تؤخذ في الحسبان.

وما الذي يحدّد نشوءها؟ وآجالها؟ وهل يحقّ لنا أن ندّعي بأن نجماً وحيداً من بين كل تلك النجوم، وهو الشمس، أنه النجم الوحيد الذي تحيط به كواكب سيارة تدور حوله، وفيه أرضٌ مسكونة؟

إن النجوم تبدو لنا، في رأي العين، وكما قد بدت للأقدمين، محافظةً على المسافات التي تفصلها عن بعضها البعض بالمقدار نفسه تقريباً، وعلى الأنماط، أو الأشكال، التي ترسمها نفسها، فهي تبدو، كلها، ما عدا النجم القطبي، وهي تسير معاً من الشرق إلى الغرب، ولذلك فقد أسماها العرب، قديماً، بـ«النجوم الثابتة»، وما هي بثابتة. ذلك لأن كل النجوم تسير. فالشمس، مثلاً، بالإضافة إلى دورانها حول نفسها من يسار ليمين، تندفع نحو «كوكبة الأسد» بسرعة تُقدّر بـ ٤٠٠كم/ثانية، كما أنها تدور حول مركز المجرّة، وعلى إحدى أذرع المجرّة الحلزونية الجبارة، وبسرعة ٩٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الساعة!، فهي تحتاج إلى ٢٥٠ مليون سنة حتى تتمّ دورة واحدة حول مركز المجرة، ثم إن لمجرّتنا حركتها الخاصة ضمن ما يسمى بـ«المجموعة المحلية» من المجرّات (Local group of galaxies)، وهكذا.

وإذا كانت «المجموعة المحلية» تحوي نحواً من ٢٠ مجرّة يبدو أنها تدور حول مركز الكتلة الكليّة لِـ«العنقود المحلّي الأساسي»، فإنه يبدو للعلماء أيضاً أنه لا بدّ من أن «العنقود المحلّي الأعظم» يدور حول نفسه أيضاً. وكذلك هي كل النجوم، في حركاتها المتعددة. إنها تغيّر من مواقعها باستمرار نتيجة مساراتها التي يتم كلٌّ منها بسرعة تختلف عن سرعة النجم الآخر. إلا أننا، وبسبب المسافات العظيمة التي تفصلها عنّا، لا يمكن أن نتبيّن حركاتها بالنسبة إلى بعضها البعض إلاّ بعد مرور آلاف السنين. وإذا كانت النجوم، وهي تسير بِسُرَعِها العظيمة، تغيّر من مواقعها كل ساعةٍ، بل كل ثانية، فإن الحديث على مواقعها يصير أيضاً حديثاً على سرعاتها، إذ إنها تصير في مواقع جديدةٍ، غير التي كانت عليها، باستمرار، وهو وجهٌ آخر من وجوه عظمة مواقع النجوم التي كانت خافيةً عنّا. وهكذا، وبينما أسمى العرب والإغريق النجوم بأنها «ثابتة»، فإن الآية قد أخفت إعجازاً آخر تمثل في أنها متحركة، في حقيقة الأمر.

ثم إن من النجوم عدداً كبيراً مزدوجاً، فهي إمّا من زوجين اثنين يدور أحدهما حول الآخر، أو من نظامٍ من ثلاثة نجوم، وهكذا، وهي كلها وجوهٌ لهذه الآية المعجزة.

فانظر، رحمك الله، إلى تلك الحركات المختلفة، والمعقّدة، والمركّبة، والمنضبطة، في ذلك التنظيم المحكم، والتنسيق الدقيق، لِما لا يُعدّ من الأجرام. ثم ذلك الاكتشاف المدهش، في تباعد المجرّات عنا، وعن بعضها البعض، وهي تزداد سرعة ابتعادها كلما بعدت عنا، وهو وجه آخر من وجوه عظمة مواقع النجوم.

وإذا تذكّرنا أن النجوم، أو الشموس، مصدرٌ للضوء والحرارة اللذين لا بدّ أن يوجدا كشرطٍ لحياةٍ من النوع الذي نعرفهُ، إذا تذكّرنا ذلك فلقد أدركنا المزيد عن عظمة النجوم ومواقعها من حياتنا.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

وصدق الله العظيم.

النجم الثاقب والماء الدافق

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ .
وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ .
ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ .
إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ١-٤].

أقسَمَ تعالى، في الآيات الثلاث الأولى، بالسماء والطارق، فهما مُقْسَمٌ بهما، وأما الآية الرابعة فهي مُقْسَمٌ عليه. فالغرض من القَسَم هو توكيد أنّ هناك مَلَكاً حافظاً يحفظ كل إنسان.

وأيُّ معنىً هنا هو للسماء، من بين معانيها العديدة؟

فأما الطارق فهو النجم، أيُّ نجمٍ نراه، مما «يثقب» أي يضيء ويخترق الفضاء بضوئه، والكلام على النجوم التي نراها يصير كلاماً على مجرّتنا. فيصير معنى السماء هنا هو السماء الدنيا، أي مجرّتنا نحن، أو ما هو أكبر منها، أي الكون كله.

وهذا القَسَمُ منه سبحانه على وجود حافظٍ من الملائكة يحفظ كل نفس يدلّ على أنه أمرٌ جَلَلٌ عظيم، وهو فيه توكيد وتنبيه وتحذير من أنّ الإنسان لم يُخلَق عبثاً حتى يُترَك من بعد ذلك سدى ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، بل إنه مسؤول عن كل ما يصدر منه، وهو مُحاسَبٌ عليه، ثم هو مجازىً به أو مُعاقَبٌ عليه، إنْ خيراً بخير، أو شرّاً بشر. وإنها لمسؤولية عظيمةٌ يحملها الإنسان، إذ ما مِن أحدٍ إلاّ وهو مُراقَبٌ، تُكتب عليه كل أعماله، من المهد إلى اللحد، وإذ ليس من شيءٍ يضيع في هذه الحياة أبداً.

ويعود الحقُّ سبحانه للحديث على خَلْق الإنسان، وهو خَلَقَهُ من ماءٍ دافقٍ، ثم على رجعه من بعد الموت، يوم القيامة، وهو ما قد تناولناه بالبحث في كتاب «أسرار خَلْق الإنسان».

ونرى هنا أنه تعالى يتحدث على شيئين اثنين، هما النجم الثاقب، وقد أقسم به، والماء الدافق. فلننظر إن كانت هناك من علاقة ما بين الاثنين، من دون أن نحدّد أنفسنا بأية فكرة مسبقة عما إذا كانت هذه العلاقة موجودة بالفعل أم لا.

فأما النجوم، وهي كلها شموسٌ بعيدة، فإن سرّ إشعاعها للضوء والحرارة، كالذي يصلنا من الشمس، والذي هو أساس الحياة على الأرض، يكمن في التفاعلات النووية التي تجري في أعماقها وأعماق كل نجم. إن النجوم تتألف، في معظم كتلتها، من أبسط عنصر في **الطبيعة**، على الإطلاق، وهو الهايدروجين الذي لا تحوي ذرّته إلاّ بروتوناً موجب الشحنة في نواته وإلكتروناً سالباً يدور من حوله. وكلما ازدادت الذرّة بروتوناً واحداً صار لدينا عنصرٌ جديد، حتى إذا وصلنا إلى العدد ٩٢ بروتوناً (ومعه ٩٢ إلكتروناً) صار لدينا عنصر الراديوم، وهو آخر العناصر في قائمة العناصر الموجودة **في الطبيعة**. إنّ أبسط لبنة من لبنات المواد، وأعني بها ذرة الهايدروجين، تتحد مع زميلاتها، في أعماق النجم، أو الشمس، مكوِّنةً غاز الهيليوم، وهما كلاهما يكادان أن يكوّنا كتلة النجم كله، أيِّ نجم. وهكذا تتولد عناصر جديدة بينما تستمر الشمس في إشعاعها الذي يُديم الحياة على الأرض، وبينما هي تفعل ذلك فإنها، وفي حقيقة الأمر، تُديم حياتها نفسها، إذ لو توقفت هذه التفاعلات، أو «الاندماجات النووية»، في النجم لانتهت حياته مثلما تنتهي الحياة على أيّ كوكبٍ سيار يدور من حوله.

ذلك هو ضوء النجم الثاقب، الذي يعود إلى التفاعلات النووية باتّحاد ذرات الهايدروجين التي هي جوهر النجم.

وأما الماء الدافق فهو يحوي نُطَف الذكر والأنثى[1]. والنطفة خلية، والخلية

(١) هناك ماء دافق عند الرجل، وكذلك عند المرأة. انظر «أسرار خلق الإنسان. العجائب في الصلب والترائب» للمؤلف (١٩٩٤) ص ٤٢.

هي لبنة بناء الجسم الحي مثلما أن الذرّة هي لبنة بناء النجم.

والنطفة كالذرة، لها نواة كبيرة، فالنطفة تختلف عن باقي خلايا الجسم الطبيعية في هذا المضمار.

ومثلما أن الذرة تحمل بروتوناتٍ موجبة الشحنة في نواتها، والكتروناتٍ سالبة حولها، فإن النطفة الأمشاج، بل وكل خلية جسدية أيضاً، تحمل كروموسوماتٍ «جنسية» ذكرية، وأخرى أنثوية، إضافة إلى كروموسوماتٍ أخرى «جسدية».

وإذا كانت النطفة الأمشاج، بل وكل خلية جسدية أيضاً، تحتوي على ٤٦ كروموسوماً، فإن مجموع ما في النطفة الأمشاج عند الذَّكر + ما في النطفة الأمشاج عند الأنثى يساوي ٩٢ كروموسوماً. وهو عددٌ يساوي عدد العناصر الطبيعية المعروفة نفسه الموجود في الكون، مع ملاحظة أنّ الجنس البشري لا يقوم إلا بالذَّكر والأنثى معاً.

ومثلما أن النجم، وبتدبير الخالق تعالى، يديم حياته ويعطي الحياة لغيره من خلال إضاءته، باتحاد ذرات الهايدروجين فيه، فإن الإنسان يديم حياته ويعطي الحياة لأبنائه باتحاد نطفة الذكر والأنثى، إذ إنّ كلاً منهما ينبض بالحياة.

وكلٌّ منهما هو من زوجين اثنين: موجب وسالب، أو ذكر وأنثى.
وفي كلٍّ منهما اتحاد.
وتنتج عن ذلك الاتحاد، في كلٍّ منهما، إدامةٌ للحياة وتجديدٌ لها.
ولكلٍّ منهما بداية.
كما أن لكلٍّ منهما أجلاً محدّداً.
إذ هكذا هو كل مخلوق.

لا بل إن هذا من ذاك. فحياة الإنسان على الأرض متعلقةٌ بضوء الشمس ومعتمدة عليه، إذ هكذا خلقهما الله تعالى.

وليس هنالك من شيءٍ مخلوق إلاّ وهو محتاجٌ ومتعلق بشيء آخر مخلوقٍ

مثله. والكل محتاجٌ إلى خالقه تعالى ومتعلّقٌ به.

ثم انظر إلى تلك السلسلة من الأشياء التي يتألف منها جسم الإنسان:

ذرة ←	جزيئة ←	جين ←	كروموسوم ←	خلية ←	نسيج ←	عضو
(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)	(٦)	(٧)

وهكذا نتلمّس تشابهاً ما بين النجم الثاقب والماء الدافق.

إنّ كليهما ينبض بالحياة. نقول حياةً، ومعنى ذلك أنْ كان قبل حياةٍ، عند المخلوقين، انعدام حياة. ومن بعدها موتٌ أيضاً، ثم إنّ بعد الموت حياةً عند النشور.

فالنجوم تولد، وتعيش، وتهرم، وتموت، ثم يولد غيرها. ذلك شيءٌ جاء به كتاب الله منذ زمن طويل: ﴿.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، ولم يفطن الإنسان إليه إلاّ في العصر الحديث.

وكذلك هو الإنسان. هو يولد، ويعيش، ويموت، ثم هو يُبعث يوم القيامة من جديد.

وإننا لنتلمّس في آيات سورة الطارق التالي:

حياة ← موت ← حياة (بعث)

وكذلك هي النجوم في حيواتها:

فهي تحيا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ. ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٢ ـ ٣].

وتموت: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[النجم: ١]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

ثم هي تحيا من جديد ﴿.. إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ..﴾ [يونس: ٤].

إنها سلسلة الحياة والموت في كل المخلوقين.

فإنّ وراء كل حيٍّ الموت.

والله الخالق هو سبب كل حياةٍ وموت.

حياةٌ وحياة

جاء في الدعاء:

يا حَيّاً قبلَ كل حيّ..

يا حَيّاً بعد كل حيّ..

يا حيُّ الذي ليس كمثله حيّ..

يا حيُّ الذي لا يشاركه حيّ..

يا حيُّ الذي لا يحتاجُ إلى حيّ..

يا حيُّ الذي يُميتُ كلَّ حيّ..

يا حيُّ الذي يرزقُ كلَّ حيّ..

يا حيّاً لم يَرِثِ الحياةَ من حيّ..

يا حيُّ الذي يُحيي الموتى..

يا حيُّ يا قيّوم لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نوم.

سِنَة: مِن وَسِنَ وَسَناً وسِنَةً، أي نُعاساً.

فانظر إلى الفرق بين الحيّ والحيّ، بين صفات الخالق وصفات المخلوقين، حتى تعرف قدر خالقك وقدر نفسك.

الأمانة الثقيلة التي يحملها الإنسان - ما هي؟

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

جاء في التفسير:

الأمانة: المراد منا هنا التكليف بفعل الواجبات وترك المحرّمات، وبكلمة: الدين.

أَبَيْنَ: امتنعن.

أَشفقن منها: خفن من الخيانة فيها.

ظلوماً: أي ظلوماً لنفسه حيث استهان بالأمانة، ولم يتنزه عن الخيانة.

جهولاً: أي جهولاً بقدر الأمانة وعظمتها وبما ينجم عن التهاون بها.

* * *

إذا كان المقصود بالأمانة التكاليف بفعل الواجبات وترك المحرّمات، فهل إن السماوات والأرض والجبال قد امتنعت، في الواقع الذي نعرفه، عن القيام بواجباتها التي أناطها تعالىٰ بها؟ وأنها قد قامت بغير ما قد أُمِرَت به؟ أم إنها، وهو ما نعرفه عنها حق المعرفة، منقادةٌ لله تعالى، مطيعةٌ له، في كل سننه الكونية التي قدّرها لها؟

وإذا كان الأمر كما قد ذكرنا، من قيامها بما أناطه تعالىٰ بها، فكيف نوفّقُ إذاً بين ذلك وبين الفهم الذي ذكرناه للآية الكريمة من امتناعها عن حمل الأمانة؟

يبدو لنا أن للأمانة معنىً غير ما قد ذكرناه، والله تعالىٰ أعلم بمراده.

وأقول بدايةً إن السماوات، هنا، هي الكواكب السيارة، وهو ما تطرّقنا إليه في مكان آخر من هذا الكتاب.

ولكن، ما المقصود بـ«الأمانة» في كلام الله تعالى هنا؟

حتىٰ يمكننا الإجابة على هذا السؤال لابد من أن نعرف أولاً ما الذي يمكن أن تحمله الكواكب السيارة، ومعها الأرض والجبال، ثم إن علينا، بعد ذلك، أن نبحث في تلك الأمور، ونأخذ منها ما نحن بصدده مما يقوم الدليل عليه.

تلك أمورٌ عديدة يصعب علىٰ المرء أن ينظر فيها، لتعدّد الاحتمالات، ولكن إذا نحن قلنا: وما هو ذلك الشيء، أو الأمر، الذي يمكن أن تحمله هذه الكواكب السيارة، ومعها الأرض والجبال، مما قد امتنعت عن أن تحمله رغم عظمتها، وحمله الإنسان، فإن عدد الاحتمالات يصير صغيراً والجواب يسيراً.

وبعبارةٍ أخرىٰ: ما هو الفرق بين الإنسان وبين هذه الأجرام فيما تقوم به من أعمالٍ وأعباء؟

فلننظر إلى ما يقوم به كلٌّ من هذين حتى نعرف ذلك الفرق.

فأمّا تلك الأجرام فإنها تنهض بوظائف عظيمة. فهي، ومعها الجبال، تدور حول نفسها بسرعاتٍ واتجاهات، ونهاية، وبداية، اختصّت بكلٍّ واحدةٍ منها، ثم إنها تدور حول الشمس، كما أنها تتبع الشمس في حركاتها العديدة بالنسبة إلى بقية النجوم وفي دورانها حول مركز المجرّة. ذلك طرفٌ ممّا تقوم به، وهي، وكما رأينا، تسير على سُنَنٍ وقوانين إلَهية ثابتة، إذ إنّ كل شيءٍ فيها قد قدّره تعالى بمقدار، فهو محسوبٌ وموزون وموقوت، وهي لا تحيد عن ذلك ولا تملك من أمرها من شيءٍ إلاّ بأمر خالقها وحده.

وأمّا الإنسان، ذلك المخلوق الصغير الصغير، فهو لا يسلك، في هذه الحياة الدنيا، ذلك السلوك نفسه، فهو حرٌّ في تصرّفاته من حيث أنه يملك المقدرة على عمل الشيء أو ضده، فهو قادرٌ على فعل الخير مثلما أنه قادرٌ على اقتراف الشرّ.

ذلك لأنه يملك الأداة التي تمكّنه من فعل أيهما، فهو يملك القدرة، والعقل، والحرية، والإرادة، ثم إنّ الله تعالى قد أوضح له طريق الخير والشرّ، وأمكنه من فعل أيّهما، وهو وحده يملك الاختيار فيما يواجهه من الخَيارات، وآيةُ ذلك الخيار أنّه محاسَبٌ عليه، فمن أطاع فقد فاز، ومن عصىٰ فقد خاب: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ـ١٠].

وهكذا نرى أنّ تلك الأجرام إنّما هي مُسَيَّرةٌ على الطاعة، وموجّهة في سبيلٍ واحدٍ في كل أمر، لا سبيلين اثنين. فهي «مجبورة»، أو «مقهورة».

وأما الإنسان فهو في خَلْقِه قد سيّره تعالى بنواميسَ ثابتة، الهدفُ منها ديمومة الحياة، على خير وجهٍ، إلى قَدَرٍ معلوم، إلاّ أنّه، فوق ذلك يختار، يختار من حيث قابليته على فعل الخير والشرّ. وهل إن كل قابلياته على الفعل، في حقيقة الأمر، إلاّ هذا أو ذاك؟

هكذا نرىٰ أن المقصود بحمل الأمانة هو إمكان الاختيار، وهو أمرٌ مفقودٌ في الأولى، وموجود عند الثاني.

ومَعاذ الله أن نقول، من بعد ذلك، إنّ الإنسان مُسَيَّرٌ غيرُ مخيّر بالمرّة، كيف وقد قال الحق سبحانه وتعالىٰ:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ .
أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ .
يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا .
أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ .
أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ .
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ .
وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ .
فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ .
فَكُّ رَقَبَةٍ .
أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ .
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ .
أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ .
ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ٤ ـ ١٧].

والنجدان هما الحق والباطل.

فالإنسان قد خُلِق ليكابد ويجاهد من أجل الأفضل والأحسن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ولكن هذه النتيجة الأخيرة تعتمد على عمله هو:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . . ﴾ [المُلك: ٢]

﴿ . . وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . . ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

جاء في «التفسير المبين»:

«اقتحام العقبة: الكفاح لعملٍ أفضل.

وفكّ الرقبة: تحرير الإنسان من العبودية والهوان.

والمَسْغَبَة: المجاعة.

والمَقْرَبة: القرابة بالنسب أو بالإنسانية.

المَتْرَبَة: الفقر الشديد.

التواصي بالصبر والمَرْحمة: التعاون على تحقيق العدالة الاجتماعية.

بعد أن حدّد سبحانه أنّه خلق الإنسان ليكابد ويجاهد، حدّد نوع هذه المكابدة بالعمل لتحرير الضعيف من الضعف والعبودية، وتأمين العمل لكل من يقدر عليه، ولقمة العيش لمن يعجز عن السعي، والتعاون على ترابط المجتمع وتماسكه وقدرته

على البقاء ومواجهة الخطوب والأحداث»، وذلك هو الخيار والامتحان الصعب لكل بني الإنسان.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: إن كل ما في الكون يسير على ما قد وضعه تعالىٰ له من سُنَنٍ وقوانين إلٓهية تحكمه، وهو لا يحيد عنها، لا بل إنّ مخلوقاتٍ لله تعالى، وهم الملائكة، يعبدونه ولا يعصونه قطّ، وقد تكون معرفتهم بالله سبحانه المعرفة الحقّة هي السبب في طاعتهم له.

وأمّا الإنسان فإن من صفاته الظلم والجهل. ولِمَ الظلم؟ إذا كُنتَ جاهلاً فما أحراك وما أسرعك إلى الظلم! فإذا كنتَ بالأمور جاهلاً فكيف إذاً أنت تحكمُ فيها؟ وهل يحكمُ قاضٍ فيما هو جاهل به؟! إنّ من شروط العدل ما يسمىٰ بـ«الأعلمية»، وهو عند الإنسان شيءٌ نسبي، فتقول: فلانٌ أعلم من فلان. إلاّ أنّ الإنسان، ومهما بلغ من العلم، فإن علمه كله يبقى قليلاً: ﴿.. وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧]، ومَن كان بالأمور جاهلاً فَأحْرِ به أن لا يميّز الخطأ عن الصواب، وأن لا يضع الشيء موضعه، وأن يحيف في قراراته. كيف وأنّه مركّبٌ من ذلك المزيج الذي نعرفه من الحاجات، والأهواء، والشهوات، والتغيّرات التي تعصف به كل حين، إلاّ من استمسك بعُرىٰ الإيمان، وركن إلى رباط العقل الذي وهبه تعالىٰ له وهداه به إلى الإيمان، والذي يشدّه إلى الكمال أكثر وأكثر ما سعىٰ في ذلك وبذل وسعه واجتهد فيه، إذ ﴿.. لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

إن الحلّ يكمن في الاهتداء بهَدْي الله، في كل حين، ثم العمل به، والوقوف مع الحق، ومجانبة الباطل، ممّا قد عَرَّفَنا سبحانه عليه.

وذلك هو فَرْقُ الإنسان عما سواه، من السماوات، والأرض، والجبال.

إنّه لَيُكابد، ويجاهد نفسه والناس. وهو تجده، دوماً، في مُضْطَرَعٍ لا ينتهي بين خيارات متعدّدة يختار منها ما يشاء.

إنّه يحمل الأمانة..

وهي لا تحملها..

السَّبْح والتسبيح

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ . . ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ . . ﴾ [النور: ٤١].

﴿ . . وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

في اللغة

سَبَّحَ سُبْحاناً: قال: «سبحان الله»، أي نَزَّهَهُ تعالى وقَدَّسَهُ ومَجَّدَه. وسَبَّحَ الله، وله: بالَغَ في تنزيهه تعالى وتمجيده، قال «سبحان الله»، صَلّى.

سَبَح سَبْحاً: أبعدَ في السير وجرى سريعاً، ويُستعار لِمَرِّ النجوم وجَرْي الفرس وما شاكل.

و«سَبَّحَ» هو مبالغةٌ في «سَبَح».

والسَبْح: المَرّ السريع في الماء أو الهواء.

والسابح من الخيل: السريع.

والسابحات: السفن والنجوم. وسَبَحَت النجوم: جَرَت في الفَلَك.

أقوال العلماء

قال الشيخ مغنية: «كل كائنٍ علوي أو سفلي هو آية تقول: لا إلّه إلاّ الله، وكل مخلوق يُسَبِّح بالدلالة على وجود خالقه، وتسبيحُ كلِّ شيءٍ بِحَسَبه. فالعاقل يسبّح بلسان المقال، وغيره بلسان الحال[1]، وكأنه يقول أؤمن بمن أوجدني، وأنزّهه عن العجز والنقص، وكلمة التوحيد تهليلٌ وتسبيح وتحميد. نُسبّح بحمدك: التسبيح تنزيه الله تعالىٰ، وبحمدك: في موضع الحال، أي نُسبّح حامدين. ويُسبّح الرعدُ بحمده: كل مخلوق يترجم بلغته عن قدرة الخالق وعظمته، تماماً كالحسنات والصالحات تُسبّح بحمد من أصلح وأحسن.

وقال الشيخ مخلوف: نَزَّهَ الله تعالى عمّا لا يليقُ به جميعُ العوالم. فتنزيه الملائكة والمؤمنين من الثَقَلَيْن بلسان المقال، وغيرُه بلسان الحال، بمعنىٰ دلالتها على وجوده وتنزيهه. فإن كل الموجودات دالّةٌ بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم، المتّصف بكل كمال، المنزّه عن كل نقص. خاضعةٌ لسلطانه وتصرّفه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ مِنْ سَبَحَ في الأرض والماء: ذهبَ وأبعدَ فيهما.

كلُّ ما في الوجود يُسَبِّح لله تعالىٰ

١ ـ إن الآيات التي تدلّ على تسبيح المخلوقات، مِن سماوات، وأرض، ومَن فيهن مِن إنس، وجِنّ، وملائكة، وجبال، وطيور، ورعد، كثيرة[2]. لكنّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قد دلّ على أنّ **كل شيءٍ في الوجود، ومن دون استثناء، يُسبّح لله تعالى.**

٢ ـ وفي قوله سبحانه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قال الشيخ مخلوف: أي وكلٌّ في فَلَكٍ يدورون.

---

(١) لا بل قد ذكرت بعض الأحاديث تسبيح بعض الموجودات بلسان المقال أيضاً، كما في تسبيح الحصاة الصغيرة في يد رسول الله (ص).

(٢) ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ..﴾ [الرعد: ١٣].
﴿.. وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ..﴾ [الأنبياء: ٧٩].

الفَلَك، في اللغة، ما هو؟

فَلَكَ: استدارَ.

والفَلَك: مَدار النجوم، والفَلَكُ من كلِّ شيءٍ: مُستدارهُ ومعظمه.

وفَلْكَةُ المغزل: هنةٌ في أعلاه مستديرة.

ولم يزل عامّة الناس يُسمّون الطريق الذي يدور حول الساحة بـ«الفِلْكَة»، وهو فصيح.

ويقال: سَبَحَ للفُلْك، أي السفينة.

وسَبَحَ للفَلَك.

والسَّيْرُ في كلتا الحالتين هو سيرٌ سريع لا اضطراب فيه.

وإذا كان الفَلَكُ هو مسار الأجرام السماوية الدائري، فإن مسار الفُلْك، أي السفينة، دائريٌّ أيضاً، لأن كل ما سار على وجه الماء أو اليابسة إنما هو يسير على وجه الكرة الأرضية، فكأنّ لفظ «الفُلْك» يحكي كروية الأرض أيضاً!

كما أن فَلْكَة المغزل يحكي دورانُها حول نفسِها والخيوطُ تدورُ من حول المغزل، دورانَ الأجرام حول نفسها وحول ما هو أكبرُ منها. جاء في تفسير ابن كثير عن ابن عباس تلميذ الإمام علي، قال: «يدور الكوكب كما يدور المغزل في الفلكة، والفلكة قطعةٌ مستديرة في أعلاه».

كل ما في الكون يسير في أفلاك، أي «مسارات دائرية»، أو «مدارات»

فقوله سبحانه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قد دَلَّ على أن كل الأشياء في الكون تسير في أفلاك، أي أنها تتَّخذ لها مساراتٍ دائريةً (مداراتٍ) حول أجسام مركزية. وليس هناك، فيما أعلم، ما يدور حول شيءٍ إلاّ وكان الثاني أكبر منه.

تسبيح الكائنات في الكون هو ممّا لا نُحسِنُ إدراكه

٣ ـ وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، دَلَّ على أنّ تسبيح الكائنات في الكون هو ممّا لا نُحسِنُ إدراكه.

فَقِهَ الأمرَ: تفَطَّنَ إليه، علم به وفهمه، أحسن إدراكه.

فهل قد أحسسنا بحركات الإلكترون؟ أم قد أحسسنا وفطنّا إلى حركات الأرض؟ أم الأجرام السماوية الأخرىٰ في جريانها العظيم؟ كلاّ، لم تُشْعِرْنا حواسّنا ولا مداركنا بذلك، ولم نتفطَّن إليه، وإنما أخبرتنا بذلك المراصد، والمختبرات، والبحوث، والمعادلات، والحسابات.

وذلك هو ممّا قد علمناه من تسبيح الكائنات، ويبقىٰ غيره مما لم نفقهه في علم الله تعالى وحده.

معانٍ مَعجزة لِـ «السَّبْح» و «التسبيح»

وإذا عطفنا هذه الآيات على بعضها البعض، توصّلنا إلى ما يأتي:

١ ـ إن كل ما في الكون طُرّاً، من الذرات وأصغرَ منها، وإلى المجرّات وأكبرَ منها:

٢ ـ يُسَبِّحُ بحمد الله تعالى، ويمجّده، ويقدّسه، وينزّهه.

٣ ـ وهو يجري سريعاً.

٤ ـ في مسارٍ دائري (= مدار، فَلَك)،

٥ ـ حول غيره.

٦ ـ كما أنه يدور حول نفسه أيضاً.

٧ ـ وإننا لا نُحِسّ بتلك الحركة، أي ذلك السَّبْح.

التسبيح حالة عامّة شاملة دائمة في الكون

* لقد عرف العلماء أن التسبيح لله تعالى ليس للعقلاء وحدهم، بلسان المقال، بل هو أيضاً لغيرهم، بلسان الحال. وإننا لنضيف هنا أن الجميع يسبّحون بلسان الحال، علموا أو لم يعلموا، بتنزيهه، وتقديسه، وتمجيده.

* ثم إنّنا قد رأينا، في السبح، لغةً، معنىٰ الحركة السريعة، البالغة السرعة، والمنتظمة، بالغة الانتظام، كما رأينا، في واقع الحال الذي قد عرفناه. في العصر الحديث، إن هذا المعنىٰ ينطبق على واقع حال المخلوقات قاطبةً، ابتداءً من الذرة وأصغر منها، وانتهاء بالمجرة وأكبر منها.

إن معاني «التسبيح» و «السَّبْح» هذه تنتظم كل ما في الكون، ونحن نرىٰ، والله تعالىٰ أعلم، أن هذه المعاني هي وجوه لـ «التسبيح» و«السَّبْح» الوارد ذكرهما في كتاب الله سبحانه.

إنّهما معنيان، لا معنىً واحد.

وإذا كان التسبيح لله تعالىٰ حالةً عامّةً، شاملةً، دائمة، فما هو موقع تسبيح الإنسان من كل ذلك؟

تسبيح الإنسان بلسانه وقلبه

١ ـ أما المؤمن فإنّ تسبيحه بلسانه، وبقلبه، معروف. ليس ذلك وحده، بل إنّ كيان كل مخلوق، مؤمناً كان أو جاحداً، وكل عضوٍ، ونسيجٍ، وخليّة، وكروموسوم، وجين، وجزيئة، وذرة، وأصغر منها، آيةٌ، بل آيات تنطق بخالقها وتُسبّح له.

وتسبيحٌ بـ «المِسْبَحَة»

٢ ـ ثم إنّ المؤمن يُسَبِّح مستعملاً مسبحته. والمِسْبَحَة، أو «السُّبْحَة»، خيطٌ دائري ينتظم خَرَزاتٍ يُسبّح بها المؤمن، فهو يحرّك الخَرَزَة تلو الأخرىٰ، في مسارٍ دائري في المسبحة، وهو يقول مع كلِّ تحريكةٍ لِخَرَزَةٍ، أو تسبيحةٍ، ويستشعر في قلبه، أنْ سبحانَ الله. فأعجبْ كيف أنّ ذلك يحكي، من غيرما بالٍ يُلقيه المُسَبِّح إلى دلالة حركة حبّات المسبحة، إذ هي تحكي حركة كل شيءٍ في الكون، وهي حركةٌ، أو سبحٌ، يحكي وينطق بوجود الخالق سبحانه، ويدلّ على صفاته الحسنىٰ، وكماله المطلق، وعلى الخضوع له بالعبودية، والعبادة، والطاعة.

المصلّون يرسمون دوائرَ متحرّكةً مستمرّةً لا حَصر لها، أو سَبْحاً، حول بيت الله الحرام

٣ ـ وهو يصلّي لله تعالى خمس مرّاتٍ في اليوم، يتوجّه فيها بكل كيانه نحو القبلة في مكة، ويتوجه معه المؤمنون في أصقاع الأرض، في كل ثانيةٍ، في دوائر لا حصر لها تتقدم شيئاً فشيئاً مع دوران الأرض حول نفسها فتشمل الأرض كلها، وإنهم لَيرسمون في ذلك حركاتٍ، أو سَبْحاً، لكل الناس، حول بيت الله الحرام.

وطواف الناس في الحجّ

٤ ـ كما أن طواف الناس، في الحج، حول الكعبة، لهو نوعٌ من أنواع السَّبْح، فوق أنه تكبيرٌ، وتهليل، وتسبيح، وتحميد.

٥ ـ وأمّا الكافر فهو جاحدٌ بأنعُم الله، مستكبر عن عبادته، رغم أنّ كل ما فيه ينطق بقدرة القادر الذي خلقه وصوّره فأحسن تصويره، وأنعم عليه بما لا يُعدّ وما يَعلم وما لا يَعلم من صنوف النعم. إنّ كل ما فيه يُسبّح لله تعالى شاءَ الكافرُ أم أبىٰ، وإنّ كل ذرّةٍ من ذرّات جسمه تَسْبَحُ وتُسَبِّح بحمد خالقها وتدلّ عليه. وإنّ ما قد ذكرنا، مع الكفران والجحود في قلب الكافر، لهو أبلغُ ما يُرَدُّ به عليه هو نفسُه، ويقوم عليه بالحُجّة والبرهان، ويضعه موضع الذّل والهوان، والفضيحة والخسران.

إنّ كل ما في الكون ينطق بخالقه ويدلُّ عليه، وكل مخلوقٍ يدلّ على أُلوهية الله تعالى وربوبيته، من خلال وجود المخلوق ذاته، وحركاته، وجمال خَلْقِه، واتّساقه، ونظامه، وكمال خِلقته، وحفظه، وخضوعه، وطاعته، وولادته، وموته. إنّ كلّ الموجوداتِ آياتٌ على وجود الله تعالى، الخالق الصانع، المتّصف بكل كمال، والمنزّه عن كل ما سوى ذلك، وهي خاضعةٌ لسلطانه، وقدرته، ومشيئته. تعلن كل المخلوقات عن خضوعها وطاعتها له، لا تخرج على طاعته ولا عن نظامه، بل إن الكل في نظامٍ وانسجام، وجلالٍ وكمال وجمال. إن كل شيءٍ في ملكوته سبحانه ينزّهه، ويقدّسه، ويمجّده، وهو وحده الكامل، ذو الكمال المطلق الذي دلّ كمال خَلقه عليه، والذي شهد النظام الذي يَلُفُّ الكون كلّه طُرّاً على وحدانيّته، ولو قد تعدّد الخالقون لتعدّدت النُّظُم، ولتصادمت الإرادات، ولَعلا بعضهم على بعضٍ، ولتهدم الكون وٱمّحىٰ.

كل ما في الكون يَسْبَح

يعني «السَّبْح»، أو «السِّباحة»، لِعامّة الناس، شيئاً واحداً، فالسِّباحة لا تكون، بالنسبة إليهم، إلاّ في الماء. على أن الماء، أينما وُجد، هو في حركة تموجية دائمة، أو «موجات». والموجات هي حركات نصف دائرية تصعد فيها جزيئات الماء وتنزل على خط الموجة. وإذا كانت مياه البحار والمحيطات تتحرك متموّجةً باستمرار بتأثير الرياح، فإن الصوت هو الآخر ينتقل في موجات عبر وسطٍ ناقل. لا بل إنّ كل ما يصلنا، وكل ما في الكون من صنوف الطاقات، ممّا تدركه حواسّنا، وما لا تدركه، وهو هائل وعظيم، ممّا قد علمناه بالدراسة والتجارب العلمية والأجهزة، إنما هو موجات.

موجاتٌ تَسْبَحُ في الفضاء
وتُسَبِّحُ لله سبحانه.

موجاتٌ سابحة لا نراها..
وسَبْحٌ في «الفراغ»!

قلنا سابقاً إنّ اللّبِنَة الصغيرة في بناء الكون هي الذرّة، وإنّ اللبنة الكبيرة في بنائه هي النجم، وقلنا إن هناك ٩٢ عنصراً طبيعياً، نعرفها في الكون، ويتميز كل منها بذرّةٍ تزيد بروتوناً واحداً على ذرة العنصر الذي يسبقها. وإذا كانت الأقمار، والكواكب السيارة، والنجوم، والمجرّات، تَسْبَحُ كلها في مداراتٍ تنتظم كل ما في الكون من أجرام، فما عساه يوجد في الفضاء الواسع، و«الخالي»، ما بين هذه الأجرام؟ نقول «الخالي»، وما هو بالخالي حقّاً، إذ إنه مليء على الدوام بصنوفٍ من

الإشعاعات التي تشمل الطيف كله، وهي، بالإضافة إلى الضوء المرئي، تتكون من سبعة أصناف[١].

أصنافٌ سبعة، من موجات الأشعة «الكهرومغناطيسية»، أو الطيف، تسبح في الفراغ

ولقد علمنا أن ما يصلنا من إشعاعات **الطيف**، وهي لا يُشكِّل الضوء المرئي منها إلاّ جزءاً ضئيلاً، إنما هي أشكالٌ للطاقة محمولةٌ، وتصلنا عبر «الفراغ»، وتدعى أشكال الطاقة هذه بـ«**الأشعة الكهرومغناطيسية**»، وهي، إضافة إلى أشكال الطاقة التي تنتقل في موجات الماء أو تلك التي تصلنا، عبر وسطٍ ناقل، على شكل صوت، إنما هي موجات سابحة.

فأمّا أنها على شكل موجات، فلقد شرحنا ذلك في كتابنا «هذا الكون العجيب، من الذرّة إلى المجرّة»، وهي تمتد على طيفٍ واسع عريض جداً، يتراوح فيه طول الموجة الواحدة ما بين ٣ من ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ أنغستروم[٢] وبين الكيلومترات العديدة.

وأمّا أنها «سابحة» فلأنّها تتحرّكُ حركاتٍ سريعةً، بالغةَ السرعة، منتظمةً، بالغةَ الانتظام.

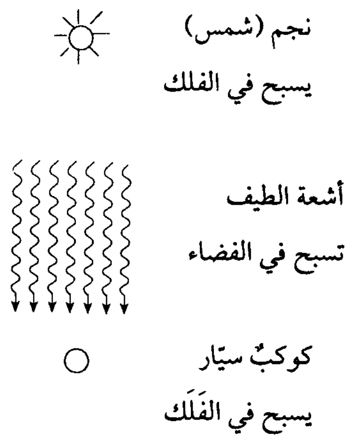
إن هذه الإشعاعات، أو «الموجات الكهرومغناطيسية» تسير في الفضاء سيراً سريعاً جداً، في موجاتٍ، بانتظام رتيب، ومن دون أي اضطراب، فهي كموجات الماء التي يسبح فيها الإنسان تَسْبَحُ أيضاً، في الفضاء، **وبسرعة الضوء**. أقول «تَسْبَح»، فهي، إذاً، مثل كل شيءٍ آخر في الكون، ومثل مصدرها «النجم» ومُتلقّيها

(١) إذا اعتبرت الأشعّة الصغرى «الدقيقة» جزءاً من أشعة الرادار، وكما يصفها بعض الباحثين، صارت أشعة الطيف، كلها، وبما فيها الضوء المرئي، سبعة أصناف.
(٢) الأنغستروم = ١ من مائة مليون من السنتمتر.

«الكوكب السيار»، تَسْبَح وتُسَبِّح بحمد خالقها، وتمجّده، وتدل عليه.

فسبحانك اللهم وقد قلت:

﴿.. وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [النور: ٤١]



شكل (١٤)

كلُّ ما في الكون يَسْبَحُ

رقم «السبعة» في خَلْق الله تعالى

نناقش في هذا الموضوع ذِكر الرقم (٧) وتكراره في القرآن الكريم، وفي الخَلْق، ثم نبحث في الحكمة من هذا التكرار، والعبرة التي نستخلصها من ذلك، في أنّ لها خالِقاً، وأنه واحد.

الذرّة	١ ـ	تدور الإلكترونات، حول نواة الذرّة، في ٧ مستوياتٍ مدارية متتالية من مستويات الطاقة.
الأرض	٢ ـ	تتكون من ٧ قارّاتٍ، أو أَرَضِين. هذا عند اتجاهك أفقياً[١].
	٣ ـ	كما تتكون من ٧ محيطات، أو أبحُر[٢].
	٤ ـ	وتتكون من ٧ طبقات يعلو بعضُها بعضاً، وهذا عند اتجاهك عمودياً[٣].
غلاف الأرض الجوي «السماء»	٥ ـ	يتألف من ٧ طبقاتٍ أيضاً[٤].

---

(١) القارّات هي: آسيا، إفريقيا، أمريكا الشمالية، أمريكا الجنوبية، انتاركتيكا (القارّة المنجمدة الجنوبية)، أوروبا، أستراليا.

(٢) المحيطات، أو «الأبحُر» السبعة هي: الهادىء «الباسيفيكي» الشمالي، والجنوبي، الأطلسي الشمالي، والجنوبي، الهندي، القطبي المنجمد الشمالي، والقطبي المنجمد الجنوبي. (Webster Dictionary).

(٣) قَسَّمَ علماء طبقات الأرض (الجيولوجي) طبقات الأرض إلى ٧، وهي:

١ ـ جو الأرض Atmosphere
٢ ـ مياه الأرض Hydrosphere
٣ ـ قشرة الأرض Crust
٤ ـ الوشاح السطحي Superficial Mantle
٥ ـ الوشاح العميق Deep Mantle
٦ ـ اللب السطحي Superficial Core
٧ ـ اللب العميق Deep Core

(٤) طبقات غلاف الأرض الجوي ابتداء من أقربها للأرض:

١ ـ Troposphere =

القمر	٦ ـ	يمرّ القمر، فيما نراه منه، أي غير «المحاق»، في ٧ مراحل، أو أطوار[١].
الكواكب السيارة غير الأرض «السماوات السبع»	٧ ـ	توجد ٧ كواكب سيارة، في المنظومة الشمسية، غير الأرض[٢]
	٨ ـ	وهي نفسها السماوات السبع التي ذكرها الحقُّ سبحانه في القرآن[٣]، وهي معجزةٌ قرآنية.
	٩ ـ	ولقد تكررت الآيات التي جاء فيها ذِكر «السماوات السبع»، وبهذا اللفظ، سبع مراتٍ، في سبع آياتٍ متفرقات، في كتاب الله[٤]، وهي معجزةٌ قرآنية في أنّ هذه تدلّ على تلك: سبعُ آياتٍ متفرقات فيها ذِكرٌ لسبعِ سماوات.
	١٠ـ	جاء ذكر «السماوات والأرض»، وبهذين اللفظين، مقرونيْن معاً، في كتاب الله تعالىٰ، ومن غير ذِكرٍ للعدد ٧ أو غيره، سبع مرّاتٍ أيضاً، في ٧ آيات متفرقات، وهذه الآيات، كلها، تشير إلى خلق السماوات والأرض[٥]، وهي معجزةٌ قرآنية أخرىٰ.
	١١ـ	«السَّبْعُ الطِّباق»[٦]، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ فِى . .﴾ [المُلْك: ٣]، هي الكواكب السيارة السبعة.

=
٢ ـ Stratosphere
٣ ـ Mesosphere
٤ ـ Ionosphere
٥ ـ Thermosphere
٦ ـ Exosphere
٧ ـ Magnetosphere

(١) مراحل القمر: هلال، تربيعٌ ثانٍ، أحدب ثانٍ، بدر، أحدب أول، تربيع ثان، هلال (ويليه المحاق).

(٢) وهي: عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون.
لاحظ أن «بلوتو»
(أ) لا تنطبق صفاته على صفات السماوات السبع الواردة في القرآن.
(ب) هو يعتبر قمراً هارباً من «نبتون»، لا كوكباً سياراً، في أقوىٰ النظريات اليوم ـ ص ٦٦.

(٣) ص ١٠٠.

(٤) ص ٣٢.

(٥) ص ٣٤.

(٦) ص ٦٢.

١٢ـ «الطَّرائق السبع»[1]، في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ . . ﴾ [المؤمنون: ١٧]، لها المعنىٰ نفسه.

١٣ـ «السَّبْع الشِّداد»[2]، في قوله سبحانه: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ: ١٢]، لها المعنىٰ ذاته.

وهي كلها معجزاتٌ قرآنية، ليس من حيث ذكرها للعدد وحده، وإنما بالتفاصيل الدقيقة التي تعطيها معانيها ممّا نجده في الكواكب السيارة.

الموجات «الكهرومغناطيسية»

* الضوء المرئي

١٤ـ يتكون «الضوء الأبيض» الذي نعرفه من ٧ ألوان[3].

١٥ـ وهو ما ينتج عن أطوالٍ للموجات «الكهرومغناطيسية» سبعٍ مختلفات.

١٦ـ إن «قوس قزح»، وهو ظاهرة طبيعية، يرينا هذه الأنواع السبعة.

١٧ـ كما أن «الطيف» الضوئي، الذي نحصل عليه من تمرير «الضوء الأبيض» عبر موشور، يرينا الظاهرة نفسها.

* الضوء غير المرئي

١٨ـ هو يتكون من ٧ أنواعٍ من الإشعاعات[4].

١٩ـ وهي ذات ٧ أطوالٍ مختلفات للموجات.

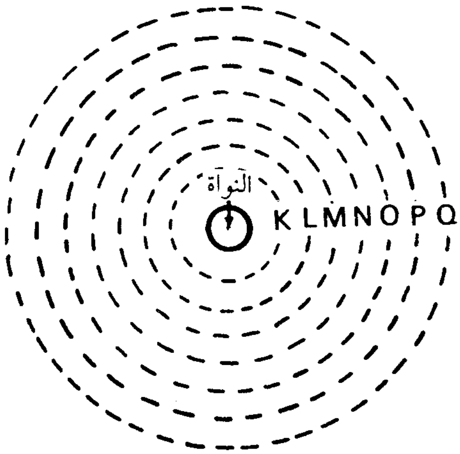
٢٠ـ وتتصف كل منها بصفاتٍ خاصّةٍ بها.

(١) ص ٦٤.

(٢) ص ٧١.

(٣) ألوان الضوء المرئي «الأبيض» هي بالترتيب: الأحمر، فالبرتقالي، فالأصفر، فالأخضر، فالأزرق، فالنيلي، فالبنفسجي.
إن ذلك الجزء المرئي من الأشعة الكهرومغناطيسية، وهو يشكل جزءاً ضئيلاً جداً، منها، والذي هو الضوء الذي ينشر طاقة الحياة من الشمس إلى الأرض، ومن كل النجوم، قد قام إسحق نيوتن عام ١٦٦٦م، ولأول مرة، بإمراره من خلال موشور زجاجي مثلث أظهر أن هذا اللون الأبيض يتحلل إلى ٧ ألوان هي ألوان القوس قزح نفسها، وبالتتابع نفسه. وإذا كان الناس قد عرفوا منذ القدم أن في «القوس قزح» ٧ ألوان فإنهم لم يعرفوا أن الضوء الذي نراه، كل الضوء، يتألف من ٧ ألوان منضمة إلى بعضها.

(٤) مكونات الطيف الكهرومغناطيسي الكامل هي بالترتيبي:
١ ـ أشعة كونية Cosmic Rays
٢ ـ أشعة غاما Gamma Rays
٣ ـ أشعة إكس X- Rays
٤ ـ الأشعة فوق البنفسجية Uitraviolet Rays (وتليها الأشعة المرئية Visible Rays)
٥ ـ الأشعة تحت الحمراء Infrared Rays
٦ ـ أشعة الرادار والموجات الدقيقة (الصغرىٰ) Radar and Microwaves
٧ ـ الأشعة الراديوية Radiowaves



شكل (١٥)
مستويات الطاقة

تدور الإلكترونات حول النواة، وعلى أبعاد كبيرة نسبياً، في ٧ مداراتٍ محددة تسمىٰ «مستويات الطاقة».

وتأخذ هذه المستويات الأرقام من ١ إلى ٧، ويرمز لها بالحروف:

K, ثم Q, P, O, N,M,L, على الترتيب.

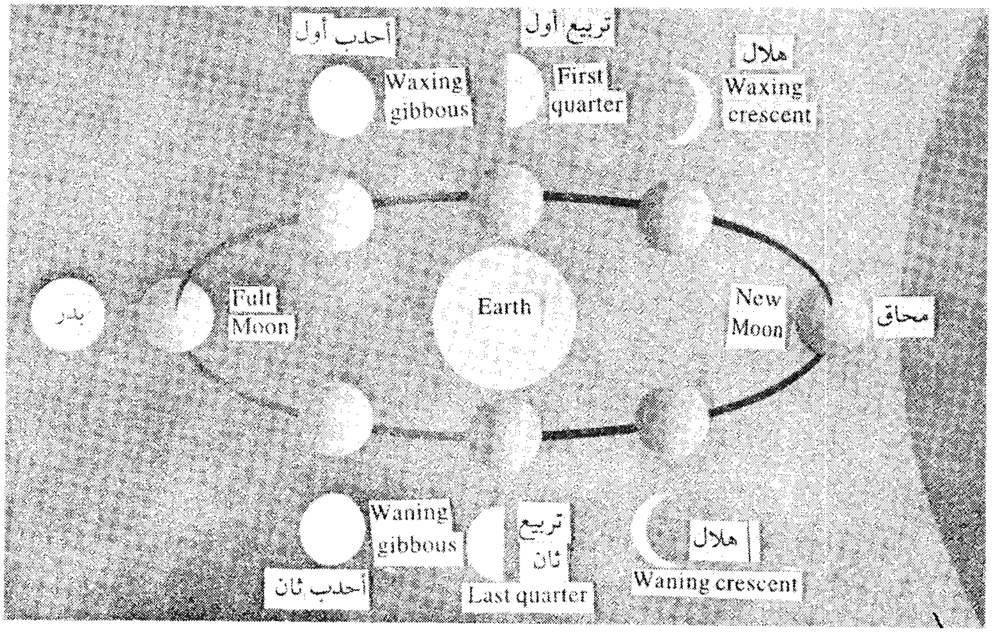
المستوىٰ الأول (K): أقربُها إلى النواة وأقلُّها طاقة، ويكتمل بإلكترونين.

المستوىٰ الثاني (L): يلي المستوى الأول، وأعلى منه في الطاقة، ويكتمل بثمانية إلكترونات.

المستوىٰ الثالث (M): يلي المستوىٰ الثاني، ويكتمل بـ ١٨ إلكتروناً.

المستوىٰ الرابع (N): يكتمل بـ ٣٢ إلكتروناً.

بقية المستويات من الخامس حتىٰ السابع يتسعُ كلٌّ منها لِـ ٣٢ إلكتروناً.



شكل (١٦)

يدور القمر، حول الأرض، عكس عقارب الساعة، وحين يكون القمر محاقاً تكون الشمس مشرقة على جهة القمر غير المواجهة للأرض. وحين يكون بدراً تكون مشرقة على الجهة المقابلة للأرض، وفيما بين الحالتين يمكن رؤية قسم من الجهة المعرضة لنور الشمس.

يتم اكتمال هذه الدورة في ٢٩,٥ يوماً (شهرٌ قمري).

إن القمر يمرّ، فيما نراه منه، في ٧ أطوار.

النجوم	٢١ -	يُعتبر كل رسمٍ طيفي لإشعاع أي نجم بمثابة «توقيع» خاص بذلك النجم، والخطوط المنفردة التي نجدها في الطيف تنتج عن وجود أنواع محدّدة من الذرات في النجم الذي هو مصدر إشعاع ذلك الطيف. فالخطوط التي نجدها، مثلاً، على طول الموجات من ٦٥٦٣ آنغستروم و٤٨٦١ آنغستروم في الطيف، تنتج عن وجود الهايدروجين. ووجود خطّين في اللون الأصفر، قريبين من بعضهما، على طول الموجة ٥٨٠١ آنغستروم، ينتج عن وجود الصوديوم. ولقد قام «بيكرنغ» (Pickering)، عام ١٨٩٠، وهو كان مدير مرصد كلية «هارفارد» بإعطاء حروفٍ للنجوم حسب قوة خطوط الهايدروجين فيها. فهو أعطى الحرف (A) لأقواها، ثم الحرف (B) للخطّ الذي يليها، نزولاً إلى الحرف (O). إلاّ أنّ بحوث العلماء اللاحقة قد أوصلت إلى نتيجة نهائية استقرّ عليها العلماء حتى وقتنا الحاضر، وهي أن هناك تتابعاً طبيعياً من ٧ أنواع أساسية من النجوم، وهي يُشار إليها بالحروف: OBAFGKM [١].
القرآن الكريم * المثاني السبع	٢٢ -	﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحِجْر: ٨٧]. جاء في تفسير المثاني السبع خمسة أقوال، أرجحها أنها سورة الفاتحة، وهي أول سورة بالقرآن، فهي سبعُ آياتٍ، والمثنّى بها في الصلاة، وتجمع بين الربوبية والعبودية، فهي إذاً سبعٌ بآياتها، ومثانٍ في صفاتها.
* المُسَبِّحات السبع	٢٣ -	ابتدأت سبع سوَرٍ بالتسبيح لله تعالى، وهي «المُسَبِّحات السبع»، في الآيات التالية: (١) ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]. (٢) ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١]. (٣) ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١]. (٤) ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الصّف: ١].

---

(١) Stars, James B. Kaler, Scientific American Library (1992), P.78.

		(٥) ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة: ١]. (٦) ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١]. (٧) ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١ و٢].
* «يُسبِّح»	٢٤ ـ	جاء ذِكر الفعل «يُسبِّح» ٧ مرّاتٍ في ٧ آيات: (١) ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ .. ﴾ [الرعد: ١٣]. (٢) ﴿ .. وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴾ [الإسراء: ٤٤]. (٣) ﴿ .. يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [النور: ٣٦]. (٤) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ .. ﴾ [النور: ٤١]. (٥) ﴿ .. يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤]. (٦) ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة: ١]. (٧) ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ .. ﴾ [التغابن: ١] * وجاءت كلمة «سبحانه» ١٤ مرّة، أي ٧ × ٢، في كتاب الله. * وانظر كيف أنّ «السَّبْح» كثيراً ما يجيء على «سَبْع»، * ثم انظر إلى القرابة القريبة بين الكلمتين، في نوع حرفٍ، وعددٍ، ووزن.
* حروف كتاب الله	٢٥ ـ	حروف الفرقان»، وهو القرآن، سبعة، وهي تساوي عددَ حروف «التوراة» و«الإنجيل».
* خَلْق الإنسان	٢٦ ـ	روى القرطبي عن ابن عباس قوله: «رأيتُ الله أكثرَ ذِكرَ السبع في القرآن، فذكر السماواتِ سبعاً، والأرض سبعاً، والطوافَ سبعاً، والجِّمار سبعاً، وما شاء الله من ذلك خلق الإنسان من سبعة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً

		﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].
* رزق الإنسان	٢٧ ـ	وجعل رِزقَهُ في سبعةٍ في قوله: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا. ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا. فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا. وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا.[1] وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا. وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا.[2] وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا.﴾[3] [عَبس: ٢٥ ـ ٣١].
* ليلة القدر	٢٨ ـ	قال ابن عباس: فما أراها (ليلة القدر) إلاّ ليلة ثلاثٍ وعشرين لسبعٍ بقين (من رمضان)». وعن أبي عبد الله: «أُنزِل القرآنُ في ثلاثٍ وعشرين من شهر رمضان».
* مضاعفة الحسنة	٢٩ ـ	قال تعالى، في وصفه لمضاعفته للحسنة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ..﴾ [البقرة: ٢٦١].
* الفرقان	٣٠ ـ	جاء ذكره في كتاب الله تعالى ٧ مرّات.
* بني آدم	٣١ ـ	ذُكِرت ٧ مرّاتٍ.
أحوال الإنسان		
* جسمه	٣٢ ـ	يتكوّن من ٧ أشياء: ذرّة ← جزيئة ← جين ← كروموسوم ← خلية ← نسيج ← عضو.
* أطواره	٣٣ ـ	وهي ٧: جنين ← طفل ← شاب ← كهل ← شيخ ← ميت ← مبعوث.

(١) قَضباً: نباتاً طريّاً كالبقول والخضار والقت، يُقطَع المرّة تلو المرة.
(٢) حدائق غلبا: ضخمة ا ـ سجار ملتفة الأغصان.
(٣) أبّا: مرعى الدواب.

* مواضع سجوده	٣٤ ـ	وهي ٧: الجبين، اليدان، الركبتان، القدمان.
* ما بين الجمجمة والصُّلب	٣٥ ـ	٧ فقراتٍ عنقية.
* خَلْقُه		سَبَق ذِكرُه.
* رزقه		
العبادات		
* شهادة التوحيد	٣٦ ـ	عدد ألفاظها ٧: «لا إلَه إلاّ الله محمدٌ رسولُ الله».
* الصلاة	٣٧ ـ	ـ تبدأ كل ركعة بسورة «الفاتحة»، وهي من ٧ آيات. ـ مواضع السجود، من جسم الإنسان هي ٧ (ذُكِرَت).
	٣٨ ـ	ـ مجموع ركعات المغرب والعشاء ٧.
□ الحج ● الطّواف	٣٩ ـ	يطوف الحُجّاج، حول الكعبة، في حَجِّهم لبيت الله الحرام، ٧ مراتٍ في كل طواف. وهناك طواف القدوم، وطواف الإفاضة، وطواف الوداع.
● السعي بين الصَّفا والمروة	٤٠ ـ	السعي بينهما هو من شعائر الحج والعُمْرة. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ[(١)] فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]. الصَّفا والمروة: ربوتان بمكة. ولقد جاء في الأثر أنّ هاجر، زوج إبراهيم، عليه السلام، قد انطلقت وابنها في الوادي الذي ما بين الربوتين، الصفا والمروة، تنظرُ هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً. فعلت ذلك سبع مرات. البخاري: «قال ابن عباس: قال النبي (ص) فذلك سعيُ الناس بينهما». قالوا: هو تخليدٌ لذكر سعي هاجر بينهما بحثاً عن الماء.
● رمي الجَمَرات الجِمار	٤١ ـ	يرمي الحاج، عند رمي الجمرات، سبع جِمار، وهي الحصاة الصغيرة، والمشهور أنه رميُ الشيطان. وفي الخبر أن الشيطان تمثّل لإبراهيم (ع)

(١) من شعائر الله: جمع شعيرة، وهي العلامة، وتطلق الشعائر على العبادات التي نتعبَّدُ الله بها، في مواضعها لكونها علاماتٍ على الخضوع والطاعة والتسليم لله تعالى.
العُمْرة: نُسُكٌ كالحجّ، ليس لها وقتٌ معيّنٌ ولا موقفٌ بعرَفة.

بصدّيق ليصدّه عن الذبح فلم يتمكن، فرماه إبراهيم بسبع حُصيّات.

التاريخ	عدد الجمرات	المجموع
١٠ ذو الحجّة	٧ جمرات عند جمرة العقبة	٧
١١ ذو الحجّة	٧ جمرات لكل جمرة من الجمرات الثلاث	٢١
١٢ ذو الحجّة	٧ جمرات لكل جمرة من الجمرات الثلاث	٢١
	المجموع	٤٩ جمرة أي ٧ × ٧
أما يوم ١٣ ذي الحجّة	فيرمى فيه ٧ × ٣، ويجوز أن لا يرميها	٧٠ أي ٧ × ١٠

أي أنَّ رمي الجمرات يكون في ٣ أيام أو ٤ أيام.

وهي: يوم النحر + يومين أو ثلاثة من أيام التشريق[١].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ.. ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

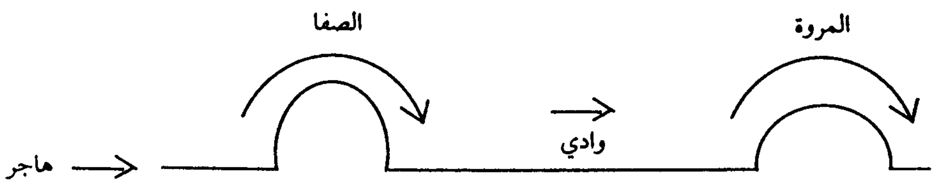
قالوا: نرمي الجمار، ونكرّره في يومين أو ثلاثة لنتعلم المثابرة، ومصابرة جهاد الشيطان، حتى نيأس أن نعبده أو نطيعه في أمرٍ من أمورنا وهو تمجيدٌ لذكرى إبراهيم، والشيطانُ يَعْرُضُ له ليصدّه عن ذبح ابنه.. عن طاعة ربه.. وإبراهيم يرميه بالحجارة تأكيداً لإعراضه عن وسوسته[٢].

الزمان

* الأسبوع	٤٢ ـ	هو من ٧ أيام. ونلاحظ أن كلمة «الأسبوع» مشتقّة من «السبعة».
* خلق السماوات والأرض	٤٣ ـ	خلقت في ٦ أيام، أي حقبٍ زمنية، أو أطوار، وانتهت في اليوم السابع.
* الأعياد	٤٤ ـ	أيام الأعياد سبعة، ٣ للفطر و ٤ للأضحى.
* المناسبات	٤٥ ـ	عرف الناس، من قديمٍ، ٧ أيام للفرح، ومثلها للحزن.

(١) أيام التشريق: هي ١١ و١٢ و١٣ من ذي الحجّة.
(٢) حياة إبراهيم، لمحمود شلبي، دار الجيل (١٩٧٤).

* ليلة القدر		سبق ذكرها .
* مراحل القمر		سبقت .
وغير ذلك		
* المعادن	٤٦ ـ	قالوا بأن المعادن الرئيسية في الأرض هي ٧ .
* النسبة الثابتة	٤٧ ـ	وهي النسبة ما بين محيط الدائرة، أية دائرة، إلى قطرها، وهي عدد كسريّ غيرُ منتهٍ، مقامه ٧، فهي تساوي $\frac{٢٢}{٧}$
* الحروف العربية	٤٨ ـ	حروف اللغة العربية ٢٨ حرفاً (أي ٤ × ٧)، ونصفها (٢ × ٧) ورد في الحروف المقطَعة في أوائل سور القرآن الكريم[١] .



شكل (١٧)

انطلاقة «هاجر»، زوج إبراهيم (ع)، بين الصفا والمروة

(١) راجع ص ٣٨٧.

ذلك ما أحصيناه من تكرار الرقم ٧ في كتاب الله تعالى الذي نقرأه وفي كتاب الخَلْق الذي قد عرفناه في الطبيعة، وأمّا تكراره فيما قد اصطنعه الناس، من مثل «عجائب الدنيا السبع»، وغيرها، فقد أغفلناه.

فأمّا في كتاب الخَلْق الذي قد عرفناه فإن الكثير مما ذكرناه من النمطية، أو التكرار، للعدد ٧، لم يكن معروفاً في العصور القديمة وفي عصر نزول القرآن بالذات، مثل الحقائق التي تخص الذرة، والأرض بقارّاتها وطبقاتها، وجوّها، ومحيطاتها، والكواكب السيّارة، والنجوم، وإشعاعاتها.

وأما كتاب الله تعالى، والعبادات، والحج منها على وجه الخصوص، فإنها تحفل بنمطية مشابهة ومدهشة للعدد ٧.

نمطيةٌ متكررة، ومدهشة، في الكون تدلّ على أن الخالق واحد

لا يمكن لأحدٍ أن يُماري في أهمية هذا التكرار المدهش، ومغزاه. فأنْ يكون هذا التكرار ناشئاً عن المصادفة هو أمرٌ لا يصدّقه أحد، وإنّه لَيدلّ على النظام، والحساب، وعلى صنع الصانع، وخَلْق الخالق، والقدرة القادرة، والتدبير المحكم الدقيق.

ثم إنّ هذه النمطية المتكررة لَتدلّ على أنّ الصانع واحد، وأنّ الخالق هو نفسه في جميع الحالات. هي تدلّ على وحدانية الخالق سبحانه الذي سَبَّحَ له كلٌّ ما في الوجود طُرّاً.

أنماطٌ للحركة، في الكون، واحدة
ولما هو أصغر من الذرّة وأكبر من المجرّة

١ ـ تدور الإلكترونات، في «مستويات للطاقة» سبعة متتالية، حول نواة الذرة، كما تدور حول نفسها، من يسارٍ ليمين، أي ضدّ اتجاه عقارب الساعة.

٢ ـ تدور الأرض، حول الشمس، وحول نفسها، وبالاتجاه نفسه.

٣ ـ وكذلك هو دوران القمر حول الأرض وحول نفسه، وفي الاتجاه ذاته.

٤ ـ ودوران الكواكب السيارة الأخرى (السماوات السبع)، حول نفسها وحول الشمس، في الاتجاه نفسه[١]، وفي مستوى واحد يجمعها، ممّا يجعل المنظومة الشمسية أشبه بقرصٍ عظيم.

٥ ـ ودوران الشمس حول نفسها، مرّة كل ٢٥ ساعة[٢]، وحول مركز مجرّة «درب التبّانة» مرّةً كل ٢٥٠ مليار سنة ضوئية، من يسارٍ ليمين.

٦ ـ وكذلك كل نجوم المجرَّة، فهي يدور كلٌّ منها حول نفسه، ويقدر عددها بِـ ٤٠٠ مليار.

٧ ـ كما أنّ المجرة نفسها، باعتبارها وحدة واحدة، تدور حول نفسها في الإتجاه ذاته.

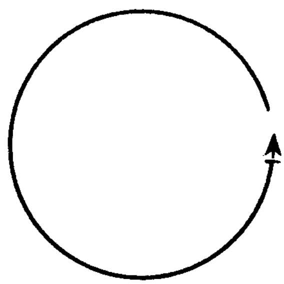
---

(١) إلاّ الزهرة وأورانوس.

(٢) عرف العلماء ذلك من متابعة حركة «الكَلَف»، وهي بقعٌ شمسية سوداء، على سطحها.

٨ ـ ولقد اكتشف العلماء حديثاً أنّ المجرّات تدور حول بعضها البعض أيضاً[١].

* وهكذا فإن كل ما في الكون يسبح، في أفلاك دائرية، بالاتجاه نفسه: من يسار ليمين، أي عكس عقارب الساعة، باعتبار نقطة الرصد ذلك الذي يقف على سطح الأرض في نصفها الشمالي.



شكل (١٨)

اتجاه حركة الأشياء في الكون من الإلكترون إلى المجرّة.

* وانظر إلى تكرار الرقم ٧ في هذه الحركات:

٧ مستويات مدارية للإلكترونات.

٧ طبقات متتالية للأرض.

سبع طبقات متتالية لجو الأرض.

٧ أطوار للقمر في حركته حول الأرض.

سبعُ سماواتٍ «طباق»، أو «طرائق» سبع، في مستوياتٍ مدارية يلي بعضُها بعضاً، . وهَلُمَّ جَرّا.

(١) «هذا الكون العجيب: من الذرة إلى المجرّة» للمؤلف.

الذرّة تشبه منظومة شمسية كاملة ومصغّرة

إن نظام الكون في كل مكان واحد لا يتبدّل، ومن الذرة وأصغر وإلى المجرة وأكبر. وهذه بعض أوجه التشابه بين الذرة وبين منظومتنا الشمسية:

الذرّة	المنظومة الشمسية
١ ـ النواة في مركز الذرّة	تقابلها الشمس في مركز المنظومة الشمسية
٢ ـ الإلكترونات تدور حولها	الكواكب السيارة تدور حولها
٣ ـ سرعة الإلكترونات عظيمة	وكذلك سرعة الكواكب السيارة
٤ ـ وهي تسير على عكس دوران عقارب الساعة	وكذلك اتجاه الكواكب السيارة في مداراتها
(أ) حول نفسها	(أ) حول نفسها[1]
(ب) حول النواة	(ب) حول الشمس
٥ ـ مدار الإلكترون (أو الإلكترونات) بعيد جداً نسبياً عن النواة	الكواكب السيارة بعيدة جداً عن الشمس كذلك
٦ ـ كتلة الالكترون صغيرة جداً بالنسبة إلى كتلة النواة	وكتلة الكواكب السيارة صغيرة جداً بالنسبة إلى الشمس
٧ ـ توجد مستويات مدارية عديدة للإلكترونات حول النواة	والكواكب السيارة هي أيضاً في مستويات مدارية، أو طبقاتٍ عديدة حول الشمس.
٨ ـ مستويات الإلكترونات المدارية حول النواة هي سبعة.	والسماوات، أي الكواكب السيارة غير الأرض، في منظومتنا الشمسية، سبعة أيضاً.
٩ ـ الذرة هي لبنة بناء الكون الصغيرة	المنظومة الشمسية، وكل نجم هو شمس بعيدة، هي وحدة بناء الكون الكبير.

ولا يدلّ ذلك إلاّ على الخالق الواحد الذي قد نطق كل ما في الوجود بوجوده.

---

(١) إلاّ الزُّهرَة وأورانوس.

مقارنة بين صفات الأشياء في الكون:

المادّة	سبعٌ	تسبح: حركة؟	تسبح: سريعة جداً؟	تسبح: هادئة غير مضطربة؟
الإلكترونات في الذرة	نعم، ٧ مستويات مدارية	نعم	نعم	نعم
الموجات «الكهرومغناطيسية»	نعم، ٧ أنواع	نعم	نعم	نعم
ألوان طيف الضوء المرئي	نعم، ٧ أنواع	نعم	نعم	نعم
القمر	نعم، ٧ أطوار	نعم	نعم	نعم
الأرض	نعم • ٧ «أرضين»، أو قارّات.	نعم نعم	نعم نعم	نعم نعم
	• ٧ طبقات للأرض	نعم	نعم	نعم
	• ٧ طبقات للجو	نعم	نعم	نعم
	• ٧ محيطات	نعم	نعم	نعم
السماوات السبع الكواكب السيارة غير الأرض)	نعم ٧، وفي ٧ مستويات مدارية «طِباق»	نعم	نعم	نعم
النجوم	نعم، هناك ٧ أنواع أساسية من النجوم	نعم	نعم	نعم
المجرّات	؟	نعم	نعم	نعم
الحج	• نعم، الطواف ٧ مرات حول الكعبة، في كلّ طواف • السعي بين الصفا والمروة ٧ مرات • رمي الجمار، ٧ جمرات في كل مرّة، ٧ مرّات	نعم	نعم، سريعة	نعم

صفاتٌ مشتركة عديدة وعجيبة!

ي فلك سارٌ دائري حول المركز؟	وحول نفسها؟	اتجاه الدوران عكس عقارب الساعة؟ وفي كلتا الحركتين؟	ما في المركز أكبر مما يدور حوله؟	الخضوع لقوة الجاذبية؟	طاعة وانقياد جبري أم اختياري	تسبيح ﴿وإن من شيءٍ إلاّ يُسبِّح بحمده﴾
نعم	نعم	نعم	نعم، حول النواة	نعم	جبري	نعم
سار دائري على شكل موجات تنبعث من النجم جميع الاتجاهات وتشكّل مع عضها دوائر لا حصر لها.	-	-	-		جبري	نعم
سار دائري لى شكل موجات	-	-	-	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول الأرض	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول الشمس	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول الشمس	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول الشمس	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول الشمس	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول الشمس	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم[1]	نعم، حول الشمس	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول مركز المجرة	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول بعضها البعض	نعم	جبري	نعم
نعم	نعم	نعم	نعم، حول الكعبة	نعم خضوعٌ لله تعالى	اختياري	نعم، وهو ما يميّز الإنسان عن غيره ﴿إنا عرضنا الأمانة..﴾ الآية

(١) تدور «الزُّهرَة» حول الشمس باتجاه دوران بقية الكواكب السيارة نفسه، لكنها تدور حول نفسها بعكس الاتجاه. ويدور «أورانوس» حول الشمس باتجاه دوران بقية الكواكب السيارة الأخرى نفسه، لكنه يدور حول نفسه على محورٍ أفقي، من شمالٍ لجنوب، فهو يرقد على جنبه.

* إنّ مدارات الإلكترونات حول نواة الذرة هي كمدارات الكواكب السيارة حول الشمس، فهي على شكل طبقات، أو «طِباق»، ويقع بعضها فوق بعضٍ من غير تماسّ، بل هي تبعد عن بعضها، بالنسبة إلى أحجامها، أبعاداً عظيمة. والحكمة في ذلك أنها لا تصطدم ببعضها، بل يوازي بعضها بعضاً، ومن غير اضطراب. فسبحان الخالق تعالى وقد قال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

طوافُ الحَجِّ أو الاعتمار يحكي كُلَّ حركةٍ في الكون!

إنها لَوحدةٌ عجيبة في نـمَطِ الكون ونظامه، من أصغره إلى أكبره.

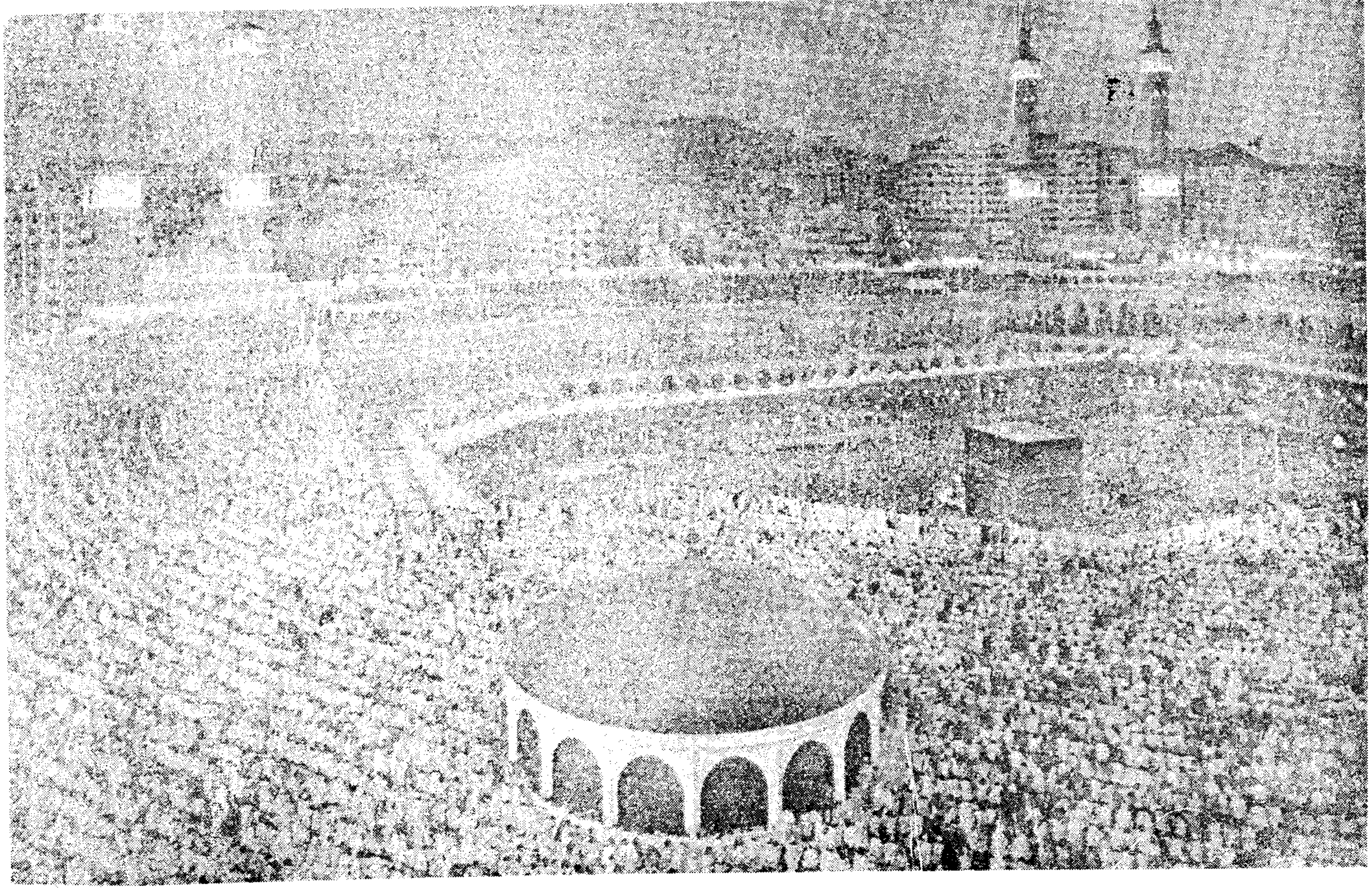
ولئن نحن وجدنا ذلك في الكون فإننا واجدون النمط والنظام نفسيهما في طواف كل حاجٍّ، أو مُعْتَمِر، سبعاً في كل طواف، في مساراتٍ دائرية للحجيج يلي بعضها بعضاً، حول الكعبة، ومن يسارٍ ليمين.

حَقّاً لإنَّها معجزاتٌ إلَهية باهرة تنطق بقدرة القادر والخالق الواحد.

وهل هي «مصادفة»؟ تبّاً له من ظن! إنّه الخالق الواحد، وإنّها الإرادة الإلَهية الواحدة في خلق أولئك أجمعين.

إن الحقائق التي رأيناها، في الجدول السابق، آياتٌ تحكي القدرة الإلَهية، وتعلن أنّ الذي أمر عباده بالطواف، في الحج، والاعتمار، سبعاً، حول الكعبة، وبالاتجاه الذي ذكرناه، هو خالق الذرّات نفسه، ولبناتها الأصغر منها، والأقمار، والكواكب السيارة، والشمس، وبقية النجوم، والمجرّات، والكون جميعاً.

فالله الذي خلق البيت الحرام، وأنزل قرآنه على رسوله الكريم (ص)، وأمرنا بشعيرة الحج بتلك الطريقة المخصوصة، هو نفسه خالقُ كل شيء، في نظامٍ واحدٍ محكم بديع ينطق بألوهيته، ووحدانيته، وعظمته، وبديع صنعه، وكل صفاته



صورة (١٩)

طواف الحجيج حول الكعبة يحكي الحركات الأخرى في الكون، ثم هو يشبه مجرّةً تدور حول نفسها.

القدسية. وليس هناك مِنْ مَناصٍ من الوصول إلى الاستنتاج المنطقي الذي يقول بأنّ الخالق الذي أمر بالحجّ، على ما وصفنا، لا بدّ أنه هو نفسه خالقُ كل ما قد ذكرناه، بل ما قد علمناه وما لم نعلمه.

والناس لم تعلم، في العصور القديمة، حركة الأرض، ولا الشمس، ولا النجوم، ولا المجرّة والمجرّات، بالوصف الذي قد علمناه، ولكنَّ الله تعالى هو العالِمُ بكل ذلك. كيف لا وهو خالقُه كلَّه.

فسبحانك اللَّهُم، خالقُ كلِّ شيءٍ الكبيرُ المُتَعال.

* * *

إنّ طواف الحجّ، أو الاعتمار، يحكي حركاتِ كلِّ ما في الكون، مِن أصغرِ شيءٍ إلى أكبرِه، ولسانُ حال الجميع، من إناسٍ وأكوان، ينطقُ بأنّ الكلَّ مخلوق، وأنّ نظامَ خلقهم واحد، وهو ما يدلُّ على الخالق الواحد سبحانه، ويُسبِّحُ لله تعالى في ملكوته.

* أفنظرْتَ إلى جُموع الحَجيج الغفيرة، في طوافهم لبيت الله الحرام، حول الكعبة، وهم يهلّلون ويكبّرون ويسبّحون لله تعالى، بالعبادة، والتقديس، والطاعة، له وحده؟

لا ترى ذلك يشبهُ مِنْ شيءٍ اللهم إلاّ شيئاً واحداً يخطر في البال، ولا يخطرُ معه غيرُه، صورةَ **مجرّةٍ** عظيمة في شكلها، وحركاتها، واتّجاهاتها، **وبما فيها ممّا لا يُعَدُّ** من **النجوم**، وهي تدور حول نفسها، من يسار ليمين.

* وطوافُ الحاجّ حول الكعبة، حاجّاً مرّةً واحدة في العام، يحكي **دوران الأرض حول الشمس** مرّةً واحدة في العام.

* وطوافه، على الأرض، حول الكعبة ٧ مرّات، يحكي **دوران الكواكب السيارة الأخرى حول الشمس**.

* ويتشابه طواف الحاج سبعاً أيضاً مع **دوران القمر** حول الشمس، وبالاتجاه ذاته، وهو له ٧ مراحل، أو أطوارٍ، في رأي العين.

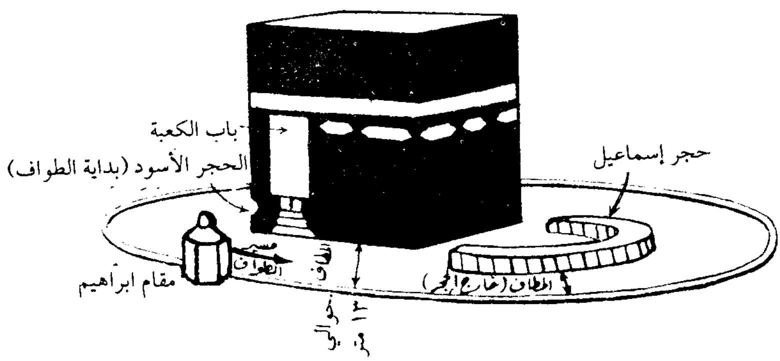
* وحجُّهُ في شهر من العام، وهو شهر ذي الحجة، يحكي دورة القمر حول نفسه وحول الأرض مرّةً كل شهر، تقريباً[١].

* كما أنّ الحاج، في طوافه الدائري، حول الكعبة، ٧ مراتٍ، من يسارٍ ليمين، يحكي حركات إلكترونات الذرّة، في مساراتها السبعة، حول النواة.

* * *

إنّ حقائق الكون كلّه لَتنطقُ بصُنعِ الصانع، وخَلْقِ الخالق الواحد.

وإنّ الذي أنزل الحج هو نفسُه خالقُ الذرّة، ولبناتها الأصغر منها، وخالقُ كل الأجرام، والمجرّات، وأكبر منها. والذرّةُ، والمجرة، على التوالي، هما من أصغر وأكبر اللبنات التي يتكون منها ما قد عرفناه من الكون، كل الكون. إنّ هذه النمطية المدهشة، والاطِّراد في الخَلْق، لَيشهدانِ بأنّ الآمِرَ بالحجّ هو نفسُه خالقُ الكون طُرّاً وأنّه واحدٌ أَحَد.



شكل (٢٠)

مخطط يبيِّن مسير الطواف حول الكعبة من يسارٍ ليمين

(١) يدور القمر حول محوره بينما هو يدور حول الأرض، ويكمل كُلاًّ من الدورتين في الوقت نفسه تماماً، وهو أكثر بقليل من ٢٧,٣ يوماً. أما أطوار القمر المختلفة فتستغرق ٢٩,٥ يوماً.

وحدانية الخالق تتجلّى في وحدة خَلْقِه

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ.
ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ.
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ.
وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ـ٤].

إنّ نظام الكون، والخَلْق، هو واحدٌ في كل مكان، وهو ما يشهد للخالق تعالى بأنّه واحد.

وفوق ما قد ذكرناه سابقاً إليك المزيد.

اللَّبِناتُ التي يتألف منها الكون واحدة

ادّعى الماديون أن المادة تفسِّر كل شيء، فهي تفسّر نشوء الحياة، والخَلْق، والكون كله. وعَزَوا كلّ شيءٍ إلى «الطبيعة»، فكأنّها عقلُ عاقل. كان ذلك قبل أن يعرف العلماء أسرار الذرّة المدهشة. وعندما صارت «المادة» هي نفسها في حاجةٍ إلى تفسيرٍ يفسِّر وجودها ونظامها المدهش.

عرف العلماء أنّ الكون الذي نعرفه كلّه مخلوقٌ من ٣ جُسيماتٍ، أو لَبِناتٍ، تكوّن الذرّة، وهي البروتونات والنيوترونات الموجودة في النواة، والإلكترونات التي تدور حولها، وعرفوا أن ذرّات كل شيءٍ في الكون لا تختلف إلا في عدد لبناتها، وهو ما يعطينا الـ٩٢ عنصراً طبيعياً مختلفاً في الكون.

وطبيعة الذرة تعتمد على عدد بروتوناتها، وهو ما يساوي «العدد الذري» الذي

يُعرِّفنا على العنصر الواحد ويميّزه عن غيره من العناصر، وهو يساوي عدد الإلكترونات.

ولقد قيل بأن «الكيمياء» هي «أرقام». فإذا كان لديك ذرةٌ لها بروتونٌ واحد إذاً فإن لديك هايدروجين، وكل ذرة تحتوي على بروتونيْن اثنين (أي كل الذرّات ذات العدد الذري ٢) فهي هيليوم، والذرة ذات ٣ بروتونات هي ليثيوم وهكذا. فكلما زدنا العدد الذرّي صار لدينا عنصرٌ جديد.

ثم إن العلماء قد عرفوا أن هذه اللبنات الثلاث تتكون من جسيماتٍ أساسية، مثل «الكواركات» (Quarks)، و«اللبتونات» (Leptons)، وهم يعتقدون أن هذه الجسيمات الأساسية قد تحولت إلى الجسيمات الأثقل، مثل البروتونات والنيوترونات.

ولنا هنا ملحوظتان:

١ ـ من أين جاءت هذه الجسيمات الأولية في بداية الخلق؟ فإمّا أنها قد جاءت من العدم فذلك مستحيل، ولا بدّ أن هناك خالقاً خَلقَها.

٢ ـ إن تشابه هذه اللبنات التي يتألف كلُّ شيءٍ نعرفه في الكون منها قد دلَّ على أن الخالق واحد.

القِوى الأربع التي تحكم الكون

إنّ القوى الأربع التي تحكم الكون هي هي نفسها في كل مكان. وهذه القوى هي:

١ ـ **قوة الجاذبية**: وهي تحكم انجذاب الأشياء الكبيرة المرئية في الكون نحو بعضها البعض. تعتبر هذه القوة «غِراء» الكون، أو «صمغه»، وهي أضعف القوى المعروفة في الكون.

٢ ـ **القوة الكهرومغناطيسية**: وهي تجذب **الذرّات** المكوّنة للعناصر إلى بعضها، فهي تعتبر «صمغ» الذرّات، أو «غراءها».

٣ ـ **القوة النووية القوية**: وهي تجمع مكوّنات نواة الذرّة إلى بعضها متماسكة، فهي «صمغ» **أجزاء النواة**، أو «غِراؤها»، وهي الأقوى بين القوى الطبيعية.

٤ ـ **القوة النووية الضعيفة**: وهي تتحكم في **موت المادة**، إذ هي تنظّم عملية تحويل وتفتيت أجزاء الذرة. كيف وأنّ كل عنصرٍ له أجَلٌ مُسمّىً محتوم ﴿.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ..﴾ [القصص: ٨٨].

رفعُ السماواتِ وإمساكها نرى آثارهما في الدفع والجاذبية

إنّ هذه القوى الأربع تحكمُ حركة كل شيءٍ نعرفه في الكون. وهي كلها قِوىً غير مرئية، لكنها عُرِفَت بآثارها. وصدق تعالى إذ يقول:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ..﴾ [فاطر: ٤١].

فالرفعُ والإمساكُ هنا نرى آثارهما في الدفع والجاذبية.

فٱنظرْ كيف أن القوى التي تحفظ الكون جذباً ودفعاً، في توازنٍ دقيق محكم، هي هي في كل مكان وزمان، لأنّ الخالق واحد[1].

---

(١) مصادر:
١ ـ «هذا الكون العجيب، من الذرة إلى المجرّة» للمؤلف.
٢ ـ «من علم الفلك القرآني، الثوابت العلمية في القرآن الكريم»، د. عدنان الشريف (١٩٩١).

قانون الزوجية في المخلوقات
بين وحدانية الخالق وازدواجية المخلوقين
أو بين التفرّد والتعدّد

خَلقَ الله الواحدُ الأحد كلَّ شيءٍ من اثنين، فإنْ أنت نظرت إلى أيِّهما لم تجد للفرد منهما وجوداً من دون نظيره الذي يساويه من ناحية، ويضادّه من الناحية الأخرى، ثم هو نصفه الذي يُكمله، بل ممّا لا حياة له من دونه.

فلولا **الذَّكر** ما بقي للإنسان من وجود، وكذلك **الأنثى**. لقد خلق الحقُّ سبحانه الإنسان والحيوان والنبات أزواجاً من كل صنفٍ حتى تستقيم الحياة وتستمر.

واكتشفوا أنّ الكروموسومات نوعان، **جسدية وجنسية**.

وأن الكروموسومات، بنوعيها، يجيء **نصفها من الذكر**، **والآخر من الأنثى**.

وأنَ الكروموسومات الجنسية نوعان أيضاً: **مذكَّرة (Y) ومؤنثة (X)**.

والمغناطيس، كل مغناطيس، له قطبان: شمالي وجنوبي.

وأن الذرّة التي هي أصغرُ لبنةٍ في الكون مما تتمثَّل فيها صفات العنصر الواحد تتكون، فوق النيوترون، وهو محايد الشحنة، من **بروتونٍ موجب الشحنة** في نواتها، ويضادّه **إلكترونٌ سالب الشحنة** يدور حولها.

ثم إنّ الذرّة، في أطيافها التي تتّصفُ بها، نوعان: **أطيافُ انبعاثٍ وأطيافُ امتصاص**.

ثم اكتشفوا، في المُسارِعات النووية، ما سُمّي بـ«**الجسيمات المضادّة**» لأجزاء

الذرة. فهناك البروتون المضادّ، والإلكترون المضادّ (البوزيترون)، والنيوترون المضادّ. والبوزيترون هو إلكترون يحمل شحنة كهربائية موجبة. ولقد وصل عدد هذه الجسيمات، والجسيمات المضادّة لها، في الذرّة، إلى المئات(١).

وانشغل العلماء طيلة القرن العشرين، بالبحث عن العلاقة ما بين الاثنتين: **المادّة والطاقة**.

واحتدم الجدل بينهم، وهم يغوصون في أعماق المادة: **أهي جُسَيْمٌ أم موجة؟**

ولقد قامت أدلّةٌ على كلٍّ منهما.

* فلقد كانت هناك نظرية قديمة تقول بأنّ للضوء طبيعةً تموّجية.

ثم إنّ في «حَيُود الضوء» (Diffraction) دليلاً آخر على الخاصية التموّجية(٢).

* ولكن «ماكس بلانك» (Max Plank) افترض، عام ١٩٠٠، أن إشعاع الطاقة لا يتم بشكلٍ متواصل، بل بكميّاتٍ، أو حُزَمٍ، سُمّيت بـ«الكَمّات»(٣) (Quanta).

* ثم إن آينشتاين وسّع هذه النظرية، وهو شبّه الضوء بالجسيمات (Particles) التي تمتلك طابعاً كمياً وتسمى بالفوتون.

* وكان لا بدّ من محاولة الوصول إلى سرّ هذه الثنائية: **هل إن الضوء هو من جسيماتٍ أم موجات؟**

* اقترح العالم الفرنسي لويس دو برولي (Louis De Broglie)، عام ١٩٢٥،

---

(١) رغم أن جميع الجسيمات الأساسية للمادة المضادّة قد تم إنتاجها في المختبرات خلال الأعوام السابقة، إلاّ أن أحداً من العلماء لم يستطع دمجها سويّاً للحصول على ذرة متكاملة ذات شحنة كهربائية محايدة. لكن العلماء أعلنوا عن توصّلهم لإنتاج ذرّات من الهايدروجين المضادّ لأول مرة، وهي نتائج سوف تنشر في كانون الثاني (١٩٩٦) في مجلة «فيزيكال ريڤيو ب»، وهكذا حُسِم أمر وجود المادة و«المادة المضادّة».

(٢) يتم هنا تمرير الضوء من خلال ثقبٍ صغير جداً فتتكون، على الشاشة، هُدُبٌ متمركزة مضيئة أو قاتمة على نحوٍ تناوبي.

(٣) جمع «كَمّ».

في «النظرية التموّجية للمادة»، أن الإلكترونات تعمل كأنظمة تموّجية وليس كجسيمات.

* ثم قام العلماء بعده بتطوير هذه الفكرة بشكلٍ رياضي متماسك. ومع مرور الزمن فقد اكتشفوا بأن المادة، كل المادة، تتصرف وتبدي تأثيراتٍ موجية، ابتداءً من البروتونات والنيوترونات، وحتى الذرة والجزيئات. فكأنّ لكل مادةٍ مظهرين اثنين: جسيمٌ وموجة.

* وقالوا بأنْ ليس هناك من فرقٍ إذا نحن اعتبرنا الإلكترونات المستقلة على شكل جسيمٍ أو موجة، لأنه يمكن لها أن توصف بأيٍّ من الشكلين عند النظر إليها ككل.

* وهكذا فإن كل ما يعرفه العلماء الآن صار يؤكد نظرية آينشتاين إلى الكون في أنه يتكون من:

مادةٍ وطاقة.
وجُسيمٍ وموجةٍ في كل حين.
وتفاعلاتٍ تبادلية.
وخَلْقٍ ودثور(١).

* لا بل إن العلماء يقسّمون المادة، منذ بعض الوقت، إلى **مادةٍ مرئية وأخرى غير مرئية.**

وتتصف المادة غير المرئية بأنها لا تترك أثراً، وبِصَمْتِها على خلفية إشعاعات «المايكرو ويف» التي نعرفها.

١ ـ فأما المادة المرئية فهي تلك التي تتكون منها أجسامنا، والأرض، والشمس، والأجزاء المرئية من المجرّات.

---

(١) مصدر: «الكون» سمير عازار (١٩٩١)، ص ٤٨ ـ ٤٩.

٢ ـ وأما المادة غير المرئية فتسمى بِـ«المادة السوداء» (Dark matter).

* والمادة المرئية تتكون من بروتونات ونيوترونات، وهناك ٦ أنواع من اللبنات التي تتألف منها كل من البروتونات والنيوترونات، وهذه اللبنات تدعى بـ«الكواركات» (Quarks).

*** كما أن «المادة السوداء» هي من نوعين اثنين:**

١ ـ «مادّة سوداء حارّة» (Hot dark matter)، وتتألف من:

● **«النيـوتـرينـو»** (Neutrino)، وهـو مـن ٣ أنـواع يتـرافـق الـواحـد منهـا مـع الإلكترون.

● **و«الماون»** (Muon)

● **و«التاو»** (Tau).

٢ ـ «مادة سوداء باردة» (Cold dark matter)، على شكلٍ لم يتم اكتشافه بعد.

ويتألف الكون، حسب هذه النظريات، ممّا يأتي:

٣٪ مادة مرئية (كواركات).

٣٠٪ مادة سوداء حارّة (نيوترينوات).

٦٧٪ مادة سوداء باردة[1].

* * *

والأشياء المتشابهة في الشحنة تتنافر، والمختلفة تتجاذب:

فالموجب ينجذب إلى السالب، وبالعكس.

والذكر إلى الأنثى، وبالعكس.

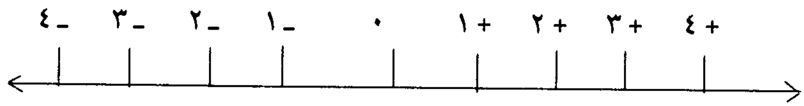
وهناك لكل شيءٍ وجهان: فالأبيض يقابله الأسود، والنهار يقابله الليل، والشرق يقابله الغرب، والعالي يقابله الواطىء، والخير يقابله الشرّ، وهكذا.

---

(١) Ripples in the cosmos (1993), By M.R. Robinson.

وترى في الوجود نوعين متقابلين، كالنور والظلام، والظل والحرور، والبرودة والحرارة، بل وفي صفات المخلوقات كلها.

ويمكن تمثيل كل صفة معروفة على شكل خطٍّ مستقيم منتصفه «صفر»، وتتزايد الصفة عن يمينه كلما ابتعدنا عن الصفر، بينما تتدرج عند الاتجاه يساراً بالنقصان، وتصير مناقضة للصفة عينها يسار «الصفر».



إن الزوجية في الأشياء لهي آيةٌ على أنها مخلوقة، إذ هي لا قوام لها وحدها من دون نظيرها.

ومن الناحية الأخرى فإن الله تعالى هو واحدٌ أحدٌ، وهو ليس له شريك، وهو لا يحتاج إلى أحد، والكل محتاجٌ إليه.

فكأن التعددية في الكون، كل الكون، في إنسانٍ، وحيوان، ونباتٍ، وجماد، في جانبين اثنين من كل شيء، تشير إلى أنه مخلوق، كما أنها تشير إلى خالقها سبحانه بالتفرّد والوِحدانيّة.

إنه الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء.

وتفرّده ووحدانيّته سبحانه وجهٌ من وجوه قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

ثم إنّ لكل شيء بدايةً ونهاية. فالأفراد يحْيَوْن ويموتون. هكذا هو الإنسان والحيوان والنبات، وهكذا هي الذرات والجزيئات، وهكذا هي الأقمار، والكواكب، والنجوم، والسُّدُم، والمجرّات. وهي ازدواجيةٌ، أو زوجية، أخرى في الكون. فالميلاد تقابله الوفاة، والحياة يقابلها الموت، والحيّ يقابله الميت. وهكذا فإن كل شيء بدأ، أو يبدأ، ثم هو ينتهي، لا على خيارٍ منه أو قوة، بل على جهلٍ منه وعجز. وذلك هو وجهٌ آخر من وجوه عبودية المخلوقين للمولى سبحانه، الذي هو الأول والآخر، والذي هو حيٌّ لا يموت.

وانظر إلى الإنسان، وقد زاوج تعالى فيه **الروحَ والجسد**، كيف تَحِلُّ الأولى في الثاني وهو في بطن أمه، ثم كيف هي تغادره عند الموت، وتعود إلى الجسد من جديد، عند البعث. انظر كيف أن مزاوجتهما بدايةٌ للحياة، وكيف أن تفارقهما نهايةٌ لها، إذ لا بدّ للجسد من الروح، ولا بدّ للروح من الجسد، وذلك هو مِثْلُ أنّه لا غَناء للبروتون عن الإلكترون، وبالعكس، ولا للذكر عن الأنثى، وبالعكس، وهكذا. إنّ حاجة الزوج إلى الزوج دليلٌ على النقص، وعلى العجز، وعلى أنه مخلوقٌ يحتاج إلى خالقٍ يخلق الزوجين ويجمعهما أو يفرّقهما كيف يشاء.

وانظر رحمك الله إلى أنّ مع الصحة مرضاً، ومعْ الطفولة شيخوخةً، ومع القوةِ ضعفاً، والله تعالى هو الحيُّ القويّ القادر في جميع الأحوال، وهو له الأمر من قبلُ ومن بعد.

ثم انظر إلى أنه ما طار طيرٌ إلا و كان بعد ارتفاعه انحدار، وما تكبّر إنسانٌ قطُّ إلاّ وُضع، ولا عزّ إلاّ مع ذل، ولا اغتنى إلاّ وافتقر، ولا تجبَّر وقَهرَ وطغى إلاّ وقُهِرَ وقُصِم ظهره، وهكذا هي كل أمور الحياة، والله وحده هو القوي العزيز في كل الأمور.

ثم إن الإنسان **عاطفةٌ وفكر**.

وهو متوزّعٌ، بينهما، دوماً، وهو لا فكاك له، مرّةً أخرى، من أحدهما من دون الآخر.

وذلك مظهرٌ آخر من مظاهر الازدواجية في الإنسان.

والازدواجية، وكما قد ذكرنا، مظهرٌ من مظاهر الاحتياج إلى الغير، فهي نقصٌ وضعف، وهي من أمارات المخلوقين.

وانظر، رحمك الله، إلى الناس تُقبِل وتُدبِر، وتتجاذب وتتنافر، وتتدافع وتتصارع، وتكرّ وتفرّ، وتحزن وتفرح، وتنسى وتذكر، وتغفو وتصحو، وتنام وتنهض، وتجوع وتشبع، وتأكل وتتبرز، وتهلك وتتكاثر، وتكسل وتجدّ، وتتعب وترتاح، ثم انظر من بعد ذلك كله كيف هي تُحسن وتسيء، وتُقارف الذنب وتُجانبه، وهي موزّعة الخاطر، دوماً، بين الإقدام والإحجام، والأمل واليأس، والجبن والشجاعة، والحبّ والبغض.

ومِثلُ الأفراد في ازدواجيتهم هي حظوظ الأمم والشعوب. هي لا تستقيم على حالٍ أبداً، فهناك خير وشرّ، وسلام وحروب، وكل الناس تدفعها كل الناس. لا بل قد جعل الحقُّ سبحانه لكلِّ نبيٍّ عدواً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام:١١٢]، وكذلك لكل إمام خير. وكل الناس يتجاذبون ويتدافعون، وفي ذلك ابتلاءٌ وتمحيص، حتى يتميّز الطيب من الخبيث، والمؤمن من الكافر، والبِرّ من الفاجر، والصادق من الكاذب، والحازم الذي يُقرِن الأمل بالعزيمة، والحريّة بالخيار الصحيح، والقول بالعمل، من الكسول الذي يقنع من أمره بالتمني فلا يجاوزه إلى تخطيطٍ أو بذل جهد، لا بل هو قد يكون مسلوب الإرادة أصلاً كورقةٍ تتقاذفها الرياح، أو هو ينسى ربّه ودينه، وضميره ومصيره، ثم إنه صائرٌ إلى حساب وجزاء، ينسى ذلك كلّه كأنّه عائِشٌ أبد الدهر!

ومِن عَجَبٍ أنْ كلّما تكبّر الإنسان وتجبّر كلّما أذلّه تعالى ووضعه.

قال فرعون: أنا ربكم **الأعلى**، فأغرقه تعالى وجيشَه في **أدنى بقاع البحر**. وإننا لنلحظ هنا جانباً ماديّاً وآخرَ معنوياً لهذه المفارقة التي يؤول إليها الكفار.

ولقد أراد الفراعنة لأنفسهم الخُلد، فأمروا أن تُحنّط أجسادهم من بعد الموت، وبُنيت من فوقها الأهرامات العظيمة التي هلك في إنشائها الآلاف، ولكنهم بدلاً من أن ينالوا الخُلد الذي أرادوا صار لهم «خُلْدٌ» من نوع آخر لم يَدُرْ في خَلَدِهم قطّ! وذلك بقبورٍ تشهد على فَنائهم في كل حين، وبدلاً من أن يُمحى وجودهم كبقية الموتى بقي قائماً. ولكنه ذكرٌ، في كل حين، بالموت لا بالحياة، وبالذلّ لا بالعزّ، وبالعبودية لا بالربوبية، وبالضعف لا بالقوة. إنه ليس حياةً، ولا حتى نوماً، وإنما هو «تحنيطٌ»، لا أكثر ولا أقل من ذلك، جعله الله آيةً للعالمين. ثم إن ما أرادوه من حفظٍ لأجسادهم قد صار من بعد ذلك سبباً، ويا للسخرية، لأنْ تصيرَ حِرْزاً مصوناً ولكن في واجهات المعارض العالمية الزجاجية المغلقة التي تحافظ عليها أشدّ محافظة! لقد خُلِّدَ فرعونُ كما أراد، ولكن على نحوٍ معاكس، وبما يساويه، قدراً عظيماً. أراد فرعونُ أن يتميز عن كل الناس بأنه فوقهم كلهم، وبأنه ربهم الأعلى، فأنجاه الله ببدنه، ليكون آيةً

تُذكَرُ في كل حين على القهر من بعد عزّ، وعلى قصمِ الله ظُهورَ المجرمين المتكبرين الطاغين، وهكذا يفعل الله في كل حين، والله يفعل ما يشاء.

وهي ازدواجيةٌ، على ما قد رأينا، غريبة، وهي تؤكد لنا ضعف المخلوقين البالغ(١). وبالجملة، فإن الزوجية، أو الازدواجية، في كل المخلوقين، وفي كل مناحي الحياة لَتدلّ على استيلاء النقص عليهم، وعلى كمال الخالق سبحانه.

ولئن صار العلماء يكتشفون، من أصناف الخَلق، يوماً بعد يوم، اثنين اثنين، ما لا يخطرُ على بال، فإن ذلك أمرٌ استمر طيلة سنيّ القرون الماضية وسيظل مستمراً إلى ما شاء الله.

فانظر إلى إعجاز كتاب الله في أسراره التي تتكشّف، يوماً بعد يوم، في قوله تبارك وتعالى:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وجاء في الدعاء: يا مَن خلق الأشياءَ أزواجاً.

ولقد أقْسَم تعالى بالواحد وبالزوجين، وهما منهما كلُّ ما خَلقَ، في قوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]، وهو قَسَمٌ ينطبق على الأعدادِ كلِّها قاطبةً، لأنها إمّا شفعٌ (زوجية، تنقسم على ٢ بلا باقٍ) أو وَتْرٌ (مفردة).

فسبحانك اللهم وبحمدك، خالق كل شيءٍ من زوجين اثنين، ممّا نعلم وممّا لا نَعلم، ونحمدك حمداً كثيراً على خَلْقِكَ لنا، وإنعامِكَ علينا، وعلى ما عَلَّمْتَنا من أسرار خَلْقِكَ في كتابك.

---

(١) ومن الأسرار العجيبة أنه كلما أحسّ مخلوق بحاجته إلى خالقه وبضعفه أمامه كلما ازداد عزّاً وقوة، وكلما تواضع لله رفعه. وعلى العكس من ذلك فإنه كلما احتاج مخلوقٌ إلى مخلوقٍ مثله ذُلَّ له. قال الإمام علي: «احْتَجْ لِمَنْ شئتَ تكن عبداً له»، وذلك لعمري الفرق بين العبودية لله الواحد القهار والعبودية لمن دونه من المخلوقين.

خواصّ الكون واحدة
«المبدأ الكوني»

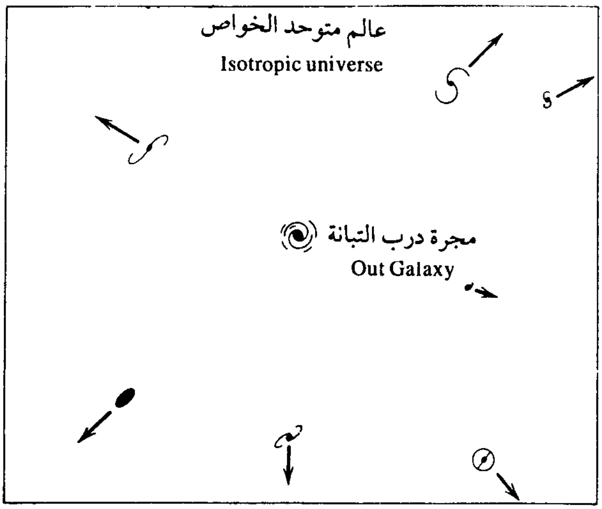
تمكن العلماء أن يحددوا العديد من خصائص الكون، فعرفوا أنها واحدة في كل مكانٍ منه، مما يشهد لخالقها بالألوهية، والوِحدانية.

١ ـ **التجانسية** (Homogeneity): أي أن المادة ليست متجمعةً كلها في مكانٍ واحد من الكون، أو في تجمعاتٍ عظيمة في مواضعَ دون غيرها، بل إنها منتشرة فيه بصورةٍ متجانسةٍ تقريباً.

٢ ـ **توحّد الخواص** (Isotropy): إن الخواص التي يتصف بها الكون واحدة. فالمجرّات والأجرام الموزعة في أرجائه، ورغم اختلاف سرعاتها، إلاّ أنها متجانسة في أسلوب حركاتها وتناسقها على نحوٍ مُحكمٍ واحد بديع، وبكل ما فيه، وعلى الرغم من المسافات الشاسعة التي تفصل مكوناته عن بعضها.

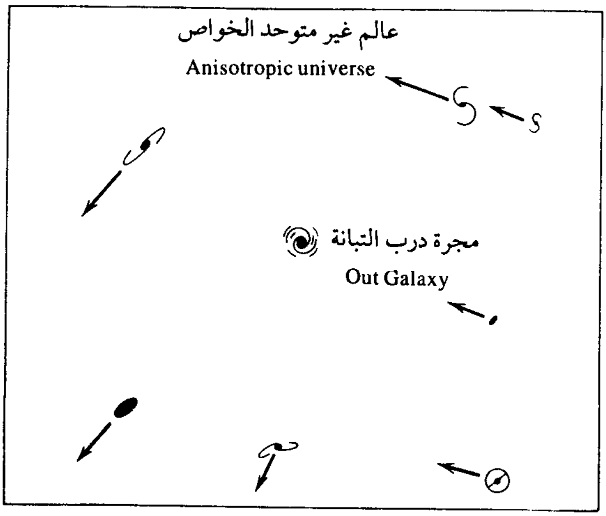
٣ ـ **التماثلية** (Uniformity): إنّ الكون متماثلٌ ومتجانس في صفاته، والمجرّات لا تختلف عن بعضها البعض إلاّ في مظاهرَ سطحية، وتتماثل خواصها مع بعضها، وكل الاختلافات الموجودة فيما بينها تُعزى إلى مراحل تطورها المختلفة. وتدعم ذلك الخواص الفيزياوية والكيماوية الموجودة في المجرّات، وفي أيّ مكانٍ أو زمانٍ وُجدت.

٤ ـ **الشمولية** (Universality): إن القوانين الفيزياوية المكتشفة والمنطبقة على الأرض هي هي نفسها القوانين الفيزياوية التي تحكم أرجاء الكون بأسره، وحدةً واحدةً متكاملة.



شكل (٢١)

مقارنة بين التجانسية وعدم التجانسية في الكون



شكل (٢٢)

السرعات التناظرية في الكون. مقارنة بين عالمٍ متوحّد الخواص وآخر مختلف الخواص.

وفي المسافات البعيدة، حيث تكون القياسات بملايين السنين الضوئية، فإن الكون يتميز بكونه متجانساً ومتماثلاً، وهي حقيقةٌ قد أسميت بـ«**المبدأ الكوني**» (Cosmological Principle). وهكذا فإن الخصائص الكونية الخاضعة للمقاييس الكبيرة هي هي في كل مكان. ورغم وجود تغيرات موضعية فإن الناس كلهم، وعلى جميع الكواكب، يرون الخصائص العامة عينها ممّا يشمل المقاييس الكونية. وكل مخلوق، على أي كوكبٍ كان، يشاهد مجرّاتٍ، وعناقيد مجرّاتٍ معينة ومنتشرة في أعماق الفضاء كالتي نراها نحن[١].

والخَلْق الواحد آيةٌ على الخالق الواحد.

---

(١) مصادر:

«هذا الكون العجيب، من الذرة إلى المجرة»، للمؤلف.

«المجرّات والكوازرات»، وليم ج. كاوفمان. ص ١٠٥.

«قصة نشوء الكون»، د. مخلص الريس ود. علي موسى، الفصل العاشر: نماذج الكون.

وبعد

* فإن هناك سُنناً وقوانين إلٓهية تحكم الكون.

* وإن هذه السنن والقوانين واحدة في كل زمانٍ ومكان من الكون.

* إن القوانين المعروفة في الرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، والفلك، وبقية العلوم، إن كل هذه القوانين لم يَضَعْها العلماء. إنّ كل ما فعلوه هو أنهم اكتشفوها، وهم اكتشفوا القليل القليل منها، وهم قد يكونون علموا آثارها ولكنهم لم يحيطوا بأسبابها وعِلاّتها والتي هي من أمر الخالق تبارك وتعالى وحده. ونحن نقول هذا حتى يُطامِنَ الإنسان من كبريائه الكاذبة، ويعرف قدر نفسه.

إن الحركة الشاملة والمتشابهة، في نظامٍ واحد دقيق، لكل ما في الكون، ما صَغُرَ منه وما كَبُرَ، والقوانين الواحدة التي تحكم كل شيء فيه هي آياتٌ على وحدة الكون ووحدانية الخالق. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [المُلْك: ٣و٤]، أي لا ترى في خَلْق الله تعالى شيئاً من الاختلاف وعدم التناسب، فلا عيب ولا نقص، ولا اضطراب ولا خلل ولا اعوجاج في شيءٍ منها، بل إنها كلها محكمة جارية على مقتضى الحكمة. فانظر الكَرَّة بعد الكرّة، والمرّة بعد المرّة ينقلب إليك البصر خائباً عاجزاً عن رؤية أي نقصٍ أو خلل، بل يبهرهُ الجمال والكمال، والانسجام والانتظام.

حقّاً إن وحدانية الخالق تعالى تتجلى في وحدة خلقه.

الله تعالى واحد

﴿ . . قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

إنها آياتٌ تدلّ على الوحدانية وتدحض الشِّرك، إذ لو تعدّدت الآلهة لتعددت الإرادات والقوانين وتضاربت فاختلّ الكون كله وفسد.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ . . ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال صاحب التفسير المبين: «أي لتميز مُلْك كل إلَهٍ عن مُلْك الآخر، وهو خلاف الواقع، ولحدث بين الآلهة تحاربٌ وتغالب تماماً كما هو الشأن في الملوك والرؤساء، وكل واحد من الإلَهين لا يخلو من أحد فرضين: إمّا قادرٌ على الاستقلال في الخَلْق فوجود الثاني لزوم ما لا يلزم، وإمّا عاجزٌ عنه فالعجز نقص، وتعالى الله عن هذا وذاك».

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ . . ﴾ [الأنعام: ١٤].

ما أجمل كلامه تبارك وتعالى، وما أبسطه وأبلغه! إن الله هو الخالق الرازق، والإلّه لا يحتاج إلى طعام، ومن احتاج إلى الطعام فهو محتاجٌ بالضرورة إلى غيره، وهو لا بدّ من أن يخضع لنداء الطبيعة!

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

احتجّ سبحانه في هذه الآية على المشركين بأمورٍ ثلاثة:

١ - ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لله آثارٌ تدل على وجوده وتنفي الشريك أيضاً، لأن القانون الذي يسيِّر الذرّة الصغيرة هو القانون نفسه الذي يسيِّر المجرّات الكبيرة، فهل للشريك المزعوم من آثار في الأرض؟ وأين هي؟

٢ - ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المراد بالشِّرْك هنا النصيب والأثر، والمعنى أن لا أثر أيضاً للشريك في السماء.

٣ - ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا . .﴾ أي أم أنزلنا على المشركين كتاباً من السماء يقول: إن لله شركاء، وهذا غير صحيح.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٣٤].

كلا.

الكل يشهد لله تعالى بالوحدانية

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ . .﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]،

﴿. . قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا . .﴾ [البقرة: ١٣٣].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ . .﴾ [لقمان: ١٣].

صفة المشركين ومصيرهم

﴿.. وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وهكذا فإن المسلمين يؤمنون بالله وحده، بالله الواحد الأحد الصمد، ولا يُشركون به أحداً.

ولقد صدق من قال:

وفي كلِّ شَيءٍ لَهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنّه واحدُ

أين رُسُلُهم؟

هل هناك مِنْ خالقٍ غير الله سبحانه؟ أم إنّ هناك مِنْ آلهةٍ غير الله؟ لو كان الأمرُ كذلك إذاً لجاءتنا رُسُلهم تُخَبِّرُنا بذلك، لأنّ الخالق لا بدّ أن يخبّر المخلوق بألُوهيته وما قد خَلَقَ، وحتى يدحضَ قول الألوهية لله تعالى وحده. ولم نسمع، لليوم، بدعوى يدّعيها مُدَّعٍ بأنه مُرْسَلٌ من غير عند الله تعالى.

قال الإمام علي لابنه الحسن، في وصيّة: «لو كان لِربّك شريكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُه، ولَرأيتَ آثار مُلْكِهِ وسلطانِهِ، ولَعَرَفْتَ أفعالَهُ وصفاتِه، ولكنه إلَهٌ واحد كما وَصَفَ نفسه».

المُسبِّحات السبع

سَبْعُ سُوَرٍ تبتدىءُ بها سَبْعُ آيات بالتسبيح

انظر إلى عجائب المُسَبِّحات السبع. إنّها سبع سُوَرٍ، وقد سُمّيت كذلك لأن كُلاًّ منها تبتدىءُ بالتسبيح لله تعالى في أول آيةٍ منها، بل وفي أول كلمةٍ من الآية.

١ ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

٢ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

٣ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

٤ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الصّف: ١].

٥ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

٦ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

٧ ـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

قلنا بأن كل شيء في الوجود يُسبّح لله تعالى، وإذا نحن نظرنا إلى الآيات السبع السابقة، وبالترتيب، لوجدنا الآتي:

* تبتدىء الأولى منها بقوله تعالى: (سبحان)، وهو اسم مصدر لـِ (سَبَّحَ)،

وهو منصوب بفعلٍ مُضْمَر تقديره: سَبَّحْتُ الله سُبحاناً، أي تسبيحاً، أي نزّهتُه تنزيهاً، وباعدتُه تبعيداً من كل سوء، وفيه معنىٰ التّعجب من باهر قدرته في إسرائه بعبده.

* وتبتدىء الثانية والثالثة والرابعة منها بالفعل الماضي : (سَبَّحَ).
* والخامسة والسادسة منها تبتدئان بالفعل المضارع: (يُسَبِّحُ).
* وأما السابعة فهي تبتدىءُ بفعل الأمر: (سَبِّحْ).

فانظر كيف جاءت هذه الآيات السبع، وهي متفرقة، في سبع سُوَرٍ، لتبتدىء، وحسب ترتيب ورودها في القرآن الكريم:
باسم المصدر، في أولاها.
ثم بالفعل الماضي، في الثلاث التي بعدها.
ثم بالفعل المضارع، في السورتين اللتين تليانها.
ثم بفعل الأمر في آخر سورةٍ منها.
أي:

سبحان (١) ←	سَبَّحَ (٣) ←	يُسَبِّحُ (٢) ←	سَبِّحْ (١)
مصدر	فعلٌ ماضٍ	فعلٌ مضارع	فعلُ أمر

انظر إلى ترتيبها الزمني، كيف أن المصدر، وهو (سبحان)، عامٌّ شامل، يدل على التسبيح مُطلقاً في جميع الأحوال، ويليه فعلٌ يدلّ على استمراره في الماضي، فالحاضر، ثم الأمرُ به!

إن ترتيب هذه الآيات الكريمة السبع، وبهذا الشكل، يتساوق مع الحقيقة القرآنية في أن التسبيح لله تعالى حالةٌ عامّةٌ شاملةٌ في الكون كله، وفي كل زمان. إن التسبيح لله سبحانه يلُفُّ الكون كله، وذلك هو واقع الحال في جميع الأوقات، في الماضي، والحاضر، والمستقبل.

فالتسبيح لله تعالى هو حالةٌ عامّة مطلقة في كل زمانٍ، ومكانٍ، ومن جميع المخلوقات.

و«اللام» في قوله سبحانه: (سَبَّحَ لله) هي للتوكيد، وهي جاءت في خمسٍ من هذه الآيات، وهي كقولك: شكرتُ له. كما تقدّمَتْ كلمة «لله» على الفاعل «ما في السموات..» للسبب نفسه.

* ويعقبُ قوله سبحانه: (سُبحانَ) في الآية الأولى، و(سَبَّحَ) في الآية الأخيرة ذِكرُه تعالى لنفسه: (الذي أسرىٰ بعبده) و(اسم ربك الأعلى)، على التوالي، أما في الآيات الخمس الباقية فيلي فعل التسبيح ذِكرُ ما في السماوات والأرض «الفاعل».

* ويعقب ذلك، في الآيات السبع كلها، ذِكرٌ لصفات الله الحسنىٰ: السميع، البصير، العزيز، الحكيم، المَلِك، القُدُّوس، له المُلْك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، الأعلىٰ، وهكذا. وتلي تلك الآيات صفاتٌ قدسية أخرى لله تعالىٰ.

نتائج:

١ ـ تدل آيات التسبيح، في أوائل «المُسَبِّحات السبع»، في محتواها، وفي ترتيبها، على تسبيح كل شيءٍ في الكون لله تعالى، وفي كل زمانٍ ومكان، عاقلاً كان أم غير عاقل.

٢ ـ ثم إنها تعقب ذكر التسبيح بذكر قسمٍ من صفات الله تعالى الحسنىٰ التي توجب التسبيح له.

فالتسبيح هو إعلانُ المخلوق على وجود الخالق، وعلى صفاته الحسنى.

إنه إعلانٌ مستمرٌ للمخلوقين كلهم، وبكل ما تحمله كلمة «المخلوقين» من صفاتٍ وتداعيات، على الخالق وصفاته.

التسبيح إعلانٌ للمخلوقين عن الخالق، ودليلٌ عليه.

وكل ما في الوجود، قاطبةً، يحكي وجود الخالق تعالى ويدل على صفاته،

فهو الحكيم، المالك، المحيي، المميت، القدير على كل شيء، الأول، الآخِر، الظاهر، الباطن، العليم بكل شيء، وهو الله الذي لا إلّه إلا هو الملك، القُدُّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، وهو البارىء، الخالق، المصوِّر.

كل شيءٍ في الكون يشير إلى الله تعالىٰ، والكل خاضع لإرادته وسلطانه، يسبّح بحمده، فهو حامدٌ له، يثني عليه بكل جميلٍ من الصفات، وينزّهُه عن كل نقص.

التسبيح نوعان

ولقد قال العلماء إن التسبيح نوعان:

١ ـ تسبيح للعاقل بلسان المقال.

٢ ـ وتسبيحٌ لغيره بلسان الحال.

ولئن كان العاقل يسبّح بلسان المقال، ولئن كان لسان حال غير العاقل يحكي ويدلّ على خالقه، فإن العلم الحديث قد وجد أن كل ما في هذا الكون المخلوق يتحرك، أو بالأحرىٰ «يَسْبَح»، بسرعةٍ عظيمة، منتظمة، مُغرِقة في اجتياز المسافات البعيدة.

معانٍ للسبح عديدة. «يُسَبِّح» فِعْلُ مبالغةٍ في «يَسْبَح»

إذ إن الفعل «يُسَبِّح» هو مبالغةٌ في «يَسْبَح»، وهو يدلّ على:

١ ـ التسبيح باللسان، وهو قولُ «سُبحانَ الله» واستشعاره بالقلب، تقديساً له، وتمجيداً، وتنزيهاً.

٢ ـ الدلالة بلسان الحال عن الثناء، والتمجيد، والتنزيه له.

٣ ـ الحركة (أ) السريعة.

(ب) الشديدة السرعة.

(ج) المبعدة في السير.

(د) والهادئة غير المضطربة.

كل ما في الكون يَسْبَح ويُسَبِّح لله!

فانظر واعجب كيف أن «السَّبْح» هو وصفٌ ينطبق على واقع حال كل ما في الكون من موجودات، من الذرّة وأصغر، وإلى المجرّة وأكبر، إذ إنها كلها تُسَبِّح لله تعالى على شكلين اثنين:

١ ـ هي تُسَبِّح، بأنّها تحكي وتنطق بلسان المقال أو لسان الحال، أو بكليهما، وتدلّ على خالقها، وعلى صفاته القدسية، وهي تحمده وتثني عليه وتُنَزِّهُهُ وتخضع له، وهي إعلانٌ عن ألوهية الله تعالى وعن عبودية المخلوقين وعجزهم.

٢ ـ وهي تُسَبِّحُ له أيضاً، من حيث أنها تتحرك في سَبْح، أي جَرْيٍ سريع، وبُعْدٍ في السَّيْر، هادىء غير مضطرب، مما قد عرفه العلماء، وممّا يشمل كل شيء في الكون مخلوق.

تلك مَعانٍ، لكلمة «السَّبْح» عديدةٌ، نجد أنها كلّها تنطبق على واقع الحال، فهي أوجهٌ عديدة لكلمةٍ واحدة.

ثم انظر إلى تكرار العدد ٧ في كل هذه المخلوقات السابحة ممّا سبق الكلام عليه.

وانظر، مرّةً أخرى، إلى السُوَر «المُسَبِّحات» السبع، في عددها.

وإنّه لأَمرٌ يُثير العَجَب والدهشة أن يتكرّر ذِكرُ «التسبيح»، سبع مراتٍ، في أوائل «المُسَبِّحات» السبع كتكرّره في كلّ شيءٍ في الكون.

إنّ هذا التكرار آيةٌ على أنّ مُنزِّل القرآن الكريم هو نفسه خالقُ كل شيء.

كما أنّ تكرار العدد ٧، في الكون، المرّة بعد المرّة، آيةٌ على الوحدانية.

على أنّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له.

إذ لو تعدّد الصُّنّاع لتعدد المصنوعون واختلفوا.

وإن ذلك النظام الواحد، والنمطية المتكررة، في الكون كله، لَيَدُلاّن، حتماً على الخالق الواحد.

فسبحان الله وبحمده.

مِثالٌ على أثر التسبيح في الإنسان

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ.
لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]

ابتلع الحوتُ يونس (ع) فأنجاه تعالى، لأنه كان يكرّرُ ويردّدُ تسبيحه الذي ذكره سبحانه في الآية ٨٧ من سورة الأنبياء: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، وهو دعاءٌ مشهور.

أقول: في نصِّ الآيتين من سورة الصّافّات دليلٌ قاطع على أن التسبيح والدعاء يردّ البلاء والقضاء، إذ لا مُغيث إلاّ الله.

الأجرام في كتاب الله

قريبُها والبعيد

١ ـ جاء الحقُّ تبارك وتعالى على ذكر «الأرض»، وبهذا اللفظ، وهي الكرة الأرضية، في ٢٥١ آية.

كما جاء، في الحديث الشريف، ذكرُ «الأَرَضِين السبع» التي فسّرناها بالقارّات السبع.

٢ ـ وذَكَرَ القمر الذي نعرفه، ذلك الذي يدور حول الأرض، وهو أقربُ قمرٍ إلينا.

٣ ـ إذ إنّ هناك، في المنظومة الشمسية، أقماراً عديدة، وهي جاءت الإشارة إليها في قول الحقِّ سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]. فقوله: (خلقهن) قد دلّ على وجود أقمارٍ عديدة لا قمر واحد، مثلما دلّ على وجود شُموسٍ عديدة، والنجوم هي شموسٌ بعيدة، لا شمس واحدة، وهي معجزاتٌ قرآنية.

٤ ـ وذَكَرَ أقرب كوكبٍ سيار إلينا، وهو «الزُّهَرَة»، في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

٥ ـ لكنه ذكر الكواكب السيارة، في منظومتنا الشمسية، غير الأرض، باسم «السماوات السبع».

٦ ـ وذكر أقرب نجم إلينا، وهو الشمس.

٧ ـ وذكر أقرب نجمٍ إلى منظومتنا الشمسية، ممّا نراه في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، وهو «الشِّعرىٰ»، أو «الشِّعرىٰ اليمانية» (Sirius).

٨ ـ ونجوم مجرتنا القريبة منا.

٩ ـ ومجاميعها «البروج».

١٠ ـ ومجرّتنا «السماء الدنيا».

١١ ـ وأشار إلى وجود مجرّاتٍ وعوالمَ أخرىٰ، غير مجرّتنا، باسم «السماوات العُلى».

١٢ ـ وذكر الإشعاعات، المرئيّة منها وغير المرئيّة، وهي كلها أنواعٌ للطاقة، يموج بها الكون كله، وتنتقل على شكل موجاتٍ، في كل الاتجاهات، في الفراغ، وهي مصدرها الأساس الذي نعرفه النجوم، مصدراً للحياة التي نعرفها. وبينما وصف تعالىٰ الأشعة المرئيّة بـ«النور» فلقد وصف الإشعاعات، عامّةً، بالضوء، وأشار إلى ما لا نراه منها ومن غيرها، وما أكثره وأعظمه، في الكون، فأقسَمَ بها: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ . وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقّة: ٣٨ و٣٩].

ولئن ظل الكُفّار الجاحدون المتكبّرون يكذّبون بما لا يرونه، فها قد انفتحت أمامهم آفاقٌ لا تُحَدّ فيما قد عرفه العلم، ذلك العالم الراسخ، مما يُعْرَفُ ولا يُرىٰ، مصداقاً للآية الكريمة.

يا مَنْ جَعَلَ الشمسَ سِراجا..
يا مَنْ جَعَلَ القمرَ نورا..

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا.
وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا.
وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا.
وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٤].

النهار يُجَلّي الشمس، وليس العكس ـ لماذا؟

بعد أن أقسم الحقُّ سبحانه بالشمس وضُحاها، وبالقمر يتلوها في الظهور ليلاً، أقسم بالنهار وهو يُجَلّي لنا الشمس، وبالليل إذ هو يغشاها. ولكن الحقّ تبارك وتعالىٰ لم يقل، كما قد يتوقع المرء، بأن الشمس هي السبب في حدوث النهار، أو تجليته، إذ هي تُضيء لنا بضوئها الأشياء فتُجليها، بل هو بيّن بأن النهار هو الذي يجلّي لنا الشمس، وليس العكس.

ولكن لماذا يُجَلّي النهارُ الشمسَ بدلاً من أن تُجلّي الشمسُ النهارَ على الأرض؟ والجواب إنّ وراء ذلك لَسِراً.

وقبل أن نحاول استكشاف هذا السرّ فلنتذكر عِلّة حدوث الليل والنهار. ولئن اعتقد الأقدمون أن سبب ذلك هو حركة الشمس حول الأرض، وهم قد جعلوا ذلك

«حقيقة» راسخة مُسَلَّماً بها حتى العصور الحديثة[1]، فإننا نعلم الآن أن ذلك ناتج عن دوران الأرض حول الشمس.

إن ضوء الشمس باقٍ أبداً، ما دامت، ليلَ نهار، وفي كل دقيقةٍ من عمرها، رغم أن ما نراه منها، نحن سكان الأرض، ليلٌ ونهار يتعاقبان كل ٢٤ ساعة، ولكن تعاقب حدوثهما ليس ناجماً عن تغيّرٍ في ضوء الشمس، ولا عن تغيّرٍ في موقعها بالنسبة إلى الأرض، بل عن دوران الأرض حول الشمس.

والآية واضحة في دلالتها على هذه الحقيقة. فمجيء النهار، الذي يُبدي لنا ضوء الشمس ويُجلّيها، يحدث بسبب دوران الأرض حول الشمس، وكذلك هو سبب حدوث الليل في جهة الأرض البعيدة عن الشمس، إذ هو يُخفي ضوء الشمس بسبب دوران الأرض حول نفسها أيضاً. وابحث عن كلمةٍ تضعها بدل كلمة «جَلاّها»، أو كلمة «يغشاها»، فتقوم مقامها بما يؤدي وظيفة اللفظ القرآني المعجز، وهيهات.

هكذا نرى أن الآيتين الكريمتين تدلاّن على أن:

١ ـ الشمس، رغم أنها تدور حول الأرض، في رأي العين، فهي ليست كذلك في حقيقة الأمر.

٢ ـ وأن الأرض، بدورانها حول الشمس، هي السبب في تعاقب الليل والنهار.

٣ ـ وأن الشمس لا يخبو ضوؤها في أثناء الليل ليعود عند النهار، بل إن الأمر في حقيقته هو أن هناك غَشّي وتجليةً، على التوالي، لضوءٍ سرمديّ ما دامت الشمس.

ولقد أقسَمَ تعالىٰ، مرّةً أخرىٰ، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ . وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [اللّيل: ١ و٢].

---

(١) اعتقدوا بأن الأرض هي مركز الكون، وأن الشمس، والقمر، والكواكب، تدور حول الأرض.

ولو كانت لديك لؤلؤةٌ أو جوهرة فجلوتها لاتضحت لك باهرةً متلألئة. فإن أنت غَشَيتها بما يحجبها احتجب نورها ولألاؤها المتشعشع عنك، وهي في الحالين هي هي لم يتغير منها شيءٌ إلا بما بينك وبينها، وكذلك هو ضوء الشمس.

ولو نظرنا ثانيةً إلى الآيات الأربع الأولى من سورة (الشمس) لرأينا أنها، كلها، تتحدث على الشمس وآثارها، لكن الأولى منها تخلو من كلمة (إذا) الشرطية، بينما هي موجودة في الآيات الثلاث التي تليها.

ويُشير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ إلىٰ طورٍ معلوم ناتجٍ عن حركة الأرض، وهو الفجر الذي تظهر الشمسُ لنا فيه. ففي طورٍ معيّن من دوران الأرض حول الشمس تصبح الأخيرة، وفي وقتٍ محدّد، هو وقت الشروق، بمواجهة موقعٍ معيّن من الأرض. إن هذا التغيّر في ضوء الشمس، فيما يبدو لنا، من الغَشَيان إلىٰ التجلية، أي من الليل إلىٰ النهار، في الوقت المحدّد بوقت الشروق، هو ما تُشير إليه كلمة «إذا» في الآية الثالثة. ومثلُه وقت الغروب، المحدَّد أيضاً بالساعات والدقائق، والذي تشير إليه كلمة «إذا» أيضاً في الآية الرابعة. وكذلك هو وقت ظهور القمر يتحدّد بالساعات والدقائق. ففي هذه الحالات الثلاث هناك في كل مرّةٍ شروقٌ أو أفول، أو وجودٌ وغياب، يتم في وقتٍ محدّد تشير إليه كلمة «إذا». وأما في الآية الأولى (والشمسِ وضُحاها)، فإن الضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس في الأفق، وازدياد ضوئها، رويداً رويداً، ليس فيه بزوغٌ أو أفول، أو تغيّرٌ من الظلمة إلى الضوء أو العكس، بل هو ازديادٌ مُطَّرَدٌ في ظاهرةٍ واحدة هي ظاهرة الشروق، ولذلك فقد انتفت منها كلمة «إذا» الشرطية في كلام الله. والله تعالىٰ أعلم بمراده.

يا مَنْ جَعَلَ اللّيلَ لِباساً..
يا مَنْ جَعَلَ النّهارَ مَعاشاً..

انظر إلىٰ آيات الله الباهرات، في الليل والنهار، وهي نذكرُ هنا قسماً منها بالشرح، أو مكتفين بإيراد معاني الكلمات الصعبة منها، لأن كل آيةٍ منها تُشرق بالإعجاز الباهر، والبيان الساحر، في نور القرآن الغامر.

إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، ما هما؟ ولماذا؟

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ٦].

يُولِج: يُدْخِل شيئاً في آخَرَ برفق.

* يُدْخِلُ تعالىٰ طائفةً من الليل في النهار، فيَقْصُر الليلُ ويَزيد النهار، ويُدخل طائفةً من النهار في الليل، فيقصر النهار ويَزيد الليل.

* وذلك بجعله تعالى للأرض مائلاً محورُ دورانها حول نفسها. فبينا أن أطول نهارٍ يحدث في ٢٢ حزيران من العام فإن أطول ليلٍ يحدث في ٢١ كانون الأول، وذلك في نصف الكرة الأرضية الشمالي. ويبلغ طول أطول نهارٍ وأطول ليل حوالى ١٥ ساعة. ونجدُ هذا المعنىٰ أيضاً، بين معانٍ عديدة في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وميلانُ محور الأرض هذا هو سببٌ لاختلاف طول الليل والنهار، وهو بالنتيجة سببٌ لحدوث الفصول الأربعة.

ولولا هذا الميلان لتساوىٰ الليل والنهار، ولانعدمت الفصول، في كل بقاع الأرض، وفي كل وقت، ولتفاوتت درجات الحرارة بين الليل والنهار بما يؤدي إلى استحالة الحياة على سطح الأرض، ولاختلّ تصريف الرياح وتوزيع السحب والماء.

آياتٌ أخرىٰ

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يٓس: ٣٧].

وفيها تصويرٌ رائع لضوء النهار وهو ينسلخ عن وجه الأرض، فكأنك تنظر إلى وجه كرة الأرض، من بعيد، ينسلخ عنها ضوء النهار، رويداً، في سِحْرٍ أخّاذ.

وأما قول الحقّ تبارك وتعالىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ ﴾ [الزُّمَر: ٥]، فهو آيةٌ بيّنة صريحة على كروية الأرض.

وقوله سبحانه في الآية ٤٠ من سورة يٓس: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾، فيه إشارةٌ إلٰهيّة إلى السُنَن والقوانين التي تنتظم كل المخلوقات ممّا أشرنا إليه سابقاً.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ . وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ [المُدَّثِّر: ٣٣ و٣٤].

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٧ و١٨]

عَسْعَسَ:

الوجيز: عَسَّ: طاف بالليل.

وعَسْعَسَ اللّيلُ: أقبلَ بظلامه.

المنجد: عَسْعَسَ اللّيلُ: أظْلَم. مضىٰ.

الشيخ مخلوف: «أدْبَرَ ظَلامُه، أو أقبل، وهو من الأضداد. وقيل: العسعسةُ رِقّةُ الظلام وذلك في طرفي الليل، فهو من المشترك المعنويّ وليس من الأضداد. والمعنىٰ: أقبلَ وأدبر معاً».

وأقول: إن «عَسعس» هي تكرارٌ لـِ«عَسَّ»، والتكرار في هذه الحالة يفيد تكرار

الفعل، فإنّ في قوله سبحانه (والليل إذا عَسْعَس) إشارةً إلى تجوّل الليل في أطراف الأرض، القطعة منها بعد القطعة، في عملية متكررةٍ مستمرة لا تنتهي. إنّه تِجوال لليل في جهات الأرض لا ينتهي ما دامت الشمس والأرض، فهو يَعِسُّ ويعس، أو يعسعس. وإنّها لَبلاغةٌ إلَهيّة رائعة.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ . وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧ و١٨].

وما وسق: وما جمَعَ وضمّ.

اتّسق: اجتمع وتَمَّ نورُه وصار بدراً، من الوَسْق وهو الجمعُ والضمّ.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤].

سَرَىٰ الليلُ فهو يسري: مضىٰ وذهبَ. ومثلُه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣].

﴿ وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ و٢].

سَجىٰ: سَكَن.

﴿ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٩]

أغْطَشَ ليلَها: أظْلَمَهُ بمغيب شمسها[١].

وأخرجَ ضُحاها: أبرَزَه.

﴿ وَٱلۡفَجۡرِ . وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ [الفجر: ١ و٢].

ليالٍ عشر:

قال مغنية: قيل هي العشر الأوائل من ذي الحجّة، الشهر الأخير من أشهر الحج الثلاثة: شوال وذي القعدة وذي الحجّة.

وقال مخلوف: أقْسَمَ بِعَشْرِ ذي الحِجّة، أو بالعشر الأواخر من رمضان. أو بالعشر الأوائل من المُحَرَّم:

﴿ . . فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً . . ﴾ [الإسراء: ١٢]

---

(١) انظر في إعجاز معناها حاشية الصفحة ٢٩٣.

والنازعاتِ غرقا ـ معانٍ عجيبة

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا .

وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا .

وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا .

فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا .

فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥].

* نَزَعَ عن القوس: رمىٰ عنها.

ونَزَعَت الشمس: جَرَت إلىٰ المغرب.

وتَنْزِعُ إليه: تُسْرِع.

ونَزَعَ: جَذَب.

ونزع أيضاً: حنّ واشتاق، ونازَعتْهُ نفسُه إلى الشيء: دَعَتْهُ إليه.

* غَرْقا: إغراقاً. يقال: أغْرَقَ في الشيء إذا جاوز الحدّ وبالغ، أوغل وبلغ أقصىٰ غايته.

غَرَّقَ في القوس: مَدّها غاية المدّ.

* النّشْط: التهيؤ للعمل والإقبال عليه بخفيّة، والإسراع فيه، مع الرفق والهون.

* السَّبح: الإسراع في الجري في الفضاء من غير اضطراب.

قال الشيخ مغنية والشيخ مخلوف: هي الكواكب.

وقال بعض المفسرين بأن المقصود بالنازعات هو الملائكة، وقالوا غير ذلك.

وأقول:

انظر إلى العَجَبِ العُجاب من دلالة الألفاظ: النزْع، والغرْق، والسبْح، والسبْق، على الجَّري المُبالِغ في السرعة، والغاية في قطع المسافات، بالقوة العظيمة، والنظام المستمر، والجذب والدفع.

وإنّه لَكلامٌ ينطبق على المسافات والسُّرع الكونية الهائلة، لا على سرعاتنا وقياساتنا الأرضية الضئيلة، فتأمَّلْ!

انظر إلى هذه الآيات كيف أنها، كلها، تنطق بالحركة التي بلغت أقصى الغاية في السرعة، وبالفعل، وبالنظام الواحد الشامل، والنَّسَق العام البديع.

ولقد جاءت هذه الآيات في بداية سورة «النازعات»، يعقبها، من غير فاصل، قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وآيات أخرى حول يوم القيامة. وهو أمرٌ يجعلنا نرجِّح الرأي الأول فنقول بأن المقصود بالنازعات هو الكواكب السيارة، وأن الآيات الكريمة تتحدث على يوم القيامة. وقد يكون في ذلك إشارةٌ إلى أن القيامة تصيب المنظومة الشمسية، والله تعالى أعلمُ بمراده.

وأيّاً كان الحال، فإن هذا الحديث الإلّهي المُعجز في دلالته على السرعة، والسبح، والجذب، والدفع، هو حديثٌ عجيب، وعجيبٌ جداً، كيف وأنه قد جاء في زمنٍ لم يعرف الناس فيه شيئاً أسرع من الناقة في البيداء، لا في زمن الطيّارات والصواريخ.

فسبحان الله الذي علّمنا ما لم نعلم.

بين مواقيت الصلاة ومواقيت الطبيعة

﴿.. إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

لا شيء في الكون إلا وهو يسير بتقديرٍ وتوقيت، ونظامٍ وميزان، لا خلل فيه ولا اضطراب، ولا فوضىٰ ولا قُصور.

وإذا كان كل شيءٍ في الكون يسير في هذا النظام المنسَّق البديع، وكذلك جسد الإنسان في خَلْقِه، وتكوينه، ووظائفه التي لا تُعدّ، فلا بدّ من أن يكون الإنسان في سلوكه جزءاً من هذا النظام العام، مُتَّسِقاً معه ومتناغماً، لا ناشِزاً عنه، ولا خارجاً عليه. ولقد بيّن الحقُّ تبارك وتعالىٰ للناس أركان دينهم الحنيف وتفاصيله، وبيّن رسوله الكريم (ص) للناس فرائضه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ومستحبّاته ومكروهاته، كل ذا بسُنَنٍ وطرائقَ مخصوصة ومحدَّدة. ومن ذلك شِرْعَتُهُ، سبحانه، الصلاة للناس، رحمةً بهم وتفضّلاً عليهم، وهي لها أوقاتٌ، وطريقةٌ، وعددُ رَكَعاتٍ مخصوص معلوم، ويتّجه المسلمون فيها، في كل أصقاع الأرض، خَمْس مرّاتٍ في اليوم، نحو قِبلةٍ واحدة هي الكعبة المُشَرَّفة، في مكّة المكرّمة، يُصلّون للواحد الأحد، متجهين إليه بكل جوارحهم ونفوسهم، يعبدونه، ويدعونه، ويسبّحون له، ويحمدونه. وإنّها لَصِلَةٌ روحية عظيمة لا انقطاع لها بالله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، ومالك يوم الدين، والمعبود، والمُستعان، والهادي، وهي، وكما قال رسول الله (ص) كالنهر الجاري يغتسلُ الرجل منه ممّا عَلِقَ به من أدرانٍ وأوزار، لا يبقىٰ منها شيء.

وانظر إلى الصلاة في نظامها، وجلالها، وجمال حركتها، وتناسقها، ولطافتها، ودلالتها على الخشوع، والخضوع لله تعالىٰ. انظر إليها في مواقيتها الخمسة: فجر، وظهر، وعصر، ومغرب، وعشاء، وهي كلها أوقاتٌ تُرينا قدرة الخالق فيما يحيط بنا من الطبيعة التي تتغير معالمها مع هذه الأوقات، بسبب حركات الأرض، وهي يتميّز كلٌّ منها بدلالةٍ خاصة ومذاقٍ خاص. إن أوقات الصلاة تُرينا كم هو الوقت من يوم، وهي تُذكّرنا، في كل وقت، بالخالق سبحانه الذي خلق كل شيء، وخلق الشمس والأرض، وجعل من دوران الثانية حول نفسها أمام الأولىٰ سبباً لهذه المواقيت، ومن غيرما آلةٍ كساعة أو نحوها، لأن الساعة آلةٌ صمّاء تقصر عن بيان ما في مواقيت اليوم الخمسة التي تستعملُ في الصلاة، تقصر عن بيان ما فيها من النور والظلمة، والحرارة والبرودة، والظِّل والحَرُور، والنشاط والكسل، ثم إن مواقيت الصلاة تتغيّر في كل يومٍ عن كل يومٍ سواه. وبكلمةٍ فإن الساعة تقصر عن بيان كل ما يصيب الطبيعة التي تحيط بنا من متغيّرات كثيرة تنطق بالجمال والجلال، وتحكي قدرة الخالق، وصنعه، وكماله، وبهاءه الذي يتجلىٰ فيما قد خَلَقَه فأحسنَ تصويره مِن أناسٍ، وأصنافٍ من الحيوان والنبات، وأشكالٍ في الطبيعة لا تُحصىٰ. كلها جميلٌ يخلب الألباب، ويأسر العقول، ويملأ عليك نفسك بالإحساس بالروعة البالغة، وبذلك الجمال والجلال الذي لا حدّ له، والذي يَلُفُّ الطبيعة كلها، وقدرة القادر التي لا تنفد. إنّ تَغَيُّرَ ما يُحيط بنا من الطبيعة في أوقات اليوم يحكي قدرة الله تعالى في خَلقه، وهو بعضٌ مما يُسَبِّحُ له بلسان الحال. والأرض، وهي تَسْبَحُ حول نفسها وحول الشمس، مما يُسبّب حدوث هذه الأوقات إنّما هي تُسَبِّحُ أيضاً لخالقها الذي أوجدها وأودع فيها حركاتها وصفاتها الأخرىٰ. ولئن كانت هذه الأوقات علاماتٍ على مراحلَ معلومةٍ من سَبْحِ الأرض حول نفسها أمام الشمس وتسبيحها لخالقها، فهي أيضاً تُطابِقُ أوقات تسبيح الإنسان لله في صلواته.

وتتّسم الصلاة، في مواقيتها الخمسة، وفي عدد ركعاتها المعلوم في كل صلاة، ومن وضوءٍ يسبقها على نحوٍ معلوم، تتّسم بالطهارة المعنوية فوق الطهارة

الجسدية، وهي فوق أنها عبادة فإنها رياضةٌ للجسد والروح[1]. والأذان دعوةٌ إلى عبادة الله الواحد القهّار، والإقامة تهيؤٌ بين يدي الله تعالى. فإذا كبّر المُصلّي تكبيرة الإحرام فهو قد صار بين يدي الله وحده، وبكلِّ كيانه، وتَرَكَ كل ما يشغله من أمور الدنيا، متجهاً إلى الله بالتقديس، والطاعة، والخضوع.

والوضوء، فإقامةٌ للصلاة، فتكبيرٌ، فقِراءةٌ للسورتين، فركوعٌ، فسجودٌ، فتكرارٌ لذلك، فتشهّدٌ، فتسليمٌ، كلُّ ذا نظامٌ، وسكينةٌ، وجلال. وإنّها لتدريبٌ للإنسان على طاعة ربّه، وعلى النظام، وعلى قوّة الإرادة في أن تحمل نفسك على ما يُراد منها من الواجبات، وعلى الابتعاد عن كل ما في الدنيا من دنايا، ولهوٍ، ولغو، وعلى الاتجاه بقلب الإنسان إلى الله تعالى وحده بالدعاء، والحمد، والتسبيح، والاستغفار، والتكبير، والتهليل، وبالركوع، والسجود. هو تدريبٌ جسدي وآخرُ نفسي. تدريبٌ على الطاعة، وعلى الابتعاد عن كل مُنكَرٍ وقبيح، ما بدا منه أو وَقَرَ في القلب، وهو تدريبٌ على الخشوع لله تعالى في عالمٍ قُدْسِيٍّ روحيّ جميل، لأنك تكون، حينئذٍ، في رِحاب الله وحده، خالقك، وبارئِك، وحافظك، وعارف سرّك وعلانيتك، ومُنَجِّيك، ورازقك، ومُشفيك، وموفقك، والمنعم عليك، ومُحييك،

---

(١) اكتشف العلماء أن خلايا معيّنةً في الدماغ تقوم بإفراز مادة كيمياوية بكمياتٍ ضئيلة تفعل فيه فعل السِّحر، وهي يُشابه تركيبها مادة «المورفين»، وهي مثلها مثل غيرها ممّا يُفرز في الجسم من مواد، يتغير إفرازها صعوداً وهبوطاً على الدوام والاستمرار، استجابةً لحاجات الجسم للحفاظ عليه في أحسن حال. تؤدي هذه المادة إلى الشعور بالسعادة، والرِّضا، واللياقة العالية. ولقد أُسميت هذه المادة بـ«الإندورفين» (Endorphine)، أي «المورفين الداخلي». إن هذه التركيزات الضئيلة والمتغيرة هي غير ما قد يحدث، بالطبع، من تناولٍ للمواد المشابهة لها، إذ هي تظلّ ضمن حدودٍ طبيعية ضيّقة رسمها الخالق سبحانه لجسم الإنسان. ولقد لوحظ أن التمارين الرياضية تزيد من إفراز هذه المادّة، مما يتسبّب عنه الشعور بالسعادة والمعنويات العالية التي يشعر بها المتمرّن. ولا ريب في أن التمارين الرياضية أهمُّ ما يُطلَبُ فيها الانتظامُ فيها والاستمرار عليها، ولا أرى كالصلوات من رياضةٍ منتظمة للجسد يؤديها المرء الوقت بعد الوقت، واليوم بعد اليوم، والعام بعد العام، بل العمر كله. وإنها لَتكادُ تشمل في حركاتها مفاصل الجسم كلها، بل كل حركات هذه المفاصل. فأَعجبْ لها من رياضةٍ تشمل الجسم كله العمر كله. وليست حركةٌ في رضاً، وسعادةٍ، وسكينةٍ، واطمئنانٍ، بين يدي الخالق سبحانه، كحركةٍ متوتّرةٍ، جامحةٍ، متهيجةٍ، في الإثم، بعيدةٍ عن الله تعالى، قريبةٍ من الشيطان. إنهما حركتان مختلفتان لا تلتقيان.

ومميتك. وأنت له وحده تُصلّي، وتركع، وتسجد، وتتهَجَّد، وله وحده تخشع، وتذلّ، وتستغفر، وتناجي، وتدعو، وتتوسل، من دونما أي حاجزٍ على الإطلاق، إذ إنك في حضرته العُلوية، ومملكته التي لا تُضام! فيا له من جمالٍ رائع، ويا لها من سكينةٍ طاغيةٍ في النفس، وطُمأنينةٍ عذبة آسرة، ورضاً في القلب ما بعده من رضاً ينفثه في روحك ربُّك الرحمن الرحيم. وأما وقد صرتَ على هذه الحال من السكينة، والطُمأنينة، والرضا، والخشوع، في حضرة خالقك وإلّهك، فلقد صارت لديك إذاً قوّةٌ طاغية، قوة التحرّر من كل عبوديةٍ للناس، وجهلٍ، وخوف. قوّةٌ تستمدّها من الله تعالى وحده وأنت بين يديه.

الصلاة هي ابتعادٌ بالنفس عن كل أحد، وكل شيء، بل عن الدنيا كلها، واتجاهٌ بكل ذات المرء إلى الله، من دونما عبوديةٍ لأحد إلاّ الله، ومن دونما رقيبٍ إلاّ هو، ومن دون التملّق، والتزلّف، أو المُداراة، والمداورة، ممّا يطبع أعمال الناس مع الناس، فهي تؤدي بالتالي إلى الإخلاص، وهو أجلُّ ما يرتفع من أعمال المرء إلى الله، وهي تطبع ضميره وسلوكه بالأمانة، فلا يعود بين الناس وحشاً كاسراً في ثياب حِملان، فينعم المجتمع كله.

إنّ الصلاة في مَظهرها، وحركاتها، ومحتواها، ونظامها، وجلالها، وجمالها، وتناسقها، وتكرارها البديع لهي انسجامٌ مع سنن الطبيعة وقوانينها التي تنتظم كل ما في الوجود:

﴿. . وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ. . ﴾ [الإسراء: ٤٤]

﴿. . كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ. . ﴾ [النور: ٤١]

ويلٌ للمُصلّين

والمُصلّون يعلمون أنهم كلما اطمأنوا في صلواتهم، واستحضروا أذهانهم لا تشْردُ عما يقولونه بألسنتهم، وخشعوا فيها، واستغرقوا في ذلك الملكوت القدسيّ

الجميل، كلما اقتربوا من الله تعالى ورحمته. وإن الصلاة، على هذا النحو، لهي أكبر مدرسةٍ لتدريب المرء على حصر الذهن ما بعدها من مدرسة. ولقد وجب على المُصلّي أن ينصرف بكل كيانه إلى الله تعالى. والذين يَسْهون عن صلاتهم، وسواءٌ أكان ذلك من الجانب الماديّ، بتأخيرها، أو من الجانب المعنوي، بعدم استحضار الذهن والقلب والتركيز فيها، يخسرون منها روحها وجوهرها، كيف وقد قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ.

ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ و٥]

وقال: ﴿. . وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ. . ﴾ [النساء: ١٤٢].

وهاك صفاتٍ جليلة من صفات الذين أنعم الله عليهم من المُصلّين:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ.

ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١و٢].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

خَشَعَ: خَضَع، ذَلّ، انخفض صوته، رمى ببصره نحو الأرض وغضَّه. وخَشَع لربه: استكانَ وركَعَ. وخَشَعَ صوته: انخفضَ وسكنَ. وخشع بصَرُه: انكسر. وخَشَعَ الشيءُ: سَكنَ.

لربهم خاشعون: أي متذلِّلون لله تعالى بطاعته، والقيام فيها بما أمرهم به، مع خوف القلب وسكون الجوارح.

وَلَذِكْرُ الله أكبر- أكبرُ من ماذا؟

﴿.. إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال مخلوف: (ولَذِكْرُ الله أكبر) أي مِنْ كل شيء. أو لَذِكرُ الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. أو لَذِكْرُ العبدِ تعالى أكبرُ من سائر أعماله.

وقال مغنيّة: (ولذِكر الله أكبر) أي ذِكرُ الله تعالى للمصلّي بالرضا والأجر أكبر من ذكر المُصلّي لله في قيامه وقعوده وركوعه وسجوده، ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأقول: إنّ من فوائد الصلاة التي ذكرها تعالى أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهو أمرٌ مُهمٌّ بالغ الأهمية والأثر في الفرد والمجتمعات.

إلاّ أن ذِكْرَ الله سبحانه وتعالى في الصلاة هو أكبر وأعظم في قدره، وأثره، وجلاله، من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

فانظر إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ في الآية أعلاه، ثم انظر لقوله تعالى: ﴿.. وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، تعرف أن الغاية الأكبر من الصلاة هي ذِكْرُ الله تعالى، كيف وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وكذلك فإن بيوت الله إنما هي، بالأساس، لِذِكر الله تعالى، وذكره كثيراً: ﴿.. وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ ..﴾ [الحج: ٤٠].

مَكّة مركزُ الأرض

شبه الجزيرة العربية هيِ مهد الإسلام منذ زمن أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ . .﴾ [الحج: ٧٨] (١).
وتقع مكّة المكرمة في الوسط منها، وفيها بيت الله الحرام الذي يتوجه نحوه مسلمو العالم كله بالصلاة ويقصدونه للحَجّ والعُمْرة.

وتتميز شبه الجزيرة العربية بميزاتٍ فريدة.

وهي إذا كانت تقع في الجنوب الغربي من قارّة آسيا، فهي ملتقىً لقارّاتٍ ثلاث هي آسيا، وأوروبا، وإفريقيّة.

ومِن عَجَبٍ أنك لو نظرتَ إلى صورةٍ للكرة الأرضية لرأيت شبه الجزيرة العربية تنفصل عن كلٍّ من هذه القارّات الثلاث على نحوٍ بيّن يجعلها تبرز متميّزةً متفرّدة عن كل ما يحيط بها من أصقاع الأرض.

وهي تقع في القلب ما بين هذه القارّات الثلاث، أي في وسط «العالم القديم»، فهي تكاد تتساوى أبعادها عن أطراف هذه القارّات.

وهي يفصلها عن كلٍّ منها برّ وبحر. فهي يفصلها عن قارة آسيا: إيران، والبحر

(١) إبراهيم (ع) هو أبٌ حقيقي للأنبياء، وروحي لأهل الأديان، لاتّفاقهم على نبوّته وتعظيمه. قال الشيخ الطبرسي: «إبراهيم أبو الأمّة لأن العرب من ولد إسماعيل، وأكثر العجم ـ أي غير العرب ـ من ولد إسحق».

ولقد جاء ذكر تسمية إبراهيم (ع) لنا بالمسلمين في الآية ١٢٨ من سورة «البقرة»: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ . .﴾.

العربي. وعن أوروبا: شمالي شبه الجزيرة (العراق والشام وتركيا)، والبحر الأبيض المتوسط، وعن إفريقية: سيناء، والبحر الأحمر.

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية، ومكّة بالذات، تقع إلى الشمال من خطّ الاستواء بقليل، فإننا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن معظم يابسة الأرض يقع في نصفها الشمالي، وأن معظم مياه المحيطات يقع في نصفها الجنوبي، فإن شبه الجزيرة العربية، ومكّةُ في وسطها، تصير في الوسط ما بين شمالٍ وجنوبٍ ليابسة الأرض.

وإذا كان بُعدها عن حدود آسيا الشرقية قريباً من بُعدها عن حدود إفريقية الغربية، وبُعدها عن المحيط الهادىء قريباً من بُعدها عن المحيط الأطلسي، فإن الأمريكيتين تقعان مقابلها بالضبط على الجهة الأخرى من الكرة الأرضية.

إن شبه الجزيرة العربية، وفي الوسط منها مكّةُ المكرّمة، ومثلما هي منفصلةٌ عمّا سواها من أراضي القارّات متفرّدةً متميّزةً عنها، فإنها تقع في المركز من «العالم القديم»، بل ويابسة الأرض، وهي يتوجه نحوها المسلمون من كل بقاع الأرض بالصلاة خمس مرّاتٍ في اليوم، ثم هم يشدّون الرِّحال إليها من كل حدبٍ وصوب في كل عامٍ بالحج والعمرة.

إنها مركزٌ حقيقي في الوسط من الأرض لسكّان الأرض كلهم، في صلاةٍ وحج، في دوائرَ مستمرّة تُحيط بها ويلي بعضُها بعضاً، في صلاةٍ كما في طواف. ولقد تطابق موقعها المركزي بالمحبة والإجلال في أفئدة المسلمين مع موقعها بالأهمية في عبادتهم لله تعالى ومع موقعها الماديّ المركزي على الأرض، كيف وأنها تحكي، وكما أثبتنا، كلّ ما في الكون، ما صغر منه وما كبر، وبكل تفاصيله.

وإن مركزية مكة، والبيت الحرام والكعبة المشرّفة في القلب منها، في حياة المسلمين، بل والعالم أجمعين، هي لَعمري حقيقةٌ قد عرفها وعاشها المسلمون منذ زمن أبي الأنبياء وحتى خاتم الأنبياء محمدٍ (ص) والمسلمون من بعده.

إنها مركزٌ لأهل الأرض كلهم، وهي رمزٌ على التوحيد مثلما هي رمزٌ على

وحدة المسلمين. ثم إنّها إشارةٌ لا تُخطِىء على أنّها المركز الحقيقي، أو القبلة الوحيدة، التي لم يتوجّب على أهل الأرض كلهم أن يتوجّهوا إليها بالعبادة لله وحده.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ.

الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٣و٤] صدق الله العظيم.

ولئن كانت قريش أولى الناس بأن يوحّدوا ربّ البيت والعالم أجمع، ويُفردوه بالتعظيم والتنزيه، فإن هذه السورة تُخاطب الناس جميعاً بالأمر بالعبادة حمداً لله وشكراً. ولِمَ؟ إنها أولاً تلبيةٌ لحاجاتهم المادية بالمأكل وغيره، وهي ثانياً تلبيةٌ لحاجاتهم النفسية والروحية بالأمن والسلام، إذ إنّ هذين جانبان، بل عمودان، لحياة الإنسان لا تقوم على أحدهما من دون الآخر.

نظامٌ وجمال
في كلِّ مكانٍ وزمانٍ في الكون

لو تصادف أنك رأيت، في مكانٍ ما، في زمنٍ ما، مزرعةً صغيرة، أو أحجاراً على شكل كوخٍ صغير بسيط، يُريك الواحد منها نظاماً واتّساقاً، وجمالاً وسحراً، فإن المصادفة البحت قد تكون هي السبب في حدوث مثل ذلك، في مكانٍ وزمانٍ بعينهما.

لا مكان للمصادفة في وجودهما
بل هما آيةٌ على صنع الصانع وخلق الخالق

لكن العلماء يقولون بأن وجود النظام، والجمال، عامَّيْن، شامليْن، مستمرَّيْن، في الكون كله، فإنّ ذلك يدلّ، لا محالة، وبالبداهة على صُنع الصانع، وتنظيم المُنظِّم، وإبداع المُبدِع.

وأنْ ترى التدبير المُتقَن، والسُّنَن المحكمة التي لا حياد عنها، والجمال الرائع، والنظام الفائق، تسود الكون كله، فَلَعمري لإنّه الدليلُ الذي لا يُنقَض على قدرة القادر، وخَلْق الخالق، مِنْ إلَهٍ واحد في ملكوته الذي لم نعرف له حدوداً في الزمان والمكان.

جاء في كتاب «العالم في منظوره الجديد»[1]:

---

(١) لروبرت أوغروس وجورج ستونكيو (١٩٨٤)، وأحدهما متخصص في فلسفة العلم، والآخر رئيس كلية الرياضيات والعلوم في إحدى الجامعات الكندية. ترجمه الدكتور كمال خلايلي. والهدف الذي =

«إننا جميعاً نحسّ بالنفور من إيديولوجية لا ترى الوجود، وهي تغرس في النفوس اليأس الدائم (ويقصد الإيديولوجية المادّية). أمّا جاذبية النظرة الجديدة المضادّة للمادية، فهي تستبدل بهذه القسوة الفظيعة غائيّة ـ أي ـ غاية ـ الوجود وخالق الكون والجمال والثروات الروحية وكرامة الإنسان.

وترى النظرة العلمية الجديدة أن الكون بمجموعه ـ بما في ذلك المادة والطاقة والمكان والزمان ـ حَدَثٌ وقع في وقتٍ واحد، وكانت له بداية محدّدة، ولكن لا بدّ من أنّ شيئاً ما كان موجوداً على الدوام، لأنّه إذا لم يوجد أي شيء من قبل على الإطلاق، فلا شيء يمكن أن يوجد الآن، فالعَدَم لا يُنتج إلاّ العَدَم. والكون الماديّ لا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذي كان موجوداً على الدوام، لأنه كان للمادّة بدايةٌ، وتاريخ هذه البداية يرجع إلى ما قبل ١٢ إلى ٢٠ مليار سنة، ومعنى ذلك أنّ أيَّ شيء وُجِدَ دائماً هو شيءٌ غير ماديّ. ويبدو أنّ الحقيقة غير الماديّة الوحيدة هي الخالق، فإذا كان الخالق هو الشيء الذي وُجِدَ دائماً فلا بدّ من أن تكون المادة من خَلْقِ خَالِقٍ أزلي الوجود، وهذا يُشير إلى وجود خالقٍ أزلي خَلَقَ كل الأشياء، وهذا الخالق هو الذي نعنيه بعبارة «الله».

إن خواصّ المادة تبدو ملائِمةً للحياة ملاءَمَةً فذَّة، بل إنّ حدوث أدنى زيادة أو نقصان في الكمية الثابتة يجعل من الحياة في كل حالةٍ أمراً مستحيلاً، وهو ما يدلّ على العناية المستهدَفة ـ لا على المصادفة.

والنظرة العلمية الجديدة لا تقتصر على تأكيد أوّليَّة (الخالق) للكون، بل هي تؤكِّد أيضاً أنّ الجمال جزءٌ من بُنية العالَم.

= يرمي إليه المؤلفان حسب قول مترجمه هو «هدم أركان الماديّة العلمية، تلك النظرة الكونية التي استهلت في مطلع القرن ١٧ واستمرّت إلى العقود الأولى من القرن الـ٢٠، ثم إثبات وجود الله تعالى وبيان الحكمة والغاية من إبداع الكون وخلق الإنسان، وذلك بالاستناد إلى النتائج التي انتهى إليها أقطاب العلماء والباحثين والمعاصرين في مجالات الفيزياء والكوزمولوجيا (الكون) وبحوث الأعصاب وجراحة الدماغ وعلم النفس الإنساني. وقد سمّى المؤلفان المذهب المادّي النظرةَ العلمية القديمة، وأسميا نتائج أبحاث واكتشافات الفيزياء الحديثة والكوزمولوجيا الحديثة، النظرة العلمية الجديدة».

هناك، دائماً، عقلٌ مسؤول عن جمال الطبيعة، وهذا الخالق القائم وراء الطبيعة يُطلِق عليه كل الناس اسم الله.

والبشر يلحظون يد الله من ندفة الثلج، ومن غروب الشمس، وفي حقل الأعشاب، وعظمة الجمال تحملُ توقيع الله الذي لا تَشْبهَةَ فيه. يقول «توماس مان»: الجمال وحده إلَهيٌّ ومرئيٌّ في آنٍ معاً. أمّا «أمرسون» فيقدّم لنا النصيحة التالية: إيّاك أن تُفَوِّت أية فرصة لمشاهدة أي شيءٍ جميل، لأنّ الجمال خُطَّ بيد الله، إنه قُدّاسٌ يُقام على جانب الطريق. رَحِّبْ بالجمال في كلِّ سماءٍ صافية، ومن كلِّ زهرةٍ جميلة، واشكر الله على ذلك، إنّه كأس بركة.

وهكذا ففي النظرة العلمية الجديدة نجد أنّ أصل الكون وبُنْيَتَهُ وجماله تُفضي جميعاً إلى النتيجة نفسها، وهي أن الله واجب الوجود»[1].

إن كل المخلوقات، من حيوانٍ ونبات، توحي بالجلال، والاحترام لها، وبالجمال، وكمال الخَلْق، وهي تبدو «مبرمجة» أو مخلوقةً هكذا، لا تحيد عن ذلك. فهل قد رأيتَ طيراً لا يبني عشّه أو يُطعِمُ فراخه؟ أم رأيتَ حيواناً لم يهبه الله الذكاء والمقدرة على تحصيل رزقه، أو الدفاع عن نفسه؟ حقّاً إنّ هذه المخلوقات لا تعرف الهزل، فهي جدّيَّةٌ ولكن في وداعة، غريبةٌ ولكن في جمال، وبسيطةٌ ولكن في جلالٍ آسِر. إنّ كلاًّ منها تسير على الطريق التي اختطّها الخالقُ لها طائعةً ملبّيةً، وهي تسبّح بحمد ربّها كلها. إنها لا تعرف الكذب أو المصانعة، بل هي متّسقةٌ مع نفسها ومع ما حولها، بل ومع الكون جميعاً، في تناغمٍ عجيب وجمالٍ بديع. فتعالى الله «الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين، والباطن بجلال عزّته عن فكرة المتوهمين».

---

(١) واجب الوجود: هو الذي يكون وجوده من ذاته، وهو الله عزَّ وجلَّ.

ظهر الفساد في البر والبحر

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤١ و٤٢].

لماذا ذكر الحقُّ تبارك وتعالى هنا البرّ والبحر، ولم يذكر الجو؟

لأن الإنسان، وسواءٌ أكان على سطح الأرض أو البحر، إنما هو في داخل الغلاف الجوي في جميع الأحوال، وهو لو حُرِم منه ٥ دقائق لمات. فيصير الحديث هنا حديثاً على الجو أيضاً.

والفساد كلمةٌ عامّة شاملة. وهو، لغةً، كل خللٍ، وضرر، واضطراب، وتلف. وبكلمةٍ، هو كل ما كان ضد الصلاح والمصلحة. قال المفسرون إنه الجدب والمُوتان والغلاء، وكثرة الحرق والغَرَق، وقلة الصيد، وكساد التجارة، ومحو البركات، وقلة المنافع، وكثرة المضارّ، وتسلّط الأعداء، وما إلى ذلك. وأقول: هو كلمةٌ جامعة لكل ما ذكرناه وغيره كثير كثير، مما لم يعرفه الإنسان طيلة العصور السابقة وعرفناه نحن، واأسفاه، في العصر الحديث.

* وفساد الأرض، بنصّ الآية، نتيجةٌ لأعمال الناس، وهو عقابٌ من الله تعالى لهم على معاصيهم، فهو «سوطٌ» يؤدبهم به ويوقظهم من غفلتهم حتى يتوبوا ويعودوا إلى الله. ولقد ذكر تعالى، في الآية الثانية، الشِّرْكَ أكثر ما يكون سبباً للفساد، ذلك لأن الناس صاروا يعبدون آلهةً عديدة. وأنْ يكونَ لك ربٌّ معناه أن تطيعه وتعبده، لكنّ الناس صاروا يطيعون نظراءهم وأهواءهم وشهواتهم بدلاً من ذلك، فكأنها

صارت آلهةً يعبدونها مشركين، وذلك هو أصلُ كل مَفْسَدةٍ في الأرض.

* ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ . . ﴾ [الجاثية: ٢٣]

* ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ . . ﴾ [القمر: ٣].

* ﴿ . . وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

* * *

* يمكن أن يكون الفسادُ ماديّاً، وهو يصيب الإنسان أو البيئة التي تحيط به من حيوانٍ ونباتٍ وجماد، في البر والبحر والجو.

ومن ذلك الحوادث، والأمراض، والأوبئة التي تصيب الإنسان، وانتشار الأمراض الناجمة عن الموبقات، وعن الابتعاد عن التقوى والفضيلة، كمرض نقص المناعة المكتسب «الأيدز»، والتهاب الكبد الفيروسي (ب) و(ج)[1]، وغيرها من الأمراض التناسلية كالزُّهري «السفلس»، والسَّيَلان، وغيرهما، وهي أمراضٌ انتشرت انتشاراً خطيراً، لكن «الأيدز»، ذلك القادم الجديد إلى الساحة، هو أخطر، وبما لا يقارن، من كل وباءٍ عرفه التاريخ.

ومنه تعسّر الحياة، وتقطّع السُّبُل، وقلة الأرزاق، ونقص الموارد.

ومنه الاختلافات، والنزاعات، والهزاهز، والحروب.

ومنه استخدام الأسلحة الفتّاكة، «ميكانيكيةً»، و«نووية»، و«كيمياوية»، و«جرثومية»، و«أسلحة ليزر»[2].

---

(١) Hepatitis (B) and (C).

(٢) كتب مجلة «أمراض العيون الأمريكية»، في مقالةٍ تحت عنوان «أسلحة ليزر مصمّمةٌ لتسبيب العمى»، تقول: «يهدف هذا المقال إلى أن يجعل أطباء العيون، والمجتمعات، في كل أنحاء العالم، على علمٍ بوجود أسلحة لليزر تسبب الإصابة بالعَمى، وإلى أن يضغطوا، وبإلحاح، على الحكومات، لاستعمال القانون العالمي وكل تأثيرٍ ممكن لكل دولة، لمنع تصميم، وصنع، واستخدامِ الأسلحة التي =

ومنه اضطراب التوازن في الطبيعة بما يخلّ بحياة الأحياء فيها، بدلاً من التوازن والتناسق البديع الذي أوجده سبحانه في سُلَّم المخلوقات.

ومنه تلوث البيئة الذي وصل أبعاداً خطيرة تهدّد صحة الإنسان وحياته تهديداً فعلياً، ومنه ما هو ناتجٌ عن سوء استخدام مصادر الطاقة والثروة، والإسراف الشنيع فيها، ومنه ما هو ناتجٌ عما لا يُحصى من المركّبات الكيمياوية المصنّعة[1]، ومنه ما هو متسببٌ عن استخدام الأسلحة ذات الدمار الواسع، وهي يُخزَن منها اليوم ما يكفي لمحو الحياة من على سطح الأرض مرّاتٍ ومرات. والتلوث، بالأبعاد الخطيرة التي أشرنا إليها، موضوعٌ حديث، إذ لم يحدث في تاريخ البشرية كله أن قد لوّث الإنسان الكوكب الذي يعيش عليه مثلما قد فعلنا في العقود القليلة المنصرمة.

* ثم إن الفساد قد يصيب الإنسان هو نفسه، في فكره وروحه. فلقد انتشرت الأمراض والعلل النفسية، وصارت أعراضها كالقلق، والخوف، والرُّهاب «الفوبيا»، والكآبة، والوسوسة، وإدمان الخمور والمخدرات، والأوهام، والخيالات،

= لا هدف لها إلاّ تسبيب العمى الدائم في كلتا العينين». ويقول كاتب المقال إن أسلحة الليزر المحمولة باليد قد تمّ صنعها فعلاً، وهي يمكنها أن تسدّد على مسافاتٍ تزيد على الكيلومتر الواحد، حيث يصل قطر إشعاع الليزر، على هذه المسافة، إلى أكثر من متر واحد، وهو «ما يجعل من اليسير صدم العين ولو من زاوية مائلة». تسبب أسلحة الليزر تلف الشبكية والنزيف، مما يسبب عمىً لا يمكن الخلاص منه بعدئذ. ويقول الكاتب إن العواقب التي تصيب البشرية من جرّاء هذه الأسلحة هي أكبر بكثير من أية فائدة عسكرية يمكن الحصول عليها منها، ولذا فإن مثل هذه الأسلحة تشكّل مخالفةً فاضحة للقانون العالمي.

Am. J. Ophthalmol. (1993); 116: 370-1

(١) إن استخدام المبيدات الحشرية المتعاظم مثالٌ بسيط على ما نقول، وهي سمٌّ زُعافٌ للإنسان. هي تذهب، من خلال التربة إلى مياه الأرض ثم إلى بحارها، فتلوثها. وإذا كان في الإمكان قتل الجراثيم في الماء بغليه أو بإضافة المعقمات إليه، فإن من العسير جداً استخلاص هذه السموم للخلاص منها. ثم إنها تلوث لحوم الأحياء المائية وتزيد تركيزاتها فيها أضعافاً مضاعفة عن تركيزاتها في الماء، فتصير هي أيضاً مصدراً خطراً لتسمم الإنسان. وانتشار مقاومة الحشرات للمبيدات جعل الإنسان يصنع مركباتٍ غيرها جديدة لا تلبث هي الأخرى أن تصير من مصادر التسمم.

لا بل إن الأطباء يعلمون أن هناك، آلافاً من المركبات التي يمكن أن تسبب السرطان، وهي يطلق عليها اسم «المُسَرْطِنات» أو «المواد المُسَرْطِنَة» (Carcinogens).

والانتحار، صارت شائعة. وكذلك انتشر ما يعرف بـ«الشخصية المعتلّة اجتماعياً» (Sociopathy, Psychopathy)، وهي ما أُفضِّلُ أن أطلق عليه الوصف القرآني «مرض القلوب»، أي الأفئدة والعقول، فانتشر الانحراف، والسرقات، والاختلاسات، والنصب، والاحتيال، والغش، والقمار، والتدليس، والتجارة الحرام. وانتشر معها الكذب، والحسد، والحقد، والنفاق، والتخريب، والأذيّة لا لغايةٍ إلاّ من أجل الأذيّة وحدها.

ولقد انتشرت عصابات الشر، وتغلغلت في أصقاع الأرض. وما هي، غالباً بالعصابات، بل هي أقرب إلى الحكومات الخفية التي تهيمن على مقدّرات ومصائر الأمم والشعوب، من خلال سيطرتها على دواليب المال والإنتاج، وتجارة المخدرات والرقيق الأبيض، وما إليها من صنوف الإغواء الشيطاني.

ولقد انتشرت الأفكار والنظريات الفاسدة، أو بالأحرى «الموضات» الفكرية العقيمة، والنفعية، والانتهازية، والاضطهادية، والعنصرية، والعبثية، والضياع، والأنانيّة، وحب المظاهر الجوفاء الكاذبة انتشاراً كبيراً.

وفي وسط كل هذه النكبات، والأوبئة، والموبقات، والجرائم، والحروب، والتلوث، والتي تحدث في ظل «التقدم»، تزداد معاناة الإنسان في هذا المصطرع الرهيب، وهي في أساسها متسببة، وكما قد ذكرنا، عن اتباع الهوى، وعن الجهل والظلم، عن جهل الإنسان نفسَهُ وربّه، وعن ظلمه لنفسه ولأخيه الإنسان.

إن ما نراه اليوم من فسادٍ مُسْتَشْرٍ على مختلف الأصعدة قد فاق كل توقع. وكثير من مما تنشره وسائل الاتصال المقروءة، والمسموعة، والمرئية بالخصوص، قد خلخل من أركان الأسرة وقيمها. وإنك لترى الكثير من الناس سادرين في غيّهم، ماضين في آثامهم، لا يلوون على شيء، أو هم لا يشعرون بما يُراد بهم، أو لا يكادون أن يهتموا لكل ذلك في شيء.

والفسادُ في الأرض سببٌ لفساد الإنسان، لأن الأخير ليس معزولاً عمّا حوله،

بل هو يؤثّر ويتأثر، وفساد الإنسان سببٌ رئيسي لفساد غيره، إلا أن الحديث على فساد بعض الناس هو أقل بكثير من الحديث على فساد الأرض، كيف وأن الكثير ممن يتحدثون على فساد الأرض هم أنفسهم مصادر للفساد والإفساد؟

إن ما تواجهه البشرية من الأوصاب المتلاحقة نتائجُ طبيعيةٌ لما يرتكب في العالم من موبقات، وعن البعد عن الله تعالى، باسم الحرية التي صارت في حقيقة الأمر عنواناً على التحلّل والخروج على القيم الرفيعة. ولقد صار الناس، أكثر الناس، لا يتورعون عن مقاربة «الحرام» أو مقارفته، عياناً جهاراً، لا يستحيون منه، بل ترقص أفئدتهم له طرباً! لا بل هم يولّون «الحلال» ظهورهم. ولقد اضطربتُ المقاييس اضطراباً عظيماً واشتبهت على الناس أو غابت، حتى صار الخيرُ شرّاً والشرُّ خيراً، لا بل إن بعض الناس ليكره أن يسمع كلمة «حلال» أو «حرام»، وهو قد يتمنى أن لو لم تكن مثل هاتين اللفظتين في قاموس. كل ذا كراهيّة أن يُعرَف الحق من الباطل، أو حتى لا يقال عنه ما قد يُقال.

إن هذه المصائب والآلام هي من فعل الإنسان نفسه، والله تعالى يقول:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ .
وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ .
وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ .
إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .
أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠ ـ ٣٤].

يوبقهن: يهلك أصحابَ السفينة بما كسبوا.

إن ما في الأرض من ظلمٍ، وبؤس، وانحطاط، وفساد، إنما هو من صنع الإنسان وأنظمته الفاسدة التي اصطنعها، لا من صنع الله العادل ولا من شريعته الحنيفية السمحاء، والله تعالى يعفو عن كثير مما تجترحه أيدي الناس، ونصّ الآية ٥٣ من الأنفال يبين أنه سبحانه لا يُزيل نعمةً إلاّ من بعد أن تتغير أنفس الناس نحو السوء:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ . .﴾ [الأنفال: ٥٣].

ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿ . . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن عجب أن الآيتين قد ذكرتا مَنْ تزولُ نعمتُه بصيغة الجمع، لا بصيغة المفرد، دلالة على الخطر العظيم للأمراض التي تتفشى في المجتمعات، لا مرض الأفراد.

إنّ الله تعالى لا يغيّر نعمةً أنعمها على عباده إلاّ من بعد أن يغيروا ما بأنفسهم، بالكفر بأنعم الله، وبالضلال والظلم، وإنّه لا نجاة لهذه البشرية المعذبة إلاّ بأن تصحو لنفسها وتنتبه إلى ما هي فيه من ابتعادٍ عن السبيل القويم، ثم هي تصير إلى مداواة جراحها بالإقبال على الله تعالى، ومجاهدة النفس، والابتعاد عن مقارفة السوء.

قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ.

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٦].

وقالوا قد مسَّ آباءنا الضرّاء والسرّاء: قال الذين كثروا مالاً ورجالاً لأنبياء الله ورسله: ما نحن فيه من نعمةٍ ورخاء هو من صروف الدهر وتقلّب الأجيال، لا من الله، وعلى هذا الأساس مرّ أسلافُنا بخيرٍ وشرّ، وخصبٍ وجدب. (فأخذناهم بغتةً)

فجأةً فلا سبيل لهم للتوبة والخلاص مما حاق بهم (ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون): أهملوا شريعة العدل والحياة، وأخذوا بشريعة البغي والضلال فشربوا من منهلها.

١ ـ يمتحن تعالى الناس **بالبأساء والضرّاء** لعلهم يرجعون إليه ويتضرّعون تائبين مستغفرين من ذنوبهم وكفرهم.

٢ ـ فإن لم يرجعوا عن غيِّهم أغدق عليهم من **نعمه** الكثير فاغتَنَوْا وتنعّموا، ولكنهم بدلاً من أن يتجهوا إلى الله تعالى بالعبادة والشكر يقولون: إن ما يصيبنا من خيرٍ وشر هو مثل ما قد أصاب آباءنا من قبل، إذ هكذا هي الأيام. ولقد فات هؤلاء أن في ذلك استدراجاً لهم بعد أن ابتعدوا عن الله تعالى، ومثلما هم قد فشلوا في الامتحان الأول فشلوا في الثاني، فظلّوا سادرين في غيّهم من بعد أن فتح عليهم تعالى أبواب نعمته استدراجاً لهم وليزدادوا إثماً، حتى يأخذهم بغتةً بما كانوا يكسبون.

ولله الأمرُ مِن قبلُ ومن بعد.

آياتٌ من سورة

«القمر»

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

ما من شيءٍ في الكون إلاّ وقد خلقه سبحانه بأصولٍ وتقدير، وحدودٍ وتدبير، فهو مقرَّرٌ محكم. ويعيننا على فهم الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿.. وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، أي هيّأهُ لِما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به، تهيئةً بديعةً بحكمته وَفقَ إرادته.

﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠].

أي وما أمرُنا في الخلق إلاّ كلمة واحدة، وهو قول: (كُنْ).

وفي قوله تعالى: ﴿ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾، الكاف: للتشبيه والتقريب. واللمح: النظر بالعَجَلة. فإذا أراد المولى أمراً فإن ذلك يكون فوراً.

والتشبيه هنا هو للتقريب للعقول، حيث إن الحق سبحانه قد شبّه نفاذ أمره بأسرع شيءٍ نعرفه في الكون طُرّاً، وهو الضوء[1]، وليس قصده أنه يحدث بسرعة مسير الضوء فعلاً، وهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) وكذلك فإن «البُراق» الذي حمل رسول الله (ص) في الإسراء والمعراج قد أخذ اسمه من أكثر شيءٍ نعرفه سرعةً في الكون، وهو البرق، أو الضوء.

وهكذا يبيّن الحقُّ تبارك وتعالى:

١ ـ عظيم مقدرته على كل أمر.

٢ ـ وأنّ نفاذ أمره هو أسرعُ ما يكون، بل هو يَنْفُذُ فوراً.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٥١].

ثم إنه سبحانه يخاطب الكفّار بأنه قد أهلك أشباههم وأسلافهم في الكفر من الأمم السابقة، وهو تخويفٌ لهم وتحذير من أن يصيبهم بمثل ما أصاب أولئك، فهل من مُدَّكِرٍ، أي متذكِّرٍ، يتّعِظُ بهم من قبل أن يُتَّعَظَ به هو نفسه؟

وإذا كان المُهدِّدُ هو الحقُّ سبحانه، وهو القادر على كل أمر، وإذا كان أمرُهُ كلمحٍ بالبصر، فإن ذلك أدعى إلى أن يتّقيَ الله عبادُه ويخافوه، ذلك وأنّ الأمثال حاضرة ماثلة لمن يريد الاعتبار.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٥٢].

الزُّبُر: الكُتُب.

كل ما فعله ويفعله الإنسان مكتوب ومحفوظ في صحيفة أعماله التي يكتبها الحَفَظَة، فلا مفرّ له منه أبداً، ومثلما أن أعمال الكافرين السابقين مكتوبةٌ مسطورة محفوظة، وسيحاسبهم الله تعالى عليها يوم القيامة، فكذلك هي أعمال العباد كلها.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٣].

مُسْتَطَر: مسطور، مكتوب.

كل صغيرةٍ وكبيرةٍ ممّا يفعله الناس تُسَطَّر وتُسَجّل، وٱنظرْ إلى ما يقوله الكافرون يوم القيامة عن كتاب أعمالهم قولاً هو أشبه بالصراخ والنحيب، ملؤه الحسرة والمرارة، ولاتَ حينَ مناص: ﴿ . . مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا . . ﴾ [الكهف: ٤٩]، كيف وإن الله تعالى يقول:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ .
إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ .
مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨].

ذلك أنّ هناك مَلَكَيْن اثنين يكتبان في صحيفتي حسنات الإنسان وسيئاته كل ما يعمله، أحدهما عن يمينه يكتبُ حسناته، وآخرُ عن يساره يكتب سيئاته، وإن هناك رقيباً حافظاً يكتب أقواله، وهو عتيد، أي مُعَدٌّ مهيّأٌ لذلك حاضرٌ عنده لا يفارقه.

فانظر كيف أن أعمال العباد، كلها، منذ الخليقة، وحتى يوم القيامة، مسجّلة، عليهم ومحفوظة، بكل تفاصيلها. ولقد يقول قائلٌ في الزمن الغابر، مكذّباً أو مشكّكاً: كيف يمكن أن يكون ذلك؟ فصار في إمكان الإنسان، في عصرنا الماديّ هذا، أن يرى كيف يتم تسجيل الأشياء، في كتابةٍ، وصوتٍ، وصورة، بآلات التسجيل والأجهزة الحاسبة. صار يرى بأمّ عينيه ما قد كان يشكّك في إمكان حدوثه. والله تعالى، وقد أمكنه من صنع هذه الأجهزة، يُريه إمكان الكتابة وحفظها، حتى لو كانت مخفيّةً مستورة. جاء ذلك في كتاب الله تعالى في زمنٍ لم يعرف الناس فيه الورق ولا آلات التسجيل، لا ولا المايكروفونات المخفية للتنصّت عن بُعد، أو أجهزة الحاسب بما خفّ من وزنها وصَغُر من حجمها، وبما زاد من إمكاناتها. فيا لله! كيف قد جاءت المكتشفات والمخترعات الحديثة أمثلةً حيّةً على ما قد نطق به كتاب الله العزيز قبل أكثر من ١٤ قرناً، فصار حَرِيّاً بالمكذّبين في هذا الزمان، بل ولِزاماً عليهم، أن يتفكّروا في آيات الله تعالى فيؤمنوا ويخافوا الله، وبالمؤمنين أن يزدادوا إيماناً به، وخوفاً منه، ورجاءً فيه. والتصديق بذلك، لَعَمْري، هو أمرٌ أيسر على أهل هذا العصر الذين عرفوا المخترعات الحديثة مِمّن عاشوا في العصور القديمة ولم يعرفوا إلاّ الناقة والبيداء، وما إليهما، من حولهم. فيا أيّها الإنسان الجاهلُ المكابِر المعاند الجاحد، ها أن الله تعالى قد أعلمك، في كتابه العزيز، قبل أكثر من ١٤ قرناً، بأنه سبحانه مُحْصٍ عليك كل شيء، وكل صغيرةٍ وكبيرة، وهو مسطور محفوظ، والمَثَلُ لذلك هو ما قد أعطاك مِنْ إمكانيةٍ على صنع الحاسب ذي

الإمكانات الضخمة الضخمة، في عُرف الإنسان، وهو مصنوع، فكيف بإمكانات الخالق سبحانه التي لا تُحَدّ ولا تُعَدّ ولا تُحصَى؟

وبعد أن يتوعّد الله تعالى الكافرين بأنه قد أهلك أمثالهم، وأن أعمالهم كلها مسجّلةٌ عليهم، وبما يستتبع ذلك، يوم القيامة، من حسابٍ عسير يتبعه عذاب النار الأبدي، يعود تعالى ليبشّر المتَّقين بما قد أعدّ لهم:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر: ٥٤].

تلك هي الجنة التي أُعدّت للمتّقين، والتي قال عنها المولى سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال رسول الله (ص) عنها بأن فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر. وأين؟

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥].

تلك هي الجنّة، مُقَرَّبين فيها عند مليكٍ مقتدر، عظيم المُلْك، عظيم المقدرة، سبحانه وتعالى، إنه أرحم الراحمين.

آياتٌ من سورة «الرحمن»

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ .
عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ .
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ .
عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرّحمن: ١ ـ ٤].

قلنا، في الجزء الأول من هذا الكتاب، إن كلمة (الرحمن) هي على وزن (فَعْلان)، وهي تعني (كثير الرحمة)، وإن (الرحيم) هي على وزن (فَعِيل)، وهي تعني (دائم الرحمة).

وإنّ رحمة الله تعالى بخلقه، بتعليمهم القرآن، قد تقدّم ذكرها، في سورة (الرحمن)، على خَلْقِهِ لهم، وهو ما يشير إلى رحمة الله العظيمة بنا.

وقُلنا إن تعليم المولى البيان للإنسان لا يعني الكلام وحده، بل إنه يشمل أيضاً القراءة، والكتابة، وكلها وجوهٌ للتعبير، وإن قوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ معناه أن تعلم، وأن تعلم معناه أن تفكّر.

ونضيف هنا أن «الرحمن» اسمٌ لله تعالى تفرّد به من دون المخلوقين.

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

الحُسبان: ١ ـ الحساب.
٢ ـ التدبير الدقيق.

خَلَق الحقُّ سبحانه كل شيءٍ في الكون بحساباتٍ دقيقة، وقوانين، تنتظمها

كلها. ولكن كم هي حسابات الشمس والقمر؟ ذلك شيءٌ لا يعرفه كله إلاّ خالقها وحده وهو يعلم ممّ خُلِقت، ومتى كان ذلك، وأيان هو موعد نهايتها المحتومة ككلّ شيء مخلوق. وهو سبحانه الذي قدّر كتلتها، وحجمها، وكثافتها، ومداراتها حول نفسها وحول غيرها، وسرعاتها، وجاذبياتها، ومكوناتها ونسبها، وعلاقتها بغيرها من الأجرام. كلُّ ذلك بحسابات بالغة الدقّة، فهي لا تحتمل اضطراباً أو تغييراً، بل هي كلها، وكغيرها، تسير بانتظامٍ بالغ، وهي لا تحيد عن مداراتها ولا تصطدم ببعضها.

* **فالشمس** تدور حول نفسها مرّة كل ٢٥ ساعة، وفي اتجاه دوران الأرض نفسه، أي ضد اتجاه عقارب الساعة.

* وهي تسير في مجرّتنا، وبالنسبة إلى النجوم التي تحيط بها، بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية.

* ثم إنها تدور حول مركز مجرّة «درب التبانة»، وضد عقرب الساعة، بسرعة ١٥٠ ميلاً في الثانية، أي أنها تحتاج إلى ٢٥٠ مليون سنة لإكمال دورة واحدة حول مركز المجرة.

* ويدور **القمر** حول محوره في الوقت ذاته الذي يدور فيه حول الأرض، وضد عقارب الساعة. وهو يستغرق في كلتا الحالتين الوقت نفسه بالضبط، وهو ما يزيد قليلاً على ٢٧,٣ يوماً.

إن كل ما في الكون محسوبٌ وموزون، ولكن الله تعالى قد خصّ الشمس والقمر، في هذه الآية، لأنّ بهما تتعلق حياتنا، ولأنهما أكبر وأقرب وأسطع جرمين نعرفهما، تلك في النهار، وذاك في الليل، فهما أكثر ما تتعلق به أنظارنا ومدعاة لتفكّرنا، وهما أقرب للاعتبار.

ولكننا إذا أردنا التعمّق، في هذه الآية، أكثر، قلنا: ماهي العلاقة بين الشمس والقمر في هذه الآية؟ أو ما هو السرّ في إيرادهما معاً، و وبهذه الصيغة، وفي هذه الآية، في مكانها هذا من سورة «الرحمن»؟

إن القمر هو أدنى في أهميته من الشمس، فهو أصغر منها بكثير، رغم ما قد يبدو لنا في رأي العين، وهو جاء ذكره بعدها. ثم إنه يعتمد في نوره، في حقيقة الأمر، على ضوء الشمس الذي يعكس بعضه، وليس أكثر من ذلك، فهو يعتمد في وجوده، وفي قيامه بوظيفته، على الشمس. والشمس والقمر هما من آيات الله تعالى، ولولا الأولى لما كانت حياةٌ على سطح الأرض.

وإذا كان القمر «تقويماً» لأيام الشهور، فإن الشمس، فوق فوائدها الأخرى العظيمة، بل والضرورية لنا، تشبه ساعةً معلّقةً في الفضاء، تُرينا كم هو الوقتُ من نهار، مثلما أنها مواقيت للصلاة.

﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

النجم: ١ ـ الجُرْم المعروف.

٢ ـ النبات الذي يَنْجُم، أي يظهر ويطلعُ من الأرض ولا ساق له.

الشجر: النبات الذي له ساق.

وسجودهما: خضوعهما وانقيادهما لله تعالى. قال الإمام الصادق: «السجود على نوعين: إرادي وطبيعي»، والأول هو سجود العقلاء، والثاني سجود سائر الموجودات، بمعنى أنها في قبضة الله، وتدلّ على قدرته وعظمته، من باب دلالة المصنوع على الصانع.

* جاء في تفسير هذه الآية أن النبات، ما كان منه ذا ساقٍ وما لم يكن، منقادٌ لأمر الله تعالى.

* على أننا إذا أخذنا المعنى الأول لكلمة «النجم»، وهو الجرم المعروف، لصار للآية وجهٌ آخر يضاف إلى الوجه الأول.

ولكن ما هي صلة النجم، كالشمس مثلاً، بالشجر؟

والجواب هو أن هناك لَمصنعيْن، واحداً في الشمس أو النجم، وآخرَ على الأرض.

فالنجم هو مصنعٌ عظيم، ومصدرٌ من مصادر الطاقة في الكون أساسيٌّ، حيث إنه مصنعٌ أو «مُفاعل نووي اندماجي» كبير، وكذلك فإن الشمس هي مصدرُ الطاقة على الأرض.

وأما الشجر فهو مصنعٌ، أو مصدرٌ، آخرُ للطاقة على الأرض، من خلال عملية «التركيب الضوئي». إنها عملية صنعٍ للنبات الذي تعتمد عليه حياة كل حيوان.

ثم إن المصنع الثاني «الشجر» يستمدّ طاقته من المصنع الأول «الشمس». هما مصنعان خلقهما الحقُّ سبحانه بحيث أن الثاني يعتمد في وجوده على الأول، وكلا المصنعين خاضعٌ مُنقادٌ لله تعالى.

فالشجر يعتمد في قيامه بوظيفته على الشمس، وهي نجم، باستمداده للضوء منها.

ومثل ذلك هو كمثل القمر الذي يعتمد في قيامه بوظيفته على الشمس باستمداده للضوء منها وإشعاعه للنور.

ثم انظر كيف أن الله تعالى قد وضع أسباب الحياة في كلٍّ منهما أبد الدهر، مِنْ مصنعيْن لأسباب الحياة، ما داما ودامت السماوات والأرض.

وهكذا نرى العلاقة ما بين الشمس والقمر في قوله تعالى: (الشمسُ والقمرُ بِحُسْبان)، وكذلك العلاقة ما بين النجم والشجر في قوله (والنجمُ والشجرُ يسجدان).

ونجد العلاقة نفسها في الآية التي تليها: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

إن كل ما تذكره هذه الآيات، من شمسٍ، وقمر، ونجم، وشجر، وسماء، وميزان، هو من آثار رحمة ربك بعباده. فلننظر أولاً في السماء، ثم في الميزان.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

والسماءُ هنا هي غلاف الأرض الجويّ. وأمّا قوله سبحانه: (رفعها) فإنه يدل

على أنها سميكة، والغرض من ذلك هو حماية الأرض، وهي رحمةٌ أخرىٰ من الله تعالىٰ لعباده، ولقد جاء وصفها في كتاب الله تارةً بـ«السقف المرفوع» بقوله: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾، وأخرىٰ بـ«السقف المحفوظ» بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ووصفها سبحانه أيضاً **بالبناء**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤]، وشبّهها العلماء اليوم بـ«الدرع الواقي للأرض»[١].

ولقد ذكرنا في تفسيرنا لقوله تعالى: (والسماء ذات الرَّجْع) منافع عديدةً للسماء، أي جوّ الأرض، مما يصل إلى حد الضرورة[٢]، ونعود لذكر المزيد عن واحدةٍ منها هنا، وهي حماية أهل الأرض من الأشعة فوق البنفسجية. جاء في مقالةٍ لمجلة «الطبيب بعد التخرّج»، وتحت عنوان «الأشعة فوق البنفسجية يمكن أن تؤذي صحتك على نحوٍ خطر»[٣]:

«حذّرت منظمة الصحة العالمية من أن معرفة الناس بمخاطر التعرّض الزائد للأشعة فوق البنفسجية لا زالت دون ما هو مطلوب، وأكّدت على أن ازدياد مستويات هذه الأشعة، وهو ما يرتبط مباشرةً بنقصان الأوزون في طبقات الجو العليا، يمكن أن يتسبب في حدوث آثار خطيرة علىٰ الصحة العامة، ولقد أصدرت مجموعة من خبراء منظمة الصحة العالمية هذا التحذير بعد اجتماعٍ لها في كانون

---

(١) Shield.

(٢) كتب العالم الفيزياوي «جوزيف ألِن»، وهو أحد روّاد المركبة الفضائية «كولومبيا» التي دارت حول الأرض في عام ١٩٨٣، في «الواشنطن بوست»، يقول عن رحلته تلك:

«في الفضاء يحلّ الليل بصورةٍ مفاجئة، وبسرعةٍ تقطع الأنفاس، وتُغشي العيون، وليس بصورةٍ تدريجية كما هو الحال في الأرض، فليل الفضاء الخارجي هو من أشدّ الأشياء التي رأيتها في حياتي اسوداداً. وفي الفضاء الخارجي تبزغ الشمس فجأةً وتلمع كأنها صاعقة، مبدّدةً في خلال ثوانٍ هذا الليل الحالك، إذ لا وجود في الفضاء الخارجي لشروقٍ أو غروب تدريجي للشمس، بل في خلال ثوانٍ، بل هناك ليلٌ مظلم من أحلك الظلمات أو نهارٌ ساطعُ النور».

ويرجع السبب في شروق الشمس وغروبها التدريجيين إلىٰ غلاف الأرض الجوي.

(٣) Postgraduate Doctor, Middle East, March (1994), p. 122.

الأول ١٩٩٣ في جنيف، حيث هم قاموا بأوسع دراسة تمّت لحدّ الآن حول هذا الموضوع. وتقوم المنظمة الآن بإنشاء شبكة من المراكز التي تقوم بمراقبة منحنىٰ مستويات الأشعة فوق البنفسجية على سطح الأرض ومدىٰ تعرّض المجتمعات لهذه الأشعة وقياس تأثيراتها في الصحة.

يحدث التعرض للأشعة فوق البنفسجية من مصادر طبيعية (الشمس)، وأخرىٰ صناعية (مصابيح الأشعة فوق البنفسجية). وتستعمل هذه الأشعة في الطب، وفي صناعاتٍ مختلفة. أما فيما يخصّ صحة الإنسان فإن **الأشعة فوق البنفسجية هي سلاحٌ ذو حدّين**، فبينما أن **الجُرَع الصغيرة منها مفيدة**، حيث إنها تساعد جلد الإنسان على صنع الفيتامين (د)، فإن **التعرّض المتطاول أو الشديد لها قد يسبّب أذىً خطيراً** لجهاز المناعة، ونقصاً في قابلية الجسم على مقاومة الأمراض الانتقالية، إضافةً إلى تسبيب أمراضٍ مختلفة للجلد، ومنها السرطان، وللعين، ومنها «السّاد»، وهو إعتام عدسة العين الذي يعتبر أكثر أمراض العين شيوعاً.

وتدلّ المعلومات المتوفرة مؤخراً على أن مستويات الأوزون قد وصلت في العامين ١٩٩٢ و١٩٩٣ إلى أدنىٰ مستوياتها منذ أن ابتدأت عملية تسجيل مشاهدات الأقمار الصناعية عام ١٩٧٨، وأن انخفاضاً في الأوزون يبلغ ١٠٪ يمكن أن يسبب زيادةً في التعرّض للأشعة فوق البنفسجية تبلغ ١٥ ـ ٢٠٪.

ويقول رئيس الاجتماع، الدكتور ڤان درلون: «إن ذلك هو مثالٌ تقليدي على الانطلاقة الصناعية التي عادت فارتدّت آثارها العكسية السيئة علينا، وإننا كلما بكّرنا في إدراك هذه المشكلة كلما كان ذلك أفضل من قبل أن تبدأ بالإضرار، وعلى نحوٍ خطِر، بحياتنا وأرزاقنا ـ وسواءٌ أكان ذلك في الصحة، أو في إنتاج المحاصيل الزراعية، أو في صناعة الأسماك». إن التعرّض الزائد للأشعة فوق البنفسجية يعيق من نموّ النباتات، وبدرجةٍ خطيرة، ويضرّ بعملية التركيب الضوئي، كما يقلّل من مقاومتنا للأمراض. وإنه لمن السخرية أن نلاحظ أن أكثر معدّلات الزيادة في هذه الأشعة توجد في المناطق الريفية من العالم، حيث الهواء النظيف والجوّ الرائق،

مقارنةً بمراكز المدن حيث يُكوِّن تلوّث الهواء الشديد عازلاً يقلّل من قابلية الأشعة فوق البنفسجية على اختراق الهواء والوصول إلينا، ولكن حالما تنزاح ملوّثات الهواء هذه فإن «الدرع الكيمياوي»[١] فوق كل المدن الرئيسية في العالم سوف يختفي، مسبّباً زيادةً في الإشعاعات فوق البنفسجية».

وهكذا نرى أن هناك، في غلاف الأرض الجويّ، أي سمائها، ميزاناً دقيقاً جدّاً، يسمح بمرور القدر اللازم من الأشعة فوق البنفسجية إلى سطح الأرض لا أكثر ولا أقل من ذلك، وبحيث أن أي خللٍ أو اضطراب مصطنع بسيط في ميزانها يؤدي إلى عواقب غير محمودة أو مميتة.

وهكذا هي بقية وظائف الغلاف الجوي، وهي أهمّ مما ذكرنا وأكثر خطراً. وتحافظ الأرض على هذا السقف الذي يحفظها بجاذبيتها، ولو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن الاحتفاظ بهذا السقف المحفوظ، ولارتفعت درجة حرارتها إلى حدّ الموت وتبخّر ما على سطحها نهاراً، ولانجمدت ليلاً.

(.. وَوَضَعَ الميزان)

هو آلة الوزن المعروفة لمعرفة مقداره.

وهو العدل.

وهو المقدار.

وهناك ميزانٌ في الفلسفة، وفي الاقتصاد، وفي الرياضيات.

ففي الأولى هو قاعدةٌ فكرية تُعين على تمييز الحق من الباطل، ويسمّى علم المنطق بعلم الميزان.

---

(١) Chemical Sheild.

وفي الثانية هو بيان ما للدولة وما عليها من الديون قِبَلَ الدول الأخرى، والميزانية هي سجلٌ تُعادَل فيه الموارد والمصروفات.

وفي الثالثة هو طريقةٌ للتحقق من صحة عملية حسابية.

وإذا كان أول ما يتبادر للذهن في معنىٰ الآية هو **الميزان المعروف**، فإن النظرة الأعمق فيها تعطينا معنىً آخر يضاف إلى سابقه ويكمّله، وهو أهمّ منه لأنه أعمّ وأشمل، وهو **العدل** الذي شرعه الحقّ سبحانه وأمر به، وقد ذكر العلماء التفسيرين



صورة (٢٣)

صورة تبيّن الأوزون الكلّي في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، التقطت في ٢ تشرين الأول ١٩٩٤ من قمر صناعي روسي. لاحظ فقدان الأوزون في المنطقة القطبية الجنوبية وما يحيط بها.

معاً. إن الله تعالى قد خلق كل شيء بمقدارٍ ووزن، خلقه متوازناً مع غيره، وخلق الأشياء لنا متوازنةً مع حاجاتنا، رحمةً منه وفضلاً.

فإذا كنتَ تستدلّ من الآية، في النظرة الأولى، على أهمية الميزان، بأن تَعْدِلَ ما بينك وبين الناس، بالقسطاس المستقيم، فإن ذلك يمتد أيضاً، وبإمعان النظر إلى ما هو أكثر من ذلك، إذ هو يشمل جميع الأشياء المادية والتعاملات من بيعٍ وشراء وو.. لا بل إنه، وفي النظرة الأعمق والأشمل يمتد ليشمل كل العلاقات الإنسانية، إذ إنك مطالب بأن تعدل بين أولادك لا بالمادة وحدها بل بتوزيع المحبة والحنان من دون تفريق، ثم إنك مُطالَبٌ بأن تعدل في ذلك بين الناس جميعاً، بل وأكثر من ذلك كله: أن تعدل ما بينك وبين الناس، بأن تجعل نفسك والناس في ميزانٍ واحد[1].

وإذا كان تعالى قد أنعم علينا بكل وسائل العيش والتنعم والراحة، وبما هو فوق الضروريات التي نسبح فيها ونرفل متنعمين آمنين مطمئنين، فإنه سبحانه قد خلق كل شيءٍ بقَدَرٍ ووزن وحساب، ووضع الميزان لا نُخسِرُه ولا نطغىٰ فيه. قال صاحب التفسير المبين: «إنها ـ أي الآية ـ إشارةٌ إلى العدل حيث لا تستقيم الحياة الاجتماعية إلاّ به، تماماً كما لا ينتظم الكون إلاّ بالمعادلة الدقيقة المحكمة بين كواكبه وجباله وبحاره وكل ما فيه، وكذلك أعضاء الإنسان والحيوان». إن الميزان في الإسلام ليس هو الميزان ذو الكفّتيْن وحسب، بل إنه العدل كله، وفي كل الأمور، ومن غير إفراطٍ أو تفريط، بل إنصافٍ وانتصاف.

والعلاقة بين الإنسان والإنسان، وبينه وما سواه من المخلوقات، يحكمها توازنٌ دقيق، ولو اختلّ هذا لاضطربت أمور المخلوقات[2]. وإذا كان الناس يُعين

---

(١) «يا بُنيّ اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحْبِبْ لغيرك ما تُحِبُّ لنفسك، واكرهْ له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلَم، وأحْسِنْ كما تحب أن يحسن إليك، واستقبحْ من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك».ـ من وصية للإمام علي لابنه الحسن.

(٢) ولو اختلّ توازن المخلوقات في الأرض لَطغىٰ بعضها على بعض، وبما يؤدي إلى مَيْل ميزان الحياة=

بعضهم بعضاً فإنهم أيضاً يدفعُ بعضُهم بعضاً فيصدّه عن إحداث الأذى بالآخرين: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، والله تعالى يَقْدِرُ الرزق على عباده: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، وإذا كان سبحانه قد أغدق علينا من نعمه الظاهرة والباطنة ما لا نعدّه ولا نُحصيه، فإنه قد أنزل من النِّعَم ومن الرزق ما يوفي باحتياجات جميع المخلوقات، بل وأكثر من ذلك، وهذا هو شأن كل نعم الله تعالىٰ على عباده في الأرض(١)، ولو قد زاد الحقُّ سبحانه من نعمه على البشر فأغرقهم بها إغراقاً لَطَغَوْا ولَبغىٰ بعضهم على بعضٍ وعَتَوْا في الأرض مفسدين، وهكذا هي شيمة المخلوقين إلا من رحم ربي.

وذلك الميزان العظيم والعجيب يلفُّ كل المخلوقات، ابتداءً من الذرّة وأصغر منها، وانتهاءً بالمجرّات وأكبر منها، ينتظمها كلَّها في سلسلةٍ من القوانين الرياضية، والكيمياوية، والفيزياوية، والأحيائية لا تنتهي. هي نواميس ضرورية لحفظ الحياة ولسعادة الجميع. وإذا كان كل شيءٍ في الكون لا يجيء إلاّ وهو موزون ومحسوب في نفسه، فإنه لا يجيء هكذا معلَّقاً وحده، ولا معزولاً عن غيره، بل هو يحتاج أيضاً إلى التوازن مع ما يحيط به من أشياء وظروف.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨].

﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٩].

لا تتجاوزوا الحق ولا تُنقصوه، بل التسوية بين الاثنين.

إن هذا التشديد والتأكيد القرآني على ميزان العدالة الذي يجب أن لا يختلّ لك ولا عليك، وفي كل أمور الحياة، ليستلفت الانتباه إلى أهمية العدالة والتوازن في المصالح، والحقوق، والواجبات، في الخَلْق. ثم أليس كلام الله تعالى هذا علىٰ

= والخَلْق، وإلى استفراس بعضها واستئثارها بالحياة والمنافع في الأرض على حساب البعض الآخر، ولانقرضت مخلوقاتٌ بسبب انتشار مخلوقاتٍ غيرها بأعدادٍ رهيبة تنشر الدمار وتهلك الحرث والنسل، وذلك كله على حساب مخلوقاتٍ أخرىٰ كانت توازنها وتَحِدّ من نموّها وطغيانها.

(١) قال الإمام علي: «ما جاعَ فقيرٌ إلاّ بما مُتِّعَ به غني». فالعلّة في انتشار الفقر سببها طغيان البشر على بعضهم البعض، وليس من قلة رزق.

الوزن والميزان هو نفسه كلامه على خلقه للسماوات والأرض، بل وكل شيء، بالحق؟ قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ . .﴾ [الشورىٰ: ١٧]. فالحقّ هو الوزن بالعدل: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨].

وإنّ لإنقاص المكيال والميزان[1] لعذاباً شديداً جاء ذكره في كتاب الله تعالى كعذابه لِمَدْيَن، وهم قوم شعيب (ع): ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ . وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤ و٨٥].

﴿. . وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

فانظر كيف قد قَرَن الحقُّ سبحانه الإيمان بإيفاء الميزان، ثم انظر في قول النبي شُعَيْب (ع) لقوله: (إني أراكم بخير)، وهو قولٌ ينطق برنين الأسىٰ على ما بهم من تطفيفٍ للميزان مثلما هو تحذيرٌ وأيُّ تحذير: إنكم بخير عميم، وهذه أنعُمُ الله عليكم لا تُحصىٰ ولا يقدّرها إلاّ الحكماء والعقلاء من الناس، وأنْ تَنقُصُوا الناسَ حقوقهم معناه أن يغيّر الله حالكم من الخير إلى السوء. ومُحالٌ أن يبدّل الحقُّ سبحانه ما بالناس من نعمةٍ إلاّ أن يغيّروا أولاً ما بأنفسهم فيصيروا ظالمين لا يَعْدِلُون ﴿. . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ . .﴾ [الرعد: ١١]، ومن ذلك تطفيف الوزن، وهو الغرض منه المنفعة المادية العاجلة، وهي منفعة ظاهرية وحسب، ذلك لأنها تنتهي، وكما قد لاحظنا، إلى قلب ما بالإنسان من نعمة، وإلى محق البركة بل، وكما قد رأينا في كتاب الله العزيز، إلى محق وتدمير المجتمعات.

---

(١) الكَيْل تقدير الشيء بالمكيال، والوزن تقديره بالميزان.

وإنه لا مهرب يوم القيامة، أيضاً، من الموازين، لأنها وكما قلنا تحكم كل المخلوقات: ﴿.. فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨ و٩].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ. فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ.
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ. فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩].

* * *

جاء ذكر (الوزن) و(الميزان) أربع مراتٍ في ثلاث آياتٍ من صدر سورة الرحمن، وهو تكرارٌ توكيدي يحتاج منا إلى النظر الطويل. وجاء ذكر كلمة (القسط) و(الحسبان) أيضاً، وهي كلها تنطق بالحسابات الدقيقة والعادلة.

* * *

وانظر إلى آثار رحمةِ ربك عبادَهُ، مرّةً أخرى:

* ﴿.. وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا..﴾

كلاهما رحمةٌ ونعمة، والثاني يعتمد في وجوده على الأولى، وكلاهما يتشابهان من حيث أنهما مصدرٌ للضوء أو النور.

* ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾

وهما كذلك، رحمةٌ ونعمة. والثاني يعتمد في وجوده على الأول (بمعنى الشمس، والشمسُ نجم)، وكلاهما مصنعٌ ضروريٌ، للحياة، عظيم.

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾

وهما أيضاً من رحمة الله وآلائه علينا، وكلاهما يدلّ على أن كل شيء موزون محسوب.

وتدلّ هذه الآيات على المعادلة الدقيقة المحكمة في خلق السماء، أي جوّ

الأرض، وبقية الكون، كما تدلّ على العدل الذي لا تستقيم الحياة إلا به.

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن: ١٠].

الأنام: جميع ما على الأرض من الخَلْق.

وضعها: أقامها، خفضَها، أسرَعَها، أذلَّها.

وهي معانٍ تنطبق كلها على الأرض.

فهي قد أقامها تعالى.

وخفضها، فهي ممهّدة مستوية.

وهي فِراشٌ ومعاش لكل من عليها، إنساناً كان أو حيواناً.

ثم إنها تُسرِعُ في حركتها من حيث لا نشعر.

وقد جعلها سبحانه ذَلولا، فهي مُيسّرَة لصنوف المخلوقات بكل ما فيها، مما يجعل الحياة عليها يسيرةً هانئة. فالآية: (والسماءَ رَفَعها وَوَضَعَ الميزان) تختصر كل ما قد هيّأه تعالى في جوّ الأرض من منافع، كما أنّ الآية: (والأرضَ وضعها للأنام) تختصر كل تدبيره في الأرض، وكلتا الآيتين، في حديث المولى سبحانه على السماء ثم على الأرض نجد معناهما مرّة أخرىٰ في قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً . . ﴾ [البقرة: ٢٢]. وقال: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا . . ﴾ [النمل: ٦١].

﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا . . ﴾ [يس: ٣٣].

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ . . ﴾ [يس: ٣٦].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ [نوح: ١٩].

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [المُرسَلات: ٢٥].

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠].

وإننا لنرىٰ في هذه الآيات ثنائيةً في الخَلْق، في حديثه سبحانه على السماء يليه ذكر الأرض، ومِثْلُها خَلْق الجِنّ والإنس ومخاطبته لهما تعالى بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. هي ثنائيةٌ في المخلوقين تقابلها وحدانية الخالق الواحد الأحد.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١١].

لو لم يكن في الأرضِ من فاكهةٍ قطّ لمَا امتنعت عنها حياةٌ، بل لاستمرّت مثلما هي تسير الآن، وما أكثر ما قد يَحْرِمُ بنو الإنسان بني الإنسان من حاجاتٍ وضرورات من دون أن تفنىٰ حياتهم على وجه الأرض، ولكنه تكريم الرحمن الرحيم، الخالق الكريم، لبني الإنسان. هي نِعَمٌ وآلاءُ نعرفها ونتلذّذ بها، فكيف لنا أن نكذّبَ بها وأن نجحدها؟ إنما ذلك هو سبيل الجاحدين من ناكري الجميل.

وجاء ذكر النخل بأكمامها، والأكمام هي أوعية الطَّلْع التي تنشقّ فيخرج منها التمر، جاء ذكرها، وهي فاكهة، مقابل ذكره للفاكهة كلها، فكأنّ الفاكهة كلها في كفّةٍ والتمر وحده في الكفّة الأخرى. فيا له من تكريمٍ للنخل واهبة التمر وغير التمر. والدليل على قولنا: (وغير التمر) هو وصف الحقِّ سبحانه للنخل بأنها (ذات الأكمام). فإذا كان التمر للأكل، فإن النخيل بأكمامها مظهرٌ من مظاهر الجمال في الأرض، فوق أنها مظهرٌ من مظاهر قدرة القادر في خَلقه. ولقد ذكر الباحثون صفاتٍ قد تفرّد بها النخل عمّا سواه من الأشجار، صفاتٍ قالوا بأنه يشابه فيها الإنسان. والنخل أكثر ما يوجد على سطح اليابسة هو في الأرض العربية، واشتُهِرَت صحاراها بها، فكأنه قد اختُصَّ بها، وهو أكثر ما يوجد فيها من أشجار الفاكهة، بل وكل الأشجار.

وإننا لنرى هنا أيضاً ذلك الإيقاع الذي قد تحدّثنا عليه، وتلك الثنائية في الخَلق، وهو ما تقابله وحدانية الخالق.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢].

العصف : ١ ـ ورق الزرع.

٢ ـ دِقاقُ التِّبْن.

الرَّيْحان : ١ ـ كل نباتٍ طيب الرائحة.

٣ ـ جنسٌ من النبات طيب الرائحة من الفصيلة الشفرية.

والحبوب هي مصدرٌ لغذاء الإنسان عظيم. وهذه الحبوب هي، نفسها، أيضاً مصدرٌ للغذاء بطريقةٍ أخرى : إنها تخلّد نفسها من حيث أن الحبّة الواحدة منها تُزرَع فتصير نباتاً كاملاً يعطي الكثير من الحبوب. إنها، مرةً أخرى، استمراريةٌ للحياة التي قدّرها ووهبها لنا صانع الحياة. ونجد في النباتِ الأوراقَ، أو العصف، وهي مصدرٌ للزينة مثلما هي طعامٌ للحيوان، كما نجد الرائحة الطيبة والألوان الرائعة.

ونجد هنا التقابل بين الحَبِّ وبين الأوراق.

وبين الغذاء، وهو ضرورةٌ، وبين الزينة، وهي تكرمةٌ ٱمْتَنَّ الله بها على عباده فوق الضرورة.

وبين الشيء وبين ما ينتج عنه فيخلّده.

وهناك في الآيتين تقابلٌ بين الفاكهة وبين الحبوب، إذ هما صنفان، من الغذاء النباتي، رئيسيان، بل قُل إنهما لَيحويان كل ما قد يحتاج إليه الإنسان من غذاء.

ثم يجيء قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ١٣]، أي فبأيّ نعمه تعالى تجحدان وتكذّبان، والخطاب موجّه إلى الإنس والجنّ، وهي آيةٌ تَرِدُ إحدىٰ وثلاثين مرّة في سورة الرحمن وهو تكرارٌ على غايةٍ من الأهمية لأننا لم نجد له نظيراً في كتاب الله تعالى كله.

إن أنعم الله علينا أبلغُ وأظهر من أن يُماري فيها أحد، وهي إلى ذلك عديدةٌ لا تُحصىٰ، وهي فوق أنها تغطي كل ضرورياتنا، إذ لولاها ما كنّا ولا كانت حياة، فإنها مصدرٌ للجمال وبُلَهْنِيَةَ العيش[1]. فيا أيها الإنسان المكذّبُ بربّه، الجاحدُ بعنايته

---

(١) البُلَهْنِيَة : الرخاء وسَعة العيش.

وفضله، والمنكِر لما لا يُحصىٰ من أنعامه، بأيٍّ من هذه الآيات أنت مكذِّب؟ وأيُّها يمكنك أن تجحد وتنكر وأنت تَسْبَحُ فيها سَبْحاً، بل لولاها لما كنت ولا بقيت على قيد الحياة مِنْ طُرْفة عينٍ أبداً؟

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ .
وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ و١٥].

صلصال: طينٌ يابس غير مطبوخ، فإذا طُبِخَ فهو فَخّار.

مارِج: لهبٌ خالص لا دخان فيه، أو ممّا اختلط بعضه ببعضٍ من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر، الذي يعلو النار إذا أوقدت.

ونحن نؤمن بالجنّ، لأن الوحي أثبته، والعقل لا ينفيه.

* وإذا كان الجنّ خُلقوا من لهب النار، فإن النار ليست مؤلفةً عن عناصر كيمياوية، بل هي «بلازما»، والأخيرة ليست هنا «بلازما» الدم المعروفة، بل هي غازٌ مُؤَيَّنٌ مُشِعّ، أمكن فيها للحرارة العالية أن تجرّد بعض الإلكترونات عن نواها[1]، فهي تتكون من إلكترونات وبروتونات منفصلة عن بعضها تماماً، وهي ممّا لا يتيسّر إدراكه بالوسائل المعروفة.

* وأما الإنسان فقد خلقه تعالى من طين، وجسمه هو بعضٌ مما هو موجودٌ في التراب والماء. والتراب يحتوي على آلافٍ من المركّبات التي نشأت من اتّحاد العناصر الطبيعية التي يبلغ عددها ٩٢ عنصراً في الكون، ذلك الذي نعرفه.

---

(١) تتسبب درجات الحرارة العالية جداً في الشمس، وبقية النجوم، بانفصال إلكترونات ذرة الهايدروجين كلياً عن نواها التي تصير «نوىً عارية»، أو بروتوناتٍ وحدها. إن الفيض الذي تصبّه الشمس يتألف، أساساً، من هذه المادة التي تسمىٰ بـ«البلازما» (Plasma)، وإن أكثر من ٩٩٪ من كل المادة المعروفة في الكون هي على شكل «بلازما»، و«البلازما» هي الحالة الرابعة للمادة بعد الحالة الصلبة، والسائلة، والغازية. إن المادة تتوقف، في هذه الحالة، عن الوجود كذرّة، بل هي تتصرف كبروتونات وإلكترونات منفصلة عن بعضها، وهي تتفاعل مع المجالات المغناطيسية.
مصادر: ١ ـ Collier's Encyclopedia, (1983), Vol:9. p. 147, Vol. 10 p. 684, Vol. 19 p. 20.
٢ ـ «الكون» د. كارل ساغان، دار المعرفة (١٩٩٣) ص ١٩٤.

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وقد تقدم ذكرها، في الصفحة ٩٦

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ .
بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن ١٩ و٢٠].

مَرَج البحرين: أَرسلهما وخلطهما وأسال أحدهما في الآخر.

البرزخ: الحاجز.

لا يبغيان: لا يطغىٰ ولا يتغلب أحدهما على الآخر.

وهو مِثْلُ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

مِلْحٌ أُجاج: شديد الملوحة والمرارة، وهو ماء البحار، سُمّي أجاجاً من الأجيج، وهو تلهّب النار، لأن شربه يزيد العطش.

قالوا: جعل سبحانه الماء الملح في أرضٍ منخفضة، والماء العذب كالجداول والأنهار في أرضٍ مرتفعة عن سطح البحر، ولو انعكس الأمر لأفسدَ الملحُ العذبَ، وأصبح الماء كله مُرّاً، ووقع الناس في العُسر والحرج. برزخاً: أي فاصلاً بين الماءين، وهو ارتفاع أرض العذب، وانخفاض أرض الملح.

وواضحٌ أن المقصود بالبحرين، وكما قال المفسرون، هو البحار، بمياهها المالحة، والأنهار بمياهها العذبة. وتصُبُّ مياه الأنهار كلها في البحار من دون أن تطغىٰ مياه الثانية على الأولى، وإذاً لصارت كل مياه الأنهار ملحاً أجاجاً. فمن رحمة الله تعالى أن قد جعل مياه البحر المالحة في أرضٍ منخفضة، وجعل مياه الأنهار العذبة في أرضٍ مرتفعة عن سطح البحر، إذ إن الأخيرة تتصل بمياه البحار لتصبّ فيها، وتنحو المياه لأنْ تأخذَ مستوىً أفقياً واحداً، ولولا رحمة الله تعالى لطغت مياه البحار، وما أعظمها، علىٰ مياه اليابسة، في الأنهار، وما أقلّها وأصغرها نسبةً إلى الأولى. ومن المعلوم أن مستوىٰ سطح أنهار الأرض هو دون مستوى اليابسة منها،

ولو ازدادت البحار بالماء قليلاً، حتىٰ من ارتفاعٍ بسيط في درجة حرارة الأرض[١] إذاً لفاضت وأغرقت الأرض. والأنهار معرّضة، بسبب انخفاض مستواها عن مستوى سطح اليابسة، لأن يطغىٰ عليها ماء البحر قبل أن يطغىٰ على اليابسة. ولكنه، مرّةً أخرى، الميزان الدقيق الذي وضعه تعالى رحمةً بعباده على الأرض ممّا منع أن يغرقوا بمياه البحر، أو على الأقلّ أن يُضطَرّوا إلى شربِ مياهه المالحة وأن يهلك زرعهم بسبب ذلك[٢]. وإن ذكره تعالىٰ للبحرين في قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ توضح معناه، من دون ريب، آية وسورة الفرقان الوارد ذكرها من أن المقصود بالبحرين هو الماء المالح والماء العذب[٣].

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ليس اللؤلؤ أو المرجان من ضروريات الحياة، بل هما تَكْرِمَةٌ من الله تعالىٰ للإنسان بالسِّحر والجمال.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤].

---

(١) وهو أمرٌ يحذّر العلماء منه، إذ إن مفعول «بيت الدفيئة»، أو «البيت الزجاجي»، على الأرض قد يرفع من درجة حرارتها درجاتٍ معدودات تكفي لتسبيب تمدّدٍ في مياه المحيطات والبحار بما يغرق اليابسة، وهو أمرٌ يتوقع حدوثه لبعض المدن الساحلية في سنين قادمة.

(٢) إنّ ماء البحر، فوق أنه مَجٌّ غير لذيذ، عكس الماء الفرات العذب السائغ الشراب، فإنه يزيد من العطش، وهو قد يؤدي إلى الهذيان والأوهام، وهو لا يمكن سقي النباتات به ولا يُشرب إلاّ بعد «تحليته» في معامل «التحلية»، إذ إنه يحوي حوالى ٣،٥٪ من وزنه ملحاً، هذا مقارنةً بـ ٠،٩٪ من بلازما دم الإنسان. إن الماء الذي تزيد ملوحته عن ١ من ١٠٠٠ لا يصلح للشرب.

(٣) لقد كشف العلماء عن ظاهرة عدم اختلاط مياه الأنهار العذبة بمياه البحار المالحة، حيث يظل الماءان منفصلين لمسافاتٍ طويلة، إذ إن بينهما حدّاً فاصلاً، أو برزخاً.
فلقد اكتشفت بعثةٌ ألمانية جاءت لتدرس مياه باب المندب، عام ١٩٦٢، أنّ هناك حاجزاً من المياه تختلف خصائصه عن خصائص البحر الأحمر وخصائص المحيط الهندي، وفي عام ١٩٨٢ جاءت بعثة علمية أمريكية إلى جامعة الملك عبدالعزيز في السعودية فذكرت أن هذا الحاجز قد صوِّرَ من سفن الفضاء الأمريكية، وظهر أنه يتحرك بالمدّ والجزر والرياح، أي أنه (يُمْرَج)، وعمقه في البحر يقارب ألف متر تقريباً. وكذلك تم تصوير البرزخ الفاصل بين مياه النهر ومياه البحر الذي يصب فيه، وهي أدلّة على أن القرآن الكريم وحيٌ من الله تعالى إلى رسوله محمد (ص).

وهو كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ . إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢ ـ ٣٤].

الجواري: السفن.

المنشآت: المصنوعات.

الأعلام: الجبال.

يوبقهن: يهلكهن.

لقد اكتشف الناس، بعد زمن التنزيل، أن هناك قانوناً يحكم سير السفن التي تمخر عُباب البحر هو قانون «أرخميدس» في أن الجسم الغاطس يفقد من وزنه بقدر وزن السائل الذي يُزيحه، ولولا ذلك لغرقت السفن والسابحون كلهم، وتلك رحمةٌ من ربك لا بد أن يذكرها الناس فيشكروا الله أنعمه عليهم. وقانون «أرخميدس» هذا وغيره من «القوانين» هي في حقيقتها قوانين إلّهية، وما فعل الناس أكثر من أن يكشفوا عن القليل القليل منها، لا أن يضعوا هذه القوانين. وفرقٌ عظيم بين أن تصنع الشيء أو أن تكشف عنه!

* * *

تميزت الآيات السابقة من سورة (الرحمن) بتعداد أنعم الله تعالى علينا وصنوف خلقه، ثم يعود سبحانه في الآيتين ٢٦ و٢٧ لتبيان أن كل شيءٍ هالكٌ إلا وجهه:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

فانٍ: هالك.

ذو الجلال: ذو العظمة والاستغناء المطلق.

الإكرام: الفضل التّام بالتجاوز والإحسان والإنعام.

بعد تعداده تعالى لأنعمه علينا يعود لتذكيرنا بأن كل ما على الأرض فانٍ،

وتبقى ذاته القدسية لأنه الأول بلا أوّلٍ كان قبله، والآخِرُ بلا آخرٍ يكون بعده، تبارك وتعالى اسمه الجليل، وارتفع عمّا لا يليق بشأنه العظيم، وتعالت صفته وكثرت خيراته.

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

كل ما في الكون جميعاً محتاجون إلى الله تعالى يسألونه ما يحتاجون بلسان المقال أو لسان الحال. والله تعالى مُحدِثٌ أموراً ومغيّرٌ أحوالاً في كل حين، إذ ما من شيء في هذا الكون إلاّ وهو يتغير في كل يومٍ بل في كل لحظةٍ شئنا أم أبينا، والله تعالى هو الدائم الباقي المتصرف بشؤون العباد، وهو لا يَشْغَلُهُ شأنٌ عن شأن.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن: ٣١].

أي سنقصد إلى محاسبتكم ومُجازاتكم أيها الجِنُّ والإنس يوم القيامة، وهو تهديدٌ ووعيدٌ لمن كفر وطغى. وسُمِّيَ الجنّ والإنس بالثَقَلَيْن لأنهما أُثقِلا بالتكاليف، أو لعظيم قدرهما.

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

مهما خَيّلت للإنسان عنجهيّتُه وغرورُه من مقدرةٍ كاذبة فهو غيرُ قادرٍ على الفرار من أمر الله وقضائه وعذابه، وإذا كانت الآية بصدد يوم القيامة أو ما قبله بقليل فإن فيها إشارةً إلى التقدم الذي يصل إليه الإنسان بما يظن معه أنه قد يتيسر له الخروج والهروب من المنظومة الشمسية إلى خارجها، وهو محال ممّا قد اثبتناه في الصفحة ٦١.

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٥].

قالوا إن الشواظ لهبٌ بلا دخان، وإن المراد بالنحاس هنا دخانٌ لا لهب فيه. وتجيء من بعد ذلك الآيات التي تتحدث على يوم القيامة، بانشقاق السماء، وعقاب المجرمين بِسَوْقهم إلى النار. ثم تجيء الآيات في الحديث على درجتين اثنتين من الجنّات، وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ويلي وصفُ

هذه الآيات قولهُ سبحانه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، أي هما جنّتان لمن هو دون الأول منزلة.

وتنتهي السورة، مرّةً أخرىٰ، بقول الحقِّ تبارك وتعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

خصائص حروف اسم (الرحمن) جلّ جلاله

* (الر) استفتح الله سبحانه خمسَ سُوَرٍ من كتابه بـ(الر)، كما استفتح خمسَ سورٍ بالحمد لله.

* (حم) واستفتح الله سبحانه سبع سُوَرٍ بـ(حم)، على عدد أبواب جهنم، وعبادُ الرحمن عنها مبعدون.

* (ن) واستفتح الله سبحانه سورةً واحدة بِـ(ن): ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

والله أعلم بأسرار أسمائه وأسرار حروف كتابه.[1]

---

(١) مصدر: «ولله الأسماء الحسنى» جمع وترتيب أحمد عبد الجواد.

خصائص حروف اسم (الله) جلّ جلاله

* من خصائص حروف الاسم الأعظم، دون غيره من الأسماء، أنك إذا حذفت «الألف» يبقى: «لله». قال سبحانه: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ [المائدة: ١٢٠].

* ثم إنك إذا حذفت «الألف» و«اللام» يبقى: «له». قال تعالى: ﴿ . . لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١].

* وإذا حذفت «اللام» وحدها يبقى: «إله». والإله هو المعبود. قال تعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه: ١٤].

* وفي قولك: «يا ألله» فإن «الألف» و«اللام» ليستا للتعريف، لأن الله هو العَلَم المفرد. إن حرف النداء «يا» لا يجتمع مع «أل» التعريف، لكنه يدخل على اسم الجلالة، فتقول منادياً ربك: «يا ألله».

* وفي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فإن معنى «اللَّهُمَّ» هو «يا الله»، إذ إن «الميم» المشدودة في آخر الكلمة هي عِوَضٌ عن حرف النداء «يا» المحذوف.

* وإذا حذفتَ «الألف» و«لامي المُلْك والملكوت» فيبقى: «هـ»، هاء الهوية الذاتية وقد أُلحِقَ بها «الواو»، مع ضم «الهاء» وإشباعِ مدِّها بالدعاء، فتقول: «يا هُو»، وهو اسم ضمير للغائب الحاضر.

* اعلم أن الضمير «هو» هوَ أعرف المعارف السبع، قائمٌ مقام اسم الله تعالى.

* ولقد استفتح الله سبحانه وتعالى إحدى وثلاثين آية بِـ«هو».

* وكذلك استفتح إحدى وثلاثين آية بِـ«وهو».

* ولا تتقدم أسماءُ لله الحسنى على اسم (الله)[1]، لكن الضمير «هو» يتقدم عليها كلها.

(١) مصدر: كتاب «ولله الأسماء الحسنى» لأحمد عبد الجواد ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

اللّه
في اللغات الساميّة والديانات السماوية
الله، إلوهيم، إله، إلاه، إيل (ئيل)، إيلي، إلى

هل إن اسم الحق تبارك وتعالى «الله» خاصٌّ بالمسلمين وحدهم؟ وباللغة العربية والعرب وحدهم؟ أم إنه يوجد أيضاً في الديانات الكتابية الأخرى: اليهودية والمسيحية، وفي اللغات غير العربية، وبالذات اللغات الساميّة التي تكلم بها موسى وعيسى (ع)؟

هذا الأمر خطره كبير. فإذا ثبت أن اسم الجلالة «الله» موجودٌ هو بعينه في الأديان الكتابية الثلاثة جميعاً، وفي لغات مَن دانوا بها عند تنزيلها، فإن ذلك سببٌ وجيه لاستعمال كلمة «الله» وحدها، في الزمن الحاضر، من قِبَل أبناء هذه الديانات الثلاث، بل وفي العالم أجمع، اسماً واحداً لا غير للمولى عزّ وجل، مادام الاسم موجوداً، على وجه اليقين، في كل هذه الديانات واللغات في أصلها الذي نشأت فيه ولا تزال، وبدلاً من أن يقال مثلاً (God) بالإنكليزية، أو (Dieu) بالفرنسية، أو (Gott) بالألمانية. لا بل إن استعمال كلمة «الله» يصيرُ، حينئذٍ، واجباً محتّماً على جميع عباد الله على وجه الأرض.

هو أمرٌ ضروري لا بدّ أن نتحقّق منه، حتى لا يظنَّ ظانٌّ أن الله تعالى الذي يعبده المسلمون هو غير الإله الواحد الذي يعبده اليهود، والذي قد يطلقون عليه، وكما سوف نرى، اسم «يهوه»، أو أنه غير الإله الذي يعبده المسيحيون في الغرب باسم «God»، وما إلى ذلك. ذلك لأن هذه الفكرة، في حقيقة الأمر، وبالاستناد إلى

الحجج والبراهين التي سوف نسوقها بعد قليل، هي خاطئة أولاً، ثم إنها مدعاةٌ لتفريق عباد الله بدلاً من أن تجمعهم على كلمة التوحيد، وهي وبعد ذلك كله وأهم منه، تجعل الأمر يبدو وكأنّ هناك آلهةً عديدين، وأن ما يعبده هؤلاء هو غير ما يعبده الآخرون. ولَعمري أنْ لو اجتمع الناسُ على كلمة «الله» تعالى وحدها لاجتمعت قلوبهم بالتوحيد، وبالمحبة لكل بني الإنسان، ومن غير ما يكدّرُ على سكان الأرض حياتهم من تفرقةٍ، أو كراهيةٍ، وحساسيّات ظاهرة أو مُضمَرَة.

حقاً إن هذا الموضوع لَخطير، لأن القارىء المتفحص للكتابات الغربية يبدو له وكأن «الله» تعالى هو رب العرب والمسلمين وحدهم دون سواهم، وأنه غير المعبود الذي يعبده اليهود والمسيحيون.

الدليل على ما نقول

١ ـ **تفتح قاموس «وبستر»** (Webster)، وهو من أشهر المعاجم الإنكليزية، على كلمة (Allah) «الله»، فتجد ما يلي:

[Allah in the Moslem religion, the one Supreme being; God [Arabic]].

أي: [الله: في ديانة المسلمين، هو الكائن الأعظم [عربية]].

وتشير الكلمة بين القوسين إلى أن أصل الكلمة عربي.

٢ ـ **وتفتح موسوعة «كوليير»** (Collier) الأمريكية فتجد:

[Allah, the name of the Supreme being in the Islamic religion. The word is a contraction of the Arabic al-ilah («the God»). The idea and the word are rooted in primitive arabian tradition in which traces of a simple monotheism are evident].

أي: [الله هو اسم الكائن الأعظم في الديانة الإسلامية، وهذه الكلمة هي اختصارٌ لكلمة «الإله». ويرجع أصل الفكرة والكلمة كلتيهما إلى التقاليد العربية البدائية، حيث تبدو آثار فكرة التوحيد البسيطة جليّة فيها].

* هكذا يتضح أن المصادر الغربية تقرّر بأن كلمة «الله» خاصّة بالدين الإسلامي والمسلمين وحدهم.

* ثم إنها تضيف بأن أصلها عربي.

* لا بل إنها قد تُرجِعُ أصلها إلى «التقاليد العربية البدائية»!

وأمّا أن تكون الكلمة نفسها موجودةً في الديانة اليهودية والمسيحية، وفي اللغات الساميّة القديمة التي كان يتحدث بها موسى وعيسى (ع)، فذلك أمرٌ لا تذكره تلك المراجع المعتبرة، فكأنه لم يُعرَف ولم يوجد. فصار المسلمون، في رأي هؤلاء، وكما قال العلامة أحمد ديدات: «وكأنهم يعبدون غير الواحد القهّار، وغير الله الذي يعبده اليهود والنصارى والذي يجب أن يعبده الجميع».

* وصار من الضروري أن نتتبع هذا الموضوع في مَظانّه الأصلية، من الأديان الكتابية واللغات الساميّة، لتبيان حقيقته ونشرها.

* * *

* أطلق قدماء **الفينيقيين** على إلههم اسم «ألّلون» (Allon). قال ديدات: هذا الاسم لا يبعد عن لفظ (Allah)، لو تمكّنّا فقط من سماعه ملفوظاً.

* وجاء أن **الكنعانيين** كانوا يسمون الله تعالى: «ايل».

* أسماء الله تعالى، **في اللغة العبرية، وعند اليهود في «العهد القديم»**:

١ ـ «إيل» أو «ئيل».

٢ ـ «إله».

٣ ـ «ألاه» أو «ألوه».

وهي، كلها، تعني «الله».

* وتضاف اللاحقة «يم» إلى الكلمة العبرية فتعطيها معنى الجمع الذي يدل على التعظيم والتبجيل في هذه اللغة، وهو غير جمع العدد.

ففي العبرية نجد «إلوهيم»، أي «إلوه ـ يم»، أو «الله» بصيغة جمع التعظيم.

يقول ديدات: هذا يُثبت أن «إيل» أو «إله»، أو «إلوهيم»، ليست ثلاث كلمات مختلفة أصلاً، فجميعها تمثّل الكلمة العربية الوحيدة «الله».

Elohim = El = Elah = El - Alah

وإليك الدليل

من «مرجع سكوفيلد للكتاب المقدس الإنكليزي نسخة الملك جيمس»، وهو طَبَعَهُ القسيس «سكوفيلد»، مع شرحه وتعليقه عليه، وهو أستاذ في علم اللاهوت يحظى باحترامٍ كبير بين علماء اللاهوت في العالم المسيحي. وقد ساعده في طبعته الجديدة والمنقحة لهذه الترجمة ثمانية من ألمع أساتذة اللاهوت.

جاء في أول صفحة من هذا الكتاب، وتحت عنوان «التكوين»، أي «سِفْر التكوين»، وهو أول ما يبتدىء به «العهد القديم»، أو «التوراة»، ما يلي:

[Genesis

In the begining God created the heaven and the earth.

(1) Elohim (sometimes El, or Elah), English form «God» formed from El, and Alah].

أي: [في البداية خَلَق الربُّ[1] «God» السماء والأرض.

(١) «إلوهيم» (أحياناً «إيل»، أو «إله») تعني الله، وهي أصلُها «إل» + «الاه»].

* وأقول: فهل مِنْ فرقٍ بين كلمة «ألاه» (Alah) هنا، وكلمة «الله» العربية التي تكتب (Allah)؟ كلا وأبداً. اللهم إلاّ أن الغربيين لا يلفظون «الهاء» في كلمة «الاه»،

(١) توجد صورتان مستنسختان للصفحتين القديمة والجديدة من المرجع المذكور، بعد حذف كلمة «Alah» منها، وتجدها في كتاب «مجموعة كتيّبات في مقارنة الأديان» لأحمد ديدات (١٩٨٩)، ص ٢٨ و٢٩.

فإنْ نَطَقَ بهذه الكلمة أحدُهُم فإنك لا تسمع، في حقيقة الأمر، سوى كلمة «الله» نفسها، ولا غيرها، وإنما بلسانٍ غربي، وبكل ما تحمله كلمة «الغربي» من دلالات على اختلاف تلفّظه عن العربي، لا بلسانٍ عربيٍ مبينٍ أصيل.

إلغاء كلمة «Alah» من «الكتاب المقدس»

لكن الطبعة التي تلت تلك الطبعة التي تحدثنا عليها استبدلت مشاركين آخرين بدل المحررين الأوّلين، وهي قامت بحذف الكلمة «Alah» من الشرح المذكور(١).

*** في معجم «وبستر» (Webster) الإنكليزي:**

[Elohim - God: Hebrew name used in the old testament [Hebrew Elohim, pl. of Eloah God].

أي: [إلوهيم: الاسم العبري المستعمل في «العهد القديم» للدلالة على الله «God»، وهو مشتقّ من العبرية: «إلوهيم» جمعٌ لكلمة إلاه، أي الله].

[Elohist n. the auther of those portions of the pentateuch that are characterized by the use of Elohim for God in stead of Yahweh or Jehova].

أي: [إلوهي: هو كاتب تلك الأجزاء من الكتب الخمسة ـ أي التوراة(٢) التي تتميز باستعمال كلمة ألوهيم للدلالة على الله بدلاً من كلمة «يهوه» أو «جهوڤا»(٣).

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) «الكتب الخمسة» (Pentateuch) في معجم وبستر: هي الكتب الخمسة الأولى من «الكتاب المقدس» أي من «العهد القديم»، وهي نفسها «التوراة»، أي (شريعة موسى). لكن كلمة «التوراة»، بعدئذٍ، صارت أيضاً تطلق أحياناً على «العهد القديم» كله.

(٣) تشير الكتابات العبرية إلى اسم الله تعالى بمجموعةٍ من ٤ حروف تكتب: (ي هـ و هـ)، أو (JAVH, JHWH, YHVH, or YAHW)، وكانت هذه الحروف تنطق منفردة من دون نطق الكلمة التي تتكون منها، وهم يقولون إنها تمثل الاسم المقدس لله تعالى الذي هو أقدس من أن ينطق به، وهم قرأوها بعدئذٍ: «يهوه». على أن «يهوه» يذكر خطأ باسم «جهوڤا» (Jehova) (مصدر: معجم وبستر). ولقد بيّن العلامة أحمد ديدات كيف أن الغربيين قد حولوا حرف الياء إلى حرف الجيم حيث لا جيم هناك: =

* ويقول ديدات: يتباهى جماعة «شهود يهوه» بأن الأحرف «ي هـ و هـ» قد وردت في مخطوطات «الكتاب المقدس» العبرية ٦٨٢٣ مرة، كما وردت مصاحبةً لكلمة «إلوهيم» ٦٥ مرة في «سفر التكوين»، وأن هذا الجمع بين «يهوه/ إلوهيم» قد تُرجِم بصيغةٍ ثابتة في «الكتاب المقدس» بالإنكليزية بمصطلح (Lord God)، إلى ما لا نهاية، أكثر من ٦٠٠٠ مرة في المخطوطات العبرية لكتاب اليهود المقدس الذي يطلق عليه اسم «العهد القديم». فإذا تمّ الاعتراف الواسع بهذه الحقيقة من قبل العلماء، وقاموا بنشرها كما فعل القس سكوفيلد، فإن اليوم الذي يَعْبُدُ فيه الله، المسلمون والنصارى سوياً، لن يكون بعيداً.

ولكن في الوقت الذي يقول المسيحيون فيه إن بحوزتهم ما يزيد على ٢٤ ألفاً من النسخ الأصلية لكتابهم المقدس باللغة اليونانية، فإنه لا توجد هناك مخطوطة واحدة مكتوب فيها اسم «يهوه». لكننا نجد، دائماً، كلمة «الله» في «العهد الجديد».

الله في كل «إنجيل» وفي كل لغة

* قال ديدات: «ليس هناك خلاف في أن كل أمّة، وفي كل لغات العالم، قد أعطت اسماً مميزاً لله، ومعظم هذه الأسماء هي أسماءُ صفاتٍ تُظهِرُ صفةً من صفات الله. ولكن اسم الذات لله تعالى، في اللغات الساميّة، أي في اللغة الأم لموسى وعيسى ومحمد (ع) هو الله! ولا يزال هذا الاسم باقياً في «العهد الجديد» في كل لغة

= يهودا Yehuda تحولت إلى Juda.
يوسف Yusuf تحوّلت إلى Joseph.
يونس Yunus تحولت على Jonah.
عيسى Yesus تحولت إلى Jesus.
يهوه Yehowa تحولت إلى Jehova.
ويقول إن يهوه أو يهوڤا أو ياهو= Oh he، وإنها جميعاً تعني الشيء نفسه: «يا» حرف نداء وتعجب في كل من العبرية والعربية. و«هو» ضمير الغائب في اللغتين. والكلمتان تعنيان يا هو!، ولذلك بدلاً من «يهوه الوهيم» يصبح لدينا «ياهو!. الوهيم».

من لغات العالم. ويفتخر المسيحيون بأنهم قاموا بترجمة كتابهم المقدس إلى أكثر من ١٥٠٠ لغة، وعلى الأخص كتاب العهد الجديد. وفي كل إنجيلٍ أقوم بتفحّصه، وبأية لغةٍ كان، فإنني أجد كلمة الله محفوظة في الإنكليزية، والإفريقية، والزولو، والسواحلية».

ما يُروى من شفاه عيسى المسيح (ع)

* «**إنجيل مرقس**» ١٥: ٣٤ يروي أن المسيح (ع) حينما افترض أنه على الصليب قد صرخ بصوتٍ عظيم قائلاً: «إلوي إلوي لما سبقتني» والذي ترجمته: «إلهي إلهي لماذا تركتني».

والعبارة السابقة ترجمةٌ عن المخطوطات اليونانية، طبقاً لما ورد عن القدّيس مرقس، ومن الواضح أن لغته العبرية كانت بلهجة يونانية لأن ما يسمى بمخطوطاته الأصلية كتبت باللغة اليونانية.

* «**إنجيل متّى**» (٢٧: ٤٦)، وهو يفترض أنه كتب إنجيله الذي توجه به إلى اليهود، باللغة العبرية أصلاً:

«صرخ يسوع بصوتٍ عظيم قائلاً: إيلي، إيلي، لما شبقتني»، أي «إلهي، إلهي، لماذا تركتني»[١].

في «الكتاب المقدس» وغيره من المراجع القديمة والحديثة

* جاء في كتاب «**أشتات لغوية**» **لكوركيس عواد** (١٩٩٠)، تحت عنوان: ما انتهى من الأسماء بمقطع «ئيل» أو «ايل» ما يلي:

---

(١) قال «الوي»، و«ايلي».
وكلٌ منهما، وكما رأينا، هو لفظ الجلالة نفسه، أي «إلهي».
ولم يقل «جهوڤا» أو «يا أبتاه».

«ورد في «**الكتاب المقدس**» وفي غيره من المراجع القديمة والحديثة، أسماءٌ أطلقت على أناسٍ هي في جملتها أسماءٌ مركّبة من مقطعين أو أكثر، يَرِدُ آخرها بصيغة ئيل ـ ايل ـ ومعناه «إلاه» أو «الله».

لقد أحصينا من هذه الأسماء جملةً صالحة، ذُكِرَ معظمها في «الكتاب المقدس» وشفعنا تلك الأسماء بتفسيرٍ مقتضب لمعانيها اللغوية، معتمدين في ذلك على **قاموس «الكتاب المقدس»** في طبعته الثانية المنشورة في بيروت ١٩٧١، وعلى غيره من المراجع، وثبّتناها على السياقة الهجائية». ومن الأسماء التي ذكرها: إسرائيل، جبرائيل، رافائيل، شموئيل، صموئيل، عزرائيل، عمانوئيل، مانوئيل، ميخائيل، نثنائيل، نوئيل، يوئيل، وهلمّ جرّا.

أقول: ومثلها ما يوجد في العربية، ومنها أسماء الملائكة المعروفة.

* وجاء في **كتاب «معجم الدخيل في اللغة العربية»** لطه باقر: ذهب بعض المفسرين مثل الرازي إلى أن كلمة الله أصلها **سرياني أو عبراني**، والصحيح في تأصيل هذه الكلمة المهمة ألا يقتصر على أنها سريانية أو عبرانية فقط، وإنما هي من الكلمات الموجودة مشتركة في جميع ما يسمى باللغات السامية (العربية القديمة) وأقدمها تدويناً الكتلة الشرقية في وادي الرافدين التي سميناها **الأكدية (البابلية والآشورية** بأدوارهما المختلفة). فيطلق على كلمة الرب في هذه اللغة لفظة «ايلو» (بالضم) وتجمع على «آيلي» (في حالتي النصب والجر)، و«ايلو» في حالة الرفع وبهيئة «ايلاني» على الاطلاق (منذ العهد البابلي الوسيط، في منتصف الألف الثاني ق.م.).

على أننا لا بد أن نذكر أن «الكتاب المقدس» (Bible)، أي «العهد القديم+ العهد الجديد»، لم يُنقلا إلى العربية حتى القرن العاشر الميلادي، فلم يمكن لأي عربي قبل السنة ١٠٠٠م أن يتفحّص ذلك الكتاب ويقرأه بلغته العربية، لكننا نجد أن كلمة «الله» تعالى قد وجدت في اللغات الساميّة القديمة كلها، كالعبرانية، والفينيقية، والكنعانية، وغيرها، منذ القديم، مثلما هي وجدت لدى العرب القدماء.

هَلِّلُو يا! (= أَلِّلُو يا!)

يهتف المسيحيون بالكلمة العبرية «Hallelujah» أو «Alleluia».

* يقول «المورد» إن معناها «سَبِّحوا الرب»، وهي نصرانية.

* ويقول «المنجد» ١ ـ هَلَّلَ، تهليلاً: سَبَّحَ، قال هَلّلُو يا(عبرانية).

٢ ـ قال «لا إله إلاّ الله»، وهو مأخوذ من الهيللة، كالبسملة والحَوْمَلة، يقال سَبَّح فلانٌ وهلّل.

* وقال «الوجيز»: هلّل الرجلُ: قال لا إله إلاّ الله.

* وقال معجم «وبستر» إنّ معنى «Hallelujah» هو:

«Praise ye the Lord!»، أي سَبِّحُوا الله!

وإنها مشتقة من الكلمتين العبريتين:

Hallelu (= praise) + Yah (= Jehova)

*وأقول إن «هللويا»، أو «اللويا»، استناداً إلى ما تقدم، وقبل ذلك من لفظها الذي نسمعه، تقول: هَلِّلوا لله، أو هلّلوا له، أي قولوا لا إله إلاّ الله. لا بل إن لفظ «هللويا» غيرُ بعيدٍ وقعُه في الأذن عن قول «لا إله إلاّ الله» نفسه، وهي في الحالين لها المعنى ذاته.

* * *

لن يخفق المسيحي، أو اليهودي، المنصف من التعرّف على أن كلمة «الله» ليست شيئاً آخر يختلف عن كلمات El, Eli, Alle, Elah, Alah or Eloah، الموجودة عنده. تباركَ اسمُ ربِّكَ ذي الجلالِ والإكرام.

محمّدٌ (ص) رسولُ الله
في «العهد القديم» و«العهد الجديد»

* ورد ذِكرُ «محمدٍ» في «العهد القديم»، بالاسم، في سفر «نشيد الإنشاد» ١٦ : ٥ (Song of Solomon).

ولقد استُعملت فيه الكلمة العبرية «محمديم»، في العبرية، (Muhammudim). والياء والميم، أو (im)، وفي آخر الكلمة، هي في العبرية صيغة جمعٍ لإظهار الاحترام والتبجيل. والجمع هنا هو جمعٌ للتعظيم، والتبجيل، لا جمعٌ للعدد.

وبعد حذف «يم» فإن الاسم (Muhammud) يصير معناه «المحمود»، أي «محمد»[1].

* قال البروفيسور عبدالأحد داؤود في الصفحات ٥٠ و٥١ و٥٢ من كتابه «محمد في الكتاب المقدس»، وهو كان اسمه قبل إسلامه «القسيس داڤيد بنجامين كلداني» (ليسانس في اللاهوت) ما يلي:

(«ولسوف أُزلزِلُ كل الأمم، وسوف يأتي «حِمَدا» (Himada) لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد، كذلك قال رب الجنود، ولي الفضة، ولي الذهب، هكذا يقول رب الجنود، وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول. . » (الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة ٧ـ ٩).

ولقد قمتُ بترجمة هذا الفقرة المذكورة من النسخة الوحيدة من «الكتاب

---

(١) The choice, Islam and Christianity, by Ahmad Deedat, Vol.1 (1993), p.6.

المقدس» التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنة عمٍّ لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس والتي نجد أنها تَرْجَمَت عن الأصل العبري كلمة «حِمَدا» إلى اللغة «الأمنْية» وكلمة «شالوم» إلى «الإسلام». . عندئذٍ لا بدّ من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار فيها، وأنها مطابقة لشخصية «أحمد» وبعثته بالإسلام. .

لنأخذ كلمة «حِمَدا» ولعلي لستُ مُخطئاً، فإنها تُقرأ باللغة العبرية الأصلية هكذا «في يافو حِمْداث كول هاجُوييم» والتي تعني حرفياً: «سوف يأتي حِمَدا لكل الأمم». والحرفان «ها» في اللغة العبرية يقابلهما في اللغة العربية «أل» للتعريف، أو «لِـ» عندما تكون في حالة الجرّ. .)

* وجاء في **إنجيل** «برنابا» أن «مسيا» أو «المسيح المنتظر» ليس هو «يسوع»، بل هو محمد، وقد ذكر اسم «محمد» (ص) باللفظ الصريح المتكرر في فصولٍ ضافية الذيول، وقال إنه رسول الله، وإن «آدم» (ع) لمّا أُخرِج من الجنة رأى مسطوراً فوق بابها بأحرفٍ من نور:

[لا إله إلاّ الله محمدٌ رسولُ الله](١)

وفي «إنجيل يوحنا»: ١٦: ٧ أن المسيح (ع) أخبر حوارييه، قبل أن يغادر العالم ما نصّه:

«لكني أقولُ لكم الحق
إنّهُ خيرٌ لكم أن أنطلقَ.
لأنه إن لم أنطلقْ لا يأتيكُم **المُعَزّي**(٢).

---

(١) «نظراتٌ في إنجيل برنابا»، لمحمد علي قطب (١٩٨٥).
«المسيحية»، للدكتور أحمد شلبي (١٩٨٤).

(٢) ذكر البروفيسور عبدالأحد داؤود، في كتابه «محمد في الكتاب المقدس»، اسم «الفارقليط» باعتباره ما جاء في «العهد الجديد» بدل كلمة «المعزّي». وكلمة «الفارقليط» مشتقّة من الكلمة الإغريقية =

ولكن إنْ ذهبتُ أُرسِلُهُ إليكم».

والمعزي هو رسولٌ من بعد عيسى (ع).

واستعمَلوا كلمة (Comforter) الإنكليزية مرادفةً لكلمة: «المُعَزِّي» العربية، و (Paracletos) الإغريقية(١).

ولكن هل تَلَفَّظَ السيدُ المسيح (ع) باسم الرسول الذي يأتي بعده فوصفه بـ (The Comforter)؟ أم هل قد أسماه بـ«المُعَزِّي»؟ أم بـ(Paracletos)؟

كلا.

* هو لا يمكن أن يكون قد وصفه بـ«المُعَزّي»، لأن لغته لم تكن العربية.

* ولم يقل (The Comforter)، لأن لغته لم تكن الإنكليزية.

* ولم يسمِّه بِـ (The Paracletos)، لأن لغته لم تكن الإغريقية.

لقد تمّت ترجمة «العهد الجديد» إلى ٢٠٠٠ لغة مختلفة، واخترع المسيحيون فيها ٢٠٠٠ اسمٍ لذلك الرسول الذي يأتي بعد المسيح (ع).

نخلص من ذلك إلى القول بأن كل ما هو موجود من نسخ «العهد الجديد» قد استعمل كلماتٍ متعددة لتسمية الرسول القادم بعد المسيح. كلماتٍ مُتَرْجَمٌ معناها. وإذا كان أقدمُ ما وُجِدَ منها هو باللغة الإغريقية فإنها ليست اللغة التي تكلّم بها المسيح (ع).

= «بارقليطوس»، ومعناها حسب قاموس الاسكندر دغويقي الفرنسي: الأمجد ـ الأشْهَر ـ المستحقّ للمديح، وهي تعني بالضبط ما يعنيه اسم «أحمد» باللغة العربية، أي المشهور والمُمَجَّد. ويقول في الصفحة ٢٢٣ من كتابه: «إنّ الدلالة الحرفية للإسم اليوناني بارقليطوس تعادل بالدقّة ودون شك كلمتي: أحمد ومحمد». ويقول: «ومن المدهش أن هذا الاسم الفريد الذي لم يُعْطَ لأحدٍ من قبل (وهو أول اسم عَلَمٍ عُرِفَ بهذه الصيغة في تاريخ البشر) كان محجوزاً بصورةٍ معجزةٍ لأشهر رُسُل الله وأجدرهم بالثناء ـ ويقصد المؤلف عبدالأحد داؤود هنا الرسول محمداً (ص) ـ وهو أهمّ معجزة جاءت لصالح الإسلام. ونحن لا نجد أبداً أيّ يوناني كان يحمل اسم برقليطس ولا أي عربي كان يحمل اسم أحمد».

(١) تكاد تكون كلمة «أحمد» أو محمد» ترجمة لهذه الكلمة. انظر ملحوظات عبد الله يوسف علي في ترجمته للقرآن الكريم.

ولقد عقد العلامة أحمد ديدات، في كتابه الذي ألمعنا إليه في الحاشية الأخيرة، فصلاً ضافياً في هذا الموضوع، بيّن فيه بالدليل القاطع، والبيان المُجلِّي، أن الرسول المقصود بعد السيد المسيح (ع) هو رسول الله محمد (ص).

كيف وقد قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿. . وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦].

ولقد وصف تعالى نبيّه الكريم، في كتابه العزيز، تارةً باسم «محمد» (ص)، وأخرى باسم «أحمد»، ولا شكّ أن كلماتٍ من مثل «المُعَزّي»، و «Comforter»، وغيرها كثير، إنما أصلها العبري، في لغة المسيح (ع)، في الإنجيل المفقود قد كان «أحمد» لا غير، ولن يكون بإمكان أحدٍ أن يبرهن على غير ذلك.

في الموت والحياة

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ . . ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ . . ﴾ [المُلك: ٢]

تلخّص هاتان الآيتان حكمة الموت والحياة: إنه الامتحان. وأيُّ امتحانٍ هذا؟ إنه الامتحان العسير، بل والمصيري، والذي يبتدىء منذ ولادة الإنسان وحتى أن يتوفاه الله. والنتيجة؟ إنها الجنة أو النار خالداً فيها! فما أعظمه من امتحانٍ لا يقف معه، في حقيقة الأمر، في أهميته ورهبته، أيُّ امتحانٍ آخر نعرفه.

فحُقَّ لك يا أخاه أن تتفكر الآن في هذا الأمر مَلِيًّا، ثم تحزمَ أمرك من غير تسويفٍ أو ضلالات كاذبة، حتى لا تكون النتيجة فشلك الأبدي في الامتحان!.

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ . . ﴾ [النساء: ٧٨].

فما ينجو مِنَ الموت مَنْ خافَهُ، ولا يُعطَى البقاءَ مَنْ أحبّه، كما قال الإمام علي.

﴿ . . وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ . . ﴾ [لقمان: ٣٤]، وهيهات أن يدّعي مخلوقٌ غير ذلك.

فأمّا الموت فقد كتبه تعالى على كل ابن آدم، وكل الأحياء، لا بل وكل مخلوق، فحتى الكواكب، والنجوم، والمجرّات، تموت. وهو لا مهرب منه ولا خلاص، وهذا من دلائل تفرّد الخالق عزّ وجلّ بالأُلوهية، فهو المحيي وهو المميت، وعلى عبودية المخلوقات كلها له.

والأجل المحتوم الذي ينتهي إليه كل مخلوق هو أبلغ وأصلح تذكار للإنسان بعبوديته لله وعلى شدّة ضعفه وقلّة بل وانعدام حيلته، حتى لو كان ذلك يتعلّق بحياته هو نفسه! وهو مدعاةٌ له إلى أن يخشى خالقه، وأن يعمل من أجل مرضاته في كل حين (واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)، وأن يلتفت إلى بني رحمه وإخوته في الإنسانية بالرحمة والتواضع، وبأن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، إذ إن كل إنسانٍ آخر هو أخٌ له في الدين أو نظيرٌ له في الخَلْق، وأن يُطامِنَ من كبريائه ويكسر من حِدّة طغيانه ويُغالب جُموح أهوائه.

وكلنا يعلم ما قد يتطاول إليه الإنسان في غلوائه وكبريائه وعنجهيته، فينسى أنه إنسانٌ كبقية الناس من خَلْق الله، وأن للآخرين أحاسيسهم وأفكارهم وحقوقهم. والظلم في هذه الحياة شائع، وصور الظلم والافتئات على حقوق الآخرين كثيرة، بل وعلى ما هو أقدس من ذلك وأثمن، ألا وهو حياة الناس أنفسهم، وإذا كان تعالى قد حرّم على الإنسان أن يقتل نفسه فكيف يُبيح الآخرون لأنفسهم أن يقتلوا هذه النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق؟

ولئن ضَجَّ عبادُ الله من الظلم على أرض الله، ولَجَّ الظالمُ في عتوّه وتجبّره وهو يعلم علم اليقين أنه صائرٌ إلى الموت لا محالة، وأنه سائرٌ إلى الحفيرة لا ريب، وهي من بعدها حساب وأي حساب، فأين عساه كان يصل في عتوّه وكفوره لو قد وهبه الله تعالى الخُلد في هذه الحياة؟

حقاً إنه لأمرٌ مُريعٌ. فإن من رحمته تعالى أن قد جعل لأعمار عباده حدوداً! ولو قد علم الناس، كل الناس، أنْ لا موتَ من ورائهم لاشتدّوا في طغيانهم وبما قد لا يُتَصوَّر!

والإنسان، أي إنسان، لا يعلم أين؟ ومتى؟ أجَلُه. وذلك من رحمة الله تعالى بعباده. وآية ذلك أنه لو قد علم الناسُ آجالهم لهجروا كل ملذّاتهم وشهواتهم، بل وانقطعوا عن معايشهم وضروراتهم، خوفاً، وجزعاً، ورهبةً، وانتظاراً قلِقاً لذلك

اليوم، بل ولنغّص عليهم ذلك حيواتهم كلها، فعادت بسنيِّها، وأيامها، ودقائقها، وعلى نحو يتزايد مع مرور الوقت، كالجحيم، وبما يشبه الجنون أو هو الجنون بعينه!

إن مِن بعض الناس، بل وأكثرهم، مَن قد تراه ماضياً في حياته لا يلوي على شيء، سادراً في غيّه، غارقاً في لهوه، قد ترك ربّه وضميره وراءه ظهريّاً فكأنهما لم يوجدا! وكأنما ليس هناك من موتٍ بعد هذه الحياة، ولا بعث، ولا حساب، ولا جنّة، ولا نار! وأعجب بمن يهتم بالشاردة والواردة، والحبّة والقيراط، وبمن يتوهّمُ نفسه إلهاً أو كالإله، أو هكذا يظن بعض من ينظرون إليه، ثم هو لا يهتمّ لآخرته أو لربّه أو حتى لنفسه!

أو هو قد يترك حياته كَمّاً مهملاً تتقاذفه النشوات والسَكَرات والموبقات، أو العبث والتفاهات، وأعجبُ منه مَنْ قد لا ترى فيه أنه قد فطن إلى شيءٍ ينقصه، فأما وأنه قد لبّى احتياجاته الغريزية الطبيعية فإن سعادته تامّة غير منقوصة، وكأنه في حصنٍ حصين من موتٍ وحساب، وأنه عائشٌ أبد الدهر، وكأن الأمر كله لا يحتاج منه أن يتفكّر في أمره ولو لدقائق معدوداتٍ أو حتى لطرفة عين! ومنهم من تراه ساخطاً في كل حين، نادباً حظّه شاكياً كل شيء. وإذا كانت الحياة اليوم على وجه الأرض تموج بالظلم، ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وبالبلايا والأوصاب والأسقام، فإن علينا أن نتذكر في كل حين أن أثمن ما في هذه الحياة التي وهبها الله تعالى لنا هي هذه الحياة نفسها، بكلّ نعمها الظاهرة والباطنة، مما قد نعلمه أو ممّا لا يخطر على بال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

آتى تعالى الإنسان كل ما يحتاج إليه في حياته من الضروريات، بل وأكثر من ذلك، فهو قد وهبه من أسباب الرفاهية الكثير الكثير ممّا قد لا ينتبه إليه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ . .﴾ [الأعراف: ٣٢].

إن الحياة لهي منحةٌ ثمينة امتنّ الله تعالى بها علينا، ولقد خلقنا وصوّرنا في أحسن تصوير، ومنحنا السمع والبصر والفؤاد، و. . و. . ، وخلق لنا كل شيءٍ على وجه الأرض، وجعلها لنا ذَلولاً، ووهبنا بهيمة الأنعام. فَحُقَّ لذلك كله أن نستشعر عظمة هبة الحياة التي وهبها لنا واهبُ الحياة سبحانه، فنعيش كل أوقاتها وأيّامها ودقائقها جديرين بما قد خلقه لنا تعالى، وبكل العرفان، والجلال، والسعادة، وبقلوبٍ ممتلئةٍ بالغِبطة على ما وهبها الله، ومُترعة بالمحبة لله وفي الله، وبحب الوجود كله، وفوق ذلك كله الشكر لله الخالق الوهّاب على نعمته علينا بأن خلقنا في هذه الحياة الجميلة، الثمينة، العظيمة، وتسبيحه في كل حين، كما قد سَبَّحَ له كل شيء!

ولقد جاء عن رسول الله (ص) أن الله تعالى يحبّ لعباده معالي الأمور، ويكره لهم سَفْسافَها. فحُقَّ للمؤمن أن يتطلّب لنفسه وأهله وإخوانه الذروة من الحياة الرفيعة، المجيدة، الكريمة، السعيدة، العارفة لربّها ونفسها حقّ المعرفة، والمستشعرة بالعبودية الحقَّة له وحده سبحانه.

ونَخْلُصُ من ذلك كله إلى أنه قد وجب على كل عاقلٍ لبيب أن يحيا حياته بأحسن ما يكون، متنعّماً بأنعم الله تعالى، من نِعَمٍ ماديةٍ وروحية، مما لا يُحصى، شاكراً لأنعمه في كل حين بعبادته، مُطيعاً لأوامره، مجتنباً لنواهيه، مترفّعاً عن الدنايا، طامحاً نحو المجد، من غير ما جشعٍ أو طمع، ومن غير إفراطٍ أو تفريط، مُحِبّاً في الوقت نفسه لأخيه الإنسان كمحبته لنفسه، راحماً إياه، مُطامناً من كبريائه، صادّاً لجُموحه، ومدركاً أن خالق الموت هو نفسه خالق الحياة، وأن واهب الحياة هو وحده مالكها، فلا يذلّ لغيره وقد جعله الله حراً، وأن يستعدّ لأخراه بقدر استعداده لدنياه، بل وأكثر من ذلك، كيف وقد قال رسول الله (ص): «اعملْ لدُنياك كأنك تعيشُ أبداً، واعملْ لآخرتك كأنك تموتُ غداً».

وٱنظرْ إلى الإنسان، في قوّته وجموحه، وهو يقهر الصِّعاب، أو يسبح في

الفضاء، ثم انظر إليه في ضعفه وهوانه، «تقتله الشرقة، وتؤلمه البَقَّة»[1]. ووخزةٌ من إبرةٍ أو شوكة، أو عِلّةٍ بسيطة، أو غضبةٍ تافهة، قد تُنسيه الدنيا وأفراحها، والحياة وما فيها، وانظر كيف تستفِزُّه الكلمة العابرة! أو تتملّكُه الفرحة الصغيرة! أو يشغله العبث الذي لا معنى له!

انظُرْ إليه في أوقاته كلها، لا ينفكُّ متحوّلاً من حالٍ إلى حال، بين الارتفاع والانخفاض، والنور والظِّل. انظر إليه مِنْ مخلوقٍ ضعيف، تتوزّعه الدنيا بين حالات وحالات، فهو لا ينفكُّ بين الآمالِ والآلام، والأفراحِ والأتراح، والراحة والوَصَب.

انظر إليه إذا اخترمته المنيّة، إذ «هو على جناحٍ من فراقِ الدنيا، وترك الأحبّة، إذ عَرَض له عارضٌ من غُصَصِهِ، فتحيّرَتْ نوافذُ فطنته»[2].

انظر كيف «تجتمع على الغافلين سكرة الموت وحسرة الفَوْت»[3].

«أكثِر من ذكر الموت، وذِكْرِ ما تَهْجُمُ عليه، وتُفْضي بعد الموت إليه، حتى يأتيك وقد أخذت منه حِذْرك، وشَدَدْتَ إزْرَكَ، ولا يأتيَكَ بغتةً فيبْهَرَك»[4].

ولا تَكُ يا أخي من الذين ألهاهم التكاثر في متاع الدنيا، فإذا به، ما بين غمضةِ عينٍ وانتباهتها، يُحْمَلُ إلى دار غُربته، ومُنْقَطَع زَوْرَتِهِ، في قبره، فتكون من الذين قال تعالى فيهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ و٢].

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) من كتاب «نهج البلاغة» للإمام علي.

ونحنُ أقربُ إليه من حبل الوريد

١ ـ ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ .
وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ .
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥].
٢ ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ .
إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ .
مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨].

يا لله! إن الله تعالى أقربُ إلى أحدنا من أقرب القريبين إليه، يدلّنا ذلك قوله سبحانه: (ونحن أقربُ إليه منكم ولكن لا تُبصِرون)، لا بل هو أقرب إلى أحدنا من حبل الوريد، بنصّ الآية. وحبل الوريد هو «الوريد الوِداجيّ» (Jugular Vein) في الرقبة، والذي يعود بالدم من الدماغ إلى القلب. فالخالق سبحانه يعلم ما نُخفي وما نعلم، وهو يعلم حتى وسوسة الإنسان لنفسه، أي ما تحدّثه به نفسه، ثم إن هناك مَلكيْن حافظيْن يسجّلان الحسنات والسيئات، يجلس أولهما عن يمين الإنسان بينما يجلس ثانيهما عن يساره. والرقيب العتيد: الحاضر المهيّأ، والآية توضيحٌ وتوكيد لكتابة الملَكيْن، وأنه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلاّ أحصاها، كما في الآية ٩ من سورة الكهف.

وتعتمد حياة الإنسان على القلب، تلك المضخة النابضة التي تضخ الدم ٧٢

مرة في الدقيقة الواحدة، في المعدل، إلى مائة ألف مليار خليّة[1] تُكوّن جسم الإنسان، أي ما يعادل ٣ آلاف مليون نبضة في عمر الإنسان. قارن تلك الحقيقة بحقيقة أن توقف القلب لمدة ٣ ـ ٥ دقائق وحسب يسبب نقصاً خطيراً في كمية الأوكسجين الواصلة إلى الدماغ بما يؤدي إلى موت الدماغ، وبما لا إمكانية معه لعودته إلى وظيفته الطبيعية[2] حتىٰ لو عاد القلب إلى نبضه الطبيعي.

وكيف يمكن أن تكون قريباً من الإنسان بأكثر ما يكون القرب؟

ليس هناك ما هو أقرب من أن تكون مجاوراً له ولصيقاً به. ولكن الله تعالى أقربُ إلى الإنسان من ذلك، كيف وهو الذي خلقه. إنه يعلم عنه كل شيء، لا بل كل ما تحدّثه به نفسه.

وإذا كان الفعل يظهر إلى حيّز التنفيذ من بعد قيام النيّة، وهي من علم الغيب الذي لا يعلمه غير صاحبها إلاّ الله تعالى، فإن هناك من قبلها أموراً. فالنيّة هي أن تعقد العزم علىٰ شيءٍ ما، وهي نتيجةٌ لإعمال الفكر، وأول الفكر «وسوسةٌ» أو خواطر ترد على فكر الإنسان، وهو قد يطرحها من الوهلة الأولى أو هو يَزيد التفكّر فيها من قبل أن يصل إلى نيّةٍ ينتويها. فحديث النفس، أو «الوسوسة»، هي أصل كل فعلٍ ومبتدؤه. وخطرات الإنسان التي لا يُفصِحُ عنها لأي شخص، خصوصاً وأنها خطراتٌ عابرة لا تعلق في الذهن، تبقىٰ في ضمير الغيب الذي لا يعلمه إلا خالقه. والله تعالىٰ مُطّلِعٌ علىٰ هذه الوسوسات، فكيف بالأفكار المنظّمة، ثم كيف بعقد النيّة، ثم العمل؟ ثم كيف تكون قريباً إلىٰ الإنسان بأكثر من أن تكون مجاوراً له ولصيقاً به؟ يكون ذلك بأن تكون قريباً من فكره، أي من دماغه، والأخير يعتمد كليّةً في قيامه بوظائفه على القلب، الذي هو بحق نبض حياة الإنسان الذي يقع في المركز منه. ولئن كان القلب أشبه بتاجٍ يقع في المركز من جسم الإنسان، فإنما هو في حقيقة

---

(١) Guyton Textbook of Medical Physiology, W.B. Saunders (1991), P.9.

(٢) ولذلك فإن الموت، في التعريف الحديث، هو موت الدماغ، وليس هو توقف القلب عن عمله. ونحن قد نجد، حسب هذا التعريف، في الميت، قلباً ينبض ويضخّ الدم.

الأمر خادمٌ مطيع لصاحب التاج الحقيقي ذلك الذي يتربع في أعلاه، وفي الرأس منه: الدماغ.

وتوقّف القلب عن أداء وظيفته في تجهيز الجسم بالوقود، والدماغ بالذات، ولأكثر من دقائق معدودات يتبعه فقدانٌ سريعٌ للوعي يعقبه موتٌ لخلايا الدماغ لا يمكن بعده استرجاع وظائفها. إن موت الدماغ هذا هو المقصود بالوفاة في علم الطب الحديث، وفي حكم القانون[١]. فانظر كيف أن القلب هو السبب المباشر، والأساس، لموت الدماغ، مثلما أنه سببٌ مباشرٌ لحياته، حتىٰ صارت حياةُ هذا، في حقيقة الأمر، حياةَ ذاك.

إن هذه الحالة، أي انقطاع القلب عن أداء وظيفته الطبيعية، هي أكثر أسباب الوفيات شيوعاً على الإطلاق، وهي قد تصل إلىٰ ٥٠٪ من مجموع أسباب الوفيات.

ولا عجب بعد ذلك في أن عمل القلب مرادفٌ لاستمرار الحياة. إنه الماكنة التي تضخ الوقود، أو الدم، طيلة عمر الإنسان، وهو يحوي من بين أهم ما يحويه الأوكسجين وسكر الغلوغوز الضرورين لاستمرار وظيفة الدماغ على نحوٍ خاص[٢]. وإذا كانت الرئتان هما اللتان تجهّزان الدم بالأوكسجين وتأخذان منه ثاني أوكسيد الكاربون، وجهاز الهضم هو المجهّز لسكر الغلوغوز وغيره من غذاء، فإن القلب هو مضخّة الوقود من المهد إلى اللحد. هو يضخ الدم «المؤكسَد» النافع، في جهته اليسرى، إلىٰ أنحاء الجسم، بينما هو يستلم الدم الوريدي في جهته اليمنىٰ ليُعيد

---

(١) وعندها قد يسمح القانون باستئصال أعضاء المُتوَفّىٰ لنقلها إلى أُناسٍ آخرين. إن هؤلاء الذين تظل قلوبهم نابضة، وتنفسهم مستمراً، هم الذين تكون أعضاؤهم أصلح ما يكون لنقل.

(٢) إن دماغ الإنسان عضوٌ متفرّد بين أعضاء الجسد كله بصفاتٍ كثيرة، منها أن أي إصابةٍ له تعني فقداناً لمعنىٰ الحياة، وبالمقدار نفسه. ولا يمكن لخلايا الدماغ أن تتكاثر كبقية الخلايا، وهي لا يمكن إصلاحها، كما لا يمكن نقلها من شخصٍ إلى آخر. وما لم يستلم الدماغ، وباستمرار، كميةً كافية من الدم الذي يحمل كمياتٍ كبيرة من الأوكسجين وسكّر الغلوغوز فإنه سرعان ما يتحلل من دون رجعةٍ و«يهضم» نفسه، هذا بينما أن هناك أعضاء في الجسم يمكنها الاستمرار على العمل لفترة من دون أيٍّ من الاثنين.

ضخّه إلى الرئتين من أجل إغنائه بالأوكسجين وتخليصه من ثاني أوكسيد الكاربون هناك. فهو كمن يجيء الخلايا جميعاً بالغذاء ثم هو يعود ليأخذ منها النفايات ليخلّصها منها. ويجيء الدماغ، الذي هو مقرّ الفكر، على رأس أعضاء الجسم في حيويتها الضرورية، إنه أكثر من غيره من الأعضاء قاطبةً حساسيةً لنقص الدم، أو أي نقصٍ في الأوكسجين أو الغلوغوز، إذ إن انقطاع أيٍ منهما يؤدي إلى الوفاة السريعة.

فالقلب هو مخزن الوقود ومضخّته.

والدماغ هو مقرّ الفكر.

والأول ضروري لاستمرار عمل الثاني، لأن ٣ ـ ٥ دقائق من انقطاعه عن عمله تكفي لجعل الثاني ميّتاً، أي وفاة الإنسان نفسه، وبجميع ما فيه، في حقيقة الأمر، وإلى مغادرة روحه لجسده، تلك الروح التي لا نعلم عنها شيئاً.

فصار القلبُ حياةَ الدماغ!

وإذا أنت اقتربتَ من الإنسان بأكثر من ملاصقتك له، بأن صرتَ قريباً جداً من قلبه فلقد ازددت منه قرباً.

وإذا أنت اقتربت منه أكثر من ذلك، باقترابك من دماغه، فلقد صرت إذاً قريباً جداً منه.

وأمّا إذا أنت جِلْتَ فيه، وتغلغلتَ في أعماقه وبين خلاياه، فلقد صرتَ إذاً في داخله هو، وازددتَ بأحواله خُبْراً، وتكون قد عرفت، حينئذٍ، كُنهه وخباياه وما يحدث فيه في التوِّ واللحظة. وكذلك هو الدم الخارج من الدماغ إلى القلب في «حبل الوريد». ثم إن «رسائل» الدماغ الكيمياوية، إلى أنحاء الجسم، من «نواقل» وهورمونات وغيرها تكون قد صَبَّتْ فيه، فهو إذاً يحمل تعليمات الدماغ إلى الجسم فيما عسى أن يقوم به الأخير من استجاباتٍ لكل ما يحيط به ويؤثّر فيه، مادّياً كان أو نفسياً، وهي استجابات لا تثبت على حال، بل هي تتغير في كل دقيقة وثانية، تحكمها في ذلك الحاجات والظروف المتغيرة على الدوام.

* هكذا هو «حبل الوريد»، أو «الوريد الوداجي» الذي يعود بالدم من الدماغ إلى القلب في جهته اليمنىٰ. ولقد صار العرب بعد التنزيل يضربون المثل به في القرب من الشيء.

* وأما «الوتين»، أو «الشريان الأبهر» (Aorta)، فهو يخرج من القلب في جهته اليسرى بالدم ليجهّز الجسم كله. وهو يخرج منه «الشريان السُّباتي»، في أصل الرقبة، ليغذّي الرأس والدماغ.

فكيف نقارن «الوتين» بـ«حبلِ الوريد» بالنسبة إلى الدماغ؟ وما هي الحكمة التي قد نخرج بها من أن الحقّ سبحانه قد قال بأنه أقرب إلى الإنسان من «حبل الوريد»، لا «الوتين»؟

الجواب:

١ ـ «حبل الوريد» هو في الرقبة. وأما «الوتين» فهو في الصدر.

٢ ـ والأول يتصل بالدماغ مباشرة، وهو يحمل الدم منه إلىٰ القلب. وأمّا الثاني فهو لا يتصل بالدماغ مباشرةً، وهو ينتقل الدم منه إلىٰ الدماغ عبر «الشريان السباتي».

٣ ـ والدم في الأول حديثُ عهدٍ جداً بالدماغ، أمّا الدم في الثاني فهو بعيد عهدٍ به، لأن الدم فيه جاء من الدماغ، ثم هو صار إلى جهة القلب اليمنىٰ، فالشريان الرئوي، فالرئتين، فالأوردة الرئوية، فجهة القلب اليسرىٰ، وأخيراً «الوتين».

فالدم الذاهب إلى الدماغ، من خلال الشريان «السباتي»، هو غير الدم الخارج منه من خلال «حبل الوريد»، لأن الأول لم يدخل الدماغ بعد، وأما الثاني فهو قد دار فيه وتغلغل ما بين خلاياه، وهو في أثناء ذلك قد روّاها بالغذاء، ثم هو عاد منها ليس بالنفايات الضارة وحدها بل هو أخذ منها مواد أفرزتها خلايا الدماغ، ومن هذه المواد الهورمونات التي تفرزها «الغدّة النخامية» (Pituatry)، التي تقع في قاعدة الدماغ، والتي يشبّهها الأطباء بقائد الفرقة الموسيقية من خلال تنظيمها وتنسيقها لعمل الغدد الصَّمّاء[١] الأخرىٰ في الجسم. إذ إن مقابل كل هورمون تفرزه غدد الجسم الصماء

(١) أسميت بـ«الصّمّاء» لأنها تصبّ إفرازاتها في الدم مباشرةً، من دون قنوات.

هورمونين اثنين، عادة، تفرزهما الغدّة النخامية، والأول منهما يساعد على تحفيز الغدة الأخرىٰ لإنتاج مزيدٍ من هورمونها، والآخر معاكسٌ له في المفعول، وهو يثبّط من إفرازها. وهكذا هي هورمونات الجسم، تسيطر عليها عمليةٌ شديدةٌ في الدّقة والتعقيد والانضباط، الغرض منها ضبط مستوىٰ كل هورمون، إن صعوداً أو نزولاً، في كل دقيقةٍ من عمر الإنسان، بحسب الحالة المستجدّة، وحسب حاجة الجسم في وقتٍ بعينه.

وهكذا فإن «حبل الوريد»، وعلى قربه الشديد للقلب، هو أقرب منه إلى الدماغ، وبأقرب من «الوتين»، إذ إن الدم فيه هو أقرب ما يكون عهداً بالدماغ، وهو يحمل «تعليماته» من خلال النواقل التي تحدّثنا عليها، وهو ألصقُ به وبوظائفه ومكوناته وما يدور فيه وما توسوس به نفسه.

ونحن نرىٰ، والله تعالىٰ أعلم، أن المقصود بالآية: ﴿. . وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو قرب حبل الوريد من الدماغ الذي هو مقرّ فكر الإنسان، وهي إشارةٌ قرآنية إلى أن الدماغ هو مقرّ الفكر، وهي من معجزات كتاب الله.

وأمّا إشارته تعالىٰ إلى القلب، بقوله: ﴿. . فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإننا نرى، والله سبحانه أعلمُ بمراده، أنها إشارةٌ إلى دور القلب الفاعل، بل والضروري، ضرورة الحياة نفسها، للدماغ.

ونحن نقول: «البصر في العين»، ولا نعني إلاّ أن عملية الإبصار تبتدِىءُ في العين وتحدث في الدماغ.

وكذلك فإن وظيفة الفكر تبتدىء بعمل القلب الذي يضخّ الدم إلى الدماغ، ثم إنها تتم في الأخير.

والذي لا يفكّر على نحوٍ صحيح هو كمن لا فكر له، فكأن دماغه لا يعمل لأنّ لا قلبَ له عاملاً، أي أنه كالميت الذي لا يضخّ قلبه الدم إلى الدماغ، وهو مثل الموت في التعريف الحديث: هو موت الدماغ الذي ينتج عادةً عن توقف القلب عن القيام بوظيفته.

ثم لقطعنا منه الوتين

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ .
وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ .
إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ .
وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ .
وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ .
تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ .
وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ .
لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ .
ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ .
فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقّة: ٣٨ـ٤٧].

أقسم الحقُّ سبحانه بأن القرآن الكريم من وحيه، وأنه لَقولُ رسول الله، رسولاً كريماً أميناً، لم يَزِد فيه حرفاً ولم ينقص فيه حرفاً، ولو افترض أنه تقوّل على الله سبحانه، حاشاه، لانتقم منه، لكنه سبحانه وتعالىٰ وصفه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾، [القلم: ٤] ثم إن الناس قد عرفوه، من قبل المَبْعَث، بأنه الصادق الأمين.

وقلنا بأن «الوتين» هو «الشريان الأبهر»، فماذا عساه أن يكون السبب في ذكره تعالى للوتين دون شرايين الإنسان الأخرىٰ؟

إن الجهة اليسرىٰ من القلب التي تدفع بالدم إلى «الشريان الأبهر» تتقلص بأقوىٰ من جهته اليمنىٰ، ثم إن البطين يتقلص بأقوىٰ من الأذين في كل جهة، لأن الغرض الأساس من تقلص الأذين هو ضخّ الدم إلى البطين لا أكثر، وأما البطينان فإن الأيمن منهما يضخّ الدم إلى الرئتين ولا أكثر، وذلك لغرض أكسدته والتخلص من ثاني أوكسيد

الكاربون فيه، بينما أن البطين الأيسر يقوم بضخّ الدم إلى الجسم كله من خلال «الوتين»، وهي عملية تحتاج إلى قوة دفع أعظم من سواها من أقسام القلب الأربعة، ولذلك فإن ضغط الدم الشرياني هو أعلىٰ من ضغط الدم الوريدي بكثير. ومعروفٌ، وللسبب نفسه، أن النزف الشرياني أسرع وأغزر بكثير من النزف الوريدي، وهو أكثر خطراً منه.

إن قطع أي شريان، ولو كان في اليد مثلاً، يمكن أن يؤدي، إن لم يُسعَف حالاً، إلى الوفاة من طريق فقدان الدم.

وأما قطع «الوتين» فهو أدعىٰ إلى الموت، والموت الفوري حقّاً، لأن القلب سوف يعجز عندها عن ضخّ أية كمية من الدم عبر «الوتين» إلى الدماغ وبقية أعضاء الجسم. إن ضغط الدم، حينئذٍ، سوف يكون «صفراً»، وكمية الدم الخارجة من القلب(١) إلى الجسم سوف تكون صفراً أيضاً(٢).

---

(١) يقال: القلب عضلة. فما هي العضلات؟
هي من ٣ أنواع:
١ ـ عضلات إراديّة «= مخطَّطة»، وهي ما يُعرف بـ«اللحم»، ويوجد منها في الجسم نحوٌ من ٣٣٠ زوجاً، وهي تكوّن ٢/ ٥ من وزن الإنسان. وتتقلص هذه العضلات من طريق إرادة الشخص، بعد وصول حافزٍ إليها بذلك من الدماغ، أو هي تتقلص «انعكاسياً».
٢ ـ عضلات لاإراديّة «ملساء»، وتوجد في جدار القناة الهضمية، وفي جدران الأوعية الدموية، وتحت الجلد، وهي تتقلص وترتخي بصورة لاإرادية «انعكاسية»، وتقوم بالمساعدة على حركة الطعام وهضمه، أو جريان الدم في الأوعية الدموية.
٣ ـ عضلة القلب، وهي عضلة مخططة من نوع خاص، فهي لا توجد إلاّ في القلب، وتتميز عما سواها بأنها لا إرادية في تقلصها، وبأنها مستمرة على ذلك من غير توقف، طيلة عمر الإنسان. يتميز القلب بوجود جهاز نابض، أو منظِّم، في أعلاه يقوم بتوليد شحنات كهربائية منتظمة تسير في القلب عبر ألياف خاصة توصلها إلى جميع أجزاء القلب في الوقت ذاته الذي يحتاج إليه كل جزء منه، وهو ما يشبه عملية تنظيم توقيت إطلاق الشرارات الكهربائية في محرِّك السيارة. إن كل شحنة تسبب تقلصاً، بالتناوب المطلوب تماماً، لجزء من عضلة القلب، للحصول على حركةٍ مُتَّسِقَـةٍ مثلىٰ للقلب تنتهي بأن نحسّ بها كنبضٍ منتظم. إن «تخطيط القلب الكهربائي» (ECG) يقوم بتسجيل فرق الجهد الكهربائي في أجزاء عديدة من القلب، وهي تختلف في الصحة والمرض. إنه تسجيلٌ لفعالية القلب الكهربائية، وهو ليس تسجيلاً لتقلصات عضلة القلب ذاتها، ومن عجبٍ أن هناك إشارات كهربائية أخرى يطلقها الدماغ ويمكن تسجيلها «تخطيط الدماغ الكهربائي» (EEG)، وهي تفيد كثيراً في دراسة وظائف الدماغ في الصحة والمرض. فأعجبْ لتميّز هذين: (القلب والدماغ) بتوليد هذه الموجات الكهربائية عن غيرهما من الأعضاء. فتبارك الله أحسن الخالقين.
(٢) يرجع لون الدم الأحمر لاحتواء الخلايا الحمراء فيه على مادة خِضاب الدم «الهيموغلوبين». وليس =

إنه الموت كأسرع ما يكون.

وقطع «الوتين» يعني الموت الذي لا أسرع منه في الطب.

والآية الكريمة هي بصدد التبيين للناس أن رسول الله (ص) لا ينطق إلاّ بأمر الله ووحيه، وهو معصومٌ عن الخطإ أو النسيان وما شابه، حتىٰ تصل الرسالة الإلَهية، من طريقه، كما قد أراد تعالىٰ أن يبلِّغها رسوله الكريم الذي قال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، لا بل إن الآية نفسها توثيق وتصديق لرسالة المصطفى (ص) بأنها من وحي الله تعالى، إذ لا يجيء بمثل ذلك القول أبداً من هو غيرُ ذلك، كيف وقد قال فيه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وانظر إلى تَمَثُّل كتاب الله تارةً بـ«حبل الوريد»، وتارة أخرىٰ بـ«الوتين»، وهي كلها، عند التّدبّر فيها، تكشف لنا عن حقائق معجزة من معجزات القرآن الكريم.

= من مصادفةٍ أن يكون لون الدم هكذا، فاللون الأحمر القاني فيه لصاحبه ولغيره تحذيرٌ وتخويف، لأن فقدانه هو فقدان للحياة نفسها. وإذا كان فقدان الدم الغزير السريع يسبب فقدان الوعي، فإن مجرد رؤية لونه الأحمر قد تذهب بالمريض أو بمن حوله إلى فقدانٍ آخر للوعي ناجمٍ عن عاملٍ عصبي نفسي. إن الدم هو سائل الحياة التي يجري بها في أجسامنا، واللون الأحمر يثير في النفس الحذر من أن يضيّع الإنسان سائل الحياة هذا أو أن يسفكه حراماً، وهو يغرز فيه، من خلال هذا اللون المثير للأعصاب، سرعة الانتباه إليه وحِدَّته، ذلك أنّ فقدانه يعقبه نعاسٌ فسباتٌ فغيبوبة فوفاة، ما لم يُتَدارَك سريعاً. وتلك هي الحكمة، فيما نرىٰ، من خلق الله تعالى للدم أحمر.

كم من العلم يمكن أن يحوز الإنسان؟

﴿. . وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿. . وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقّة: ٣٨ و٣٩].

كم من الأشياء يمكن أن يعرف الإنسان بذاته، أي من دون عونٍ من غيره، ومن دون وساطةٍ ما؟

إن ما يعرفه الإنسان من هذا الطريق هو من طريق حواسّه، وهي:

١ ـ السمع ٢ ـ البصر ٣ ـ الشمّ ٤ ـ التذوق ٥ ـ حواس الجلد، وهي نوعان:

أحاسيس سطحية هي * الألم (السطحي) * الحرارة والبرودة * اللمس.

أحاسيس عميقة هي * الألم (العميق) * الرَّنين أو الذبذبة * تحديد موضع كل جزء من أجزاء الجسم.

وإننا لنلاحظ أن هناك تدرّجاً في هذه الإحساسات، فمنها ما هو يستدعي ملامسة مصدر الإحساس، كأحاسيس الجلد والذوق، ومنها ما يحدث عن قربٍ شديد، كإحساس الشمّ، ومنها ما هو متوسطٌ في ذلك، كإحساس السمع. ثم يجيء ما هو أبعد منها غوراً، وهو البصر الذي يوصل إليك الإحساس بأبعد الأجسام عنك ما أمكن أن يصل ضوؤهُ إليك. لكننا، إضافةً إلى أننا لا نرى من الضوء إلاّ أقلّه، فإن مصادر الضوء تصغر في رأي العين كلما ابتعدت عنا، وهكذا فإننا لا نرىٰ، مثلاً، من مليارات النجوم في مجرّتنا إلاّ أقل من ٢٠٠ نجم في أحسن الأحوال، فما بالك ببقية المجرات.

إن بعض الحيوانات، كالطيور، هي أَحَدُّ بصراً من الإنسان، كما أن حاسة الشمّ عند الإنسان ضعيفةٌ نسبياً بالمقارنة مع بعض الحيوانات كالكلاب، وكذلك هي حاسة التذوق في اللسان. أما حاسّة السمع عند الإنسان، فإن ما يسمعه محصورٌ بالأصوات التي تقع ذبذبتها ما بين ٢٠ إلى ٢٠٠٠٠ ذبذبة «هيرتز» في الثانية الواحدة، فهو لا يسمع ما هو دون ذلك أو أعلىٰ منه من الأصوات، بينما أن بعض الحيوانات تسمع ما لا يسمعه هو(١).

وإذا كانت سرعة الصوت هي ٣٢٢ متراً في الثانية الواحدة (في درجة الصفر المئوي)، فإن سرعة الضوء هي أكبر من ذلك بمليون مرّة تقريباً (٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية). ويحتاج الصوت إلى وسطٍ ناقل، بينما أن الضوء لا يحتاج إلى مثل ذلك. وإننا لنرىٰ ضوء النجوم الذي يبعد عنا السنين الضوئية الكثيرة، بينما لا يصلنا من الأصوات إلاّ القريب القريب منّا على سطح الأرض(٢).

فانظر كيف أن الله سبحانه قد وهب الإنسان طرائق مختلفة النوع، والمدىٰ، والسرعة، تصله بما حوله، نعمةً منه وفضلاً.

والضوء وهو أبعد الاشياء نفاذاً وأكثرها سرعة، أين نحن منه؟ إننا لا نرى منه إلا أقله، وهو «الضوء المرئي»، بينما أن الطيف، في معناه الواسع، يرينا سبعاً من الموجات مختلفات ليس «الضوء المرئي» إلاّ واحداً منها. ونحن لا يمكننا رؤية الأشياء البعيدة عنا، إلاّ ما قد رأيناه حديثاً بالمرَاقب، كما أننا لا نرى الصغير من الأشياء إلاّ ما قد رأيناه منها حديثاً أيضاً بالمجاهر العادية ثم الإلكترونية، وهكذا.

---

(١) الأذن، في حقيقتها، جهازان، لا جهاز واحد. فالأذن الداخلية فوق احتوائها علىٰ «القوقعة» (Chochlea)، وهي تختص بالسمع، فإنها تحوي أيضاً «الدهليز» (Vestibule)، وهو يختص بالمحافظة علىٰ توازن الشخص ومعرفته لموقعه المكاني.

(٢) ولكن لنتخيل ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان يمكن للإنسان، وهو مجهز بجهاز الاستقبال الصغير والمحدود جداً: العقل، أن يسمع لأبعد مما هو عليه، إذاً لاستمع إلى خليط متنافر كبير من الأصوات التي سوف تقلب حياته جحيماً، وهو مثال على أن ليس كل ما زاد في الإمكان أحسن ما كان، وهذا من رحمة ربك بعباده، وهو ليس من باب التضييق أو التجهيل، بل هو إعطاؤه ما يحتاج إليه بالضبط ويلائمه أحسن ملاءمة.

نستنتج من ذلك أنّ حواسّنا، وهي أشبه بـ«الهوائيات»، أو «اللواقط»، لا تعرِّفُنا على ما يحيط بنا إلاّ القليل القليل، والنزر اليسير.

* * *

لكن الحواس، وحدها، لا تُغني الشيء الكثير في الإدراك. وآية ذلك ما قد ذكرناه من أن الكثير من الحيوانات تتمتع بحواسّ أقوى من حواسّ الإنسان بكثير. لكن الإدراك يكمن في ذلك الدماغ الذي اختص تعالى به الإنسان، وبه يدرك ويفكر، وبه يتميز الإنسان عن الإنسان. ومهما وصل الدفاع في قُدُراته تبقى حقيقة أنه صغيرٌ محدود. إن هذه المحدودية البالغة آيةٌ على حاجة الإنسان إلى الاسترشاد بالهدي الإلّهي المُنزّل الذي لا بدّ له منه حتى يتأتّى له أن يعرف نفسه، وأن يعرف مكانه في الحياة، والحكمة من وجوده، ومن أين هو جاء، وإلى أين هو صائر. وهذه النظرة الواسعة الأفق، والعميقة الضاربة في استكناه حقائق الحياة وأسرارها لا تُنال قطّ، بل هي كأن لم توجد، من دون الإيمان بالخالق سبحانه والاهتداء بهديه. إن نعمة السمع والبصر وبقية الإحساسات لا تُراد لذاتها، وإنما هي طرائق، أو وسائل، للاتصال والتواصل والحصول على المعلومات عما حولك. إنها وسائلُ للعِلم، وهي نِعَمٌ عظيمةٌ وثمينة لا يقدّرها حقّ قدرها إلاّ من فقدها.

* * *

قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وأين هو المرء من الكون الفسيح الذي يحيط به؟ لا شيء أبداً، وما أكثر ما قد خلق الله مما لا نعلم، لكنه تعالى قد أقسم بشيءٍ يخص البصر، يخص ما نعرفه منه وما لا نعرف، فقال ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾. هو أقسم بما نبصر، وما أقلّه، وأقسم بما لا نبصر وما أكثره وأعظم خطره. أقسم الحقُّ سبحانه هذا القسم العظيم بما له علاقة بالبصر ولم يُقْسِم بغيره مما هو محسوس، ذلك لأنه رغم كونه يعطينا أوسع إحساسٍ وأبعده وأسرعه بما يحيط بنا، فإنه، رغم ذلك، لا يصلنا منه إلا أقلّ القليل.

إنه الضعف، وإنها المحدودية، مرّةً أخرى. يتساوىٰ في ذلك كل المخلوقين.

* ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ . .﴾ [إبراهيم: ١٩].

* ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . .﴾ [الرعد: ٢].

* ﴿. . وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

ـ يدل قول الحقِّ سبحانه، في الآية الأولى: (ألم تَرَ) على أنّ السماوات مرئيةٌ لنا، ولقد قلنا إن المقصود بها الكواكب السيارة، ما خلا الأرض، في منظومتنا الشمسية.

ـ أما قوله سبحانه، في الآية الثانية: (بغير عمدٍ ترونها) فقد دلّ على القوىٰ الطاردة، أو «النابذة»، التي تقيم لها ما يشبه الأعمدة غير المنظورة، والتي تحفظ الكواكب السيارة في مداراتها وتمنعها من أن تجذبها الشمس نحوها. إنها قوىً موجودةٌ ولكنها غير مرئيةٍ لنا.

ـ وإذا عطفنا قوله تعالى في الآية الثالثة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـ و(ما) هي لغير العاقل ـ على الآية الأولى، لخرجنا باستنتاجٍ مفاده أن السماوات «السبع» والأرض ليست هي الكون كله، بل إن هناك سماواتٍ أو أجراماً أخرىٰ لا نراها ولا نعلم عنها شيئاً. إن بعض الناس يُرتّبون على ما يظنونه من أن السماوات والأرض هي الكون كله، ولأن القيامة تصيب السماوات والأرض، ظناً آخر خاطئاً، وهو أن القيامة تصيب الكون كله، بينما قد أثبتنا في كتاب «القيامة بين العلم والقرآن» أنها تصيب المنظومة الشمسية وحدها، والله تعالى أعلم. فأما وقد أثبتنا أن السماوات السبع هي الكواكب السيارة حول الشمس ليس غير، ورأينا أن النجوم شموسٌ كلها، فليست السماوات السبع والأرض والشمس إلا كما جاء عن النبي (ص) في قوله: «ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن إلا كحلقةٍ مُلقاة في فلاة».

العلم والإنسان

* ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

قلنا سابقاً إن هذه الآية الجليلة المُعجزة قد دلّت على سريان قانون الزوجية في كل مخلوق. وهي فوق إعجازها في بيان الزوجية في كل ما قد عرفناه، فإن من إعجازها أيضاً أن يجيء الزمان، المرّة بعد المرّة، مؤيداً لقانون الزوجية في الخَلْق، ولا يزال العلماء اليوم، وبعد مرور أكثر من ١٤ قرناً على نزول القرآن الكريم، يكتشفون، باستمرار، أمثلةً أو أدلّة على سريان قانون الزوجية في الخلق كله، وليس الموجب والسالب، والبروتون والإلكترون إلاّ بعضاً منها. فقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو تَحَدٍّ إعجازي يتكرر في كل حين، دليلاً على أن مُنَزِّل القرآن هو نفسه خالق الأكوان.

ثم إن هذه الآية لتنطق بوحدانية خالقها الواحد الأحد، إذ ليس كمثله شيء، وهو قد تميز عن الخلق كله بوحدانيته، وجعل الزوجية صفةً من صفات عباده ومخلوقاته.

***

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..﴾ [الشورى: ١١].

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ليس تعالى كأيِّ شيءٍ أبداً، وهو لا تُدرِكهُ الأبصار، ولا تراه العيون. تلك حقيقة قرآنية واضحة، وبالمقابل فإنه سبحانه يدرك الأبصار كل الأبصار. وأيُّما شيء خَطَرَ في بالك من وصفه فهو غير ذلك، وإنه لا بدّ للإنسان من أن يدرك ويعترف بأن

لحواسه وإدراكه حدوداً تحبسُها في أضيق نطاق وأصغره. إن هذه المحدودية البالغة في علم الإنسان ترادف، في وجهٍ من وجوهها، العبودية أمام الربوبية.

* * *

﴿ . . وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١].

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا . . ﴾ [النحل: ٧٨].

لا يتذكر الإنسان شيئاً البتة عن مراحل خلقه وهو في بطن أمه، بل ومن قبل ذلك إذ هو كان نطفةً من آلاف النطف في جسد أمّه وأبيه، فلا يمكن لي أنا، ولا لك أنت، ولا لأيٍ كان أن يدّعي أنّه يعرف أو يتذكر نشأته التي سبقت مولده. والذي يجهل نشأته الأولى لا شك بأنه مخلوق، وأنه ضعيفٌ جداً، وهو، من دون ريب، مَدينٌ بنشأته إلى مُنشئه وخالقه. وإن من قد جَهِل أصل خلقه وبداية أمره فأخْلِقْ به أن لا يُحيط بغيره علماً، وهي آيةٌ باهرة على قدرة القادر، وعلى جهل المخلوقين وضعفهم.

* ﴿ . . وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

﴿ . . وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

الله تعالى هو العليم بكل شيء، وهو مصدر كل علم. أما الإنسان، ذلك المخلوق الجاهل المتكبر، فهو لا يكاد أن يفهم شيئاً مهما ظنَّ غير ذلك، وهو مهما اقتبس من علم فإنه أصغر من نملة ضئيلة في مجرّة عظيمة زاخرة بمليارات النجوم، أو كشارب قطرةٍ من ماء يَمٍّ عظيم، وإن علمه، مهما بلغ، محدودٌ ومحدود جداً، فهو لا شيء بالنسبة إلى علمه تعالى، وكل ما قد علمه ويتعلمه الإنسان إنْ هو إلاّ فيضٌ من فيوض الرحمة الإلّهية والفضل الإلّهي يُفيضه عليه خالقه وبارئه منذ أن يفتح عينيه على الحياة وحتى أن يغمضهما آخر مرّة، فالفضل في ذلك لله وحده.

* * *

﴿ . . وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ ﴾ [النحل: ٧٠].

لو جمعتَ كل علوم الدنيا في كل المكتبات فهي لا تكاد أن تكون شيئاً بالنسبة إلى علمه تعالى. ولو أفنى الإنسانُ عمره كله في طلب العلم فما هو بقادرٍ بأكثر من أن يغرف غرفة يسيرة من علوم الدنيا. وهو لا يزال يطلب العلم ويستزيد منه مع بلوغه أشُدَّه في عقله وملَكاته وجسده، ثم هو يبدأ، ككلِّ مخلوقٍ، بالانحدار مرّةً أخرى، انحداراً يماثل صعوده الأول، نحو الضعف، لا بل إن بعض الناس من يردّه تعالى إلى أرذلِ العمر، في شيخوخةٍ، فلا يعود كمن قد علم شيئاً، وذلك هو «الخَرَف» أو مرحلة «ما قبل الخَرَف»[1]. وإن ذلك لهو آيةٌ على ضعف المخلوقين وعجزهم، وهو أدعى لمطامنة الإنسان من كبريائه وإلى أن يعود إلى أرض الواقع الصلب، لا إلى تهويمات الخيال المريض فيما قد يتوهّمه في نفسه من عوامل القوة والسيطرة على مقدَّرات النفس والعباد، وليس أمرٌ ولا أصعب على الإنسان من أن يعود كمن لم يعلم شيئاً، ثم إن الإنسان قد يصيبه «الخرف»، أو أي مرضٍ آخر، على حين غفلة منه، إذ لا يدري أحدٌ ما هو حادثٌ له في الغد ﴿ . . وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ . . ﴾ [لقمان: ٣٤]، لا بل إن من المفارقات الغريبة التي تدعو إلى التأمل أن مثل هذا الإنسان هو أقلّ فردٍ في محيطه ممّن يقدّر حقيقة أمره في هبوطه سُلّم المَلكات العقلية. وهكذا فإن الإنسان، ومن قبل أن يودّع حياته الدنيا، قد يعود مثلما هو جاءها: لا يعلم من شيء.

* * *

* ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الشعراء: ١٣٢].

إن الله تعالى هو خالق الناس، وهو الذي يمُنّ عليهم بكل ما يعلمون وكل شيء، فحقَّ له عليهم أن يتّقوه ويطيعوه، اعترافاً منهم بفضله.

* * *

(١) يصل ذكاء الإنسان، في المعدل، أوْجَهُ في حوالى عمر الـ٢٥، ثم هو يتناقص تدريجياً.

* ﴿ . . هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

هكذا خاطب موسى الخضر، وهو كليمُ الله، والنبي ذو العزم والشرائع. ولقد اتّبعه لا لغرضٍ إلاّ لطلب العلم. قال صاحب التفسير المبين: «لا يستنكف ـ موسى ـ أن يتعلم ما خفي عنه ممّن هو دونه مكانةً أو يستويان، ذلك بأن العلم النافع كالتعبد لله، بل أفضل، وفي الحديث: من رأى أنه قد علم ـ مُستغنياً بما لديه فقد جهل. وفي نهج البلاغة: «ما أكثر ما تجهل. . ومن ترك قول لا أدري أصيبت مقاتله». تلك، أي طلب العلم، خِلّةٌ للأنبياء، قد ذكرها تعالى موعظةً لنا وحكمة. فحُقَّ لنا، بل وجب علينا، أن نتأسّى بها، وإذا كان الأنبياء، أصحاب الوحي، يطلبون العلم من غيرهم، فما أحرانا نحن بذلك، من دون ريب.

* ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

العلم ضالّة كل مؤمنٍ ومؤمنة، وطلبه أمرٌ وجوبي على كل إنسان، كيف وأن الله تعالى يطبع على قلوب الذين لا يريدون أن يعلموا، فتعود أفئدتهم مقفلةً لا يستضيئون بشيءٍ من نور الإيمان ولا هُم يهتدون.

* * *

ويمدّ الله تعالى الإنسان بفيضٍ من علمه، منذ ولادته وحتى مماته. وهو قد وهب له جهازاً للتفكير عظيماً، تفرّد به، في مزاياه، بين كل الأحياء، وأعصاباً تسير إلى الجهاز العصبي المركزي بالأحاسيس المختلفة من أعضاء الجسم وتعود منه إليها بالاستجابات اللازمة. وهب له حواسّاً كلٌّ منها جهاز استقبالٍ متخصص[1] يستقبل ما يحيط به من حوافز، أو مؤثّرات، ثم هي تنتقل، عبر الأعصاب المحيطية، إلى

(١) لا بل إن لكل خلية ما لا يُعدّ من صنوف «المستقبِلات» (Receptors) التي توجد على سطحها، وكل «مستقبِل» يختص باستقبال مادة بذاتها دون سواها من المواد. وعند تماسّ أية مادة مع «مستقبلِها» ذاته على سطح الخلية فإن ذلك يطلق تفاعلاً أو سلسلة من التفاعلات، داخل الخلية، وهو الأمر الذي يؤدي إلى حدوث التأثير المطلوب من تلك المادة.

الدماغ والنخاع الشوكي، ورغم أن الدماغ يستجيب لها بصنوف الاستجابات فإن أجهزة استقباله، كلها، محدودة. فنظره محدود، إذ هو لا يرى بعينيه المجردتين البعيد البعيد، كما أنه لا يرى القريب الصغير، كالخلية، والجزيئة، والذرة، وأجزاءها. ثم هو لا يرى من الموجات الكهرومغناطيسية إلاّ أقلها، وهو الضوء المرئي وحده.

وهو سمعه محدود، فهو لا يُميّز ولا يسمع من موجات الصوت إلاّ مدىً محدوداً لا يتعدّاه.

وهكذا في حواسّه الأخرى كلها، فهي محدودةٌ جداً ومحصورةٌ في دائرةٍ صغيرة ضمن الفضاء الذي يحيط به ولا يعرف له حدوداً. ثم إن عقله محدود جدًّا في حجمه وطاقاته، وهو لا يمكنه أن يفكّر بأمرين اثنين في وقتٍ واحد ما لم تكن هناك رابطةٌ ما تربط بينهما.

إن كل حاسَّة من حواس الإنسان، بل وعقله نفسه، محصورة في دوائرَ ضيّقةٍ جداً بالنسبة إلى ما هو محيطٌ بها، لا بل إنها دائرةٌ للإنسان صغيرةٌ صغيرة ضمن دائرة من الفضاء الذي يحيط به إلى ما لا يُعْلَمُ له حدّ. إنها دوائر ضيّقة تنطق بضعف الإنسان، وعجزه، وجهله.

وهو محصورٌ، في المكان، في حيِّزٍ صغيرٍ جداً.

كما أنه محصورٌ في الزمان، محصورٌ منذ خلقه وحتى موته. إذ إنه قد نشأ في ما لا يَعلم، وهو سائرٌ من بعد موته إلى ما لا يعلم كنهه، وهو «البرزخ» الذي هو ما بين الموت والبعث. وهو مهما عاش فإن عمره في قياس الزمان والأبدية لا يكاد أن يكون شيئاً، وهل إن مَن يموت كمن قد عاش حقّاً؟!

والإنسان محدود القُدُرات، سريع العَبَرات، متغيّر الأطباع والأهواء والنزعات، تقتله الشَّرقة، وتؤلمه البَقّة. وهو محدود الغايات، لا يملك لنفسه أن يَزيغ بها عن واقعها الماديّ مِن طَرفةِ عين أبداً، ولا أن ينطلق من أسْرِ قيده الماديّ،

أو محبسه، الذي هو فيه، إذ هو أسير جسده من المهد إلى اللحد - هو أسيرُ ما يَعْرِضُ لجسده من عوارضَ وأسقام، وما أكثرها وأثقلها عليه، وهو أسيرُ حاجاته، وهي باقيةٌ معه ما بقي، وهو مُقيّدٌ بحدود نداء الطبيعة من تنفّسٍ، ونومٍ، وجلوسٍ، وشرابٍ، ومطعمٍ، وما إليها. بل وأكثر من ذلك كله، إذ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

على أن الإنسان، وهو يكتسب العلم ويستزيدُ منه، إنما هو يكتسبه بفضلٍ منه تعالى، لأنه سبحانه هو الذي وهبه العقل، وأدوات الإحساس، أو «أجهزة الاستقبال» التي تحدّثنا عليها، لا بل إن الإنسان نفسه هو هِبةٌ من خالقه وبارئه، وهو يسبح في ما لا يُعَدُّ من صنوف النعم وفيوض الرحمة واللطف الإلهي التي قد لا يلتفت إليها أو هو ينساها أو يتناساها.

ولا بدّ للإنسان، في هذه الحياة، من أن يتعلم. فهو مأمورٌ بذلك، لا بل هو لا حياة له، على وجه الحقيقة، من دون العلم. وهو لا بدّ له من أن ينظر ويتفكر في خلق الله تعالى للكون والإنسان ولكل شيءٍ حيّ. قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]. جاء في تفسير هذه الآية: إن خفتم عدوّاً أو غيره فصلّوا راجلين أو راكبين، وإذا أمنتم من الخوف فصلّوا صلاة الآمن المختار كما علّمكم تعالى كيف تصلّون في الخوف والأمن، والسفر والحضر. وأقول، والله أعلم، إن هناك بالإضافة إلى هذا المعنى معنىً يُضاف إليه هو أوسع منه، وهو أن ينصرف الإنسان إلى عبادة الله حمداً وشكراً وعِرفاناً على تعليمه لنا ما لم نعلم ﴿.. وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. إن الإنسان إذا ما لبّى حوائجه الماديّة وارتوى منها، وهي قد يسّرها تعالى وذلّل سبلها له، ثم إذا هو أمن في نفسه، فقد نال نصيبه مما قد خلقه تعالى له، وهو لا بدّ له، أي للإنسان، من أن يقوم بدوره المطلوب منه في هذه الحياة، إذ إن عليه أن يذكر الله ويعبده. ذلك بعضٌ من العِرفان والحمد لله تعالى على ما قد علّمه له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩]، فأما الذين لا يريدون لأنفسهم أن يستنيروا بنور العلم الذي وهبه تعالى لهم، إذ هو أمرهم أن ينظروا ويتفكّروا فيما قد خلق، فإن جزاءهم هو من عين عملهم، إذ أما وأنهم قد صاروا عمياناً أو كالعميان، وصُمّاً أو كَالصُمِّ، وبُكماً أو كالبكم، ومن دون عقلٍ، أو يكادون، لِما يحيط بهم، ممّا أرادهم تعالى أن يعلموه ويسمعوه ويبصروه ويلمسوه لمس اليدين، ثم أن يتفكّروا فيه، فإنهم قد عطّلوا مَلَكَة العقل لديهم. ثم إنهم، بالنتيجة، قد عطّلوا حواسّهم، أو أجهزة الاستقبال لديهم، فكأنها لم تَعُد تعمل، أو كأنهم لم يملكوها أصلاً، فصار حَرِيّاً بهم، جزاءً وفاقاً، أن يطبع الله على أفئدتهم، فيصيروا كالشيء الذي يُختَم عليه فلا هو يُفتَح ولا هو يستقبل شيئاً، وهم يصيرون عندئذٍ كالأنعام بل وأضلُّ سبيلاً. يجعل الله تعالى أولئك الجاحدين، المعاندين لأنْ يستعملوا عقولهم حتى يهتدوا، يجعلهم وقد ختم على قلوبهم بعدم العلم، والذي هو مُكافىءٌ، وكما قد رأينا، للكفر. فالجهل بابٌ للكفر، والعلم بابٌ لمعرفة الله تعالى والإيمان به، لا بل إنه تعالى يبعث الكافر يوم القيامة أعمى، والسبب في ذلك هو أن الله سبحانه قد آتاه بصائرَ يهتدي بها لكنّه نسيها أو تناساها: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٥ و ١٢٦]. ويا لها من عاقبةٍ مؤلمة رهيبة، ومن حسرةٍ ليس بعدها من حسرة، حسرةٍ دائمةٍ باقية أبد الدهر، حسرة أولئك الضّالين، الناسين ربهم وآلاءه عليهم.

وإذا كانت هناك حدودٌ واضحة بيّنة لبصر الإنسان وسمعه وحواسّه الأخرى، فإن عقله هو فوق ذلك كله، ومن هنا جاءت أهميته وعظيم فضله، إذ إنه لا يكتفي بتلقّي المحسوسات والاستجابة الجسدية لها، بل إن لعقله أبعاداً أوسع وأرحب كثيراً من ذلك، وهو عدّته وسلاحه الحقيقي في هذه الحياة. وهو يدرك من خلال هذا العقل أن النظام الدقيق والمحكم في الكون كله لا يمكن أن يُفسَّر تفسيراً مقنعاً إلا بوجود إلَهٍ قادر حكيم، كما أنه ليتقلّب في صنوف النعم ويَسْبَح في ما لا يُعَدّ من آلاء الله تعالى وآياته، فيه وفيمن حوله، مما يستدعي منه الحمد والشكر لبارئه والمنعم عليه.

والذي لا يسمو لأبعد من حواسّه الصِّرْفة هو كالطفل الرضيع، لا تكاد علائقه بما حوله تعدو حواسّه وغرائزه، وهو يأكل ويتمتّع كما تتمتّع الأنعام. وبقدر ما إنَّ الإنسان يستعملُ ذلك الجهاز العجيب، والحسّاس، والثمين، العقل، بقدر ما هو يخترقُ من الحُجُب الكثيفة الكثيفة التي تحبسه في عالمه الصغير الصغير، لتُشرق عليه فيوض الرحمة الإلهية والنور الإلهي.

وذلك هو الإنسان، دائرةٌ صغيرةٌ جداً في جسده، وأخرى في بصره، وفي سمعه، وهكذا. كلها دوائر صغيرةٌ في عالمٍ رحب لا يعرف له حدوداً. وعندما يعرف الإنسان حقيقة نفسه، ويتبين له ضعف مقدرته، وقلّة حيلته، وضآلة علمه، وافتقاره في كل أموره إلى من هو أكبر منه وأعظم، لأن الكبرياء والمقدرة والعلم كلها لله ربّ العالمين وحده، فإنه لا بدّ له من أن يُطامِنَ من كبريائه، ويتوجه في أموره كلها للخالق القادر. وإنه لا بدّ له أن يستعمل «أجهزة استقباله» أحسن استقبال، وأن يحافظ عليها، يتوجب عليه أن يستعملها في الخير لا في الشر، يستعملها فيما قد خلقها تعالى له، لأنها تنقل المعلومات إلى ذلك الجهاز الخطير والثمين: العقل، حتى يقوم الأخير بواجباته خير قيام.

ثم إن الله تعالى قد أقسم فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠].

النجدان: الحق والباطل، أو طريقا الخير والشر.

وقال، وهو يُقسِمُ مرّةً أخرى، في الآيات ٧ ـ ١٠ من سورة الشمس، وهي تلي سورة البلد مباشرةً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

هو قسمٌ لَمْ نجد له نظيراً في كتاب الله تعالى. لأنه سبحانه قد أقسم هنا، في سورة الشمس، أحد عشر قَسَماً متوالياً. كل ذا حتى يبيّن الحقُّ سبحانه أنّ خيار التقوى والفجور هو بيد الإنسان نفسه.

أعطى الحقُّ تبارك وتعالى الإنسان المقدرة الكافية على التّلقّي والتّأثّر، من خلال حواسّه، وأعطاه إمكانية التفكير ومعرفة الحق من الباطل من خلال عقله، وأمكنه من أن يميّز بينهما، ثم هو، من قبل ذلك ومن بعده، قد أعطاه الإرادة الحرّة من أجل الفعل الحرّ.

إرادة التقوى أو الفجور.

وإرادة تزكية النفس، أو إخفاء جوهرها الناصع بالهبوط بها في عالم الجهل واتّباع الهوى.

بَصَّر الحقُّ سبحانه الإنسان بطريقي الخير والشرِّ، وأمكنه من الفعل الحرّ، ثم هو ترك له من بعد ذلك أن يفعل ما يشاء: فمن زكّى نفسه فقد فاز، ومن أخفى حقيقتها وهبط بها فقد خاب.

إنّ العلَّة النهائيةَ لكل معرفةٍ هي أنها تقودُ إلى معرفة الله تعالى وطاعته. وحقاً فإنه لا يستوي الأعمى ولا البصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظِّلُّ ولا الحَرُور. وإن الكافر كالأعمى، وآيةُ ذلك أنّ البصيرة إذا عميت فكأنَّ الإنسان قد عاد أعمى من دون بصر.

ولو قد تصوّر الإنسان أن للكون، ذلك الذي نعرفه، وعلى سِعته البالغة التي لا يتصوّرها عقل، حدوداً ينتهي إليها، فإن العقل يعود للتساؤل: وماذا بعد «الفراغ» إلاّ الفراغ»؟ وماذا بعد الفضاء إلاّ الفضاء؟ إن ذلك يدل على اللانهاية، أو قُلْ هو يدلّ، ومن الناحية الأخرى، على قصور عقولنا الشديد، نحن بني البشر، في الفهم والتصور والاستيعاب، وعلى ضآلتنا في هذا الكون الرحيب، وملكوت الله الذي لم نعرف له حدوداً.

كم من الضروريات يحتاج الإنسان؟

* ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ.

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

* ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ.. ﴾ [الأعراف: ٣٢].

يسأل سائل: لماذا خلق الحقّ سبحانه ذلك العدد الهائل من أنواع المخلوقات، من حيوانٍ ونبات وغيره؟

الجواب:

١ ـ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ.. ﴾ [غافر: ٦٢]. والمَلِكُ الخالقُ تبارك وتعالى، والذي خلق الكون كله بما فيه، هو واهب الحياة، وموجدها من العدم، لنا ولجميع خلقه. إنه يخلق ما يشاء، وهو يَسأل خَلقه ويحاسبهم، ولا يُسألُ في خَلقه ومُلكه. والذي تدين له أنت نفسك في خَلقه لك لا تسألهُ عن خَلقه لغيرك.

٢ ـ إن ذلك الخَلق لَهُو آياتٌ تنطق بقدرة القادر، وصنعة الصانع، وتصوير المصوّر، وإبداع المبدع، ورحمة الرحمن، وكرم الكريم، وخَلق الخالق، الذي أحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هدى، فهي مدعاةٌ للتفكّر بخالقها والإيمان به.

٣ ـ إن التساؤل الذي ذكرناه يعكس نظرةً خاطئة وخطيرة إلى الكون. إن كثيراً من الناس يحسبون الأرض وما عليها مُلكاً لبني الإنسان وحدهم، وهم ينسون أو يتناسون أن لكل مخلوقاته تعالى الحقَّ في أرضه وسمائه وبحره مثل حقهم هم. لقد خلقها على الأرض، جميعاً، وهي لها حق الوجود نفسه والعيش كالإنسان. وإذا كان تعالى قد خلق الدوابّ ممّا نعلم وما لا نعلم[١]، ثم إنه أعطاها رزقها، ووهبها تلك المقدرة العجيبة على تحصيله، وعلى البقاء على قيد الحياة، فهل إن لنا، من بعد ذلك، الحق نحن الذين نشاركها الحياة على الأرض، أن نختطفها منها من غير وجه حق، ومن دون أية فائدة تُذكر، من مثل غذاءٍ ودواء، اللهم إلاّ التلهّي والتلذّذ بالتشويه، والتعذيب، وسلب غيرنا من الأحياء حيواتها ممن لم نهب، نحن، لها الحياة بل إن الله تعالى قد وهبها لها مثلما هو قد وهبها لنا؟

إن هذه النظرة إلى ما حولنا من المخلوقات هي نظرةٌ جاهلةٌ قاصرة خاطئة. لا بل هي نظرة أحادية، أنانية، و«ساديّة»، وهي تفسّر لنا ما نراه من قسوةٍ في تعامل الإنسان مع بيئته، وبما يصل إلى حدّ القتل، بل الإبادة من على سطح الأرض[٢].

وأدهى من ذلك وأمرّ أن يظن بعض بني الإنسان، أو الكثير منهم، أو هكذا تدلّ عليهم أفعالهم، أن الأرض مُلْكٌ لهم وحدهم، وأن لهم، وحدهم، حق التمتع بما قد خلقه فيها واهب الحياة من صنوف التنعم، والخير، والمتعة، والجمال، وأن لغيرهم الإفقار، والإذلال، والتجويع، والكدح من أجل الغير، أو أي شيءٍ آخر غير

(١) لا يزال العلماء يكتشفون أحياء جديدة كل يوم.

(٢) تنقرض من الوجود، على الأرض، وباستمرار، آلاف الأنواع من النباتات والحيوانات، وهو مؤشرٌ خطير على اتجاه حياتنا وحضارتنا الحاضرة على الأرض. وكمثالٍ على ما نقول فلقد «أثبتت دراسات دقيقة أجريت في بلجيكا أنه منذ بداية القرن الحالي يختفي سنوياً من أراضي بلجيكا نوع نباتي فضلاً عن مائتي نوع تفقد ما يربو على ٧٥ في المائة من أفرادها. ومنذ القرن الماضي، اختفى ٤٩ نوعاً نباتياً من إقليم أنجو الفرنسي. والنتيجة مذهلة فيما يتعلق بالأنواع الحيوانية كذلك، فجان دورست يورد في كتابه Avant que nature meure قائمة الأنواع التي اختفت بفعل الإنسان أو هي في تناقصٍ مطّرد على جميع القارات» ـ «عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة» لجان ماري بيلت (١٩٩٤)، سلسلة «عالم المعرفة».

المساواة في حق التنعيم بنصيبهم من صنوف التكريم التي خلقها تعالى لهم، وخَلَقهم لها، والحرمان من تطلعاتهم وآمالهم المشروعة.

إن كل خَلق الله سبحانه سواسيةٌ أمامه، وهم كلهم شِرْكَةٌ في بيتٍ عظيم منيف، وحديقةٍ وارفةٍ غنّاء هي الأرض، وهي ليس لأحدهم من دون الآخر، كما أنه ليس لأحدهم من مزيّةٍ للعيش فيها، على الآخرين، من شيء.

٤ ـ إن هذه المخلوقات، فوق ما قد عرفناه من فوائدها، وما لم نعرفه منها كثير، تعطي من التنوّع، للحياة على الأرض، ما يملؤها جمالاً، ويبعد الوحشة والملل عنها. نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

٥ ـ واستمرار الإنسان في اكتشاف فوائد جديدةٍ لنباتات وحيوانات الأرض، ولعناصرها ومركباتها، هو حقيقةٌ تنطق بجهلنا بخضم الحياة التي نقف على شاطئها إمّا خائفين مذعورين، أو جاهلين متغطرسين، متسربلين، في الوقت نفسه، بلباس الضعف والعجز من جانب، والعُنجهيّة والكبرياء الفارغة من جانبٍ آخر.

٦ ـ تتشابك المخلوقات الحية في وجودها، من أعلى سُلَّم الخَلق، وهو الإنسان، وحتى أدنى الكائنات الحيّة، معتمداً واحدها على الآخر. فالإنسان يعتمد في وجوده على الحيوان والنبات، كما يعتمد الحيوان على النبات، والأخير على ما هو أدنى منه في سُلّم المخلوقات، وهكذا. وكذلك فإن مخلوقات البحر يعتمد كبيرها، في حياته، على ما هو أدنى منه وأصغر، وصولاً إلى «البلانكتُن». وهكذا فإن أي تغيير أو «إزعاج» لهذه البيئة المتشابكة يطول بالضرورة بقية أعضائها ومكوناتها في ذلك السُّلّم المتدرج.

٧ ـ وحتى نتبين، وبوضوح، أهمية هذه المخلوقات، مختزلين الطريق في بحثنا، نعكس ذلك التساؤل الذي ورد في صدر الموضوع، فنسأل: ماذا لو غابت تلك المخلوقات، الزائدة في عرف الآخرين!، عنا؟

وحتى نكون مُنصفين بأكثر ما يمكننا الإنصاف نستبعد، في بحثنا، ما هو

ضروريٌّ للحياة على سطح الأرض. إلاّ أنه ما أكثر ما هو ضروريٌّ لحياتنا ممّا قد يَسَّرَه الحقُّ سبحانه وذلّله لنا مما لا يُحصى من صنوف النعم والألطاف، ظاهرها وخفيّها، وما علمناه منها وما لم نعلمه، ومن أجل ذلك نسأل: كم يوجد من أنواع النباتات على سطح الأرض؟ ذلك سؤالٌ يجيب عليه علماء النبات، وهي لا شك ملايين من الأنواع والأصناف، إلخ، بل هي لا تُعَدّ. ثم إن العلماء يكتشفون باستمرار، أنواعاً جديدة منها. وكم يوجد على سطح الأرض، وفي جوّها، وبحرها، من أنواع الحيوان؟ سيجيب علماء الأحياء أنها ملايين كذلك ممّا لا يُحصى.

إن كلاً منها، وقبل أي شيء، آيةٌ، بل آياتٌ تنطق بقدرة القادر، وخَلق الخالق، وبكل الجلال والجمال والروعة[1]، وهي يتميز كلٌّ منها بشكلٍ وحجمٍ ولون مميّزٍ خاصٍّ بها هو «بَصْمَتُها الأحيائية»، وهي لها بيئتها وطرق تكاثرها الخاصّة بها. لها أصواتها التي تتميز بها عمّن سواها، منها ما نسمع ومنها ما لا نقدر أن نسمع. ثم هي قد ترى ما لا نرى، وتشمّ ما لا نشمّ، وتذوق ما لا نذوق، وهي لكلٍ منها اسمها الخاص بها. وهي، في آخر المطاف، تمتلك بصمتها الوراثية «الجينية» الخاصة بها والتي بها تتميز وتتفرد عن كل ما سواها.

ومن النباتات ما هو صغيرٌ صغير لا يعيش إلاّ أياماً معدودات، ومنها ما هو الكبير الكبير مثل أشجار كاليفورنيا التي عاشت آلاف السنين ولا تزال. وكم لها من

(١) وهل قد رأيتَ، في صنوف الأشياء، ما هو أروع وأجمل وأبهر للنفس مما قد خلقه الباري سبحانه في الطبيعة مما لا يُعَدّ، وما لا يُجارَى أو يُدانى؟ إن أجمل وأروع ما قد تخطّه ريشة فنان أو تنحته يد نحّات أو تبنيه يد مهندس هو أقلّ، وبما لا يُقاس، مما تخطّه يد الله القادر في الطبيعة. اجمعْ كل أزهار الأرض ونباتاتها الاصطناعية وانظر هل هي تداني زهرةً أو نبتةً واحدة من صنع الله؟ لا تدانيها أبداً إلاّ من حيث أنها تطمع في محاكاتها، ولن تستطيع. ثم اجمع كل موسيقى الأرض وانظر إن كانت هي تعدل في جمالها وتنوعها وروعتها صوت الإنسان وهو يتكلم، ويهمس، ويصيح، ثم وهو يفرح، ويضحك، ويبكي، أو قُلْ هل هي تعدل موسيقى الطبيعة الصامتة التي تلفّ الكون كله بذلك الانسجام البديع الذي يحكي خلق الله؟ كلا وأبداً.

صنوف الأشكال، والألوان، والعطور، ومن الجذور، والسيقان، والأغصان، والبراعم، ومن الأوراق، والبذور، والأزهار؟ ذلك ما لا يقدر أحدٌ منا على حصره وتعداده.

جَرِّد الأرض من ٩٩٪ من أنواع نباتها وحيوانها، وهي أنواعٌ بالملايين كما قد ذكرنا، هل يمكن للحياة، حينئذٍ، أن تستمر على الأرض؟ ليس ذلك بمستحيل، فوجود نوعين منها لا مائة نوعٍ في حديقة داري أو دارك ليس حاسماً في استبعاد الحياة من عدمها، ووجود آلاف الأنواع من الأزهار التي تزهو بألوانها وأشكالها البديعة وتتضوّع بأريجها، ليس، كذلك، ضرورياً لاستمرار الحياة، كما أنه لَتكفي، من بين المئات من أنواع الفاكهة والخضار أنواعٌ قليلة جداً لإعطاء ما تعطيه بقية أنواعها من صنوف الغذاء الذي نحتاج إليه. وكذلك هي اللحوم، أنواعٌ عديدة كثيرة من الماشية والطيور والأسماك، تزيد زيادةً عظيمة عن حاجة الإنسان، وهكذا هي جميع مناحي الحياة التي تزدحم بصنوف الجمال والكمال والتكريم.

وتَصوَّر الشمس وهي تشرق فجأة في الصباح ثم هي تغرب فجأةً في الليل من دون أن يصاحبها ذلك المنظر الساحر الذي نعرفه لتدرّج حدوث الشروق والغروب[1]. ذلك أمرٌ ممكن، ولا تتوقف عليه حياة، أو تصوّر سكان الأرض من غير قمرٍ يَهِلّ عليهم فيؤنس وحشتهم ويسحرهم، ثم هو يصير بدراً فينوّر لياليهم ويعدّون بها كم لهم من يومٍ في الشهر. إن الحياة لممكنةٌ غير مستحيلة مع غياب كل تلك النعم، ولكنها نعم المنعم السابغة التي كرّم بها بني آدم، والتي نَسْبَح فيها من غير أن نعيرها، في الغالب، أي اهتمام، نعمٌ نتقلّب فيها لا تعَدّ ولا تُحصى. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ..﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

---

(١) انظر ما كتبه العالم الفيزيائي «جوزيف ألن»، وهو أحد رواد السفينة الفضائية «كولومبيا» التي دارت به حول الأرض، في «الواشنطن پوست»، عام ١٩٨٣، عن غروب الشمس وشروقها في الفضاء، أي خارج غلاف الأرض الجوي في الصفحة ٢٩٩.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

أو تصوّر عالماً لا عطور فوّاحة فيه، بل لا روائح فيه، نشمُّها، البتّة، أو لا مقدرة على الشم حيث لا جهاز للشم في جسم الإنسان[1]، أو تصوّر عالماً لا طيور فيه تغرّد، ولا بلابل تصدح، ولا حمائم ينوح، ولا ماءَ يترقرق بالنسمات العذبة أمواجاً لازَوَرْدية أخّاذة، ولا زهرةً وسنانة تحتضنها قطرات الماء النّدية في هزيع الليل. تصوّر ماءً لا يبرد حتى ينجمد ولا يسخن حتى يدفأ. تصور الدنيا من غير أغصانٍ تتمايل لبلبلٍ يحطُّ عليها أو نسمة ريحٍ تصافحها. تصورها من دون صيحة ابتهاجٍ أو بكاءٍ لطفل، ومن دون ضحكة مجلجلة، أو أنينٍ حزين. تصورها من دون صيحة ديك، أو زقزقة عصفور، أو حتى مُواءٍ لقطّةٍ أو خُوارٍ لبقرة.

أو هَبِ الإنسان قد خُلِق أصمّ وأبكم وأعمى. نعم، إنه ليمكن للإنسان أن يستمر على عيش، ولحياةٍ أن تدور عجلتها، على الرغم من ذلك، ولكنها نعم الله التي لا تحصى.

ومن نعمه سبحانه، كذلك، الأنعام في بهيمتها، تشبه من هو في الليل البهيم، ولا تكاد لتعي ممّا حولها مِن شيء، وبذلك أمكننا تعالى منها، حتى نستفيد منها بذبحٍ، لطعام، أو بغير ذبح. هي نعمةٌ عظيمة يذكرها حُجّاج بيت الله، بل كل مسلمي الأرض، كل عام، في حجهم، فيذبحون الأضاحي على ما وهبهم سبحانه منها،

(١) لو لم يكن للإنسان، أو غيره من حيوان، من أنفٍ يشمّ به، فهل كان يتأتّى له أن يعرف كل تلك الروائح؟ لا بل هل كان في مقدوره أن يعلم بوجود شيءٍ اسمه «رائحة»؟ فَلْنُعْمِل فكرنا فيما يكون قد خفي علينا مما يمكن أن ندركه في أحوالٍ غير الأحوال التي نحن عليها. إننا لا يمكننا العلم، مجرد العلم، بوجود مئاتٍ من محطات البث التلفازي التي تبثّ ملايين الساعات من البرامج لو لم يكن لدينا جهاز لاستقبال ذلك الذي نسميه «التلفاز» موجوداً. وما الروحُ مقبلةٌ عليه بعد الموت؟ نحن نعلم به ونؤمن لأن الله تعالى ورسوله الكريم قد أخبرانا بذلك، لكنّنا لا ندرك كنهه. ولقد قيل: «عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود».

وهي فيها من الجمال، والوداعة، وروعة الخَلق ما إنْ تَرَهُ يَملِكْ عليك شعورَك كله، يذبحونها شَعيرةً يذكرون فيها نعم الله عليهم:

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ . . ﴾ [الحج: ٢٨].

فلننظر في تلك الحكمة العظيمة، والرمز الكبير، في التضحية بالأضاحي في شعيرة الحج، والعيد الكبير، عيد الأضحى، الذي جاء اسمه عَلَماً على تلك الشعيرة.

ولقد رأى الخليل إبراهيم (ع) في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، ورؤيا النبي غير رؤيا الناس، ويخبّر إبراهيمُ إسماعيل بذلك فيقول: ﴿ . . يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ويُعدّان للذبح فيجيء أمر الله إلى إبراهيم: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ . وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصّافات: ١٠٥ ـ ١٠٧].

أكملَ إبراهيمُ وإسماعيلُ بناء بيت الله، وجاءت ذكرى ذبح إسماعيل، فقام كلٌّ منهما بذبح كبشٍ فداءً لله وشكراً له تعالى على رحمته بهما وطافا بالبيت والمسلمون حولهما وأصبح ذلك اليوم عيداً يذكرونه كل عام بالذبح والفداء والطواف حول البيت(١).

هل هناك أعزّ من الروح، روح الإنسان، على نفسه هو؟ لا أعَزَّ منها إلاّ الله تعالى ورسوله. لقد استعد إبراهيم (ع) للتضحية بابنه إسماعيل (ع)، ووافق إسماعيل، فيا لها من تضحيةٍ ما بعدها تضحية.

ولئن كانت شعائر التضحية في الحج تذكّرنا بذلك الموقف، وتخلّده، فإنّها أيضاً ترسم صورةً باقيةً أمام أعيننا، صورة تضحيتنا بالأضاحي، وصورةَ أنْ قد جعل

(١) «الخليل إبراهيم»، لحامد عوض الله.

الحقُّ تبارك وتعالى بهيمة الأنعام تحت يد بني الإنسان، يستبيح حياتها، في حلال، مصدراً لطعامٍ وغير طعام، على وجه الأرض، تكرمةً منه وفضلاً.

وهكذا نكتشف علّة ذكر كل الديانات السماوية، وبنص الآية (٣٤) من سورة «الحج»، ذكر اسم الله تعالى عند الذبح.

* * *

حقاً إن الحياة، مقرونةً بالصحة، لهي نعمةٌ جميلةٌ، رائعةٌ، ثمينة، وهي لا يقدّرها حقَّ قدرها إلاّ الذين يُحْرَمونها من مرضٍ أو موت. ثم إنها أمانةٌ، وأيّةُ أمانةٍ، في أعناقنا.

إن هذه النعم هي إعلانٌ على خَلْق الخالق، وقدرة القادر، مثلما أنها آياتٌ على عظيم لطفه، وكبير آلائه، وواسع رحمته بعباده من بني الإنسان.

* * *

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا . . ﴾ [البقرة: ٢٩].

وصدق الله العظيم.

ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون

١ ـ ﴿.. وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٢ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

٣ ـ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

٤ ـ ﴿.. وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

٥ ـ ﴿.. وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

٦ ـ ﴿.. وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

٧ ـ ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

هذه سبع آياتٍ تنتهي كلها بقوله تعالىٰ: (لو كانوا يعلمون)، وهي كلها تتحدث على العقاب والثواب في الآخرة. أما الآية التي ذكرت بيت العنكبوت فهي أيضاً تدل على الحصاد المرّ الذي يناله الكافرون الذين أرادوا أن يعتزّوا بغير الله فباؤا بالخُسران المبين، فهم كبيت العنكبوت الواهن سرعان ما يتهاوىٰ، وكذلك تتهاوىٰ أحلامهم وأعمالهم.

وتصف هذه الآيات الجزاء بأنه أعظم مما يظنه الإنسان، فهو شيء لا يتوقعه الكافرون ولا يعرفونه حقّ المعرفة، فكأنهم لم يعرفوه. وهكذا يتشابه الثواب والعقاب يوم القيامة في أن كليهما أعظم مما يعرفه الإنسان.

وجاء في (٢٤) آيةً غيرها ما يلي:

الآية	عدد المرات
(.. ولكن أكثرهم لا يعلمون)	٩
(.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون)	١٠
(.. بل أكثرهم لا يعلمون)	٥

ونرىٰ من هذه الآيات أن أكثر الناس لا يعلمون الحقيقة، حتىٰ لو هم ظنوا أنهم يعرفونها، إذ إن الظن لا يُغني عن الحق شيئاً.

ونأتي علىٰ الآية التي ذكر تعالىٰ فيها بيت العنكبوت وما بعدها في الموضوع التالي.

بيت العنكبوت

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ. إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ. وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ـ٤٣].

يتفرّد العنكبوت عن كل ما سواه من حيوان بنسجه لذلك النسيج الرقيق الدقيق الذي يتّخذه بيتاً يسكن فيه، ثم هو يتخذه وسيلةً فريدة لعيشه وغذائه من خلال جعله مصيدةً يصطاد بها ما شاء من الحشرات والهوام، ومخزناً أو قل محبساً يحبس فيه فرائسه حتىٰ يحين وقت أن يجعلها وجبةً له. إن العنكبوت، من خلال بنائه لتلك الخيوط الدقيقة، آيةٌ من آيات الله يعجز عن تفسيرها دعاة التطور «الدارويني».

قال الشيخ مغنية: جاء في كتاب «القرآن محاولة لفهم عصري» ـ للدكتور مصطفىٰ محمود ـ ما شرحه وتوضيحُه: كشف العلم الحديث أن الإنسان لو اتخذ لنفسه خيمةً من خيوط الصلب بدقّة خيط العنكبوت لكان بيتها بالنسبة إليها أقوىٰ ثلاثة أضعاف من خيمة هذا الإنسان بالنسبة إليه، ومعنىٰ هذا أن بيت العنكبوت حصنٌ حصين، ولكن إذا تحصّن به الإنسان والتجأ إليه يكون هذا الحصن «العنكبي» بالنسبة إليه لا شيء على الإطلاق تماماً كما لو تحصّن بالضياء أو بالهواء.. وهذا شأن من اعتزّ بغير الله، وتوكل علىٰ سواه».

ولكن قد تكشّفَت للعلماء حقيقةٌ غريبةٌ تلقي ضوءاً جديداً وتعطي بُعْداً مُعجِزاً آخر للآية الكريمة.

وأقول بدايةً إن أمر نسيج العنكبوت له ظاهرٌ وباطن.

١ ـ فالظاهر الذي يبدو لنا من أمر نسيج العنكبوت، والمشهور بين الناس، أنه نسيجٌ ضعيف، وضعيف جداً. إذ إنه، وبسبب دقّة خيوطه البالغة، ما أسهل أن يُزيله الإنسان أو يمزقه، وهي بديهية معروفة.

٢ ـ وأما حقيقة نسيج العنكبوت فإنها، وبالنسبة إلىٰ دِقّة خيوطها البالغة، تعتبر قويةً مقارنةً بغيرها من الخيوط ذات السمك المشابه، ولقد ذكروا أن بعض أنواع العنكبوت تحفر لنفسها شقوقاً في الأرض وتغلّفها بنسيجها، ثم هي تصنع، وبمهارةٍ كبيرة، غطاءً لها يمكن أن تفتحه هي عندما ترغب في ذلك، وأن من الصعب جداً رفع هذه الأغطية إذا كان العنكبوت في داخل الشق مُمسكاً بالغطاء يمنعه من الانفتاح، ولقد وُجد أنّ هذا النوع من العنكبوتات يمكنه أن يقاوم فتح هذا الغطاء ضد قوة سحب تصل إلىٰ نصف الكيلوغرام ـ وهو ما يعادل قوة سحبٍ للإنسان تبلغ عشرة أطنان.

* إذاً فنسيج العنكبوت، فيما يراه الإنسان، واهٍ جداً، ويسهل تمزيقه.

* وأمّا في حقيقته، وبالنسبة إلىٰ دقة خيوطه أو فيما يؤديه من أغراضٍ للعنكبوت، فهو قويٌّ تماماً.

فما هو قصده سبحانه من ذكر بيت العنكبوت[1] والتمثّل به في شدة الضعف؟

---

(١) يوجد من العنكبوت حوالى ٣٠,٠٠٠ نوعٍ، وهي تتميز عن باقي الحشرات بخصائص مميزة تشترك فيها، ومنها:
* أن لها غدداً في بطنها تقوم بإفراز خيوط حريرية دقيقة تكوّن نسيج العنكبوت، تقوم بعدئذ بطلائها بمادة لاصقة، ثم تركن إلى المركز من بيتها أو على مقربةٍ منه تنتظر وقوع فريسةٍ من الحشرات في هذه المصيدة التي تلتصق بها، ثم هي تقوم بتقييد الفريسة بخيوطٍ أخرى.
* بعد أن تقوم العنكبوت بعصب الفريسة بحزم من خيوطها تقوم بقتلها بوساطة زوج من كلاليب تشبه الكمّاشة، والتي تصبّ فيها غددٌ تفرز سُماً. بعد أن تقتل العنكبوت فريستها من الحشرات بهذه الطريقة فإنها تتغذّى عليها بالطريقة التالية:
تقوم العنكبوت بامتصاص السوائل المكوّنة لجسم الحشرة على شكل عصيرٍ من طريق الفم، وتسمى معدة العنكبوت بـ«المعدة الماصّة» لأنها تمصّ العصير من الحشرة المقتولة عصراً. =

١ ـ هل إن المقصود به التمثّل بضعف نسيجه فيما نراه، وبمقياسنا نحن؟

٢ ـ أم إن المقصود به أن نسيج العنكبوت، أو بيتها، هو بيتٌ واهٍ لها جداً؟

فأما ضعف نسيجها البادي فهو من البديهيات المعروفة. ولكن، إذا كان هذا الأمر يبدو «حقيقةً بديهية» فإنه لا يُعقَل أن يتحدىٰ تعالىٰ به الكفار باعتباره مما لا يُعْلَم. نستنتج من ذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن المقصود بالآية غير المعنىٰ الأول، أي أن المقصود بالوهن، أو الضعف، هو أنه بيتٌ ضعيف جداً للعنكبوت لا أنه نسيج ضعيف بالنسبة إلى الإنسان.

فالله تعالىٰ يتكلم هنا علىٰ من قد اتخذوا أولياء من دونه، وهو يضرب المثل ببيت العنكبوت في شدة ضعف هؤلاء، إذ إنهم، كلهم، ليسوا شيئاً أمام الله تعالىٰ.

ولكن كلمة «البيت» لا تساوي تماماً، في المعنىٰ، كلمة «الدار». فالبيت، في «المعجم الوجيز»، هو: ١ ـ المسكن.

٢ ـ بيت الرجل: أسرته.

والدار: ١ ـ المحل يجمع البناء والساحة.

٢ ـ المنزل الآهل بالسّكّان.

= فيا لها من طريقةٍ رهيبة حقاً تلك التي تمسك بها العنكبوت فريستها، فهي لا تلتهمها، مباشرةً، كبقية الحشرات، بل هي تدعها تسقط في المصيدة التي تلتصق بها حيّةً من دون إمكان حركةٍ أو هروب، ثم هي تشدّها وثاقاً من قبل أن تحقنها بمادةٍ سامة تقتلها، ثم هي غذاؤها الوحيد أن معدتها تمتص سوائلها امتصاصاً.

ومن أنواع العنكبوت نوعٌ أسود يدعى بـ«الأرملة السوداء» (Black widow)، وهي سمّيت كذلك لأنها، كبقية أنواع العنكبوتات، تفترس زوجها بعد اقترانهما مباشرة. والخوف من عضة العنكبوت شائعٌ بين الناس، حيث أنها كلها تقريباً تمتلك كلاليب تفرز السمّ، وهي تتسبّب في حدوث بعض الألم في موقع العضّة، وأما «الأرملة السوداء» فهي تسبب آلاماً عظيمة، وقد تنتهي بالموت.

وإذا كان ما تفرزه العنكبوت حريراً، فلِمَ لَمْ تتمّ الاستفادة منه؟ فكّر العلماء في الاستفادة منها لصنع الحرير، إلاّ أنهم تركوا المحاولة بعد أن اكتشفوا أنهم يحتاجون إلى ٦٧٠,٠٠٠ عنكبوت من أجل إنتاج أقل من ١/٢ كيلو غرام من الحرير.

فالبيت أوسعُ معنىً من الدار، وقد يعني أيضاً الأسرة التي تسكن المبنىٰ. فيصير المعنىٰ أنّ الكَفَرَة، في استنادهم علىٰ مَنْ يعبدون مَنْ هم دون الله، هم كَمثَل العنكبوت اتخذت بيتاً واهياً جداً.

وفي قوله تعالىٰ: (لو كانوا يعلمون) فإن حرف (لو) يفيد الامتناع، أو النفي، أي عدم تحقق العلم.

فوهن بيت العنكبوت هو أمرٌ غير معروف بالنسبة إليهم، أي: لو كنتم تعلمون حقيقة الأمر لعلمتم كم هو واهٍ ذلك البيت، ولكنكم لا تعلمون.

ولكن إذا كان بيت العنكبوت، في كتاب الله تعالىٰ، واهياً جداً، فما هي حقيقة هذا الوهن، إذا نحن قلنا بأن خيوط نسيج العنكبوت، بالنسبة إليها، هي قويةٌ جداً؟

إن كتاب الله مليءٌ بالأسرار العميقة المعجزة.

ومن عظمة هذه الآية أنها لا تنفي أمر معرفة حقيقة وهن بيت العنكبوت كليةً، إذ إنها جاءت علىٰ نحوٍ يشير إلىٰ أنه أمرٌ يغلب عليه عدم العلم به وأنها قد تكون ممكنة في وقتٍ ما.

ووجود (إنّ) في قوله (إنّ أوْهَنَ البيوت) تأكيدٌ آخر على شدة وهن بيت العنكبوت.

ولكننا قلنا بأن «البيت» قد يعني «المبنىٰ» أو المسكن، كما قد يعني الأسرة. فلننظر إلى كلٍّ من هذين المعنيين لبيت العنكبوت.

١ ـ فأمّا أنه مسكن فلقد عرف العلماء أن النسيج اللاصق الذي تحيكه العنكبوت ثم تستقر، غالباً، في المركز منه منتظرةً أن تعلق فريستها به، أن هذا النسيج العنكبوتي لا يدوم لأكثر من ليلة واحدة ثم إنه يصير خِرَقاً بالية عند الفجر.

فيا له، إذاً، من بيتٍ واهن ذلك البيت الذي لا يدوم إلاّ ليلةً واحدة أو أقلّ.

٢ ـ وأمّا أن المقصود ببيت العنكبوت عائلتها وأسرتها فإن العنكبوت تتميز،

في العادة، بصفةٍ لا مثيل لها بين الأحياء، فأُنثاها هي في منتهىٰ السوء تجاه زوجها. وقد يتبادر إلى الذهن أنها قد تهجر زوجها من بعد فترةٍ من الزواج، أو هي يمكن أن تؤذيه، أو حتىٰ أن تقتله.

بل وشَرٌّ من ذلك كله في حقيقة الأمر.

إنها تفترس زوجها، وتلتهمه التهاماً، من بعد التقائهما مباشرة.

فيا لها من نهاية مفجعة لأسرةٍ هي في أول أطوار تكوّنها، بل هي أسرةٌ لم تتكون بعد. ويا لها من صورةٍ حالكة بائسة.

إن ذَكَر العنكبوت يبتني بيتاً من نسجه، ثم هو يبتدىء في تكوين أسرةٍ له بالزواج، ولكن ما أسرع أن ينهدم ذلك البيت، وتلك الأسرة، علىٰ ذلك النحو المفجع والمفاجىء!

وهل بعد أن تقتل الزوجةُ زوجها بافتراسه، من بعد زواجٍ، رأساً، من بيت؟ أو من عائلة؟! ألا إنّه لا بيتَ ولا أسرة ولا حياة لزوجٍ قد افتُرِس في ليلة عرسه! ولا وليَّ ولا بيت ولا أسرة ولا حياة، في حقيقة الأمر، للزوجة التي افترست زوجها في تلك الليلة.

وذلك هو بيت العنكبوت.

إنه الوهن الشديد المضاعف.

هو وهنٌ من ناحيةٍ ماديّة، ومن ناحيةٍ معنوية أدبية أخلاقية أيضاً.

وذلك هو مَثَلُ مَن اتخذوا أولياء مِن دون الله: هم كَمَثَلِ بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون.

ثم يقول تعالى في الآية ٦٤ من سورة العنكبوت: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾، وهي تدل

= مصدر: Collier's Encyclopedia, Vol. 21 (1983), P. 437-441.

دلالةً صريحة علىٰ أن الحياة الدنيا ليست بالحياة الحقّة، إنما هي لهوٌ ولعب، ليس أكثر. والذي يمرّ وينقضي سراعاً هو في حقيقة الأمر كمن لم يكن، ووجود الإنسان في هذه الدنيا، مهما طال، وعلىٰ ما فيه من أوضارٍ وأوزار، محدودٌ وزائل. وإنما مَثَلُ الدنيا بالآخرة كَمَثَل الممرّ الذي يؤدي إلى المقرّ الدائم، وشتّان ما بين الاثنين. فالحياة الآخرة، في الجنّة، هي الحياة الحقّة، ذلك لأن الجنّة ليست كالدنيا في شيء، فهي خالية من كل ما فيها من منغّصاتٍ وهموم، وعللٍ وأمراض، ونزاعاتٍ وحروب. ثم إن فيها كلَّ حَسَنٍ جميل، لا بل أحسن وأجمل، إذ إن «فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ علىٰ قلب بشر».

ثم إنها دار الخلود.

وتشير الآية ٤١ إلى أن الكافرين لا يعلمون أنّ مَن اتّبعوهم وأطاعوهم هم كلا شيء، فكأنهم في بنيانٍ علىٰ شَفا جُرُفٍ هارٍ، لا بل هم على شفا حفرةٍ من النار.

كما تشير الآية ٦٤ إلىٰ أن الكافرين كذلك لا يعلمون أن الآخرة، لو كانوا قد قدروها حقّ قدرها واستعدّوا لها، أنها هي الحياة الحقّة.

إن الكافرين لا يعلمون حقيقة الحياة الآخرة في وجودها وجزائها وخلودها حق المعرفة، وكذلك هم لم يعلموا حقيقة الحياة الدنيا في سرعة زوالها وانصرام أيامها وتقضّي ملاذّها ونعيمها.

هم لم يعلموا حقيقة الحياة الآخرة.

لا ولا هم قد علموا حقيقة الحياة الدنيا.

فكأنهم لم يعلموا شيئاً قطّ.

وذلك هو الخسران المبين والحسرة التي ما بعدها من حسرة.

في النمل مطامنةٌ من كبرياء الإنسان

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

جاء في مجلة عالم الفكر[١]، في مقالٍ مطوّل بعنوان «لغة الحيوان»: «استمر العلماء العديد من السنوات وهم يحاولون تفسير سلوك الحيوان، حتىٰ استطاع علماء هذا العصر متعاونين أن يحلّوا ما استعصىٰ على من سبقهم، وأنشأوا علماً جديداً، سموه علم سلوك الحيوان وأثبتوا أن لكل صنفٍ من الحيوانات والحشرات طريقةً خاصة في التفاهم». قال مغنيّة تعليقاً على ذلك: «وهذا بالذات ما نطق به القرآن منذ ١٤٠٠ عام أو أكثر، فمن أين جاء محمدٌ (ص) بهذا وبما هو أعظم إن لم يكن من عند الله؟». وقال تعقيباً علىٰ النملة التي تدافع عن جماعتها وتريد منع الأذىٰ عنها: «نملة لا تقتحمها الأعين تخاف علىٰ رعيّتها أو جماعتها من الأقوىٰ ومن أي أذىٰ، فتبذل ما في وسعها من جهد لصيانة أمّتها وسلامتها، وسَجَّل ذلك سبحانه في كتابه، عسىٰ أن يعتبر ويتّعظ كل من بيده زمام أمرٍ من الأمور: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٨٩]، صرّف لهم من كل مَثَلٍ، حتىٰ بالنمل والذباب».

لقد جاءت السورة ٢٧ من كتاب الله تعالىٰ باسم «النمل»، والنمل هو من أصغر الحشرات وأضعفها، وهو أكثرُ ما يراه الإنسان مِنْ حشرة. والنمل، في أغلب مراحل حياته وأصنافه، لا يطير، فهو إذاً محرومٌ، وإلىٰ حدٍّ بعيد، من إمكان الفرار السريع

(١) العدد ٢ من المجلد ٧.

من الإنسان كالذي تمتاز به الطيور. وما أسهل وأكثر أن يدوس إنسانٌ علىٰ نملة أو مجموعة من النمل فيسحقُها. والنمل طوائف عظيمةٌ تعيش في مستعمرات، وهي تُشْتَهَرُ إلىٰ ذلك بحبّها للعمل، وجدّها، وبقوّتها مقارنةً بجسمها الضئيل. لقد اكتشف العلماء أن النمل، والذي هو أضعف وأضأل ما يراه الإنسان ممّا يدبّ على سطح الأرض، يقوم بتخليص جوف الأرض، من خلال عمله الدؤوب، من بقايا جسم الإنسان، من بعد موت. فانظر إلىٰ العبرة في تسلّط أضعف ما في الأرض على أقوىٰ ما فيها، أو هكذا نحن نظنّ أنفسنا! وإنها لَعِبرةٌ للإنسان تستحثّه على أن يُطامِنَ مِنْ كبريائه الكاذبة، ويحدّ من جبروته الزائف تجاه بقية خَلق الله، كل خلق الله! إن النملة أقوىٰ من الإنسان، وأكثر حبّاً للعمل وجداً منه. وإن في ذلك لَعبرةً أيضاً.

الإبلُ والنّخلُ وأعاجيبُ الخَلق

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ [ق: ١٠].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧].

عُرِفت بلاد العرب، منذ قديم الزمان، وفي مناطق واسعة منها، بالبيداء. وهي ما إنْ أردتَ أن تَصِفَها فهي فيها إثنان لا بدّ منهما في كل صحراء، وهما الإبل والنخل. لقد اختصَّ تعالىٰ دار الإسلام بالنخل، متفرّداً عن النباتات كلها بخصائص كثيرة، وبالإبل متفرّدةً كذلك عن الحيوان جميعاً، ولقد جعلهما آيتين للناس بأعاجيبهما، وطلب منهم أن ينظروا فيهما ويتفكّروا في عظمة خالقهما الذي وهبهما لهم.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ..﴾ [الأنعام: ١٤١]. ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ[(١)] خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ . وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ . وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ٥ ـ ٧].

وما رأيتُ النخل والنخيل في كتاب الله إلاّ وقد قرن تعالىٰ معها الزرع، هكذا عامّاً مطلقاً، أو مخصّصاً، كذكر الفاكهة أو الرمّان أو الزيتون والأعناب. فكأنّ الفاكهة بل المزروعات كلها في جانب، يقابلها النخل وحده من الجانب الآخر.

---

(١) الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم.

جَرِّدْ بلاد العرب من الإبل والنخل لا تَعُدْ تُعْرَفُ مِن العرب والعروبة في شيء، وهما فيهما من آيات الرحمن ما لا يوصف، إلاّ أن تراهما عن قربٍ وتعيش معهما عن كثب، حتىٰ تعرف بعض أسرارهما. حقاً إن في كلٍّ من الإبل والنخل صفاتٍ واضحة تتميز بها عما سواها. انظُرْ إلى الجمل مثلاً، ذلك المخلوق العظيم الجسم، والذي لا يُدانيه، من غير الحيوانات المفترسة أو المتوحشة حيوانٌ آخر في كِبَرِ حجمه، ثم انْظُرْ إليه في وداعته الآسرة وجماله الفتّان مِنْ مخلوقٍ قد ذَلّله تعالىٰ للإنسان. وانْظُرُ إلى الطفل الصغير وهو يجرّ بالزِّمام جملاً عظيماً ينقاد له مستسلماً راضياً، وخاضعاً طائعاً، لا طاعة المخلوق الذليل المحتقر، بل طاعة المخلوق الكريم المهيب الذي يملؤك بالهيبة منه والإكبار له. أنْظُرُ إليهما فأكادُ أرىٰ الطفل وقد صار رجلاً، والجمل وقد صار طفلاً ضئيلاً من فرط إذلال هذا لذاك بالانقياد وتمكّن الأخير منه بما يسيِّرُهُ معه حيث يشاء. ويُشير إليه بهزّةٍ خفيفة فيبرك، وأخرىٰ فيقوم، وهكذا. والإنسانُ يتّخذه مطيّةً، أو سفينةً للصحراء، يركبها لتقطع به المسافات البعيدة من بلدٍ إلى بلد، لا تشكو من هَجِير[1] ولا يَرْهَقُها ظمأ، ثم هو يحلب ناقته، أو يذبحهما، وهو في الأحوال كلها منقادٌ له، مُسْلِمٌ له نفسه وكل ما يملك من طاقات، بل وذلك الجسم العظيم، بكل ما فيه من أعضاء، وأحاسيس، ومشاعر، كل ذا هو في تصرّف ذلك الطفل الصغير. حقّاً إنها بعضٌ من الأمانة التي أودعها تعالىٰ تحت تصرفنا نحن بني الإنسان. لقد حُزْنا كل ذلك، كرماً منه تعالىٰ وفضلاً، وهو بعضٌ من آلاء الرحمن التي لا بد من أن نتفكر فيها. ثم هو امتحانٌ لنا ينظرُ تعالىٰ كيف نحن نفعلُ فيه.

ثم انظُرْ إلى النخلة، تلك الشجرة الصبورة المعطاء التي تفرّدت في شكلها بين النباتات كتفرّد الجمل في شكله بين الحيوانات، والنخلةُ لا يدانيها من بين النباتات إلاّ الجمل من بين الحيوانات في الجَلَد والصبر. وأعْجِبْ بها من شجرةٍ كريمةٍ قد وصفوا لها شبهاً عجيباً بالإنسان[2]. وهي ربيبةُ ابن النَّعْماء مثلما هي حبيبة ابن

---

(١) الهجير: نصف النهار في القيظ خاصّة.

(٢) فهي يُقارب عمرها عمر الإنسان، ولها جذعٌ واحد، وإذا قُطِعَ رأسُها فإنها تموت، كما أنها تتكاثر بنقل حبوب اللقاح، أو حبوب الطلع، من ذكرٍ لأنثىٰ.

الصحراء ورفيقته أينما سار، تَحْدِبُ عليه بالظِّل، وتحنو عليه بالمحبّة، وتُرضعه من لِبان جَمالها ودلالها، وتسكب فيه من روحها الطيّب الحنون ما لا يوصف، وتوصله من خلال حبلٍ سرّيٍّ بأسرارٍ للخَلْق والكون ساحرةٍ لا تُعَدّ.

ذلك فوق أنها تهبه من رزقها اليانع رُطَباً يصيرُ تمراً، وغير رُطَبٍ، وهو كثير. هي تُعطيه عُصارة روحها مُذْ هي غَضَّةٌ يانعة تقارب سطح الأرض في طولها وحتىٰ أن تصير شجرةً عملاقةً باسقة تشقّ عنان السماء، تعطيه الكثير الكثير بما لا يكاد يحتاج معه، في ضروريّاته، إلىٰ شيءٍ آخر من مأكلٍ وملبسٍ ومسكن ومنافع أخرىٰ كثيرة، وهي في تمرها أصناف ونكهات ومذاقات كثيرة.

وهل إنّ بنا للإبل، والنخيل، أو غيرها من حيوان ونبات، مِن حاجةٍ إليها، ماسّة، ترقىٰ إلىٰ درجة الضرورة التي لابد منها؟ الجواب: إن ما فيها مما نعلمه من مواد غذائية يوجد في غيرها، ولكنها نِعَمُ المولىٰ السابغةُ علينا، وبأكثر ممّا نحتاج، بل وبما يجعل حياتنا جميلةً، رائعة، ثمينة. وحين نذكر ذلك نذكر الخالق الرازق الذي خلقه لنا ويسّره تفضّلاً منه ومِنّة.

وٱنْظُرْ إلى ما حولك، في الأرض، من مخلوقاتٍ، على كثرة أصنافها التي لا تُعَدّ، تَرَها في روعة الخَلْق فيها، وفي وداعتها البالغة الآسِرة آيةً في اللطف والجمال، وهي مهما كَبُرَ حجمُها أو فاقت قوّتها فهي كلها تحت رحمة الإنسان في حقيقة الأمر، فهي أضعف منه مهما بدا لنا غير ذلك، وآية ذلك أنّ الإنسان يسيطر عليها بالذبح، والقتل، والحبس، والإيذاء، وإجراء «تجاربه» التي لا تعرف لها من نهاية، لا بل هو قد يسبب انقراضها من الوجود. ولئن عرف الناس من بعض الحيوانات ما قد أسمي بالحيوانات الوحشية، إذ هي تقتات على لحوم فرائسها، فإنها ليست الوحيدة في ذلك، لأن الناس يشاركونها في هذا الأمر![1]. ثم إن في هذه الحيوانات من أسدٍ، ونمر، وغيرهما، وداعةً آسِرَة، وجمالاً رائعاً يعلن عن خَلْق

(١) لا تفترسُ هذه الحيوانات غيرها إلاّ في حالة الجوع إذا نفد ما عندها. ثم إنها لا تفترس، أو تقتل، في الوقت الواحد، أو الوجبة الواحدة، إلاّ بقدر حاجتها، وهي لا تقتل حيواناً من نوعها نفسه إلاّ في ما ندر. ويخالفها الإنسان في أنه قد يقتل من دون سبب، أو حاجة، ومن عادته عند إيقاع الأذى أو القتل أن يُسرف في ذلك، وهو لا يتورع أحياناً عن قتل بني نوعه أو حتى بني رحمه!

الخالق، وكمال تدبيره، وجمال صُنعه، مما لا تُخطِئُه عين، ولعل في ما قد ذكرناه سبباً أو أسباباً لتعلّق الكثير من الناس بالحيوان.

إن كل ما في الوجود لَهُوَ آيةٌ في الروعة والجمال، وهو آيةٌ علىٰ كمال خَلْق الخالق. إن الجمال يحيط بنا ويغمرنا حيثما قَلَّبْنا أنظارنا، وآياتُ الله تعالىٰ لتبهرنا وتملك علينا كل أحاسيسنا، فنقف أمامها مشدوهين، نُسَبِّحُ، ويُسَبِّح معنا كل شيء، للخالق سبحانه على نِعَمِه وآلائه، مُتَغَنِّينَ بروائعه. إن النفس المؤمنة ذات القلب الصافي لهي تستشعر روعة الجمال في كل شيء، وأنّىٰ وَلّت وجهها. وعَمِيَت عَيْنٌ لا ترىٰ الجمال في الوجود، كل الوجود، أو لم تستشعر الجلال الغامر، والجمال الباهر، الذي يَلُفُّ كل شيء، ويحكي صنع الله وإبداعه.

والجَمالُ في المحسوسات، تستشعرهُ النفسُ فتسعد به وترتوي، ينبغي ألاّ يصرف الإنسان عما وراء هذا الجمال، وأعني به جمال الروح وجلالها، والذي يُغدِقُ من المحبّة والخير على كل من حوله وما حوله. ثم إن كل هذا وذاك إنْ هو إلاّ تسبيحٌ بالآء الله تعالى وتقديسٌ له.

ولقد خلق الحقُّ سبحانه من صنوف الجمال، في الطبيعة والمخلوقات، ما إنْ صَرَفْتَ عُمْرَكَ كله تبحث فيه وتتقصّاه ما أحصَيْتَه ولا أدركتَه، ولَبَقي منه، مما لم تدركه، أكثر ممّا قد أدركته.

إنّ كلَّ صنفٍ من صنوف النبات والحيوان يتميز بخصائص خاصّةٍ تميّزه عمّا سواه، وتطبعه بطابعه الخاص الذي يتفرّد به، هذا إلى أعدادها التي لا تُحصى، وأشكالها وألوانها التي لا تني تتغاير وتتنوع، مصدراً للجمال لا ينضُب. كلٌّ منها يختلف عمّا سواه، وكلها تنطق عن سحرٍ وجمال، وعزّةٍ وبهاء، وجلال وكبرياء، تنطق كلها بلسانٍ واحد بقُدرة خالقها، وتُسَبِّحُ له بالمجد، والعظمة، والكبرياء، وحده وحده.

إنك ترى كل ما في الكون متناغماً منسجماً مع نفسه ومع ما هو من حوله، على نحوٍ بديع مذهل، إلاّ الإنسان، فإنّه قد ينشزُ عن ذلك، وكثيراً ما هو يفعل ذلك. فما أجمل أن يكون الإنسان منسجماً مع نفسه ومع كل ما يحيط به من خَلْق الله في ملكوته تعالى، ومُسَبِّحاً له كما قد سَبّح له كلُّ شيءٍ طُرّاً!

يَخْرُجُ منهما اللؤلؤ والمَرْجانُ

الرحمن: ٢٢

المرجان واحدته مَرْجانة، وهو صغار اللؤلؤ.

واللؤلؤ حِلية، وهو من أسباب الجمال والترف، وتَكْرِمَةٌ من الله تعالى للإنسان، ثم إنه ضرورة لمن يعتاش على صيده وبيعه، أو هكذا كانوا. ما هو اللؤلؤ وكيف يتكون؟ هو التحجّرات الكلسية التي تتكون كنموٍ غير طبيعي في داخل صدفات بعض أنواع الحيوانات الرخوية كالمَحار.

إن اللؤلؤ الطبيعي هو الحجر الكريم الوحيد الذي يتم استخراجه من البحر، وهو يتكون نتيجةً لدخول جسم غريب إلى داخل جسم المحارة التي تنتجه، فيهيّجها، وهي لأنها لا يمكنها أن تلفظه فهي تحاول أن تقلّل من ذلك التهيّج، فتكسوه بمادةٍ لؤلؤيّة تفرزها طبقةً فوق طبقة.

وما هي المادة اللؤلؤية؟

إنها شبكةٌ من مادةٍ عضوية تسمى «الكونكيولين» تترسّب فيها وحولها بلّوراتٌ من «كاربونات الكالسيوم» التي تكوّن أكثر من ٩٠٪ من مادة اللؤلؤ.

ليس كل اللؤلؤ الطبيعي ذا منشأٍ بحري، فهو يمكن أن ينتج في رخويات الماء العذب، وغالباً ما توجد بعض أنواع اللؤلؤ الطبيعي الممتاز، وبألوانٍ رهيفة، في هذه الأنواع من المحار النهري، ولقد قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾، أي من ماء البحار وماء الأنهار.

وينتج التّلوّن القزحي والبريق الأخّاذ، الذي يُطلَب اللؤلؤ من أجله، عن انعكاس الضوء وانكساره على سطح هذا الحجر الكريم الشفاف. وأحسنُ أنواعه، وهو ذو اللون الوردي أو الأصفر الشاحب، ما يوجد في منطقة الخليج العربي، إذ هو يتكون في جسم محارةٍ صغيرة تسمّى «Pinctada vulgaris»، وتتميز كل منطقة في العالم بأنواعٍ مميّزة من اللؤلؤ يمكن أن يعرفها تجّار اللؤلؤ بيسر، وهم يثمّنونها بحسب نوعها، ويثمن لؤلؤ الخليج العربي الفاخر بأعلى الأسعار من بين أنواع اللؤلؤ الأصلي.

استنبات اللؤلؤ: قام اليابانيون، عام ١٨٩٤، باستنبات اللؤلؤ، وهم يقومون، لأجل ذلك بوضع حبّات مصنوعة أسموها «أم اللؤلؤ» داخل أجسام المحار، وبعد أن يُتْرَكَ فيها هذا العامل المهيّج فترةً من الوقت يكتسب طبقة لؤلؤية رقيقة، وقد وجد أن جزءاً كبيراً من هذا اللؤلؤ المستنبت يتكون من حبّة «أم اللؤلؤ» الصناعية هذه (أكثر من ٧٥ إلى ٩٠٪ من قطرها)، إذ إن جسم المحار يفرز حوالى المليمتر الواحد فقط من اللؤلؤ حول الحبّة، ويمكن للمتعاملين باللؤلؤ أن يميزوا، من طريق النظر، غالباً، اللؤلؤ الطبيعي عن ذلك المستنبت.

فانظر كيف قد سَخَّرَ الحقُّ تبارك وتعالى هذه المحارة الصغيرة تُنتجُ ذلك اللؤلؤ الرائع الجميل، ومنه رزقٌ لمن يصطاده كثير، ثم تزدانُ به من بعد ذلك وتختال.[١]

---

(١) مصدر: Collier's Encyclopedia, Vol. 18 (1983), P. 517

تسخير البحار

﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ . . ﴾ [الجاثية: ١٢].

يرقد ما يقرب من $\frac{3}{4}$ سطح الأرض تحت مياه المحيطات التي يبلغ عمقها، في المعدل، ٤ كيلومترات، وتوجد أعمق بقعة في مياه البحر في «خندق تونغا» في جنوبي المحيط الهادىء حيث يزيد عمقها على الـ١٠ كيلومتر، وهو ما يزيد على ارتفاع جبل «ايفرست» بحوالى كيلومترين اثنين، بينما يمتد الهواء الجوّي في غلافٍ حقيقي يحيط بالأرض، وبما يمتد إلى مئات الكيلومترات، وكلاهما مسؤولٌ عن المحافظة على بيئة الأرض. فهواء الجوّ يسوق دورات المحيط العظيمة، كما يؤثر بقوةٍ في خصائص البحر، وبالمِثل فإن الغلاف الجويّ يدين بطبيعته إلى المحيطات، وهو يستمدّ طاقته منها، وإن الرياح، ودوران الأرض حول نفسها، والموانع الأرضيّة الطبيعية كلها عوامل تؤثر في دورة الحياة في المحيطات، وبطريقةٍ لم تُفهَم جيّداً بعد. إن كثافة ماء البحر هي أكبر بقليل من كثافة الماء العذب (١,٠٣ مقابل ١ غم/ سنتمتر مكعب)، وهو ما يجعل السباحة في مياه البحر أكثر يُسْراً، كما أن لزوجته المنخفضة وتوتره السطحي العالي يساعدان على انسياق السفن والسابحين فيه، كما أن ماء البحر لا يلتصق بالأسطح، بل هو يبتعد عنها بسهولة. ويرجع لون سطح الماء الأزرق إلى بعثرة ضوء الشمس الناتجة عن الدقائق المعلّقة في الماء.

تحتوي البحار على أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نوعٍ من مخلوقاتٍ لا يكاد أن يُتَصَوَّر مدى تنوّعها، وتوجد معظم أحياء البحر في مياهه الضحلة نسبياً حيث يصلها ضوء الشمس الذي يسمح لعملية «التركيب الضوئي» بالحدوث. تتراوح الأحياء في مياه

البحار ما بين النباتات المجهرية ذات الخلية الواحدة، والحيوانات بالغة الصغر، وبين الحيتان التي قد يصل طولها إلى أكثر من ٣٠ متراً، وهو ما يفوق طول الديناصورات التي وجدت على سطح الأرض سابقاً.

إن أبسط أنواع هذه المخلوقات هو «البلانكتن» (Plankton)، وهي نباتات وحيوانات مجهرية هُلامية القوام تتحرك عبر طبقات ماء المحيط المضاءة وكأنها عشبٌ طافٍ. يقوم «البلانكتن» النباتي الذي يكثر في طبقات المحيط العليا بتجهيز ما يزيد على ٩٠٪ من المادة العضوية التي هي أساس الحياة في الماء، وهو يصنعها باستخدام ضوء الشمس والمعادن ومواد مغذية أخرى. تقوم أنواع من «البلانكتن» الحيواني بالتهام هذه النباتات، ثم هي بدورها تصير طعاماً للحيوانات التي تعيش تحتها. وهكذا فإن هذه الدورة تتكرر في أعماق متعاقبة، وحتى قاع المحيط حيث تعتاش الحيوانات اللافقرية مثل «الإسفنج الزجاجي» على النُّثار المتواصل الذي يرتشح إليها من أعلى.

ومن فوائد البحار * أنها مصادر ممتازةٌ للغذاء، ولقد اصطيد ٧٠ مليون طن من البحر عام ١٩٧٥، وأكثر من ٩٠٪ منها على شكل أسماك، والباقي منها حيتان، وقشريات كالسرطان والروبيان وجراد البحر، ومحار، وغيره.

* وهي مصادر للمعادن، علماً بأن كل ما يوجد من المعادن في اليابسة يوجد في ماء البحر، ومن أكثرها وجوداً في البحر: ملح الطعام، والمغنيسيوم، والكبريت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والبرومين، وكثيرٌ غيرها، كالذهب والفضة.

* النِّفط.

* وهي مصدرٌ لطاقة الإنسان لا ينفد، إلا أن توفر النفط والفحم الرخيصين قد أدّى إلى إهمال استغلال البحار لهذا الغرض إهمالاً كبيراً، ويُحتمَل أن تلعب القوة الناتجة عن تَحَدُّر المدّ والجزر، والأمواج، والحرارة، دوراً متزايداً في تلبية بعضٍ من حاجة الإنسان إلى الطاقة في المستقبل.

* ومصادر اللؤلؤ، والإسفنج، والأعشاب البحرية التي تستعمل كسماد، أو غذاء، أو كمواد تضاف إلى الغذاء، والأدوية، واليود، والصودا والپوتاس، والسماد المحضر من فضلات الطيور، والماء العذب من طريق تحلية ماء البحر.

* وهي وسيلةٌ للنقل عظيمةٌ ورخيصة.

والإنسان على شاطئ البحر، وهو لا يرى له من حدٍّ إلاّ حيث هو يلتقي بالأفق، يدرك كم أن البحر كبير، ثم هو يعرف كم هو صغيرٌ صغير، وأنه في هذه الحياة، أجيالاً من بعد أجيال، لا يُخلِّف وراءه إلاّ كمِثل ما تترك الموجة بعد الموجة من آثارٍ على سِيف البحر سرعان ما تختفي، اللهم إلاّ بمقدار ما قد عمل من خيرٍ أو شرّ يجدهما في الآخرة حاضريْن أمامه باقيَيْن في أثرهما، كمثل الموجة الصخّابة التي لا تقرّ إلى قرار، وبما لا يُدرَك في لُجيٍّ البحر العميق.

فسبحانك يا من سخّرت لنا البحار، وما فيها، على روائع الخَلْق وعجائبه التي لا تنقضي فيها.[1]

---

(١) مصدر: Collier's Encyclopedia, Vol. 18 (1983), P. 58 - 64

يرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رحمته: فرحةٌ وفرحةٌ

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

قال الشيخ مخلوف: بُشْراً: جمعُ بَشير، أي مُبَشِّراتٍ بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق. رحمته: المطر الذي به تحيا الأرض.

المعجم الوجيز: بَشَرَ به بُشْراً: فَرِحَ، واستبشرَ: فَرِحَ وسُرَّ.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ .. ﴾ [الروم: ٤٦].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨].

* يستبشر الناس ويفرحون بنزول الغيث من بعد يأسٍ وقُنوط، لأن به حياتهم وحياة النبات والحيوان.

* وهو بشرى وفرحةٌ للحيوان، وللزرع، فيهتزّ هذا ويربو، وتحيا الأرض بعد موتها، وتُنبتُ مِن كُلِّ زوجٍ بهيج ﴿ .. وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

هي فرحةٌ عند نزول المطر، ثم هي فرحةٌ أخرى عند إنباتها.

انظُرْ إلى الأرض المُوات كيف هي تنبض بالحياة، وترتفع بالنبات، فذلك دليلٌ على إحياء الموتى.

* ولقد قرأت في مجلة «المختار من ريدرز دايجست» منذ زمنٍ بعيد أن الجو المَطير تصحبه زيادةٌ في الأيونات السالبة في الجو يرافقها إحساسٌ بالسعادة عند الإنسان. وعلى العكس من ذلك، فإن الجو المُغْبَرَّ يؤدي إلى زيادة الأيونات الموجبة فيه، وهو ما يُشيع الكآبة والانقباض في النفس.

ومِن عَجَبٍ أنني قد قرأت، مؤخراً، عن «اكتشاف» جديد لذلك الاكتشاف القديم! ولا بدّ من القول إن ما قد قرأته في تلك المقالة قد وجدته، في واقع الحال، حقّاً وصدقاً.

ولم أزل أفتحُ للمطر، على ندرة حدوثه، النوافذ والأبواب، حتى أستزيد من ذلك الشعور اللذيذ الذي يزيد منه وقع المطر وهو يَسّاقط على كل شيء، مِدراراً تَهْتاناً يُغرق كل شيء، أو لطيفاً ناعماً يداعبك بألطف ما تكون المداعبة، وإنّ لصوته كذلك مفعولاً في تهدئة النفس هو كالسِّحر، ويزيد من سحرِه ندرتُه، ومن حلاوته قلّة إقباله. وهو في الحالين «غيثٌ» للنفس مثلما هو للجسد، ولكل ما على الأرض.

فانظر كيف أن المطر هنا، مرّةً أخرى، سببٌ للبشرى والفرح لم يخطرا على بال. وتلك عجيبةٌ أخرى من عجائب القرآن التي لا تفنى، وغرائبه التي لا تنقضي.

فواتح السُّوَر

الحروف المقطّعة في فواتح سور القرآن الكريم

قال بعض العلماء إنّ حروف العربية الـ ٢٨ تقسم إلى نصفين، وإن ١٤ حرفاً منها تسمى بالحروف النورانية.

ولقد استفتح الحقُّ تبارك وتعالى ٢٩ سورةً من سُوَر كتابه بنصف أسماء حروف المعجم التي هي «الحروف النورانية»، وهي: الألف واللام، والميم والصاد، والراء والكاف، والهاء والياء، والعين والطاء، والسين والحاء، والقاف والنون.

* وهذه «الأحرف النورانية» مجموعةٌ في (الرحمن. كهيعص. طس. ق).

* والمبدوء منها بالألف واللام ١٣ سورة

وبالحاءِ والميمِ ٧ سُوَر

وبالطاءِ ٤ سور

وبكلٍ من الكافِ والياءِ والصادِ والقافِ والنونِ سورةٌ واحدة.

* وبعض هذه الحروف المبدوء بها أحاديّ، وهو: صٓ، قٓ، نٓ.

وبعضها ثنائي، وهو: طه، وطٰس، ويٰس، وحمٓ.

وبعضها ثلاثي، وهو: الٓمٓ، والرٓ، وطسٓمٓ.

وبعضها رباعي، وهو: الٓمٓصٓ، الٓمٓر.

وبعضها خماسي، وهي: كٓهيعٓصٓ، وحمٓ عٓسٓقٓ. ولا تزيد على ذلك.

* ومِن عَجَبٍ أنّ عدد حروف فواتح السُّوَر، وهو ٧٨ حرفاً، يساوي عدد حروف أول ما نزل من القرآن الكريم، وهو الآيات الخمس الأولى من سورة العلق.

* وعدد هذه الحروف، من غير تكرار، هو ١٤ حرفاً، وهو يساوي عدد السور التي لا يتكرر فيها تركيب الحروف المفردة نفسه.

* والمختار في فواتح السور أنها من المتشابه الذي استأثر تعالى بعلمه، وأنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا هو، وأن في كلّ كتابٍ سرّاً، وسِرُّهُ في القرآن أوائلُ السُّوَر.

قال ابن عباس: عجزت العلماء عن إدراكها.

وقال الشعبي: هي سرّ الله فلا تطلبوه، وممن ذهب إلى ذلك جمعٌ من الصحابة.

وقال مغنية: «ورد عن أئمتنا أنه من المتشابهات والمبهمات التي استأثر الله بعلمها ولا يعلم تأويلَها غيرُه».

وقال بعض المفسرين إنها أسماء للسور، وقال غيرهم إن كل حرفٍ منها مأخوذٌ من اسمٍ من أسمائه تعالى:

ولقد رأينا في الصفحة ٣١٥ من هذا الكتاب خصائص حروف اسم (الرحمن) جلّ جلاله، وأنه تعالى قد استفتح ١٣ سورة بحروف كلمة (الرحمن).

قال مخلوف: «وأما الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السُّوَر مع قَطْع النظر عن معانيها في أنفسها فقيل: إنما ذُكِرَت في مفتتح السُّوَر بياناً لإعجاز القرآن، وأنه كلماتٌ مركّبة من حروف الهجاء التي تتألف منها الكلمات التي ينطقون بها، وقد عجز الخلق عن معارضته، فلو لم يكن وحياً من عند الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضته».

ويرى بعض العلماء الأجلاّء أن المستقبل قد يجيء بتفسيرٍ وفهم لهذه الحروف التي حيّرت الألباب، ولقد وصف الإمام علي كتاب الله بأنه لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، فهل إننا نتوقع في المستقبل انكشاف أسرار فواتح السُّوَر؟ من يدري، وكيف لأحدٍ أن يدري، ولعل في قول الإمام علي ما قد يهدينا إلى ذلك: إنّ عجائب

القرآن وغرائبه لا تفنى ولا تنقضي، وما دام الأمر كذلك فقد يمكن، في المستقبل، والله تعالى أعلم، أن يتكشّف لنا المزيد من إعجاز وأسرار هذه الحروف، ولكن قولنا إن عجائبه لا تفنى ولا تنتهي يدلّ في ذاته على أننا مهما عرفنا من معجزات القرآن العظيم وأسراره فإننا لن نُحيط بها أبداً، وفي أي زمان.

هذا ولقد علم العارفون أنّ لكل آيةٍ من آيات الله تعالى، ولكل اسم من أسمائه، ولكل حرفٍ من حروفه لَروحانيةً وقوّةَ تأثير، وأنّ للأسماء والحروف لأَسراراً.

وهذه الحروف، والأسماء، إنما قد عَلَّمَها تعالى لنا، فنحن ندين بها إليه، مثلما نحن مدينون له في كل شيءٍ، وذلك بِنَصِّ ما تَنَزَّلَ به الروحُ الأمين جبريل (ع)، على رسول الله (ص)، أوَّلَ مَرَّةٍ، في قوله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ.

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ.

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ.

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ.

عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. ﴾ [العَلَق: ١ ـ ٥][(١)].

وهل قَدْرُ ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر، إلاّ بنزول القرآن الذي هو معجزة النبي الكبرى؟

وإذا كنا لم نخترع الحروف والأسماء، بل إن الله تعالى قد علّمنا إيّاها بفضله، فإنه هو نفسه الذي خَلَقَ الأصوات، وأعضاء إصدارها في الجسم، وهو واهب العقل، ومراكز «الكلام»، و«الفهم»، و«القراءة»، و«الكتابة» بأنواعها، في الدماغ.

---

(١) في الحديث الصحيح: إنّ أول ما نزل به جبريل (ع) من القرآن على النبي (ص) وهو يتحنّث بغار حراء في شهر رمضان صدرُ هذه السورة، إلى قوله: ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ. ﴾.

ولكلٍّ من أصوات الحروف والكلمات تأثيره الخاص الذي يقع على الدماغ، ولكلٍ منها جَرْسُه الخاص الذي لا تُخطِئه الأذن، كالمفتاح الذي يفتح قفلاً هو هو ولا سواه. إنها في النهاية أصواتٌ تتكون من موجات، وهل هذه الموجاتُ إلاّ وسائل توصيلٍ، أو رسائل؟

تذهب هذه الأصوات إلى الدماغ فتقع في علم الشخص، وفهمه، وعاطفته، وهي تُثير فيه من الأفهام، والأحاسيس، والذكريات، والتداعيات، والتصوّرات، والحوافز، ما لا يُوصف ولا يُحَدّ. ولقد قيل إنّ الألفاظ أوعيةٌ للمعاني، كيف وأن اللفظ نفسه يدلّك على معناه؟ إنّ صوت كل حرفٍ أو مجموعةٍ من الحروف تَقَع في النفس موقعاً خاصّاً لا يَقَعهُ سواها، وهي كالأرقام يتألف من مزاوجتها ما لا يُحصى من المجاميع، ومن التأثيرات التي تخصها هي لا سواها.

ولقد اكتشف الأطباء أنّ في جسم الإنسان، على سطح الخليّة، ما قد أسموه بـ«المُسْتَقْبِلات»[١]، وهي أنظمةٌ خاصّة لاستلام كل ما قد يؤثّر في هذه الخلايا من داخل الجسم أو خارجه. إنّ كل «مُسْتَقْبِلٍ» هو خاصٌّ بمادةٍ، أو بمؤثّرٍ واحد لا سواه، كالقفل للمفتاح، أو كـ«القالب» أو «الطبعة» في تعرّجاتها، فهي لا تنفعل فتؤدي إلى تأثيرها الذي خُلقت له إلاّ إذا جاءتها مادة لها التعرجات والأشكال ذاتها، أي «الطبعة» نفسها، فتقع المادة المؤثِّرة على المادة المُسْتَلِمَة مُنطبقةً عليها بكل تفاصيلها، وعندئذٍ فقط ينتج التأثير المرجوّ منها. وقد هكذا تُنْتِجُ أصواتُ الحروف والأسماء تأثيراتها. وحروفُ القرآن الكريم، ومنها فواتح السُّوَر إنما هي رسائلُ موجّهةٌ من الله تعالى إلى أسماع الإنس والجن، وعقولهم. إنّها تقع على مسامعنا فتُحدِث فينا تأثيراتٍ خاصةً بها، كالقفل والمفتاح، أو كالمفتاح السّري الرقمي الذي لا يُفتَح إلاّ إذا جاءت أرقامه المطلوبة مطابقةً تمام المطابقة[٢]. هي أصواتٌ نسمعها

---

(١) Receptors

(٢) لا بل قد صارت «بصمة الصوت» حقيقة واقعةً اليوم.

فنعرفها لِنفسها عمّا سواها، وأصواتُ الحروف المقطّعة في فواتح السُّوَر تَقَعُ في أسماعنا فتتملّكُ علينا شعورَنا كلَّه لا يبقى معه شيءٌ لغيرها. نحن نحسُّ معها بالإعجاز، وبعظمة الخالق سبحانه التي لا نشعر بمثلها مع غيره، لكنها رسائلُ لا نعرف كُنْهَها أو أسرارها، اللّهم إلاّ أنّها آياتٌ على استيلاء العجز والنقص على جملة البشر.

الفهرس